نُوحٌ عليه السلام

وَالطُّوفانُ العَظِيمُ

ميلاد الحضارة الإنسانية الثّانية

© حقوق الطبع محفوظة
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من المؤلف.

• الموضوع: دراسات
• العنوان: نوح ﷺ والطوفان العظيم – ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية
• تأليف: د. علي محمد محمد الصلابي

الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠ م
ISBN 978-614-415-364-2

ISBN 978-614-415-364-2
9 786144 153642

• الطباعة : دار القماطي للطباعة - بيروت / التجليد: شركة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت
• القياس: 17×24 / عدد الصفحات: 520 / الوزن: 920 غ

DAR IBN KATHEER

دمشق - سورية - ص.ب: 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
تلفاكس: 2225877 11 963+
2228450 11 963+

بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318
برج أبي حيدر - شارع أبو شقرا
تلفاكس: 817857 1 961+
705701 1 961+
جوال: 204459 3 961+

website: www.ibn-katheer.com / e-mail: info@ibn-katheer.com

/daribnkatheer @daribnkatheer daribnkatheer daribnkatheer

نوح عليه السلام والطوفان العظيم

ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية

تأليف

د. علي محمد محمد الصلابي

دار ابن كثير

الإهداء

إلى إخوتي في الإنسانية :

الباحثون في قدوات لهم في هذه الحياة ؛ لكي يتأسوا بهم في حياتهم

ـ العقدية

ـ الروحية

ـ الأخلاقية

ـ السلوكية

ـ الفكرية

ويجدوا الأجوبة الشافية عن الأسئلة الوجودية الكبرى في حياة الإنسان

ويتعرفوا على فقه إدارة الصراع مع القوى الظلامية والشيطانية والإبليسية

فلم يجدوا أعظم من سِيَر أولي العزم من المصطفين الأخيار .

فهذه سيرة أول رسول من أولي العزم ، أهديها لبني الإنسانية أينما كانوا لمعرفة جزء من تاريخ البشرية ، والاطلاع على الحضارة الإنسانية الأولى وزوالها ، وبداية الحضارة الإنسانية الثانية بسلامها وبركاتها .

فقد تم استخراج قصة نوح عليه السلام من كتاب الله الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت : ٤٢] .

وإنها لقصة مليئة بالدروس والعِبر والفوائد والسُنن ونواميس الله في الإنسان وفي هذا الكون .

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ .

[الكهف : ١١٠]

تقديم

بقلم أ. د. علي القره داغي
الأمين العام للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

قراءة في كتاب نوح عليه السلام والطوفان العظيم
للدكتور علي الصلابي

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وعلى آله الطيبين، وصحبه أجمعين، ومن تبع هداهُ إلى يوم الدين. . وبعد:

فقد أولى القرآن الكريم عناية قصوى لسير الأنبياء والمرسلين، حتى استغرقت قصصهم وأقوالهم وأحوالهم ما يقرب من ثلث القرآن، غير أنه لم يذكرها لتثبيت قلب النبي ﷺ وأصحابه، أو للتسلية والمعرفة بها فحسبُ، وإنما ذكرها لمجموعة من المقاصد العظيمة؛ ومن أهمها:

١ ـ الاقتداء بهم، فقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ [الأنعام: ٩٠]، ومن هنا أقرَّ أن شرع مَن قبلنا شرعٌ لنا ما لم يرد ناسخ، وبذلك استوعبت الشريعة الخاتمة جميع الكليات والثوابت المحكمة في جميع الأديان السماوية؛ بدءاً من سيدنا آدم إلى خاتم النبيين (عليهم الصلاة والسلام)، فتميَّزت بأنها مألوفة لدى جميع الأديان، ولا ينكرها إلا من جحد الحقّ، وأخذته العزَّةُ بالإثم.

وقد أوضح الرسول الخاتم أن الإسلام هو دين جميع الأنبياء، وقد اكتمل بناؤه به، فقال ﷺ: «مَثَلِي ومَثَلُ الأنبياءِ مِنْ قَبْلِي كَمثلِ رَجُلٍ بَنَىٰ بنياناً فأحْسَنَهُ وأجمَلَهُ؛ إلاَّ مَوضعَ لَبِنةٍ من زاويةٍ من زواياهُ فَجعلَ النَّاسُ يَطُوفونَ بهِ، ويعجبونَ لهُ، ويقولون: هَلاَّ وُضِعتْ هَذِه اللَّبِنةُ! قَالَ: فأنَا اللَّبِنةُ، وأنا خاتمُ النَّبِيِّينَ»، رواه مسلم (٥٩٢٠) وغيره.

وقد أكد الرسول ﷺ على أنه جاء ليُتمِّم مكارمَ الأخلاق، ليتحقق انسجام الدين الخاتم مع الفطر السليمة والعقول المستقيمة، كما قدّمه رب العالمين للأمم السابقة فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، حيث إن قوله تعالى: ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾، نفهم منه أنه يأمرهم بما عرَفَته الفطرُ السليمة والعقول المستقيمة، وينهاهم عما أنكرَتْه، ويحل لهم ما استطابته، ويحرم عليهم ما استخبثَتْهُ، فهذه الآية تدل على أن كل ما أحل الله وما حرمه هو ما تدركه الفطَر السليمة والعقول المستقيمة وتُؤيِّده.

٢ ـ تأكيد أن جميع الأنبياء والمرسلين، والصالحين والصالحات السابقين، هم أمة الرسول ﷺ وأمة الإسلام والمسلمين، فقال تعالى في [الأنبياء: ٩٢] بعدما ذكرهم: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾، وأكد ذلك أيضاً في [المؤمنون: ٥٢] بعد ذكر الأنبياء والمرسلين فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾.

فهذه الآية تدل على أن أمة الإسلام هم أبناء هذه الأجيال المباركة:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جمعتنا يا جرير المجامع

وعليه فتاريخ هؤلاء الرسل والأنبياء والصالحين والصالحات هو تاريخ هذه

الأمة، وفضائلهم فضائلها، بل إن سِيَرهم كأنها سيرة نبينا محمد ﷺ؛ لأنهم قدوته وقدوتنا، وهنا تأتي أهمية هذا الكتاب الذي سطره يراع أخينا الحبيب العالم المفسر المؤرخ المفكر الدكتور علي الصلابي، مستخرجاً كنوزه من الكنز الخالد المبارك؛ القرآن الكريم.

٣ ـ استخراج العبر والعظات والسنن من سيرهم؛ من حيث النصر والهزيمة، والقوة والتمكين والضعف، وسنن التدافع، والاستبدال، وآجال الأمم، وغير ذلك مما يتعلق بطبائع الأمم، ومصائرهم، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، حيث تدل هذه الآية على ضرورة التحليل والتعليل والتبيين.

ونستطيع القول من خلال هذا المقصد: إن القرآن الكريم قد أرشدنا إلى تحليل الأخبار والقصص واستخراج النتائج والعبر والسنن، ولذلك أصّل هذا المبدأ العلامة ابن خلدون رحمه الله، واستخرج منه مجموعة من السنن الاجتماعية، بل معالم علم الاجتماع الذي استفاد منه الغرب وبنوا عليه حضارتهم، وتمكنوا بها من رقاب الشعوب المستضعفة واحتلالها.

ضرورة الدراسة الجامعة:

ومع الأسف الشديد فإن معظم الدراسات الإسلامية حول الأنبياء والمرسلين تدور حول الجانب التاريخي وذكر مآثرهم وأخبارهم، مع شيء من التفصيل الذي أُخذ في معظمه من الإسرائيليات، دون الخوض في أعماق قصصهم وتحليلها، واستخراج العبر والسنن..

ولكن الدراسة التي قام بها الباحث المفكر والمؤرخ المفسر أخي الحبيب الدكتور علي الصلابي، امتازت بمجموعة من المُميِّزات لم أرها في مجموعها في معظم الدراسات التي اطلعتُ عليها، ومن أهمها:

١ ـ الاعتماد على الينبوع الصافي والمنهل العذب الوافي، وهو كتاب الله:

﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢]، ومن سنة رسوله ﷺ.

وتلك ميزة كبرى تجعل المعلومات دقيقة موثوقاً ، بها تطمئن إليها القلوب ، وتنشرح لها النفوس ، وتسمو بها الأرواح .

٢ ـ استخراج العبر والسنن من خلال تحليل رائد وتعليل دقيق ، ودراسة وافية هادئة وهادفة .

٣ ـ شمولية الدراسة لمختلف الجوانب المتعلقة بحياة سيدنا نوح عليه السلام ، وربطها بالسابق واللاحق ، والسياق واللحاق ، فقد ربط الفترة التي عاشها سيدنا نوح عليه السلام قبل الطوفان بمجريات الأمور مما ذكره القرآن الكريم حول سيدنا آدم عليه السلام ، وخصص لهذا الربط المبحث الأول ؛ حيث تحدث عن سيدنا آدم وأنه نبيٌّ علّمه الله تعالى سبل الهداية والتوحيد ، وأنه ترك ذريته على عقيدة التوحيد والهداية ، فقال تعالى : ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه : ١٢٣ ـ ١٢٤] .

وقد أثبت الباحث أن دين التوحيد بدأ مع أول إنسان خلقه الله ، وظل قائماً على الأرض إلى القرن الذي وقع فيه الشرك ، وهو القرن الذي بعث الله تعالى فيه سيدنا نوحاً عليه السلام .

ولم يكتف بالسرد القرآني ، وربط الآيات الواردة في مجموعة من السور ، على أهميته ، وإنما حلّل واستخرج العبر والسنن وطبائع قوم نوح من كونهم مشركين ، عمين ، ظالمين ، فاسقين ، وطغاة ، متكبرين ، معاندين ، مقلِّدين ، ونحو ذلك .

واستخرج من كل ذلك أسباب نهاية الحضارة الإنسانية الأولى ؛ التي تكمن

في الصفات السابقة، كما استخرج الصفات الأساسية لسيدنا نوح عليه السلام، لتحقيق قدوته للدعاة، واستفادتهم من منهجه وأساليبه المتنوعة.

٤ ـ انطلاقه من كرامة الإنسان، حيث أثبتت الدراسة أن الإنسان الأول، آدم عليه السلام، خُلق متكاملاً بيد الله تعالى الذي نفخ فيه من روحه، وعلَّمه التوحيد، والهداية، وجعله خليفة، وكلَّفه عِمارة الأرض، ثم لما أُهبط مع زوجته إلى الأرض ظلَّ نبيّاً مُوحِّداً هادياً، وكذلك ذريته ومن تبعهم إلى عصر نوح عليه السلام، وبذلك نفى ما يُقال عن الإنسان الحجري أنه لم يكن على دين، ثم تطور الفكر الديني إلى أن وصل إلى دين التوحيد.

فالنصوص القاطعة تدل على بطلان هذه النظرية، وعلى أن الإنسان نشأ مُوحِّداً في كنف الله، وأن الله تعالى أكرمه أيضاً بأن أمر الملائكة بالسجود له، بل تدل على أن الناس كانوا أمة واحدة مُوحِّدة، فقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩].

ومن جانب واقعي فإن هذا التاريخ غَيْبٌ، وإن كل مَن تحدَّثَ عنه دون نصٍّ إلهي ثابت فحديثُه رجمٌ بالغيب، فقد قال تعالى: ﴿ ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ [الكهف: ٥١].

فبداية خَلْقنا ـ كما هو الحال في نهاية خلقنا وخلق الكون ـ خاضعة لميزان الغيب، ولا يجوز الخوض فيه إلا بعلم ممَّن خلَقَه، سبحانه وتعالى.

ومن أجمل ما في الدراسة العناية بميلاد الحضارة الإنسانية الثانية التي قامت على أسس التوحيد، والسلام، والعدالة، والإنصاف، ونحوها، لتحقيق رسالة الاستخلاف والاستعمار التي كُلِّف بها الإنسان منذ أن خلقه الله، فقال تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ [البقرة: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

والحق أنني استمتعتُ بقراءة هذا الكتاب الرائع النافع، واستفدتُ كثيراً من منهجه، وأسلوبه، ومعلوماته، وتحليلاته، ولا غرو في ذلك؛ فإن مؤلفه الدكتور الصلابي عالم بَحّاثة، ومؤرخ مُحقِّق، وقبل ذلك وبعده فهو صاحب رسالة يعيش مع القرآن بروحه وعقله وجوارحه، ويعيش له مُضحِّياً بكل ما أُوتي (هكذا أحسبه ولا أزكي على الله أحداً).

كلمة أخيرة حول الموقع الجغرافي:

نصّ القرآن الكريم على أن سفينة نوح عليه السلام استوت على الجُوديِّ، فقال تعالى: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ [هود: ٤٤]، ثم ذكر المؤلف المُحقِّق البَحّاثة المُدقِّق الدكتور الصلابي مجموعة من الأقوال للسلف والخلف، ودراسات ووثائق وآثاراً تدل على أن «الجودي» اسم جبل من أرض ما بين النهرين «دجلة والفرات»، شرقيَّ تركيا إلى الشمال الشرقي من جزيرة ابن عمر، على ضفاف نهر دجلة بالقرب من الحدود التركية العراقية السورية، وإلى الشمال من مدينة الموصل.

ويؤكد العالم الجيولوجي والفقيه في إعجاز القرآن أ. د زغلول النجار أن الدراسات الأثرية أثبتت صحة ذلك ودقّته، وذكر أنه في منتصف شهر مايو من سنة ١٩٤٨م اكتشف أحد رعاة الغنم من الأكراد، واسمه رشيد سرحان، بقايا أخشاب من سفينة نوح عليه السلام مطمورة في كمٍّ من الرسوبيات في قمة جبل الجودي، وتتابعت دراسات الموقع بعد ذلك في ١٩٥٣م، و١٩٨٠م، و١٩٨٧م، و١٩٩٤م، وظلت تتتابع إلى يومنا هذا، وكذلك وُجد سُمْكٌ هائل من رسوبيات المياه العذبة في سهول ما بين النهرين دجلة والفرات، التي كانت مهداً لعدد من الحضارات القديمة التي اكتُشف بعضها، والتي يتراوح عمرها بين ثلاثة آلاف وسبعة آلاف سنة قبل الميلاد، ومن المرجح أن تكون هذه الرسوبيات تالية لرسوبيات الطوفان التي وُجدت أسفل منها، ووُجدت خالية من الآثار الإنسية وغامرة لحضارات سابقة، وذلك لانتشارها الأفقي على مساحات

شاسعة من الأرض، ولِسُمْكها الذي يزيد على عشرة أقدام، ولِطَمْرها للعديد من القرى القديمة التي استمر التنقيب عنها في هذه الفترة من ١٩٢٢ إلى ١٩٣٤م، وتتابع هذا التنقيب عن تلك الحضارات القديمة متقطِّعاً بعد ذلك إلى اليوم، وقد تأكَّدت هذه الاستنتاجات بدراسة الرسوبيات المتجمعة في أحد كهوف شمالي العراق، والمعروف باسم (كهف شانيدار العظيم)، ويرجع عُمْر الرسوبيات فيه إلى نحو مائة ألف سنة مضت، وتحوي رسوبياته عدداً من البقايا الإنسية التي درسها الدكتور راف سولسكي، من معهد سمشوينان بالولايات المتحدة الأمريكية.

كما أن العديد من الروايات التاريخية القديمة التي اكتُشفت مؤخراً تشير إلى رُسُوِّ سفينة نوح عليه السلام فوق الجودي، وذلك مثل كتابات كل من: كيراسوس من كهان الحضارة البابلية، وأبيدنوس من تلامذة سقراط وأحد رموز الحضارة اليونانية القديمة.

وقال ياقوت الحموي عن الجودي (في معجم البلدان)، الجودي: «ياؤه مُشدَّدة، وهو جبل مُطِلٌّ على جبل ابن عمر في الجانب الشرقي من دجلة من أعمال الموصل، استوت عليه سفينة نوح عليه السلام لما نضب الماء، وجزيرة ابن عمر هي الأرض الواقعة بين نهري دجلة والفرات في شمال العراق، وجبل الجودي مطل على الجزيرة، وهو قريب من مدينة الموصل العراقية المعروفة، وما زال اسمه حتى الآن جبل الجودي، وهو جبل معروف هناك».

وقد نَقلتُ هذه النصوص بطولها لإثبات أن الحضارة الثانية قد انطلقت من هذه المنطقة التي يسكنها الشعب الكردي المسلم وبعض القوميات الأخرى إلى يومنا هذا، وأنها ما زالت تسمى (شارناخ)، ومعناها باللغة الكردية «مدينة نوح»، وهي محافظة في شرقي تركيا الحالية، كما أن هناك قرية ما زالت تُسمَّى (هشتيان)، أي القرية التي نزل فيها ثمانون مع سيدنا نوح عليه السلام، بل إن معظم القرى المحيطة بهذا الجبل ما زالت تحمل اسم نوح عليه السلام؛ ففي

منطقة زاخو (القريبة من دهوك والموصل) قرى: دور نوح، ودشت نوح، وغيرها.

وقد ذُكر في التوراة (سفر التكوين: ٧ ـ ٨) أن موضع استقرار سفينة نوح هو جبل أراراط، وهو اسم جبل الجودي، وهو لفظ عبري مأخوذ من أصل أكادي، يشمل سلسلة من الجبال تبدأ في جنوب شرقي تركيا وتمر بشمال العراق.

ويُسمَّى جبل الجودي عند بعض الأكراد (كاردو)، وعند الأتراك (أغرى داغ) أي الجبل المنحدر، وبعضهم سمّاهُ (قردي)، وعند اليونان (جوردي)، يقول الباحث السوري مختار فوزي النّعال: «فجميع هذه المُسمَّيات هي لمكان واحد.. أسماء جمّة.. في الجزيرة (جزيرة ابن عمر) جنوب أرمينية وقرب الموصل، وجزيرة ابن عمر قرب الموصل يطل عليها جبل أراراط (أي: بالطاء وبالتاء)، ويقول ابن الأثير، وهو من أهل الجزيرة: «انتهت السفينة إلى الجودي، وهو جبل بناحية (قردي) قرب الموصل»، وجاء في دائرة المعارف الإسلامية: «.. الجودي جبل شامخ في الشمال الشرقي لجزيرة ابن عمر..»، وتذهب بعض التفاسير الدينية إلى أن الجبل المعروف بجبل الجودي هو بالأرمينية (كُردخ).

وترجم الإمام البخاري باب ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، قال قتادة: «أبقى الله سفينة نوح حتى أدركها أوائل هذه الأمة».

وقال الطبري بسنده إلى قتادة: «أبقاها الله لنا بوادي أرض الجزيرة (جزيرة ابن عمر) عِبرةً وآية»، وفي رواية أخرى قال قتادة: «أبقاها بـ(قردى) من أرض الجزيرة عبرة وآية، حتى نظرت إليها أوائل هذه الأمة نظراً، وكم من سفينة كانت بعدها فصارت رماداً»، وأخرج ابن المنذر مثل القول السابق عن أبي جريج في تفسير قوله تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾.

والذي يظهر لي أن العبرة في عموم القصة وليس في خصوص بقاء السفينة

بكاملها أو رؤيتها، فالمهم كشفها والعلم بها، وقد سَمَّى الله تعالى الخبر الثابت بالرؤية، فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر: ٦].

ومع ذلك فقد عُثر على بعض بقايا سفينة نوح عليه السلام، وعليه فإن رؤيتها بمنزلة رؤية الكل، والله أعلم.

وذكر الأستاذ سعيد الحاج أن جبل الجودي يقع إلى شمال مدينة (زاخو) المطلة على ممر (إبراهيم الخليل) بنحو ٢٠ كم، ورجح أن أصل (جودي) هو (كوتي)، بالجيم المُعطَّشة مثل التي ينطق بها المصريون، وإليها يُنسَب الكوتيون أو الجوديون، وهم أجداد الكورد، ودعم قوله هذا بأقوال العلماء والمؤرخين، وبالآثار والكشوفات، حيث أطال فيها النفس للوصول إلى أن تلك المنطقة نالت البركات من الله تعالى، وشرف المشاركة الأساسية في حمل الحضارة الثانية، وأن الإشعاع منها وصل إلى العالم.

وفي نظري لا مانع من هذا الحرص الشديد على إثبات ذلك لقومه الكورد؛ لأنه يقصد شرف نيل أي شيء خدم الإسلام، أو سيخدم الإنسانية والحضارة.

وأعود إلى الكتاب الذي نحن بصدد تقديمه؛ فهو كتاب جامع لكل ما يتعلَّق بالموضوع، نهل مؤلِّفُه من المنهل العذب الشافي وهو القرآن الكريم، وصاغه صياغة سلسة رائعة، ممتعة، ثَرِيّة، فجزاه الله خير الجزاء وتقبّله منه بقبول حسن، وأجزل مثوبته في الدنيا والآخرة.

آمين والحمد لله رب العالمين

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه الفقير إلى ربه

أ د. علي محيي الدين القره داغي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعين به ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيِّئات أعمالنا، مَن يَهدِهِ اللهُ فلا مُضلَّ له، ومَن يُضلِلْ فلا هادي له. وأشهد أنَّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

اللَّهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرِّضا.

أما بعد فهذا الكتاب امتدادٌ لمشروع علمي جديد يتعلق بالدراسة المستفيضة عن أولي العزم من الرُّسُل وقصص الأنبياء والمُرسَلين في القرآن الكريم.

وهو جزء من موسوعة «**أولو العزم من المُرسَلين**» التي أحلم بإتمامها، وأرجو من الله تعالى أن تكون لوجهه الكريم خالصة، ولعباده نافعة، فإن البشرية

في أشدِّ الحاجة لمعرفة سِيَر الأنبياء والمُرسَلين من خلال كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بَين يديه ولا من خلفه، وشرح تراجمهم وأخلاقهم وأصول دعوتهم من أحاديث الرَّسول ﷺ الصحيحة، وأقوال العلماء الراسخين في العلم بأسلوب عصريٍّ يُلائِمُ المرحلة التي تمرُّ بها الإنسانية الباحثة عن إجابات شافية لتساؤلها عن الله والكون والحياة، والجنة والنار، والقضاء والقدر، والرسالات والنُّبوَّات والحضارات الإنسانية القديمة، ومتى نشأت؟ وما مصيرُها؟ وسُنَنِ الله في خَلْقه، وأصول الأخلاق، والقيم الروحية... إلخ، والصِّراع بَينَ الحقِّ والباطل والهدى والضَّلال والخير والشَّرِّ والكفر والإيمان... إلخ.

إنني أحمد الله العلي الكبير أن وفقني للاهتمام بهذه المواضيع، وأحمده وأشكره على نعمه التي لا تُحصى ولا تُعدّ، وأسأله أن يَمُدَّني بتوفيقه وتسديده وتأييده في الكتابة المنهجية النافعة، وأن يطرح لها القَبول بَينَ الناس، ويجعلها سبباً في هداية الباحثين إلى الحقائق الكبرى في الوجود للوصول إلى الصِّراط المستقيم، صراطِ الذين أنعم الله عليهم من النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، وأن تُسهم هذه الكتابات في تنوير العقول وتطهير النفوس وتزكية الأرواح البشرية؛ لاستشراف الحقِّ والتَّمسُّكِ به والذَّودِ عنه.

ويتحدث هذا الكتاب عن النبيِّ نوحٍ عليه السَّلامُ، وقد سمَّيتُه «**نوح عليه السَّلامُ والطُّوفان العظيم وميلاد الحضارة الإنسانية الثانية**»، وقد قسمته إلى مجموعة من المباحث، وهي:

في المبحث الأول:

تحدَّثت عن فترة ما قبل نوحٍ عليه السَّلامُ، وبيَّنت أنه ليس بَينَ آدمَ ونوحٍ رسولٌ، وأن الأصل في الإنسان التوحيد، وشرحت فيه الآيات التي أكَّدَت هذا الأمر:

كقوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ

بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ووضحتُ أنَّ التوحيد هو أصل دعوة الرُّسُل، وإليه دعوا أقوامهم، قال تعالى: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

وذكرتُ أقوال علماء الآثار والباحثين في الأديان في أصل التوحيد، وتطرَّقتُ إلى أوَّلِ شِرْكٍ وقع في بني آدم، واعتمدتُ على القرآن الكريم في المادة التاريخية، واتَّخذتُه مصدراً يتنزَّه عن الشَّكِّ والطَّعن؛ لأنه كتاب الله الذي ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾، فقد احتوى على معلومات عظيمة متعلِّقة بسِيَر الأنبياء والمُرسَلين وقصصهم، قال تعالى: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [هود١٢٠].

في المبحث الثاني:

كان الحديث فيه عن دعوة نوح عليه السَّلامُ، ومعنى النبيِّ والرَّسول في اللغة والاصطلاح، وحقيقة النُّبوَّة، والحكمة من بَعْث الرُّسُل، والأمور التي تفرَّد بها الأنبياء، كالوحي والعِصْمة وعدم التوريث وأنَّ أعينهم تنام وقلوبهم لا تنام،

والأرض لا تأكل أجسادهم وأهمية الإيمان بالرُّسُل والأنبياء والمُرسَلين، وكون نوح من أولي العزم، وكونه أوَّلَ الرُّسُل إلى أهل الأرض، والأبَ الثاني للبشرية، وأبا الأنبياء والمُرسَلين، ووصفَه الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ [الإسراء: ٣]، والمدة التي عاشها نوح عليه السَّلامُ على الأرض.

وتكلَّمتُ على توحيد الله في رسالة نوح عليه السَّلامُ وقيامه بدعوة قومه إلى عبادة الله وتقواه وطاعته وإفراده بالعبادة، وأن الإسلام هو دين نوح عليه السَّلامُ والرُّسُل جميعاً، وأن الأنبياء إخوة لِعَلَّاتٍ، أُمَّهاتُهُم شتَّى ودينُهم واحد.

في المبحث الثالث:

وضَّحتُ فيه مواقف قوم نوح من دعوته في سورة هود والأعراف والمؤمنون والشعراء، وكيف كانَ ردُّ نوح على شبهاتهم بالفعل والحُجَّة والبرهان، كقوله لقومه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨]، وكيف واجهَ قومَه بالتَّحدِّي والشَّجاعة والتَّوكُّلِ على الله لمَّا آذوهُ واتَّهموه بالجنون والضَّلال، وسَخِروا منه وأساؤوا الأدب معه، وتوعَّدوهُ بالرَّجم وغيرِ ذلك، فتَحداهم أكبرَ التَّحدِّي قال تعالى: ﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٧٢ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ [يونس: ٧١-٧٣].

ووقفتُ على صفاتِ قومِ نوحٍ عليه السَّلامُ متأمِّلاً ومُتدبِّراً الآياتِ القرآنيةَ التي وضَّحَت أنهم:

* ﴿كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤].

* ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

* ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٧] .

* ﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴾ [القمر : ٩] .

* ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [الذاريات : ٤٦] .

* ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾ [النجم : ٥٢] .

وذكرت مُعوِّقات قبول دعوة نوح عليه السَّلامُ من قومه والتي منها :

ـ **الأول** : الكِبْر

ـ **الثاني** : العِناد

ـ **الثالث** : التَّقليدُ الأعمى

ـ **الرابع** : الوثنيَّة

ـ **الخامس** : الملأ، وقد شُرحَت في الكتاب مع ذِكر أعمال الملأ من المكر والتَّرَف .

في المبحث الرابع :

تناولت فيه بيانَ نوحٍ لربِّه تُجاهَ قومه وشكواهُ من معصيتهم، ودعاءَه عليهم في سورة نوح حيث فسَّرتُ الآياتِ التي جاءت في سورة نوح بأسلوب سهل مع عُمق وعلم وإفادة من علماء التفسير الكبار، وكانت هناك وقفاتٌ من خلال الآيات مع أساليبه في الدعوة في السِّرِّ والعَلَن والليل والنهار، وترغيبه لقومه والحرص على هدايتهم وحثِّهم على الاستغفار، حتى ينالوا مغفرة الله، وتنهال عليهم الخيرات، قال تعالى : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ [نوح ١٠ ـ ١٢]، ودعوتِهم إلى التَّفكُّر في عالم الأنفس ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح ١٣ ـ ١٤]، ودعوتِهم إلى التَّفكُّر في السَّماوات والأرض وما فيهن، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ

ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا﴾ [نوح: ١٥ ـ ١٦]، ودعوته إلى التَّفكُّر في البعث والنُّشور ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ [نوح: ١٧ ـ ١٨]، ودعوته لتذكُّر نِعَمِ الله في تسهيل العيش على الأرض ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا﴾ [نوح: ١٩ ـ ٢٠]، وعرضتُ الآياتِ التي بيَّنت شكوى نوح عليه السَّلامُ من معصية قومه له، ودُعاءَه عليهم، وتفسير العلماء لهذه الآيات الكريمة إلى نهاية سورة نوح عليه السَّلامُ.

في المبحث الخامس:

كان الحديث فيه عن سفينة نوح عليه السَّلامُ والطُّوفان العظيم، وتفسير الآيات المتعلِّقة بهذه الأمور وهي:

قول الله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦].

وقولُه تعالى: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧].

وقولُه تعالى: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٨ ـ ٣٩].

وقولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠ ۞وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [هود: ٤٠ ـ ٤١].

وكيف أُغرِقَت الأرض بالماء؟ وكيف حدثَ الطُّوفان؟ وبيَّنتُ ذلك الحدثَ الكونيَّ العظيم من خلال الآيات الكريمة التي ذكرها الله تعالى في سورة القمر: وهي قوله تعالى: ﴿۞كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ

عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ﴿١٣﴾ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿١٥﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٩ ـ ١٦].

وتحدَّثت عن الحوار الذي ذكره الله بَينَ الأب المؤمن بالله العظيم الحريص على سلامة ابنه في دينه ودنياه، وبين الابن العاقِّ البعيدِ عن هداية الإيمان المُنغمِسِ في الكفر والضَّلال في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢ ـ ٤٣].

وفي غَمرة الأحداث التي تُصوِّرها الآيات القرآنية، وبين صَخَبِ الأمواج التي تنحسرُ وتمتدُّ في بحر هذه الأرض كلِّها، ينطوي هذا المشهد فجأة، لنرى من ورائه مباشرة عودةَ الهدوء إلى الدُّنيا، ورجوعَ كل شيء إلى نظامه السابق، فقد هدأت الزمجرة وسكتت العاصفة، ووُلدت الدُّنيا كما كانت من جديد، وتعالَ فلنتأمل في اللَّوحة الإلهية التي رَسمَت هذا المشهد[1]، قال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

إن هذه الجملَ القرآنية العجيبةَ تُصوِّر لك معنى الإرادة الإلهية وسلطانها الرَّهيب المنبسط على الكون كلِّه، بل القابض عليه كلِّه، تتصرَّف به كما تشاء في سمائه وأرضه، وبحاره وجباله وفي كل شيء، ألا ترى كيف علَّقَت الآيةُ رجوعَ كل شيء إلى ما كانَ عليه بعد أن التقت مياهُ السَّماء والأرض على طُوفانٍ هائل مُخيف على كلمة صغيرة «وقيل»؛ لتُصوِّر لك سهولةَ الأمر وأنه لا يحتاج إلا لهذا الأمر الإلهي الذي به قِيامُ الدُّنيا وزوالُها.

---

(١) محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن؛ تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عزَّ وجلَّ، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٩٩٩م، ص ٥٧٤.

وقد وقفتُ مع سؤال نوح عليه السَّلامُ ربَّه في شأن ابنه، وطلبِه المغفرةَ والرَّحمةَ من عند الله، متأمِّلاً ومُتدبِّراً ومُسترشداً بأقوال أئمة التفسير في قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٥ـ٤٧].

وذكرتُ زوجةَ نوح الكافرة وماذا قال الله فيها، مُستخرجاً الدُّروسَ والعِبَرَ والفوائد من الآيات الكريمة من قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

إنَّ نوحاً عليه السَّلامُ جاء في نهاية الحضارة الإنسانية الأولى التي بدأت من عهد آدم عليه السَّلامُ، ثم انحرفت عن التوحيد وإفراد الخالق العظيم بالعبادة وتطورت الحياة الإنسانية على وجه الأرض في قضاياها المادية، وضعفت وأخطأت السبيل في قيمها الروحية ومعرفتها بخالقها العظيم، فأرسل الله عزَّ وجلَّ نوحاً عليه السَّلامُ إلى قومه فأقام عليهم الحُجَّة، ومضت سُنَّةُ الله في زوالهم واستئصالهم، وآمن معه القليل الذين أنشأ بهم حضارة السلام والبركات بعد الطُّوفان العظيم.

إنَّ من أسباب نهاية الحضارة الإنسانية الأولى عوامل كثيرة من أهمها:

* الكفر بالله عزَّ وجلَّ: حيث رفض قوم نوح دعوة التوحيد ورسالات الله وكفروا بها وحاربوها، ووصفهم الله بالكفر كما سيأتي معنا في قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٧].

* **الشِّرْك بالله**: وقد سجل القرآن الكريم موقفهم النهائي من الشِّرْك وعبادة

الأصنام بعد المواعظ البليغة والنَّصائح الغالية التي بذلها لهم نوح عليه السَّلامُ، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

* **الظلم**: وهو من أكبر عوامل سقوط الحضارات وزوال الأقوام:

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

* تكذيب الرَّسول الكريم (نوح عليه السَّلامُ): وردت آيات كثيرة تدل على أن تكذيب الرُّسُلِ كانَ سبباً في هلاك الأمم السابقة، وهذه الآيات واضحة الدلالة وصريحة في بيان العلاقة بَينَ تكذيب الرُّسُل وبين ما حاق بهم من الهلاك والدمار، قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٢ ـ ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ [الفرقان: ٣٧].

* إيذاء نوح عليه السَّلامُ بأنواع الإيذاء ودعاؤه عليهم:

قال تعالى: ﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ [القمر: ٩].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ [الصافات: ٧٥].

وقال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠].

وقد استجاب الله لنبيه فأغرق الكافرين الظالمين عن آخرهم.

* **استعجال العذاب**: ومن أسباب العقاب الإلهي، الذي نزل بقوم نوح، استعجالُهم بالعذاب، فقوم نوح عندما يئسوا من مناهضة الحُجَّة بالحُجَّة أخذتهم العِزَّة بالإثم واستكبروا وأبوا الإذعانَ للبرهان العقليِّ والفِطريِّ وإذا بهم يتركون الجدال إلى التَّحدِّي، فقد كانوا قوماً عَمِين، قال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢].

* **الجدال بالباطل**: قال تعالى: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٤ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٤ ـ ٥].

* **التَّرَف**: وهو من أسباب العقاب الإلهي، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ۝١١٦ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٦ ـ ١١٧].

وبيَّن نوح أن جماهير قومه اتَّبعوا رؤساءهم وأهل الثروة منهم الذين لم تزدهم كثرةُ المال والولد إلا ضلالاً في الدُّنيا وعقوبة في الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١].

* **البَطَر**: وهو من الجرائم التي يعاقب الله تعالى عليها الأممَ، والبطر هو: الطُّغيان والإشراك وكُفرُ النِّعَم، قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص: ٥٨].

ولقد قام نوح عليه السَّلامُ بتذكير قومه بنعم الله عليهم في الأنفس والآفاق، قال تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ

نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٣ ـ ٢٠]، لكنَّ القوم اعتادوا البَطَر وكُفرانَ النِّعَم، فمضت فيهم سُنَّة الله عزَّ وجلَّ.

ـ **الاستكبار**: وهو من أسباب هلاك قوم نوح، قال تعالى: ﴿وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧].

ـ **المكر**: لقد تعرض نوح عليه السَّلامُ لأمر عظيم من مكر الكافرين، قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا﴾ [نوح: ٢٢].

وكان المكر صفة بارزة في قوم نوح، إذ لجؤوا إلى كافَّة وسائل المكر وأساليبه، لصدِّ الناس عن دعوة التوحيد والاستجابة لعبادة الله، وآثروا الشبهات والاتهامات الباطلة، ووضعوا العوائق والعراقيل أمام دعوته، ودبَّروا الحِيَل ونصبوا الحبائلَ ليَمكروا بنوح عليه السَّلامُ فأبطلها الله وجعلها سبيلاً لهلاكهم، ومضت سنة الله في الماكرين، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الانعام: ١٢٣].

ـ **الخطايا والذنوب**: إن ظُهورَ المعاصي وارتكابَ الخطايا والانغماس في الذنوب كانت من أسباب نقمة الله على قوم نوح وإهلاكهم، قال تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ [نوح: ٢٥].

ـ **الاشتغال بالدُّنيا ونسيان الآخرة**: فقد اشتغل قوم نوح بأمور الدُّنيا وأصابهم الغرور بها، ونسُوا الآخرة وفرحوا بالأموال والأولاد والمتاع الزائل، وغاب عنهم الاستعداد ليوم الرحيل، وتطاولوا على أهل الإيمان، ووقعوا في سُنَّةِ الاستدراج الرَّبانيِّ، فكثرت أموالهم وأولادهم وأبطرتهم هذه النِّعَم الكثيرةُ وتحقَّقَ فيهم قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤ ـ ٤٥].

ـ **سنة الاستبدال**: قال تعالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴾ [محمد: ٣٨]، فقد مضت سنة الله أنه ما أهلك قوماً إلا أنشأ من بعدهم قوماً آخرين يقومون بعمارة الأرض، فالحضارات لها سُنَن قيامٍ وسقوط، كما أنَّ لها سُنَنَ تجدُّدٍ وانبعاث واستبدال، وقد تحدث القرآن الكريم عن الاستبدال الحضاري، وهو ما حدث لقوم نوح عليه السَّلامُ حيث تجمَّعَت فيهم أسباب الهلاك، فمضت سنة الله فيهم بالطُّوفان، ولكي تستأنف الإنسانيةُ رسالتَها استبدل الله قومَ نوحٍ، فأغرقهم وأورث الأرضَ للفئة المؤمنة مع نوحٍ.

٣ ـ سنة الله في الأجل الجماعي: قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤]، جعل الله عزَّ وجلَّ لكل فرد أجلاً تنتهي به حياته الدُّنيا، كما جعل سبحانه وتعالى للأمم والحضارات آجالاً تنتهي إليها وتسقط في نهايتها ويُسدَل الستار عليها، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾ [الحجر: ٤ ـ ٥].

فقد بيَّنت الآية أن كل القرى الهالكة كانَ لها أجلٌ مُقدَّر في أسباب هلاكها، وذلك لما أقام الله الحُجَّة على أهلها بتقديم النُّذُر وفُرَص الإمهال وسُنَنِ الاستدراج(١)، فلا يَغُرَّ المُكذِّبين تخلُّفُ بأسِ الله عنهم فترةً من الوقت، فمن عدل الله أن يُذيق كل واحد جزاءَ عمله وتصرُّفه، وسنة الله في طريقها المعلوم تمضي رويداً رويداً نحو الأجل المقدَّر الذي يمنحه الله لتلك القرى، وحتى لا تبقى بقيَّةُ خير، عند ذلك تبلغ الأمة أجلها وتنتهي إلى مصيرها(٢)، وما من أمة عرفت الحياة ثم تمرَّدَت عن الحقِّ وتولَّت عن العدل إلا والله مُهْلِكُها قبل يوم القيامة أو معذِّبُها، وهذا قدر مُقدَّر في الكتاب المسطور، قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن

(١) محمد هيشور، سُنَن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، دار الوفاء للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، ص ٣٠٢.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٠٣.

قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٨].

وهذا ما حدث لقوم نوح، حيث بعث الله لهم رسولاً لهدايتهم فرَدُّوا دعوتَه كِبراً وعناداً، وأعرضوا عنها جُحوداً وطلبوا منه تعجيل العذاب، وكذَّبوا وجَحدوا وظلموا وبطروا وأُترفوا، فوقع عليهم العقاب الإلهي بسبب ذنوبهم مع تقدير الله لهم وفق سنة ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ فعِلمُ الله لا يتبدَّل وسُنَّته لا تتحوَّل، وهي جارية وحاكمة وفق مشيئته وإرادته وعلمه وحكمته سبحانه وتعالى.

ـ **سنة الهلاك**: قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٧]، ويُفهم من هذه الآية الكريمة أن الهلاك بدأ بقوم نوح، ثم استمرَّ إلى الفترة ما قبل البَعثة النبوية حيث كانَ هلاك أصحاب الفيل.

والهلاك في الاصطلاح القرآني هو: ما يُنزله الله تعالى بأعدائه من العذاب المستأصِل المُبيد، وقد ورد هذا كثيراً في قصص القرآن الكريم عن مصير الأمم الغابرة التي انحرفت عن جادَّة الصِّراط المستقيم، وجحدت أوامرَ الله عزَّ وجلَّ وآذت رُسُلَه. والهلاكُ الذي حلَّ بقوم نوح هو الغرقُ.

ـ **سنة الخسران**: تحقَّقت سنة الخسران في قوم نوح، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٣] من سنة الله أن الكافرين لا يفلحون، وأنهم خاسرون، وهي سنة نافذة لا تتخلَّف، كما أن الفَلاح للمؤمنين من سُنَن الله الجارية، ولقد خسر قوم نوح الإدراك والبصيرة فضاعوا في صحاري الشبهات وبحار الشهوات ووديان الضَّلال، ومضت فيهم سنة الخسران.

ـ **الغفلة عن أسباب الهلاك**: فلم ينتبهوا إلى خطورتها بل مارسوها على مستوى الفرد والمجتمع، فكان هلاكهم.

إنَّ القرآن الكريم في قصة نوح عليه السَّلامُ وَجَّهَ الأنظارَ إلى الاعتبار بأحوالهم، وهي مليئة بالدُّروس والعِبَر والفوائد والسُّنَن وقوانين الله في حياة الشعوب وزوال الحضارات وازدهارها.

هذه بعض الأسباب التي وصلنا إليها من خلال البحث والدراسة في معرفة عوامل هلاك الحضارة الإنسانية الأولى، واللافت للنظر أن مقومات حضارة جديدة بزغت من محنة نوح عليه السَّلامُ وانطلقت بعد هبوط السَّفينة على الجُوديِّ، وقد بدأت باسم الله والحمد لله على النجاة من القوم الظالمين، والدعاء لله بأن يُنزلهم مُنزلاً مباركاً والله خير المُنزِلين.

وكانت بذور تلك الحضارة متوفرة في سفينة نوح عليه السَّلامُ من الإنسان والحيوان والطيور والنباتات، مع القيم الروحية والمبادى الأخلاقية، والاعتقادات الفكرية عن الله والحياة والكون والوجود والجنة والنار والرسالة والنُّبوَّة. وكل ذلك مؤيَّد بالوحي الإلهيِّ إلى رسوله نوح عليه السَّلامُ.

هذا وقد حذَّرتُ من خطورة الخرافات والأساطير والإسرائيليات والموضوعات التي أُلصقت بقصة نوح عليه السَّلامُ، وعكَّرَت صفاءها في كثير من الأحايين، وليس هناك باحث منصف يستطيع أن يُنكر أثر الإسرائيليات في هذه الروايات التي تجنح إلى الخيال أحياناً، مع منافاتها العقيدة الإسلامية الصحيحة أحياناً أخرى، وإلى تعارض بعضها مع بعض في مناسبات كثيرة.

ومن الإسرائيليات ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ: ما ذكره ابن كثير نقلاً عن التوراة فقال: وقد ذُكر أن [حاماً] ـ ولد نوح ـ واقعَ امرأتَه في السَّفينة، فدعا عليه نوح أن تتشوَّه خِلقة نطفته، فوُلد له ولدٌ أسود، وهو [كنعان بن حام] جَدُّ السودان، وقيل: بل رأى أباه نائماً، وقد بَدت عورتُه فلم يَسترْها، وستَرَها أخواه، فلهذا دعا عليه أن يُغيِّر نطفتَه وأن يكون أولاده عبيداً لإخوته، وغير ذلك من الأساطير والأوهام والإسرائيليات المخالفة للمعقول والمنقول، والتي

للأسف تأثَّرت بها كتب التواريخ وأيام الناس وتسرَّبَت إلى التفاسير، فنُسِجت خرافاتٌ وأساطير شوَّهَت كتبَ التراث، ولذلك يجب تنقية كتب التراث منها، والاعتماد أولاً وأخيراً على الرؤية الحضارية القرآنية التي قدَّمها القرآن الكريم، وما ثبت عن رسول الله ﷺ في قصة نوح عليه السَّلامُ.

وفي هذا الكتاب تكشَّف السِّتارُ عن الافتراءاتِ التي نسبها بعضُ علماء بني إسرائيل إلى نوح عليه السَّلامُ، وتحدَّثت عن مسألة: هل عَمَّ طوفان نوح الكرة الأرضية؟ وبيَّنت أقوال العلماء في هذه القضية التي أخذت حيِّزاً من التفكير الإنساني، ووضَّحتُ اهتمامَ علماء الآثار وتاريخ الأديان بالطُّوفان العظيم، وكشفتُ بعضَ الرواياتِ ضعيفةِ الإسناد التي نُسبت للرسول ﷺ، وتكلَّمتُ على رأي العلماء في مصير الأطفال من قوم نوح عليه السَّلامُ.

المبحث السادس:

كان الحديث فيه عن ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية، حيث ذكرت أقوال العلماء وأهل التفسير في قول الله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٨ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٨ ـ ٤٩].

وذكرتُ في هذا المبحث صفاتِ نوح عليه السَّلامُ التي تجسَّدت في شخصه الكريم، فقد كانَ من أولي العزم من الرُّسُل الذين حقَّقوا التوحيد وإفراد الله بالعبادة، وقد أسهمت دعوته في إرساء أخلاق وصفات حميدة ساهمت في تأسيس الحضارة الإنسانية الثانية من أهمها:

الإخلاص، والصبر، والتقوى، والاستغفار، والدعاء، والعبودية: والتوكُّل، والذِّكر واليقين والإحسان، والعلم والعفة والأمانة والثبات وبرّ الوالدين، وغير ذلك مما غرسه نوح عليه السَّلامُ في أتباعه وساهم في نهضة

حضارة السلام والبركات، وبيّنتُ كيف تعامل نوح عليه السَّلامُ مع السنن الرَّبانيَّة والتي منها:

* سنة الله في التغيير وعلاقتها بالبناء العقدي.
* سنة الله في الابتلاء.
* سنة الله في الأخذ بالأسباب.
* سنة الله في التدافع.
* سنة الله في النصر والتمكين.

ووضَّحتُ خصائصَ الحضارة الإنسانية الثانية حيث قامت على أساس الوحدانية المطلقة لله عزَّ وجلَّ، ومن خصائصها أنها إنسانية، وأنها أخلاقية، وتؤمن بالعلم، وقامت على حرية الاعتقاد وحرية الاختيار العقلي والفطري والمنطقي والوجداني، قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨]، فالدين والعقيدة والفكر المستنير بالإقناع والنظر والتدبُّر لا بالقهر والسلطان والإخضاع، هي الأسس التي قامت عليها الحضارة الإنسانية الثانية.

ووضَّحتُ عوامل نشوء الحضارة الإنسانية الثانية والتي منها:

* العامل العقدي.
* العامل الصناعي والاقتصادي.
* عامل البيئة.
* العامل الاجتماعي.
* العامل الأخلاقي.
* العامل السياسي.

❊ عامل الجمال .

والتي استطاعت أن تُحقِّق :

❊ الإخاء والمحبة .

❊ التعاطف والتراحم .

❊ التساند والتعاون .

❊ التكافل والتضامن .

❊ التواصي والتناصح .

❊ التطهُّر والترقِّي .

❊ العدالة والإنصاف .

❊ التقدم الفكري والعلمي والروحي والنفسي والمادي .

وقد حقَّقت الأهداف الأساسية للحياة الإنسانية ومن أبرزها :

ـ **العبادة لله** : قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

ـ **خلافة الله في الأرض** : قال تعالى : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [يونس : ٧٣] .

ـ **عمارة الأرض** : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود : ٦١]، أي طلب منكم عمارتَها .

لقد استطاع نوح عليه السَّلامُ أن يؤسِّس للحضارة الإنسانية الثانية انطلاقاً من التوفيق بَينَ الأمور المادية المُتاحة في عصره، والمعاني الإيمانية والروحية

والأخلاقية التي كانت هي الدوافع الحقيقية من وراء الإبداع الحضاري في مسيرة البشرية.

وقمتُ بتفسير الآيات التي تحدَّثت عن الفلك المشحون وأهميَّته على مرِّ الدهور، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١ ـ ١٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٨ ـ ٧٩]، ثم كان الحديث عن وصيَّتِه ووفاته عليه السَّلامُ.

هذا وقد انتهيتُ من هذا الكتاب يوم السبت في ١٧ ذو القعدة ١٤٤٠هـ/ الموافق لـ ٢٠ يوليو ٢٠١٩م في الساعة الثانية وعشر دقائق ظهراً في مدينة إستانبول، والفضل لله من قبل ومن بعد، وأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبَّل هذا العمل قبولاً حسناً، وأن يُكرمنا برفقة النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين.

ولا يسعني في نهاية هذا الكتاب إلا أن أقف بقلب خاشع مُنيبٍ أمام خالقي العظيم وإلهي الكريم، معترفاً بفضله وكرمه وجوده، مُتبرِّئاً من حولي وقوتي ملتجئاً إليه في كل حركاتي وسكناتي، وحياتي ومماتي، فالله خالقي هو المتفضل، وربي الكريم هو المعين، وإلهي العظيم هو المُوفِّق، فلو تخلَّى عني ووكلني إلى عقلي ونفسي لَتبلَّد مني العقل، وغابت الذاكرة، ويبست الأصابع، وجفت العواطف، وتحجَّرت المشاعر، وعجز القلم عن البيان.

اللهم بَصِّرني بما يُرضيك، واشرح صدري، وجَنِّبني اللهم ما لا يُرضيك، واصرفْه عن قلبي وتفكيري، وأسألك يا الله بأسمائك الحسنى وصفاتك العلا أن تُثيبني وإخواني الذين أعانوني على إتمام هذا الجهد.

اللهم اجعله لوجهك خالصاً، ولعبادك نافعاً، واطرح فيه البركة والقبول والنفع العظيم، ونرجو من كل من يَطَّلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير

إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه، قال تعالى: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل: ١٩].

والحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربِّه ومغفرته ورحمته ورضوانه

علي محمَّد محمَّد الصَّلاَّبيُّ

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

المَبحَثُ الأوَّل

ما قبل نوح عليه السَّلامُ

نطوي الزمان في وثبة هائلة لا ندري مداها، فنصل إلى ما قبلَ سيدنا نوح عليه السَّلامُ، إلى عهد أبينا آدم عليه السَّلامُ.

ونسأل عن الزمن ما بَينَ آدمَ ونوحٍ عليهما السلام، وهل كانَ الناس على التوحيد؟ وهل بَينَ آدم ونوح رسول؟ ومتى بدأ الشِّرْك بَينَ بني البشر؟

ومما لا شكَّ فيه أن الله بعث آدم عليه السَّلامُ وهو على عقيدة سليمة من عالم الألوهية، وعالم الجنة، وعالم الملائكة، وكان مزوَّداً بالمبادى الأخلاقية الصالحة، وبثَّ آدمُ ذلك في أبنائه، واستجاب له من هداه الله، وشذَّ عنه من أغواه الشيطان[1].

أولاً: المُدَّة بَينَ آدم ونوح عليهما السلام:

روى ابن حِبَّان في صحيحه من حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال: كَمْ كانَ بينَهُ «أي آدمَ عليه السَّلامُ وبينَ نوحٍ»؟ قال: «عَشَرَةُ قُرونٍ»[2].

---

(١) عبد الحليم محمود، قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرُّسُل، دار الرشاد للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م، ص ٦٣.

(٢) محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (ت ٣٥٤هـ)، صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م، رقم (٦٢٩٦).

وروى الحاكم بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان بَينَ نوحٍ وآدمَ عَشَرَةُ قرونٍ». وفي رواية: «كلُّهُم على الإسلامِ» [١].

قال ابن جرير: وقد رُوي عن جماعة من السَّلَف أنه كانَ بَينَ آدم ونوح عشرةُ قرون كلُّهم على مِلَّة الحق، وأن الكفر بالله إنما حدث في القرن الذي بُعث فيه نوح عليه السَّلامُ، وقالوا: إن أوَّل نبي أرسله الله إلى قوم بالإنذار والدعاء إلى توحيده نوح عليه السَّلامُ [٢].

وهذا كله يؤكِّد أنَّ المدَّة بَينَ آدم ونوح عليهما السلام أكثرُ مما ذكره المؤرخون من أنها مائة وستٌّ وعشرون سنة، ليس لهم في ذلك من سند غير الاعتماد على كتب بني إسرائيل في هذا الشأن [٣]. وقال ابن كثير: «وعلى تاريخ أهل الكتاب المُتقدِّم يكون بَينَ مولد نوح وموت آدم مائةٌ وستٌّ وأربعون سنة، وكان بينهم عشرة قرون» [٤].

وعمود النسب بَينَ آدم ونوح عليهما السلام ـ وهم عشرة آباء ـ يتناسب مع القرون العشرة المذكورة في الآثار السابقة، فيكون كلُّ أب يُمثِّل قرناً من الزمن، إذ كانَ الواحد منهم يُعمَّر بما يزيد على ألف سنة أو ينقص منها قليلاً، إلا أن تحديد المدة التي بَينَ آدم ونوح عليهما السلام يتوقف على معرفة المراد بالقرن،

---

(١) أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (ت ٤٠٥هـ)، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م، ٩/ ٢٥٥، وقال الحاكم: هذا صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه.

(٢) الطبري، تاريخ الطبري تاريخ الرُّسُل والملوك، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م، ١/ ٦٥.

(٣) عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السَّلامُ، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠١٧م، ص ١٠.

(٤) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، قصص الأنبياء، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠م، ١/ ٧٤.

فإن القرن في أصل اللغة رأس الجبل، يُطلق عُرفاً على وقت من الزمن، وعلى جيلٍ من الناس، وفي عُرف المتأخرين على مائة سنة(١).

قال ابن كثير: «فإن كانَ المرادُ بالقرن مائةَ سنة ـ كما هو المتبادر عند كثير من الناس ـ فبينهما ألف سنة لا محالة، لكن لا ينفي أن يكون أكثر من ذلك باعتبار ما قَيَّد به ابنُ عباس بالإسلام، إذ قد يكون بينهما قرون أُخر متأخِّرة لم يكونوا على الإسلام، وإن كانَ المراد بالقرن الجيل من الناس كما في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]، فقد كانَ الجيل قبل نوح يعمَّرون الدهورَ الطويلة، فعلى هذا يكون بَينَ آدم ونوح ألوفٌ من السنين، والله أعلم»(٢).

وقد أيّد هذا القول الباحث عمر إيمان أبو بكر، فقال: «والذي يظهر لي أن الاحتمال الثاني من الاحتمالين اللَّذَين ذكرهما ابن كثير هو الأقرب إلى الصَّواب لما عُلم أنَّ الأجيال التي بعد آدم كانوا أمة واحدة على شريعة من الله مدة من الزمن كما سيأتي بإذن الله، ثم انطمست عندهم معالم التوحيد، فاختلفوا فيما بينهم، فبقي بعضهم على التوحيد وانحرف آخرون عنه، عندها بعث الله النَّبيِّين مُبشِّرين ومُنذِرين، ومثل هذا التحوُّل لا يحدث عادة في مائة سنة من الزمن»(٣).

ويقول الإمام الأكبر للأزهر الشريف الدكتور عبد الحليم محمود: «إن جميع ما يُقال في ذلك إنما هو ضرب من التخمين، وإنَّ الآثار التي رُويت في ذلك يُمكن تأويُلها على أنحاء شتَّى، فتكون ألفاً وتكون الآلافَ من السنين، ولا يقينَ في الموضوع»(٤).

إن المجتمع الأول على الكرة الأرضية ما بَينَ آدم ونوح عليهما السلام كانَ

---

(١) عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السَّلامُ، ص ١١.
(٢) ابن كثير، قصص الأنبياء، ١/ ٧٥.
(٣) عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السَّلامُ، ص ١١.
(٤) عبد الحليم محمود، قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرُّسُل، ص ٦٣.

مجرَّد مجتمع فرديٍّ تكوَّن من نبي الله آدم وزوجته حواء، ومنهما انبثقت أسرةٌ، فعشيرةٌ، فجماعة بشرية أخذت في التطوُّر وتلقِّي التعليم حتى وصلت إلى تعلُّم القراءة والكتابة والخياطة والطِّبِّ، أي المبادئ الأساسية لتعلُّم الفرد أسلوبَ حياته وخاصته، وأوَّل من عرف مهنة النِّجارة، ومن ثمَّ صناعة السفن هو نبي الله نوح[١].

أي أنَّ الحضارة البشرية التي كانت قبل الطُّوفان لم تكن تعلم شيئاً عن أعمال بناء السفن، فالنشاط البشري حتى هذه المرحلة لم يكن نشاطاً بشرياً لمجتمعات منفصلة، بل هو نشاط بشري لجماعة بشرية واحدة وهي ذرِّية نبي الله آدم فيما قبل الطُّوفان[٢].

وتلقَّتِ العلمَ في بداية تكوينها من أبيها آدم لكي تستطيع به مواجهة صعوبات الحياة على الأرض، ثمَّ طوَّره أبناؤه من بعده.

ومعلوم أنَّ أعمار الناس في بداية تاريخ البشرية كانت طويلة حيث كانَ أحدهم يعمَّر مئات السنين، فها هو نوح عليه السَّلامُ ـ يعيش مع قومه نبيّاً رسولاً قبل الطُّوفان تِسعَمائةٍ وخمسين سنة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]. وهذا يعني أن نوحاً عليه السَّلامُ عاش ألف سنة أو أكثر، وهذا يعني أنَّ متوسط الأعمار بَينَ آدم ونوح عليهما السلام ألف سنة، بينما أعمار الناس في زماننا ما بَينَ الستين والسبعين، وقلَّ من يتجاوز الثمانين من عمره، فمتوسط الأعمار في زماننا هو سبعون سنة، فمدة القرن لأبناء الجيل الواحد بَينَ آدم ونوح عليهما السلام هي ألف سنة، بينما مدة القرن لأبناء جيلنا هي سبعون سنة. فالعشرة قرون بَينَ آدم ونوح عليهما السلام

---

(١) محمد رسمي الدكر، تأصيل التاريخ في معرفة أصول بني إسرائيل، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٩م، ص ٨٤.
(٢) المرجع السابق، ص ٨٣.

ـ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما ـ حوالي عشرة آلاف سنة والله أعلم(١) .

ثانياً: ليس بَينَ آدم ونوح رسول والأدلة على ذلك في الآثار والأقوال:

ليس بَينَ آدم ونوح رسول، وقد أدخل بعضُ المؤرِّخين بينهما إدريس عليه السَّلامُ، بلا دليل يُعتمد عليه، بل إنَّ هناك جملة من الأدلة تدل على أنَّ نوحاً عليه السَّلامُ هو أوَّل الرُّسُل بعد آدم عليه السَّلامُ، ومن تلك الأدلة:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٦].

إن هذه الآية صريحة في أنَّ جميع الأنبياء والرُّسُل هم من ذرِّية نوح عليه السَّلامُ، وإبراهيم من ذرِّية نوح عليه السَّلامُ، فإذا ثبت بالإجماع أنَّ إدريس من الأنبياء بنص قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٦ ـ ٥٧]، تعيَّن أن يكون إدريس من ذرِّية إبراهيم، ثم من ذرِّية نوح عليهم السلام(٢) .

وهذه الآية تُبيِّن وحدةَ الرسالة في رجالها، فهم من ذرِّية نوح وإبراهيم عليهما السلام، فهي شجرة واحدة باسقة متشابكة الفروع، فيها النُّبوَّة والكتاب، وممتدَّة من فجر البشرية منذ نوح، حتى إذا انتهت إلى إبراهيم، تفرَّعت وامتدت وانبثقت النُّبوّة من ذلك الفرع الكبير الذي صار أصلاً باسقاً ممتداً إلى آخر الرسالات، فأما الذرِّية التي جاءتها النُّبوَّة والكتب فلم تكن على شاكلة واحدة، ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦]، وهو تلخيص قصير لذلك الخط الطويل(٣) .

---

(١) صلاح الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، دار القلم، دمشق ـ الدار الشامية، بيروت، ط١، ١٤١٩ه، ١٩٩٨م، ١/ ١٥٩ .

(٢) عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السلام، ص ٦ .

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق للطباعة والنشر، القاهرة، ط ٣٨، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م، ٦/ ٣٤٩٥ .

٢ ـ قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣].

وهذه الآية تفيد أن جميع النَّبيِّين هم من بعد نوح عليه السَّلامُ، وبهذا تستقيم الآيتان في إثبات أن جميع الأنبياء هم من ذرِّية نوح عليه السَّلامُ(١)

وجاءت الآية هكذا: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣ ـ ١٦٥].

فهو إذن موكب واحد يتراءى على طريق التاريخ البشري الموصول، ورسالة واحدة بهدي واحد للإنذار والتبشير، موكب واحد يضمُّ هذه الصفوة المختارةَ من البشر، وقد ابتدأت الآية بنوح عليه السَّلامُ وبيَّنت أن النَّبيِّين جاؤوا من بعده، فنوح عليه السَّلامُ وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب، ويونس وهارون وسليمان وداود وموسى... وغيرهم ممن قصَّهم الله على نبيه ﷺ في القرآن الكريم، وممن لم يقصصهم عليه.

إنَّه موكب من شتَّى الأقوام والأجناس، وشتى البقاع والأرضين في شتَّى الآونة والأزمان، لا يُفرِّقهم نسب ولا جنس ولا أرض ولا وطن ولا زمن ولا بيئة، كلُّهم آتٍ من ذلك المصدر الكريم، وكلهم يحمل ذلك النور الهادي، وكلهم يؤدِّي الإنذار والتبشير، وكلهم يحاول أن يأخذ بزمام القافلة البشرية إلى ذلك النور، سواء منهم؛ من جاء لعشيرة، ومن جاء لقوم، ومن جاء لمدينة،

(١) عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السَّلامُ، ص ٦.

ومن جاء لقطر، ثم من جاء للناس أجمعين، محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام خاتم النَّبيِّين.

فكلُّ الرُّسُل تلقَّوا الوحي من الله، وما جاء أحدهم بشيء من عنده، وإذا كانَ الله قد كلَّم موسى تكليماً، فهو لون من الوحي لا يعرف أحد كيف كانَ يتمّ؛ لأن القرآن الكريم ـ وهو المصدر الوحيد الصحيح الذي لا يرقى إليه الشكُّ ـ لم يُفصِّل لنا في ذلك شيئاً، فلا نعلم إلا أنه كانَ كلاماً ولكن ما طبيعته؟ وكيف تمَّ؟ وبأية حاسة أو قوة كانَ موسى يتلقاه؟ فكل ذلك ضرب من الغيب لم يُحدِّثنا عنه القرآن، وليس وراء القرآن ـ من هذا الباب ـ إلا أساطير لا تستند إلى برهان.

أولئك الرُّسُل ـ من قصَّ الله على رسوله منهم ومن لم يقصص ـ اقتضت عدالة الله ورحمته أن يبعث بهم إلى عباده يبشرونهم بما أعدَّه الله للمؤمنين الطائعين من نعيم ورضوان، وينذرونهم بما أعدَّه الله للكافرين العصاة من جحيم وغضب، كل ذلك ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾.

ولله الحُجَّة البالغة في الأنفس والآفاق، وقد أعطى الله البشر من العقل ما يتدبَّرون به دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق، ولكنه سبحانه وتعالى رحمة منه بعباده، وتقديراً لغلبة الشهوات على تلك الأداة العظيمة التي أعطاها لهم ـ أداة العقل ـ اقتضت حكمته ورحمته أن يُرسل إليهم الرُّسُل ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، يذكِّرونهم ويبصِّرونهم ويحاولون استنقاذ فطرتهم وتحرير عقولهم من ركام الشهوات، التي تحجب عنها دلائل الهدى وموجبات الإيمان في الأنفس والآفاق ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

عزيزاً: قادراً على أخذ العباد بما كسبوا[١] حكيماً: يُدبِّر الأمر كلَّه بالحكمة،

---

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٢/٨٠٦.

ويضع كلَّ أمر في نصابه، والقدرة والحكمة لهما عملهما فيما قدَّره الله في هذا الأمر وارتضاه[١].

٣ ـ إن الله سرد قصص عدد من الرُّسُل في سورة مريم، وذكر من بينهم إدريس عليه السَّلامُ في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٥٦ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٦ ـ ٥٧]، **ثم عقَّب ذلك بقوله:** ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ [مريم: ٥٨].

وهذا من أقوى الأدلة على أنَّ إدريس من ذُرِّية نوح، ووجه دلالة الآية على ذلك أنَّ قوله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ إشارة إلى أولئك الرُّسُل الذين ذُكرت قصَّتُهم قبل الآية، ومنهم إدريس عليه السَّلامُ الذي هو آخرهم في الذكر، فدلَّ ذلك على أنَّ كل من سبق ذِكرُهم من الأنبياء هم من ذرِّية نوح، بل ومن ذرِّية إبراهيم[٢].

ولا نملك نحن تحديد زمان إدريس، ولكن الأرجح أنه من ذرِّية نوح وإبراهيم ـ عليهما السلام ـ وليس من أنبياء بني إسرائيل، فلم يَرِدْ ذِكْرُه في كتبهم، والقرآن يصفه بأنه كانَ صِدِّيقاً نبيّاً، وأن الله رفعه مكاناً علياً، فأعلى قدرَه ورفع ذِكرَه، وعلى أية حال فنحن نكتفي بما جاء في القرآن الكريم، ونرجِّح أنه سابق على أنبياء بني إسرائيل[٣]، وأنه من ذرِّية نوح عليه السَّلامُ.

ويقف السياق في هذا الاستعراض عند المعالم البارزة في صفحة النُّبوَّة في تاريخ البشرية ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾، ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾، ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾، فآدم يشمل الجميع، ونوح يشمل مَن بعدَه، وإبراهيم يشمل فرعي

---

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٢/٨٠٦.
(٢) عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السَّلامُ، ص ٧.
(٣) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/٢٣١٣.

النُّبوَّة الكبيرَين، ويعقوب يشمل شجرة بني إسرائيل، وإسماعيل إليه ينتسب العرب ومنهم خاتم النَّبيِّين.

أولئك النبيون ومعهم مَن هدى الله واجتبى من الصالحين من ذريتهم، فصفتهم البارزة: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾، فهم أيضاً شديدو الحساسية بالله ترتعش مشاعرهم حين تتلى عليهم آياته، فلا تُسعفهم الكلمات للتعبير عما يخالج نفوسَهم من تأثُّر، فتفيض عيونهم بالدموع ويخرُّون سُجَّداً وبُكيّاً(١).

ومما يُؤكِّد أن إدريس عليه السَّلامُ من ذرِّية نوح ـ عليه السَّلامُ ـ أنه كلما ذُكِر نوحٌ مع غيره من الرُّسُل ـ عليهم السلام ـ أُشيرَ إلى أسبقيته عليهم في معظم السور، ففي:

* سورة الأنعام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ﴾ [الأنعام: ٨٤].

* وفي سورة التوبة: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [التوبة: ٧٠].

* ومثلها في سورة غافر: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ﴾ [غافر: ٥].

* وفي سورة الذاريات: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الذاريات: ٤٦].

* وفي سورة النجم: ﴿(٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ [النجم: ٥٢].

في حين أنَّ إدريس عليه السَّلامُ لم يُذكر بالقَبليَّة على غيره من الأنبياء ولو مرة

---

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/ ٢٣١٤.

واحدة، ولو كانَ ذلك واقعاً لوُصف بذلك كما هو الحال في شأن نوح عليه السَّلامُ[١].

٤ ـ ما أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي أمامة أن رجلاً قال: يا رسول الله أنبيٌّ كانَ آدمُ؟ قال: «نعم، مُكلَّم»، قال: فكَمْ بينَه وبَينَ نوحٍ؟ قال: «عَشَرَةُ قُرونٍ» [٢] **وأخرجه الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما: كانَ بَينَ آدمَ ونوحٍ عشرةُ قُرونٍ**[٣].

ووجه دلالة هذه الآثار أن إدريس عليه السَّلامُ لم يكن قبل نوح عليه السَّلامُ، وقد قرنت نوحاً بآدم عليهما السلام في تحديد المدة بينهما، وذلك دليل على أنَّه ليس بينهما رسول آخر، ولو كانَ بينهما إدريس عليه السَّلامُ لَذُكر هو بدلاً من آدم عليه السَّلامُ، ولم يُسكَتْ عنه في جميع النصوص السابقة.

٥ ـ قول أهل الموقف ـ يوم القيامة في الحديث الصحيح ـ «أنتَ أوَّلُ الرُّسُلِ إلى أهلِ الأرضِ». فهذا الحديث ـ وهو في الصحيحين ـ يُفيد أن نوحاً لم يسبقه رسول بعد آدم عليه السَّلامُ.

٦ ـ إنَّ ابن كثير ـ وهو ممن قدَّم إدريس على نوح في البداية والنهاية اعتماداً على ما اشتهر عند المؤرخين تشكَّكَ في صحة تقديم إدريس على نوح، فقال وهو يسرد نسب نوح: هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خَنُوخ، وهو إدريس النبي عليه السَّلامُ فيما يزعمون[٤]، فقوله «فيما يزعمون»: دليل على أنَّ تقديم إدريس على نوح عليهما السلام في نظره لا يَعْدُو أن يكون مجرَّدَ زعم، لا دليلَ عليه.

---

(١) عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السَّلامُ ص ٧.
(٢) صحيح ابن حبان، ٢٥/ ٤٢١.
(٣) المستدرك على الصحيحين، ٨/ ٣٢٤، حديث صحيح على شرط البخاري.
(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، دار الحديث، القاهرة، ١٤١٥ه، ١٩٩٤م، ٣/ ٤٣١.

٧ ـ إنَّ ابن كثير مع تقديمه إدريس في الترجمة على نوح إلا أنه عدل عن ذلك وصرح بخلافه في كتاب التفسير، فقال في قوله تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]. قال رحمه الله: فذكر أوَّلَ الرُّسُل بعد آدم، وهو نوحٌ عليه السَّلامُ وآخرَهم وهو محمد ﷺ[١]. وهذا منه تصريح أنه يرى أن نوحاً هو أوَّل الرُّسُل بخلاف ما صنعه في التاريخ فإنه قد قلَّد المؤرخين في ذلك[٢].

٨ ـ في صحيح البخاري من حديث أنس رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ حينَ مرَّ بإدريسَ عليه السَّلامُ في السَّماءِ الرَّابعةِ، قالَ له إدريسُ: مرحباً بالأخِ الصَّالحِ والنَّبيِّ الصَّالحِ[٣] ولم يقل له كما قال له آدم وإبراهيم عليهما السلام: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، فلو كانَ إدريس هو الخنوخ: الذي هو الجدُّ الأعلى لنوح عليه السَّلامُ، لكان هو أيضاً الجدّ الأعلى للنبي ﷺ، ويُسلِّم على النبي ﷺ بما سلَّم عليه كلٌّ من آدم وإبراهيم عليهما السلام[٤].

وبهذا يتضح خطأ من قال إنَّ إدريس بَينَ نوح وآدم، وثبت أنَّ نوحاً عليه السَّلامُ هو أوَّل الرُّسُل[٥]، كما أنَّ الاختلاف في تقديم نوح على إدريس، أو إدريس عليه لا يترتب عليه محذور شرعي طالما أن الجميع متفقون على أنهما من الأنبياء والمُرسَلين[٦].

---

(١) ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، ٧/ ١٩٤.
(٢) عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السَّلامُ، ص ٩.
(٣) محمد إسماعيل البخاري (ت: ٢٥٦ هـ)، صحيح البخاري، بيت الأفكار الدولية، الرياض، رقم ٣٥٩٨.
(٤) عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السَّلامُ، ص ٩.
(٥) المرجع السابق، ص ٩.
(٦) المرجع نفسه، ص ١٠.

ثالثاً: الأصل في الإنسان التوحيد وأدلة ذلك:

إنَّ الأصل في الإنسان التوحيد، والشرك طارئ عليه، ويُستدلُّ عليه من عدة وجوه:

١ ـ إنَّ الإنسان الأول هو آدم عليه السَّلامُ كانَ نبيّاً يعبد الله وحده، وعلَّمَ أبناءَه التوحيد، حيث سئل النبي ﷺ عن آدم: أَنَبيٌّ هو؟ قال: «نعم، نَبيٌّ مكلَّم خلقَهُ الله بيدِهِ ثم نفخَ فيه رُوحَه» [١]:

ثم وقع بنو آدم في الشِّرْك بعدَه بأزمان.

ولم يكن الشِّرْك أصلاً في عقيدةِ البشر، لأنَّ آدم وبنيه كانوا على التوحيد، لاتِّباعهم النُّبوَّة... فإن آدم أمرهم بما أمره الله به، حيث قال له: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ ـ ٣٩]، فهذا الكلام الذي خاطب الله به آدم وغيره لما أهبطهم، قد تضمَّن أنه أوجب عليهم اتِّباع هُداه المنزَّل[٢].

٢ ـ بيَّنَ الله سبحانه أن البشرية كانت في أوَّل أمرها على التوحيد:

فالبشرية أوَّل أمرها كانت على التوحيد، ولكن طرأ عليها الشِّرْك وتعدُّد الآلهة لقوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ

---

(١) أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب أرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ٢٠٠٨م، ٥/ ٢٦٥ـ٢٦٦، إسناده صحيح.

(٢) ابن تيمية؛ تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد الحراني الحنبلي الدمشقي ت (٧٢٨هـ)، الفتاوى الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م، ٢٠/ ١٠٦ـ١٠٧.

﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

اتَّفق أهل العلم أنَّ المراد بالناس في هذه الآية هم الذين كانوا بَينَ آدم ونوح ـ عليهما السلام ـ وكلُّهم كانوا في تلك الفترة أمة واحدة بنص الآية، وإنما اختلفوا في المبدأ الذي وحَّدهم، وكانوا عليه مجتمعين.

فذهب جمهور أهل العلم إلى أنَّ الناس في تلك الفترة كانوا على دين الحق من شريعة الله، لا يختلفون في ذلك، ثم بعد مرور الزمن حصل بينهم اختلاف في توحيد الله، فبعث الله النَّبيِّين لبيان ما اختلفوا فيه، وهو قول ابن عباس وأُبيِّ بن كعب واختاره ابن جرير وابن كثير، وعليه الكثير من المحققين من المفسرين(١).

روى الحاكم بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان بَينَ نوحٍ وآدمَ عَشَرةُ قُرونٍ كلُّهم على شَريعةٍ من الحقِّ، فاختلَفوا فبعثَ الله النَّبيِّين مُبشِّرين ومُنذِرين»، ثم قال الحاكم: «وكذلك في قراءة عبد الله: «كانَ الناس أمة واحدة فاختلفوا»(٢).

وهذا القول ثابت ومشهور عن ابن عباس، رواه عنه غير واحد، قال الشوكاني: «أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو يعلى والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس قال: كانَ النَّاسُ أمةً واحدةً، قال: على الإسلامِ كلُّهم»(٣).

قال ابن جرير: فإن دليل القرآن واضح على أن الذين أخبر الله عنهم أنهم كانوا أمة واحدة، إنما كانوا أمة واحدة على الإيمان ودين الحق دون الكفر بالله والشرك به، وذلك أنَّ الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩]، فتوعَّد جلَّ ذِكرُه على الاختلاف لا على الاجتماع، ولا على كونهم

(١) عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السَّلامُ، ص ١٢.
(٢) المستدرك على الصحيحين، ٩/ ٢٥.
(٣) الشوكاني، فتح القدير، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، ١/ ٢٨٥.

أمةً واحدة، ولو أنَّ اجتماعهم قبل الاختلاف كانَ على الكفر، ثم كانَ الاختلاف بعد ذلك، لم يكن إلا بانتقال بعضهم إلى الإيمان، ولو كانَ ذلك كذلك لكان الوعد أولى بحكمته جلَّ ثناؤه في ذلك الحال من الوعيد؛ لأنها حال إنابة بعضهم إلى طاعته، ومحال أن يتوعَّد في حال التوبة والإنابة، ويترك ذلك في حال اجتماع الجميع على الكفر والشرك[(١)].

ويقصد ابن جرير بهذا أنَّ الله تعالى عابَهُم على اختلافهم بعد الاتفاق الذي كانوا عليه، فدلَّ ذلك أنَّ بعضاً منهم انتقل من حالة كانوا فيها مَرضيِّين إلى حالة صاروا فيها مَذمومينَ، ولا يكون ذلك إلا بانتقال بعضهم من الإيمان إلى الكفر، وهو الذي استدعى إرسال الرُّسُل إليهم، لبيان المحقِّ من المبطِل من الفريقَين[(٢)].

قال ابن كثير: «والقول الأول عن ابن عباس أصحُّ سنداً ومعنىً، لأن الناس كانوا على مِلَّة آدم حتى عبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم نوحاً عليه السَّلامُ، فكان أوَّلَ رسولٍ بعثَه الله إلى أهل الأرض»[(٣)] ويقول: «ثم أخبر تعالى أن هذا الشِّرْكَ حادث في الناس كائن بعد أن لم يكن وأن الناسَ كلَّهم كانوا على دين واحد وهو الإسلام»[(٤)].

٣ ـ أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه أنَّ الفطرة التي فُطرت عليها البشرية كلها هي فطرة الإسلام التي هي التوحيد الخالص[(٥)].

أ ـ قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا

(١) الطبري؛ محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري ت (٣١٠هـ)، جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م، ٤/ ٢٨٠.
(٢) د. عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السَّلامُ، ص ١٥.
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ١/ ٥٦٩.
(٤) المرجع السابق، ٢/ ٤١١.
(٥) أبو بكر محمد زكريا، الشِّرْك في القديم والحديث، ١/ ١٨٣.

تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

* ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ ﴾: أيْ: فهذا الدين هو العاصم من الأهواء المتفرقة التي لا تستند على حق، ولا تستند على علم، إنما اتِّباعٌ للشهوات والنزوات بغير ضابط ولا دليل، فأقم وجهك للدين حنيفاً مائلاً عن كل ما عداه مستقيماً على نهجه دون سواه.

* ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ﴾: وبهذا يربط بَينَ فطرة النفس البشرية وطبيعة هذا الدين، فالنفس البشرية خالقها الله، ودين الإسلام الذي دعَت له كل الرسالات السماوية من عند الله تعالى، وكلاهما موافق لناموس الوجود وكلاهما متناسق مع الآخر في طبيعته واتجاهه. والله الذي خلق القلبَ البشريَّ هو الذي أنزل إليه هذا الدين ليُحكِمَه ويُصرِّفَه ويَطِبَّ له من المرض ويقوِّمه من الانحراف. وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير. والفطرة ثابتة والدين ثابت: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ﴾، فإذا انحرفت النفوس عن الفطرة لم يردَّها إليها إلا هذا الدين المتناسق مع الفطرة. فطرة البشر وفطرة الوجود.

* ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فيتَّبعون أهواءهم بغير علم ويَضلُّون عن الطريق الواصل المستقيم، والتوجيه بإقامة الوجه للدين القيِّم ولو أنه موجه إلى الرَّسول ﷺ إلا أن المقصودَ به جميعُ المؤمنين.

لذلك يستمرُّ التوجيه لهم مفصِّلاً معنى إقامة الوجه للدين: ﴿ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٣١ ـ ٣٢]؛ فهي الإنابة إلى الله والعودة في كل أمر إليه. وهي التقوى وحساسية الضمير، ومراقبة الله في السِّرّ والعلانية، والشعور به عند كل حركة وكل سكنة، وهي إقامة الصلاة للعبادة الخالصة لله، وهي التوحيد الخالص الذي يُميِّزُ المؤمنين من المشركين.

ويصف المشركين بأنهم ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾، والشرك ألوان وأنماط كثيرة، منهم من يُشركون الجنَّ، ومنهم من يشركون الملائكة، ومنهم من يُشركون الأجداد والآباء، ومنهم من يشركون الملوك والسلاطين، ومنهم من يشركون الكهان والأحبار، ومنهم من يشركون الأشجار والأحجار، ومنهم من يشركون الكواكب والنجوم، ومنهم من يشركون النار، ومنهم من يشركون الليل والنهار، ومنهم من يشركون القيم الزائفة والرغائب والأطماع، ولا تنتهي أنماطُ الشِّرْك وأشكاله.

و﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ بينما الدِّينُ القيِّمُ واحد لا يتبدَّلُ ولا يتفرَّقُ، ولا يقود أهلَه إلا إلى الله الواحد، الذي تقوم السَّموات والأرض بأمره، ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ (١).

ب ـ قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

هذه الآية تعرض قضية التوحيد من زاوية جديدة وزاوية عميقة، تعرضُها من زاوية الفطرة التي فطر الله عليها البشر وأخذ بها عليهم الميثاق في ذات أنفسهم، وذات تكوينهم وهم بعدُ في عالم الذرِّ.

إنَّ الاعتراف بربوبيَّةِ الله وحدَه فطرةٌ أودَعها الخالقُ في الكيان البشري. وأما الرسالات فهي تذكير وتحذير لمن ينحرفون عن فطرتهم الأولى فيحتاجون إلى التذكير والتحذير.

إنَّ التوحيد ميثاق معقود بَينَ فطرة البشر وخالق البشر منذ كينونتهم الأولى، فلا حُجَّة لهم في نقض الميثاق ـ حتى لو لم يبعث إليهم بالرُّسُل يُذكِّرونهم ويُحذِّرونهم ـ ولكن رحمته وحدها اقتضت ألا يَكِلَهم إلى فطرتهم هذه فقد

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٥/ ٢٧٦٨.

تنحرف، وألا يَكِلَهم كذلك إلى عقولهم التي أعطاها لهم فقد تَضِلُّ، وأن يبعثَ إليهم رسلاً مُبشِّرين ومُنذِرين لئلا يكون للناس على الله حُجَّةٌ بعد الرُّسُل[١].

إنها قضية الفطرة والعقيدة يعرضها السياق القرآني في صورة مشهد ـ على طريقة القرآن الغالبة ـ وإنه لمشهد فريد، مشهد الذرِّية المكنونة في عالم الغيب السَّحيق، المُسْتَكِنَّة في ظهور بني آدم قبل أن تظهر إلى العالم المشهود، تُؤخذ في قبضة الخالق المربي، فيسألها: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟، فتعترف له سبحانه بالربوبيَّة، وتُقِرُّ له سبحانه بالعبودية، وتشهد له سبحانه بالوحدانية، وهي منثورة كالذَّرِّ مجموعة في قبضة الخالق العظيم، إنَّه مشهد كوني رائع باهر، لا تعرف اللغة له نظيراً في تصوُّراتها المأثورة، وإنه لمشهد عجيب فريد حين يَتملاَّهُ الخيال البشري جهد طاقته، وحينما يتصور تلك الخلايا التي لا تُحصى، وهي تُجمَعُ وتُقبض، وهي تُخاطب خطاب العقلاء، فتعترف وتُقِرُّ وتشهد، ويُؤخذ عليها الميثاق في الأصلاب.

وإنَّ الكيان البشري ليرتعش من أعماقه، وهو يتملَّى هذا المشهد الرائع الباهر الفريد، وهو يتمثَّل الذرَّ السابح، وفي كل خَليَّةٍ حياةٌ، وفي كل خَليَّة استعدادٌ كامن. وفي كل خلية كائن إنساني مكتمل الصفات ينتظر الإذن له بالنماء والظهور في الصورة المكنونة له في ضمير الوجود المجهول، ويقطع على نفسه العهد والميثاق، قبل أن يَبرُزُ إلى حَيِّزِ الوجود المعلوم[٢].

لقد عرض القرآن الكريم هذا المشهد الرائع الباهر العجيب الفريد، لتلك الحقيقة الهائلة العميقة المُسْتَكِنَّةِ في أعماق الفطرة الإنسانية وفي أعماق الوجود، عرض القرآن هذا المشهد قبل قرابة أربعة عشر قرناً من الزمان، حيث لم يكن إنسانٌ يعلم عن طبيعة النشأة الإنسانية وحقائقها إلا الأوهام! ثم يهتدي

---

(١) في ظلال القرآن، ٣/ ١٣٩١.
(٢) المرجع السابق، ٣/ ١٣٩٢.

البشر بعد هذه القرون إلى طَرَفٍ من هذه الحقائق وتلك الطبيعة. فإذا «العلم» يُقرِّر أن النَّاسلاتِ، وهي خلايا الوراثة التي تحفظ سِجِلَّ «الإنسان» وتكمن فيها خصائص الأفراد وهم بعدُ خلايا في الأصلاب[١]، وصدق الله العظيم: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[٢].

أخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس قال: «مسحَ ربُّكَ ظهرَ آدمَ، فخرجَتْ كلُّ نَسمةٍ هو خالقُها إلى يومِ القيامةِ، فأخذَ مواثيقَهم، وأشهدَهم على أنفسِهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾». ورُوي مرفوعاً وموقوفاً على ابن عباس، وقال ابن كثير: إن الموقوف أكثر وأثبت.

فأما كيف كانَ هذا المشهد؟ وكيف أخذ الله من بني آدم من ظهورهم ذريَّتهم وأشهدهم على أنفسهم؟ وكيف خاطبهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ﴾، وكيف أجابوا: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ﴾؟. فالجواب عليه: أن كيفيات فعل الله ـ سبحانه ـ غيبٌ كذاته، ولا يملك الإدراك البشري أن يُدرك كيفيَّاتِ أفعال الله ما دام أنه لا يملك أن يدرك ذات الله، إذ إن تصوُّر الكيفية فرع عن تصوُّر الماهيَّةِ.

* وهناك تفسير لهذا النصِّ بأن هذا العهد الذي أخذه الله على ذُرِّية بني آدم هو عهد الفطرة، فقد أنشأهم مفطورين على الاعتراف له بالربوبيَّة وحدَه، أودع هذا فطرتهم فهي تنشأ عليه، حتى تنحرف عنه بفعل فاعل يُفسِد سواءَها، ويميل بها عن فطرتها[٣].

قال ابن كثير في التفسير: قال قائلون من السَّلَف والخَلَف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرُهم على التوحيد، كما تقدَّم في حديث أبي هريرة، وعياض

---

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٣/ ١٣٩٢.
(٢) المرجع السابق، ٣/ ١٣٩٣.
(٣) المرجع نفسه، ٣/ ١٣٩٣.

بن حمار المجاشعي، ومن رواية الحسن البصري عن الأسود بن سريع، وقد فسَّرَ الحسنُ الآية بذلك، قالوا: ولهذا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾، ولم يَقل: من آدمَ.. ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾، ولم يَقل من ظَهرِه.. ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي جعل نسلَهم جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن.

* قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

* وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢].

* وقال: ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣].

* ثم قال: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] أيْ: أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له ـ حالاً ـ وقالوا: والشهادة تارةً تكون بالقول كقوله: ﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

* وتارةً تكون حالاً كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧]، أيْ: حالهم شاهد عليهم بذلك، لا أنهم قائلون ذلك.

* وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات: ٧].

* كما أن السؤال تارةً يكون بالمقال، وتارةً يكون بالحال. كقوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. قالوا: ومما يدلُّ على أن المراد بهذا أن جعل الإشهاد حُجَّةً عليهم في الإشراك، فلو كانَ قد وقع هذا، كما قال من قال، لكان كلُّ أحدٍ يُذكِّره ليكون حُجَّةً عليه.

فإن قيل: إخبار الرَّسول ﷺ به كافٍ في وجوده، فالجواب: أن المُكذِّبين من المشركين يُكذِّبون بجميع ما جاءتهم به الرُّسُل من هذا وغيره، وهذا جُعل حُجَّةً عليهم، فدلَّ على أنه الفطرة التي فُطروا عليها من الإقرار بالتوحيد. ولهذا قال: ﴿أَن تَقُولُوا۟﴾، أيْ: لئلا تقولوا ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾، أيْ:

التوحيد(١)، ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٣].

أما الأحاديث التي أُشير إليها في أوّل هذه الفقرة فهي:

* في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ مولودٍ يُولدُ على الفِطرةِ فأَبواهُ يُهوِّدانه ويُنصِّرانهِ ويُمجِّسانهِ، كما تُولدُ بهيمةٌ جَمعاءُ، هل تُحِسُّون فيها من جَدعاءَ»؟(٢).

* وفي صحيح مسلم: قال رسول الله ﷺ: «يقولُ الله إنِّي خلقتُ عبادي حُنَفاءَ، فجاءتهم الشَّياطينُ فاجتالَتْهم عن دينِهم، وحَرَّمَت عليهم ما أحلَلْتُ لَهُم» (٣).

ونحن لا نستبعد أن يكون قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدْنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، على وجهه لا على سبيل الحال؛ لأنه في تصوُّرنا يقع كما أخبر عنه الله سبحانه، وليس هناك ما يمنع أن يقع حين يشاؤه، ولكنا كذلك لا نستبعد هذا التأويل الذي اختاره ابن كثير، وذكره الحسن البَصريُّ واستشهد له بالآية، والله أعلم.

وفي الحالين يخلص لنا أن هناك عهداً من الله على فطرة البشر أن تُوحِّدَه. وأن حقيقة التوحيد مركوزة في هذه الفطرة يخرج بها كلُّ مولود إلى الوجود فلا يميل عنها إلا أن يُفسِدَ فطرتَه عاملٌ خارجيٌّ عنها! عاملٌ يستغلُّ الاستعدادَ البشريَّ للهدى وللضلال، وهو استعداد كذلك كامن تخرجه إلى حيِّز الوجود مُلابساتٌ وظُروفٌ(٤).

---

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، ٣/ ١٣٩٤.
(٢) صحيح البخاري، رقم ١٣٥٨.
(٣) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٣/ ١٣٩٤. وفي: صحيح مسلم، رقم ٢٨٦٥.
(٤) المرجع السابق، ٣/ ١٣٩٤.

إنَّ توحيد الله عزَّ وجلَّ ميثاقٌ معقود بَينَ الفطرة وخالقها، ميثاقٌ مُودَع في كيانها، مودع في كل خَليَّة حيَّةٍ منذ نشأتها، وهو ميثاق أقدم من الرُّسُل والرسالات، وفيه تشهد كلُّ خَليَّةٍ بربوبيَّةِ الله الواحد، ذي المشيئة الواحدة، المُنشِئة للناموس الواحد الذي يَحكُمها ويُصرِّفُها، فلا سبيل إلى الاحتجاج بعد ميثاق الفطرة وشهادتها ـ سواء أكان بلسان الحال هذا أم بلسان المقال كما في بعض الآثار ـ لا سبيل إلى أن يقول أحد: إنه غفل عن كتاب الله الهادي إلى التوحيد، وعن رسالات الله التي دعت إلى هذا التوحيد أو يقول: إنني خرجتُ إلى هذا الوجود، فوجدتُ آبائي قد أشركوا فلم يكن أمامي سبيلٌ لمعرفة التوحيد إنما ضَلَّ آبائي فضَلَلتُ فهم المسؤولون وحدَهم ولست بالمسؤول! ومن ثم جاء هذا التعقيب على تلك الشهادة: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾؟.

ولكن الله ـ سبحانه ـ رحمةً منه بعباده، لِمَا يَعلمُه من أن في استعدادهم أن يَضِلُّوا إذا أُضِلُّوا، وأن فطرتهم هذه تتعرَّض لعوامل الانحراف ـ كما قال رسول الله ﷺ بفعل شياطينِ الجنِّ والإنسِ الذين يعتمدون على ما في التَّكوينِ البشريِّ من نقاط الضعف. رحمةً من الله بعباده قدَّرَ ألا يُحاسبَهم على عهد الفطرة هذا كما أنه لا يُحاسِبُهم على ما أعطاهم من عقل يُمَيِّزون به حتى يُرسِلَ إليهم الرُّسُلَ، ويُفصِّلَ لهم الآياتِ، لاستنقاذ فطرتهم من الرُّكامِ والتَّعطل والانحراف، واستنقاذ عقلهم من ضغط الهوى والضَّعفِ والشهوات.

ولو كانَ الله يعلم أن الفطرة والعقول تكفي وحدها للهُدى دون رسل ولا رسالات، ودون تذكير وتفصيل للآيات، لأخذ الله عباده بها، ولكنه رَحِمَهم بعلمه فجعل الحُجَّةَ عليهم هي الرسالة: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾، يرجعون إلى فطرتهم وعهدها مع الله وإلى ما أودعه الله كينونتهم من قوى البصيرة والإدراك. فالرَّجعةُ إلى هذه المكنونات كفيلةٌ بانتفاض حقيقة

التوحيد في القلوب ورَدِّها إلى بارئها الوحيد، الذي فطرها على عقيدة التوحيد. ثم رحمها فأرسل إليها الرُّسُلَ بالآيات للتَّذكير والتَّحذير[١].

٤ ـ بيَّن الله في كتابه أنَّ التوحيد هو أصل دعوة الرُّسُل، وإليه دعوا أقوامهم:

* قال تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

هذه الآية توضِّح حقيقة الأصل الواحد، والنشأة الضَّاربة في أصول الزمان، ويُضيف إليها لمحةً لطيفةَ الوقعِ في حسِّ المؤمن. وهو ينظر إلى سلفه في الطريق الممتدَّةِ من بعيد، فإذا هم على التَّتابع هؤلاء الكرام: نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، محمد ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ ويستشعر أنه امتداد لهؤلاء الكرام، وأنه على دربهم يسير، إنه سيَستروِحُ السَّيرَ في الطريق، مهما يجد فيه من شوك ونَصَبٍ، وحرمان من أعراض كثيرة، وهو برفقة هذا الموكب الكريم على الله، الكريم على الكون كلِّه منذ فجر التاريخ.

ثم إنَّه السلام العميق بَينَ المؤمنين بدين الله الواحد، السائرين على شرعه الثابت وانتفاء الخلاف والشقاق والشعور بالقربى الوثيقة، التي تدعو إلى التعاون والتفاهم، ووصل الحاضر بالماضي، والماضي بالحاضر، والسير جملةً في الطريق، وإذا بالذي شرعه الله من الدين للمسلمين المؤمنين بمحمد هو ما وصَّى به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى.

* ففيم يتقاتل أتباع موسى وأتباع عيسى؟

* وفيم يتقاتل أصحاب المذاهب المختلفة من أتباع عيسى؟

* وفيم يتقاتل أتباع موسى وعيسى مع أتباع محمد؟

---

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٣/ ١٨٤.

* وفيم يتقاتل من يزعمون أنهم على مِلَّة إبراهيم من المشركين مع المسلمين؟

والوصية الواحدة الصادرة للجميع ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾. فيُقيموا الدين، ويَقُومُوا بتكاليفه، ولا يَنحرفوا عنه ولا يَلتَوُوا به ويقفوا تحت رايته صفّاً، وهي رايةٌ واحدة، رفعها على التوالي نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ـ صلوات الله عليهم ـ حتى انتهت إلى محمد ـ ﷺ ـ في العهد الأخير[1]، في الدعوة إلى توحيد الله عزَّ وجلَّ، وإفراده بالعبادة، وطاعته وتقواه.

* قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

* قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

* قال تعالى: ﴿وَسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

* كلُّ رسولٍ افتتح دعوتَه لأُمَّته بالدعوة إلى عبادة الله، فقال: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

إنَّ الناس كانوا بعد آدم ـ عليه السَّلامُ ـ وقبل نوح ـ عليه السَّلامُ ـ على التوحيد والإخلاص كما كانَ عليه أبوهم آدم أبو البشر ـ عليه السَّلامُ ـ حتى ابتدعوا الشِّرْكَ وعبادة الأوثان ـ بدعةً من تلقاء أنفسهم ـ لم يُنزل الله بها كتاباً ولا أرسل بها رسولاً، بشبهات زيَّنَها الشيطانُ من جهة المقاييس الفاسدة، والفلسفة الحائدة، قوم منهم زعموا أن التَّماثيل طلاسِمُ الكواكب السماوية، والدرجات الفَلَكيَّة، والأرواح العُلويَّة، وقوم جعلوها لأجل الأرواح السُّفليَّة من الجنِّ والشَّياطين،

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٥/ ٣١٤٨.

وقوم على مذاهبَ أُخرى، فابتعثَ الله نبيَّهُ نوحاً عليه السَّلامُ يدعوهم إلى عبادة الله وحدَه لا شريكَ له، ويَنهاهم عن عبادة ما سواه، وجاءت الرُّسُل بعدَه تَترى، إلى أن عمَّ الأرضَ دينُ الصابئة والمشركين، كما كانت النماردة والفراعنة، فبعث الله تعالى إمامَ الحنفاء وأساسَ المِلَّةِ الخالصة والكلمةَ الباقية إبراهيمَ خليلَ الرحمن، فدعا الخلق إلى التوحيد والإخلاص، ونهاهم عن عبادة الكواكب والأصنام، فجعل الله الأنبياء والمُرسَلين من أهل بيته، وبعث الله بعده أنبياء من بني إسرائيل، ثم بعث الله عيسى المسيح ابن مريم(١).

رابعاً: علماء الآثار والباحثون في الأديان وأصل التوحيد:

إنَّ الأصل في الإنسان التوحيد وهو أوَّل ديانة عرفتها البشرية، ثم بدأ الإنسان بالانحراف فتدرَّجَ أمرُه حتى وقع في الشِّرك، وذلك هو الحق الذي لا ريبَ فيه، ثم إنَّ هذا القول الموافق للقرآن والسُّنة والفطرة والعقل الصريح الموافق للنقل الصحيح قد اهتدى إليه بعض علماء الآثار والباحثون في الأديان، من الغربيِّين وغيرهم، نذكر هنا نماذج من أقوالهم:

١ ـ يقول الباحث (أدميسون هيوبيل) المختص في دراسة الملل البدائية: لقد مضى ذلك العهد الذي كانَ يُتَّهم الرجل القديم بأنه غير قادر على التفكير فيما يتعلق بالذات المُقدَّسة، أو في الله العظيم، ولقد أخطأ (تايلور) حيث جعل التفكير الدينيَّ الموحِّد نتيجةً للتَّقدُّم الحضاري، والسُّموِّ المعرفيِّ، وجعل ذلك نتيجةً لتطوُّرٍ بدأ من عبادة الأرواح والأشباح، ثم التعدُّد، ثم أخيراً العثور على فكرة التوحيد(٢).

---

(١) ابن قيِّم الجوزيَّة؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ت (٧٥١هـ)، مدارج السالكين بَينَ منازل إياك نعبد وإياك نستعين، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٦، ٣/ ٤٤٧، ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٢٨/ ٦٠٣، أبو بكر محمد زكريا، الشِّرْك في القديم والحديث، ١/ ١٨٥.

(٢) أبو بكر محمد زكريا، الشِّرْك في القديم والحديث، ١/ ١٩٩.

٢ ـ ويقول الباحث (أندريلانج) من علماء القرن الماضي: إنَّ الناس في أستراليا وأفريقيا والهند لم ينشأ اعتقادهم في الله العظيم على أساس من الاعتقاد المسيحي، وقد أكد هذا الرأي العالم الأسترالي (وليم سميث) حيث ذكر في كتابه (أسس فكرة التوحيد) مجموعة من البراهين والأدلة جمعها من عدة مناطق واتجاهات تُؤكِّد أنَّ أوَّلَ عبادة مارسَها الإنسان كانت تُجاهَ الله الواحد العظيم(١).

٣ ـ يقول الدكتور (حاج أورانج كاي) من علماء الملايو في إندونيسيا: عندنا في بلاد «أرخبيل» الملايو دليل أكيد على أنَّ أهل ديارنا هذه كانوا يعبدون الله الواحد، وذلك قبل أن يدخل الإسلام إلى هذه الديار، وقبل أن تدخل النصرانية، وفي عقيدة جزيرة «كلمنتان» بإندونيسيا لوثة من الهندوسية، ورائحة من الإسلام، مع أنَّ التوحيد كعبادة لأهل هذه الديار كانَ هو الأصل قبل وصول الهندوسية أو الإسلام إليها، وإذا رجعنا إلى اللغة الدارجة لأهل هذه الديار قبل استخدام اللغة السنسكريتية أو قبل الهجرة الهندوسية أو دخول الإسلام تأكَّدنا من التصوُّر الاعتقادي لأجدادنا ـ حسب النطق والتعبيرات الموروثة ـ: أنَّ الله في عقيدتهم واحد لا شريك له(٢).

إنَّ هؤلاء العلماء وغيرهم من أمثال: لانج، وفريزر شميدث، وبتاتزولي، وفوكارت، قد توصَّلوا في أبحاثهم التي قاموا بها إلى أنَّ الأصل هو التوحيد وليس الشرك، وسَمَّوا نظريتَهم: (نظرية فطرية التوحيد وأصالته(، وقد انتصر لهذه النظرية فريق كبير من العلماء وأيدوها بما توصلوا إليه من اكتشافات وحفريات قديمة تدل على أنَّ هناك أمم عريقة لم تكن تعرف تعدُّدَ الآلهة، وكانت

---

(١) أبو بكر محمد زكريا، الشِّرْك في القديم والحديث، ١/ ١٩٩.

(٢) المرجع السابق، ١/ ٢٠٠، ود. حاج أورانج كاى رحمات بن دانو، التفكير الديني في العالم قبل الإسلام، ترجمة: د. عبد الرؤوف شلبي، دار الثقافة، الدوحة. قطر، ١٩٨٣م، ص ٢٨ ـ ٣٠.

تؤمن بالإله الواحد، وبنوا عليه أنَّ عقيدة الوحدانية هي أقدم ديانة عرفها البشر، وأنَّ التَّعدُّد والوثنيَّة طارئة ومتطفلة على عقيدة التوحيد(١).

إنَّ الأصل في الإنسان التوحيد، وهذا يدحَضُ افتراءاتِ القائلين بأن التديُّن من صنع الإنسان، وأول عبادة عند الإنسان كانت للآلهةِ المتعدِّدة، ثم ترقَّت إلى عبادة إلهين، كإله النور وإله الظلام، وإله الخير وإله الشَّرِّ، ثم تَرقَّت إلى عبادة إله واحد(٢).

وإنَّ التوحيد هو الأصل ومغروس في الفِطَر، وأيقَنَتْ به العقول الرشيدة، وأثبتته التجارب التاريخية الصادقة التي كانَ زعماؤها سادةَ البشر من الأنبياء والمُرسَلين، فالإنسانية ـ إذن ـ بدأت بالتوحيد ثم انتهت شيئاً فشيئاً إلى الشِّرْك والتَّعدُّد، وهذه هي الحقيقة العلمية المُؤيَّدةُ بالدليل العقليِّ والنقل والمنطق والبحث العلمي، وهذه الحقائق الدامغة تَقلِبُ نظريَّةَ (أوغاسط كونت) رأساً على عقب فقد كانَ (أوغاسط كونت) يرى أن الإنسانية بدأت بالتَّعدُّد والشِّرك، ثم التوحيد خاتمة المطاف فيها، وهذه النظريَّة لم تقف أمام الأبحاث الحديثة، بحيث انهارت كما انهار غيرها من نظريات هذا المُفكِّر الذي كانَ يحتلُّ يوماً مكان الصدارة بَينَ المُفكِّرين، والذي أصبحت آراؤه تُدرَّس الآن على أنها أثر تاريخيٌّ فحسب.

ومهما يكن من شيء، فإنه حينما انحرفتِ الإنسانية في عقيدتها شاءت رحمة الله أن يرسل نوحاً عليه السَّلامُ؛ مُبشِّراً بالحقِّ في مجال العقيدة، وبالخير في مجال الأخلاق، وبالعدالة في مجال التشريع(٣).

---

(١) أبو بكر محمد زكريا، الشِّرْك في القديم والحديث، المرجع السابق، ١/ ١٩٦.

(٢) محمد عبد القادر أبو فارس، مع الأنبياء في الدعوة إلى الله، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان. الأردن، ٢٠١٣، ص ٢٨.

(٣) عبد الحليم محمود، قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرُّسُل، ص ٦٤.

خامساً: أوَّل شرك وقع في بني آدم:

إنَّ أوَّل شركٍ وقع في بني آدم هو في قوم نوح عليه السَّلامُ، وهو أوَّل الرُّسُل كما في حديث الشفاعة المشهور، حيث ورد فيه: «يا نُوحُ أنتَ أوَّلُ الرُّسُلِ إلى الأرضِ»(١)، وكما جاءت الآية التي تكلَّمَت على الرُّسُل بتصديره، مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

وهكذا جاء ذِكرُه في مواضع مَدح الله جلَّ وعلا النَّبيِّين والمُرسَلين، كما قال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]، وبذلك، فإن نوحاً عليه السَّلامُ، إنما بعثه الله تعالى لَمَّا عُبدت الأصنام والطواغيت، وشرع الناس في الضَّلال والكفر، فبعثه الله رحمةً للعباد، فكان أوَّلَ رسول بُعث إلى أهل الأرض ـ كما يقول أهل الموقف يوم القيامة ـ وقد وقع قوم نوح في الشِّرْك والعمل بما يُبغضه الله عزَّ وجلَّ من ركوب الفواحش، وشُرب الخمور والاشتغال بالملاهي عن طاعة الله عزَّ وجلَّ(٢).

ويُستدلُّ على أنَّ أوَّل شِرك وقع في بني آدم هو في قوم نوح، أنَّهم أحدثوا الشِّرْك وعبادة الأصنام، قال تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢١: ٢٤].

وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: «هذه أسماءُ رجالٍ صالحين

---

(١) صحيح البخاري، رقم ٣٣٤٠.
(٢) أبو بكر محمد زكريا، الشِّرْك في القديم والحديث، ١/ ٢٤١.

من قومِ نوحٍ، فلمَّا هَلَكوا أوحَى الشَّيطانُ إلى قومِهِم، أن انصِبُوا إلى مجالسِهم التي كانوا يَجلِسُون أنصاباً وسَمُّوها بأسمائِهم، فَفَعَلوا، فلم تُعبَدْ، حتى إذا هلكَ أولئك وتنسَّخَ العِلمُ عُبِدَت».

قال ابن جرير الطبريُّ في تفسيره: «كانوا قومًا صالحين ـ ودًّا، وسواعاً، ويغوث، ويعوق، ونسراً ـ بَينَ آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صَوَّرناهم كانَ أشوقَ لنا إلى العبادة إذا ذَكَرْناهم، فَصَوَّروهُم، فلما ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليسُ فقال: إنما كانوا يَعبدونَهم وبهم يُسقَونَ المَطَرَ، فَعَبَدُوهم»[(١)].

قال ابن قيِّم الجوزيَّة: «قال غيرُ واحد من السَّلَفِ: لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوّروا تماثيلَهم، ثم طال عليهم الأمدُ فعَبدوهم»[(٢)]، فثبت أنَّ أصل الشِّرْك في بني آدم كانَ من الشِّرْك بالبشر الصالحين المعظَّمين، فإنهم لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوَّروا تماثيلهم ثم عبدوهم، فهذا أوَّلُ شِركٍ كانَ في بني آدم وكان في قوم نوح[(٣)].

وفي حديث ابن عباس الذي أخرجه البخاري في صحيحه دروس وعبر كثيرة، من أهمها ما يلي:

١ ـ زَيَّنَ الشَّيطانُ لقوم نوحٍ وجوب تعظيم الرجال الصالحين بعد موتهم، وأوحى إليهم أن انصبوا إلى مجالسهم وسمُّوها بأسمائهم، وجاء آخرون من قوم نوح فأوحى إليهم الشَّيطان أنَّ من كانوا قبلكم كانوا يعبدون هذه الأصنام فعبدوها.

---

(١) الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، ١٢/ ٦٢.
(٢) ابن قيِّم الجوزيَّة، إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان، تحقيق: محمد عزير شمس ـ مصطفى بن سعيد إيتيم، مجمع الفقه الإسلامي، جدة، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٣٢ه، ١/ ٢١٠.
(٣) ابن قيِّم الجوزيَّة، إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان، ١/ ٢١٠.

٢ ـ لقد استخفَّ الشَّيطانُ قومَ نوح فأطاعوه، وأصبحوا جنوداً في جيشه، وأعضاء في حزبه، وكان من الواجب عليهم أن يَحذروا منه لأنه عدوٌّ مبينٌ لهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨ ـ ١٦٩].

٣ ـ كان من الواجب عليهم أن يعلموا أنَّ عبادة الله تعني عصيان الشَّيطانِ ومخالفتَه في كلِّ ما يُوسْوِسُ به، وقد أخذ الله عهداً في ذلك على عباده المُوحِّدِين: قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

٤ ـ جاء في حديث ابن عباس: . . فلم تُعبد ـ أي الأصنام ـ حتى إذا هلك أولئك وتنسَّخ العلم عُبدت. و«تنسَّخ»: من نسخ، أيْ: زال، وللكشميهني: «نسخ العلم» أيْ: درست آثاره بذهاب العلماء، وعمَّ الجهل حتى صاروا لا يميّزون بينَ التوحيد والشرك، فوقعوا في الشِّرْك ظناً منهم أنه ينفعهم عند الله[1]. وإذن: لم يستطع الشَّيطان أن يُحقِّقَ هدفاً واحداً من أهدافه في عشرين قرناً ما بَينَ آدم ونوح عليهما السلام؛ لأن حِيَلَه لا تنطلي على العلماء، وبضاعتَهُ لا تَجِدُ رَواجاً بينهم؛ لأنهم يَعرضون كلَّ جديدٍ على شرع الله، والعبادة عندهم لا تكون إلا بما شرع الله. وعندما عمَّ الجهل ومات العلماء أصبحت أوامر الشَّيطان نافذة، وأقواله مسموعة، ومن أجل هذا كانت أوَّل آية تتنزَّل على خاتم الأنبياء والمُرسَلين: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥]. وأخذ النبي ﷺ

---

(١) محمد سرور بن نايف زين العابدين، منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله، دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٨٨م، ١/ ٤٣.

يُعلِّم أصحابَه، ويُربِّيهم في مدرسة الأرقم بن أبي الأرقم، وتخرَّج من هذه المدرسة العظيمة رجال علماء، عرفوا كيف يتصدَّوا للشيطان ووَساوسِه من خلال القرآن الكريم، وتعاليم النبي العظيم(١).

٥ ـ لم يطلب الشَّيطان من قوم نوح عبادةَ غيرِ الله دفعةً واحدة، ولو فعل ذلك لما استجاب له أحد، لكنه تدرَّجَ معهم فهو من جهةٍ زعم حُبَّه للرجال الصالحين، وأوحى لقوم نوح بوجوب صنع تماثيل لهم تخليداً لذكراهم، وبعد انقراض من تبقى من العلماء، أوحى لمن جاء بعدهم من الجاهلين أنَّ من سبقهم كانوا يعبدون هذه الأصنام، فاستجابوا له(٢).

٦ ـ معبودات قوم نوح: تعرَّض القرآن الكريم لمعبودات قوم نوح في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]. وهكذا بيَّن لنا القرآن الكريم أنَّ الأصنام التي كانَ يعبدها قوم نوح: هي ودٌّ وسُواعٌ ويَغوثُ ويَعوقُ ونَسرٌ، وهي من أقدم الأصنام التي عُبدت قاطبةً، إن لم تكن أقدمها على الإطلاق، وأنَّ ذلك يرجع إلى ما قبل طوفان نوح، وذلك حين صوَّر القوم بعض الصالحين منهم، ثم وضعوا لهم الصُّور والتماثيل لإحياء ذكراهم والاقتداء بهم، ثم بعد ذلك عبدوا هذه الصور وتلك التماثيل، فالذي لا شكَّ فيه أنَّ هذه الأصنام إنما كانَ يعبدها قوم نوح عليه السَّلامُ، وروى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: «صارَتِ الأوثانُ التي كانت في قَومِ نوحٍ في العَربِ بعدُ: أمَّا ودٌّ كانت لِكَلبٍ بدَومةِ الجَندَلِ، وأمَّا سُواعٌ كانت لِهُذَيل، وأما يغوثُ فكانت لمُرادٍ ثم لبني غطيف بالجوف عند سبأ، وأما يعوقُ فكانت لهمدانَ، وأما نسرٌ فكانت لحِميرَ لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشَّيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي

(١) محمد سرور بن نايف زين العابدين، منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله، ١/ ٤٤.
(٢) المرجع نفسه، ١/ ٤٤.

كانوا يجلسون أنصاباً وسمُّوها بأسمائهم ففعلوا، فلم تُعبَد حتى إذا هلك أولئك وتنسَّخ العِلمُ عُبدت»[(١)].

ويتبين لنا من هذا أنَّ عبادة الأوثان لم تتسرَّبْ إلى عقائد البشر بَينَ عشيَّة وضُحاها، بل استغرقت شوطاً من الزمن منذ الانحراف الأول، وكان للطبيعة المادية وتسلُّطِ الشَّيطان على الإنسان أثرٌ في انتشار هذا الأمر واتِّساعه، ولا يَظُنُّ أحدٌ أنَّ تطوُّر البشرية في العلوم وتقدُّمَها في الميدان الحضاري لن يُعيد الإنسانية إلى مرحلة الوثنيَّة تلك، فإننا ما زلنا نرى صُوَراً مختلفة من الوثنيَّة الحديثة تلك، التي تُذكِّرنا بالجاهلية الأولى، فكثير ممَّا يُطلَق عليها «دور العبادة» مليئةٌ بالأوثان والأصنام، التي يقف أمامها بعض البشر في عصرنا سائلاً ومتضرعاً بعيداً عن توحيد الله وإفراده بالعبادة سبحانه وتعالى.

وهنا نجد عظمة الإسلام في تحصين العقيدة عند المسلم وهو العامل الوحيد في منع الانحراف، ويظهر ذلك في التوحيد الخالص ومنع المظاهر التي تذهب بالإنسان عنه، فقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه لما ذَكرت عندَه أمُّ سلمة وأمُّ حبيبة تلك الكنيسة التي رأيناها بأرض الحبشة يقال لها مارية، فذكرنا من حسنها وتصاويرَ فيها، قال: «أولئك إذا ماتَ منهمُ الرَّجلُ الصَّالِحُ بَنَوا على قَبرِهِ مسجداً، ثم صَوَّروا فيه تلك الصُّورةَ، أولئكَ شرارُ الخلقِ عندَ الله»[(٢)].

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي لم يَقُمْ منه: «لَعَنَ الله اليهودَ والنَّصارى، اتَّخذوا قُبورَ أَنبيائِهم مَساجِدَ»، قالت: «فلولا ذاك أَبرزَ قَبرَه، غيرَ أنه خَشِيَ أن يُتَّخذَ مَسجِداً»[(٣)].

---

(١) محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م، ٤/١٣.

(٢) صحيح البخاري، رقم (٤٢٧)، وصحيح مسلم، رقم (٥٢٨)، والنسائي في سننه، وأحمد في مسنده.

(٣) صحيح مسلم، كتاب المساجد، مواضع الصلاة، رقم (٥٢٩)، صحيح البخاري، رقم (١٣٩٠).

وروى الإمام البخاريُّ في صحيحه عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: «كُسِفَتِ الشَّمسُ على عهدِ رسولِ الله ﷺ يومَ ماتَ إبراهيمُ، فقالَ النَّاسُ: كُسِفَتِ الشَّمسُ لموتِ إبراهيمَ، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «إنَّ الشمسَ والقمرَ لا يَنكسفان لِموتِ أَحَدٍ وَلا لِحَياتِهِ، فَإِذا رَأَيْتُمْ فَصَلُّوا، وادْعُوا الله»»[١].

فمن كلام رسول الله ﷺ هذا نجد كيف عالج الإسلام مظاهر الانحراف العقائدي الذي يتسرَّب إلى البشر عن طريق العلاقة بالعظماء في الحياة أو بعد الموت[٢].

وكيف أنَّ الإسلام سدَّ منافذ الشِّرْك ودعا إلى التوحيد الخالص، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٢ ـ ٣].

هذا وعندما نسيَ النَّاس عهدَ الله وخرجوا عن مِلَّة التوحيد التي هي فطرةُ الله، ولم يبق في الأرض يومئذٍ من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً، أرسل الله إليهم نبيَّه نوحاً عليه السَّلامُ يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه، وإن زعموا أنهم يعبدونهم ليقربوهم إلى الله زُلفى ويتَّخذوهم شُفَعاء[٣].

سادساً: القرآن الكريم مصدر تاريخي:

القرآن الكريم هو كتاب الله الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقد نزل على رسول الله ﷺ منجَّماً في ثلاث

(١) صحيح البخاري، باب الصلاة في كسوف الشمس، رقم (٩٩٦)، نقلاً عن الشيخ القاضي محمد دالي بلطة، قصص الأنبياء، المكتبة العصرية، صيدا. بيروت، د. ت، ص ٤٣.
(٢) محمد دالي بلطة، قصص الأنبياء، ص ٤٣.
(٣) أبو بكر محمد زكريا، الشِّرْك في القديم والحديث، ١/ ٢٣٣.

وعشرين سنة، حسب الحوادث ومقتضى الحال، وكانت الآيات والسور تُدوَّن ساعةَ نزولها، إذ كانَ المصطفى ﷺ إذا ما أُنزلت عليه آية أو آيات قال: «ضَعُوها في مَكانِ كذا... مِن سُورةِ كذا».

فقد ورد أنَّ جبريل عليه السَّلامُ كانَ ينزل بالآية أو الآيات على النبي ﷺ، فيقول له: يا محمد إنَّ الله يأمرك أن تضعها على رأس كذا من سورة كذا، ولهذا اتَّفق العلماء على أنَّ جمع القرآن «توقيفيّ»، بمعنى أنَّ ترتيبه بهذه الطريقة التي نراه عليها اليوم في المصاحف، إنما هي بأمرٍ ووحيٍ من الله[1].

وقد يسَّر الله لهذه الأمة من عهد الرَّسول ﷺ وأصحابه الكرام حفظ كتابه الكريم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٣٢]، فكتب الله له الخلود، وحماه من التحريف والتبديل، وصانه من تطرُّق الضياع إلى شيءٍ منه عن طريق حفظه في السطور، وحفظه في الصدور[2]، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١ ـ ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧ ـ ١٩].

والقرآن الكريم كمصدر تاريخي لا ريب أنه أصدَقُ المصادر وأصحُّها على الإطلاق، ولا سبيل إلى الشَّكِّ في صحَّة نصِّه، بحال من الأحوال، لأنه ذو وثاقة تاريخية لا تقبل الجدل، فقد دُوِّن في البداية بإملاء الرَّسول ﷺ، وتُلِي فيما بعد، وحمل تصديقه النهائي قبل وفاته[3]؛ ولأن القصص القرآني إنما هو أنباء

---

(١) محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم، ١/ ١٩.

(٢) محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض. السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م، ص ١٢ ـ ١٤.

(٣) محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، ص ٤٩.

وأحداث تاريخية، لم تلتبس بشيء من الخيال والأساطير، وأنه كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

ثم إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد تعهَّد ـ كما أشرنا من قبل ـ بحفظه دون تحريف أو تبديل، ويرى الدكتور محمد عبد الله دراز أن تسمية القرآن الكريم بالقرآن وبالكتاب، إنما تعني الأولى كونَه مَتلوّاً بالألسن، بينما تعني الثانية كونَه مدوَّناً بالأقلام، وإنَّ تسمية القرآن الكريم بهذين الاسمين إشارةٌ إلى أنَّ الله سوف يحفظه في موضعين، لا في موضع واحد، أعني حفظه في الصدور والسطور جميعاً(١).

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة الإسلامية، اقتداءً بنبيِّها ﷺ، بقي القرآن محفوظاً في حرز حريز، إنجازاً لوعد الله الذي تكفَّل بحفظه حيث يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ولم يُصِبْه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السَّنَد، حيث لم يتكفَّلِ الله بحفظها، بل وكلَها إلى حفظ النَّاس، فقال تعالى: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤]، أي بما طُلب إليهم حِفظُه، والسِّرُّ في هذه التفرقة أن سائر الكتب السماوية جِيء بها على التوقيت لا التأبيد، وأنَّ هذا القرآن جِيء به مُصدِّقاً لما بَينَ يديه من الكتب ومُهيمناً عليها، فكان جامعاً لما فيها من الحقائق الثابتة، زائداً عليها بما شاء الله زيادته، وكان سادّاً مسدَّها، ولم يكن شيء فيها يسدُّ مسدَّه، فقضى الله أن يبقى حُجَّةً إلى قيام الساعة، وإذا قضى الله أمراً يَسَّرَ له أسبابَه وهو الحكيم العليم(٢).

ولم يُنزَّل القرآن الكريم بمثابة كتاب في التاريخ يتحدَّث عن أخبار الأمم، كما يتحدَّث عنها المؤرخون، وإنما هو كتاب هداية وإرشاد، أنزله الله سبحانه

---

(١) المرجع السابق، ص ١٢ـ١٣.
(٢) محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم، ١/ ٣٩.

وتعالى ليكون دستوراً للمسلمين، ومنهاجاً يسيرون عليه في حياتهم، يدعوهم إلى التوحيد وتهذيب النفوس، ومحاسن الأخلاق والميزان للعدالة في الحكم، فإذا ما عرض لحادثة تاريخية فإنما للعبرة والعظة(١)، واستلهام سُنَن الله في قيام الدول وسقوطها، وازدهار الحضارات وزوالها، وصفات قادة التغيير الإنساني، ومناهجهم في إدارة الصراع مع قوى الظلام والشَّرِّ والضَّلال، والبغي والإجرام.

ويهتمُّ القصصُ القرآني بالعبر والدُّروس الفرديَّة والأسريَّة والإنسانيَّة، ومعالجة الأمراض النفسيَّة، ودلالةِ الخَلْق على الصِّلة بالله وإفراده بالعبودية، والتضرُّع بَينَ يديه، وشدة الدعاء والانكسار، والتجارب المتنوعة لبني الإنسان، ومنها قصة يوسف وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ فقصة يوسف قصة إنسان قد تعرَّض منذ طفولته لآفات الطبائع البشرية من حسد الإخوة إلى غواية المرأة، إلى ظُلْم السجن إلى تكاليف الولاية وتدبير المصالح في إبَّانِ الشِّدَّة والمجاعة، وقصة إسماعيل تتخلَّلُها هذه التجارب الإنسانية، من عهد الطفولة كذلك، فيُعاني من الغربة عن العشيرة وعن الزاد والماء، وإن كانَ الأخطر من ذلك كلِّه أن تكتب عليه التجارب الإنسانية ضريبة الفداء، وهي في مفترق الطرق بَينَ الهمجية التي كانت ـ في معظم مجتمعات الشرق القديم ـ لا تتورَّع عن الذبائح البشرية، وبين الإنسانية المُهذَّبة التي تتورَّع عن ذبح الإنسان، ثم يُكتب لهذا الغلام الوحيد بواد غير ذي زرع عند البيت المحرم أن تنتمي إليه أمة ذات شعوب وقبائل، تتحوَّل على يديها تواريخ العالم على مدى الأيام(٢).

١ ـ معلومات هامة عن عصور ما قبل الإسلام:

هكذا يقدِّمُ لنا كتابُ الله العزيز معلوماتٍ مهمَّةً عن طريق القصص القرآني عن

---

(١) المرجع السابق، ١/ ٤٠، أهداف القرآن ومقاصده؛ محمد رشيد رضا، (تفسير القرآن الكريم)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠م، ١/ ٢٨٦ـ٢٩٣.

(٢) عباس محمود العقاد، الإسلام دعوة عالمية، المكتبة العصرية، بيروت. صيدا، لبنان، ١٩٩٩م، ص ٢١٨ـ٢١٩.

عصور ما قبل الإسلام، وأخبار دولها، أيَّدتها الكشوفُ الحديثة، كلَّ التأييد، فيُقدِّم لنا ـ عن طريق قصة موسى عليه السَّلامُ ـ كثيراً من المعلومات عن المَلَكِيَّةِ الإلهيَّةِ في مصر الفرعونية، وعن الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية فيها(١). والأمر كذلك في قصة إبراهيم حيث تُقدِّم لنا الكثير عن العراق القديم.

وتجدرُ الإشارة إلى أنَّ من أبرز قصص الأنبياء في القرآن الكريم قِصَّتي إبراهيم وموسى عليهما السلام، فهما قِصَّتان مُشْهَبتان في أجزائه، ترويان نبأ الرسالة بَينَ أعراق أمم الحضارة الإنسانية، وهما أمة وادي النهرين، وأمة وادي النيل، وكانت الثورة فيهما على ضلال العقل في العبادة جامعة لأكثر العبادات المستنكرة في الزمن القديم(٢).

وأما عن بني إسرائيل فليس من شكٍّ في أنه ليس هناك كتاب سماوي ـ حتى التوراة نفسها ـ فصَّل الحديثَ عن بني إسرائيل وأفاض في وصف اليهود وأحوالهم وأخلاقهم، وأبان مواقفهم من الأنبياء، كما فعل القرآن الكريم، وصدق الله العظيم، حيث يقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

وأما عن بلاد العرب، فإنك تجد في كتاب الله الكريم سورةً تحمل اسم مملكة في جنوب شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، وأعني بها «سورة سبأ»، فضلاً عن أنَّ القرآن الكريم قد انفرد دون غيره من الكتب المقدَّسة بذكر أقوام عربية بادت كقوم عاد وثمود، فضلاً عن أصحاب الكهف، وسيل العرم، وأصحاب الأُخدود، إلى جانب قِصَّة أصحاب الفيل، وهجرة الخليل وولده إسماعيل عليهما السلام إلى الأرض الطاهرة في الحجاز، ثم إقامة إسماعيل هناك(٣).

---

(١) محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم، ١/ ٤١.
(٢) المرجع السابق، ١/ ٤١.
(٣) المرجع نفسه، ١/ ٤٢.

* وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

* ويقول: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

* ويقول: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٤-٤٦].

* ويقول: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

* ويقول: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ [الكهف: ١٣].

* ويقول: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

* صدق رسول الله ﷺ وهو يقول في وصف القرآن: «كِتَابُ الله فِيهِ نَبَأُ ما قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ ما بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ ما بَيْنَكُمْ، وهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنِ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، وَهُوَ حَبْلُ الله الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ وَلَا تَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلَقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لم تنته الجن حَتَّى قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ

دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (١).

٢ ـ هدف القرآن من قَصَصِه ومصداقيَّتُه الفريدة:

إنَّ هدف القرآن من قَصَصِه، ليس التأريخ فقط، وإنما بيان العِبرة بما حلَّ بالسابقين، وزجراً لخصوم الإسلام من قريش، ثم تثبيتاً لقلب النبي ﷺ أمام أذى الكافرين، حيث شاءت رحمة الله بالمصطفى المختار ﷺ، أن تُخفَّفَ عنه الشدائد والآلام، عن طريق قصص الأنبياء والمُرسَلين، حيث يُذكِّرُه الله جلَّ وعلا بما لاقاه إخوةٌ كرام له من عَنَتِ الظالمين، وبَغْيِ الكافرين، فما وهنوا وما استكانوا، وما ضعفوا وما تخاذلوا، ولكنهم صبروا، وصابروا، ومن هنا يخاطب الله رسوله الكريم في كتابه العزيز: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]، كما أن في هذا القَصَصِ بيانُ ما نزل بالأقوياء الذين غرَّهم الغُرورُ، والجبابرةِ الذين طغَوا في البلاد، وأكثروا فيها الفساد، والله من ورائهم محيط(٢).

ومع ذلك يجب ألا يغيب عن بالنا ـ دائماً وأبداً ـ أنَّ هذا القصص ما هو إلا الحقُّ الصّراحُ، وصدق الله حيث يقول: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ (٣) [النساء: ٨٧]، ويقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ﴾ [آل عمران: ٦٢]، ويقول: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٢]، ويقول: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [آل عمران: ٣]، ويقول: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [فاطر: ٣١]، ويقول: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر: ٢]،

---

(١) جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، الإتقان في علوم القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، ١٩٧٤م، ٢/ ١٥١؛ محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، ص ١٥؛ تفسير القرطبي، ١/ ٥.

(٢) محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى القرآن، ص ٢٠٣.

(٣) محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم، ١/ ٤٤.

ويقول: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]، ويقول: ﴿وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ﴾ [محمد: ٢].

ولذلك إنك إذا قرأتَ ما ورد في القرآن الكريم من قصص، فإنك لن تجد شيئاً من المبالغات التي وصلت إلينا من كتب التاريخ، أو في توراة اليهود المتداولة اليوم، فضلاً عن أنَّ ما ذكره القرآن الكريم صحيحاً تؤيِّدُه الاكتشافاتُ الحديثة(١).

كقصة عاد وثمود اللتين تبين أنهما مذكورتان في جغرافية بطليموس، وأن هناك الكثير من النصوص التاريخية التي تتحدَّث عن ثمود، فضلاً عن أنَّ الكتَّاب اليونان والرومان، إنما ذكروا اسم عاد مقروناً باسم إرم كما جاء في القرآن الكريم(٢).

وصدق الله العظيم، حيث يقول: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ﴾ [المائدة: ٤٨]، وحيث يقول: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩٢]، وحيث يقول: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ﴾ [فاطر: ٣١].

وليس صحيحاً كذلك ما ذهب إليه البعض من أنَّ إشارات القرآن الكريم إلى كثير من القصص، إنما هو دليل على أنها كانت من القصص الشعبي السائد الذي كانَ يتداوله النَّاس في بلاد العرب(٣)؛ ذلك لأن العرب ما كانوا يعرفون شيئاً عن كثير من قصص القرآن، وعلى سبيل المثال، فإنَّ القرآن الكريم يختم قصة نوح بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ﴾ [هود: ٤٩].

---

(١) المرجع السابق، ١/ ٤٥.

(٢) عباس محمود العقاد، مطلع النور أو طوالع البَعثة المحمدية، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٥م، ص ٦١.

(٣) د. البوطي، من روائع القرآن، ص٢٣٧.

فلو كانَ العرب يعرفون هذه القصة مثلاً، وأنها كانت من قصصهم الشعبي الذي يتداولونه في أسمارهم، أفكان العرب ـ وفيهم أشد أعداء النبي ﷺ ـ من يسكت على قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ﴾، أليس من المنطق أنَّ أعداء المصطفى ﷺ وقد كانوا دائماً على يقظة يتمنَّون أقلَّ ثغرة، ليُوجِّهوا من خلالها ضرباتهم، ويُحوِّلوها إلى سخرية واستهزاء، سوف يُجيبونه أنهم يعرفون القصة، بل إنها من أساطيرهم التي تفيض بها مجالسهم ونواديهم، ولكن التاريخ لم يُحدِّثنا عمَّن أنكر على الرَّسول ﷺ هذه الآية الكريمة، وهذا يدلُّ على أن ما جاء به القرآن الكريم من أخبار الأمم البائدة، كانَ يجهله العرب جهلاً تاماً، وإن كانَ يعلم بعضاً منه أهل الكتاب الذين درسوا التوراة والإنجيل[1].

* * *

---

(١) محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم، ١/ ٤٧.

المَبحَثُ الثّاني

دعوة نوح عليه السَّلامُ

أولاً: النبي والرَّسول والنُّبوَّة والرسالة:

١ ـ النبي لغة واصطلاحاً:

أ ـ النبيُّ لغةً:

النَّبأُ: الخبرُ، والجمعُ أنباء، وإنَّ لفلان نبأً، أي خَبَراً. والنَّبيءُ: المُخبِرُ عن الله عزَّ وجلَّ لأنه أنبأ عنه. والنَّبِيءُ: المُشتَقُّ من النَّباوة، وهي الشَّيءُ المُرتفع، أي إنه أشرفَ على سائرِ الخَلْق[١]. ويقول الفيروز آباديُّ في تعريف النُّبوَّةِ: سِفارةٌ بَينَ الله وبينَ ذَوِي العُقولِ، لإزاحةِ عُلَلِهم في أمرِ مَعادِهم ومَعاشِهم[٢].

ويقول الراغبُ الأصفهانيُّ في سبب التَّسميةِ: ويُسمَّى نبيّاً لرِفعةِ محلِّه عن سائر النَّاس المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧] [٣].

---

(١) رجاء بنت صالح محمد البحر، تنوع خطاب القرآن الكريم في العهد المكي دراسة للأسلوب والموضوع، مكتبة المتنبي، ٢٠١٦م، ص ٢٤٤.

(٢) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق ـ الدار الشامية، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩ م، ص ٧٩٠.

(٣) تنوع خطاب القرآن الكريم في العهد المكي، ص ٢٤٤.

ب ـ النبيُّ في الاصطلاح :

النبيُّ مَن بُعث لتقرير شرعِ مَن قبلَه(١) .

٢ ـ الرَّسول في اللغة والاصطلاح :

أ ـ الرَّسول في اللغة :

أصلُ الرّسْلِ : الانبعاثُ ، ومنه الرَّسولُ المُنبعثُ ، ويُرادُ به تارةً الرِّفقُ ، فقيل : على رَسْلِكَ ، إذا أمرتَه بالرِّفق ، وتارةً الانبعاثُ فاشتُقَّ منه الرَّسولُ ، والرَّسولُ يقال تارةً المتحمِّل ، وتارةً المتحمِّل القول والرسالة(٢) .

والرَّسول يقال للواحد والجمع ، قال تعالى : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة : ١٢٨] ، وللجمع ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء : ١٦] .

وجمع الرَّسول : رُسُل ، ورُسُل الله تارةً يُراد بهم الملائكةُ ، قال تعالى : ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير : ١٩] .

وتارةً يراد بهم الأنبياءُ ، قال تعالى : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة : ٦٧] .

والرَّسولُ : معناه في اللغة الذي يُتابع أخبارَ الذي بعثَهُ أخذاً من قولهم جاءت الإبل رُسُلاً أيْ : مُتتابعة . وقال أبو إسحاق النَّحويُّ في قوله عزَّ وجلَّ حكايةً عن موسى وأخيه : ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء : ١٦] ، معناه إنا رسالة رب العالمين أيْ : ذوا رسالة رب العالمين .

---

(١) روح المعاني ، الآلوسي ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، تحقيق : علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ ، ١٧/ ١٧٣ .

(٢) البحر ، تنوع خطاب القرآن الكريم في العهد المكي ، ص ٢٤٤ .

وسُمِّي الرَّسولُ رسولاً؛ لأنه ذو رسالة. والرَّسول: اسمُ مَن أرسلتَ، وكذلك الرسالة[١].

ب ـ الرَّسول في الاصطلاح:

الرَّسول: هو من بُعث بشرع جديد[٢]، ويقول الإمام الشوكاني في تعريفهما الذي يُبيِّن فيه الفرقَ بَينَ النبيِّ والرَّسول: مَن بُعث بشرع وأُمِرَ بتبليغه، والنبيُّ: مَن أُمر أن يدعوَ إلى شريعة مَن قبلَه، ولم ينزل عليه كتاب، ولا بد لهما جميعا من المعجزة الظاهرة[٣].

إذن: هناك فرق بَينَ النبي والرَّسول كما تَبيَّن في تعريفهما الاصطلاحي، فالنبي جاء لتقرير شريعة من قبله، وأما الرَّسول فهو من اختصَّ بشريعة جديدة، وكلُّ رسولٍ نبيٌّ, فالنبيُّ أعمُّ من الرَّسولِ[٤].

وقد استدلَّ بعضهم على عدد الرسل والأنبياء بالحديث المرويِّ عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه في ذكر عدد الأنبياء والرُّسُل، ونصُّه كما يلي: عن أبي ذرٍّ قال: قلتُ: يا رسولَ الله، كم الأنبياءُ؟ قال: «مائةُ ألفٍ وعِشرونَ ألفاً»، قلتُ: يا رسولَ الله، كم الرُّسُلُ مِن ذلك؟، قال: «ثلاثُمائةٍ وثلاثةَ عشرَ جمّاً غفيراً»[٥]. لكن هذا الحديث فيه ضعفٌ في إسناده[٦].

---

(١) ابن منظور؛ محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقي ت (٧١١هـ)، لسان العرب، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١٤ه، مادة (رسل).

(٢) الآلوسي، تفسير الآلوسي، ١٧/ ١٧٣.

(٣) الشوكاني، فتح القدير، ٣/ ٤٦١.

(٤) تنوع خطاب القرآن الكريم في العهد المكي، ص ٢٤٥.

(٥) صحيح ابن حبان، كتاب: السير، رقم (٣٦١).

(٦) في سنده إبراهيم في وحي الغساني: كذّاب.

والصحيح أن عدد الرسل والأنبياء لا يعلمه إلا الله لقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ﴾ [غافر: ٧٨].

٣ـ حقيقة النُّبوَّة:

إنَّ النُّبوَّةَ واسطةٌ بَينَ الخالق والمخلوق في تبليغ شرعه، وسِفارة بَينَ المَلِكِ وعبيده، ودعوة من الرحمن الرحيم تبارك وتعالى لخلقه ليُخرجَهم من الظلمات إلى النور، وينقُلَهم من ضيق الدُّنيا إلى سعة الدُّنيا والآخرة، فهي نعمة مُهداة من الله تبارك وتعالى إلى عبيده، وفضلٌ إلهي يتفضَّلُ به عليهم، وهذا في حقِّ المُرسَل إليهم.

وأما في حقِّ المُرسَل نفسه، فهي امتنان من الله يمنُّ بها عليه، واصطفاء من الربّ له من بَين سائر النَّاس، وهبة ربانية يختصه الله بها من بَينِ الخلق كلِّهم.

ولا تُنال النُّبوَّة بعلم ولا رياضة، ولا تُدرَك بكثرة طاعة أو عبادة، ولا تأتي بتجويع النفس أو إظمائها، كما يَظنُّ مَن في عقله بلادةٌ، وإنما هي محضُ فضلٍ إلهيٍّ، واصطفاءٌ ربانيٌّ، فهو جلَّ وعلا كما أخبر عن نفسه: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

فالنُّبوَّة إذن لا تأتي باختيار النبي، ولا تُنال بطلبه، ولذلك لما قال المشركون: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، فأجابهم الربُّ تبارك وتعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢]، فالله تعالى هو الذي يقسم ذلك ويتفضَّل به على مَن يشاء من النَّاس، ويصطفي من يشاء من عباده، ويختار من يشاء من خلقه، ما كانت الخِيَرةُ لأحد غيره، وما كانَ الاجتباء لأحد سواه(١).

---

(١) ابن تيمية، كتاب النُّبوَّات، تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان، أضواء السَّلَف، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م، مقدمة المحقق، ١/ ٢٠.

وإنَّ الإيمان بالنُّبوَّة هو الطريق الموصل إلى معرفة الله ومحبّته، والمسلكُ المفضي إلى رضوان الله وجنّته، والسبيل المؤدي إلى النجاة من عذاب الله، والفوز بمغفرته(١).

يقول ابن تيمية: والإيمان بالنُّبوَّة أصل النجاة والسعادة، فمن لم يُحقّق هذا الباب اضطرب عليه باب الهدى والضَّلال، والإيمان والكفر، ولم يُميّز بَينَ الخطأ والصواب(٢).

وإن حاجة العباد إلى الإقرار بالنُّبوَّة أشدّ من حاجتهم إلى الهواء الذي يتنسمونه، وإلى الطعام الذي يأكلونه، وإلى الشراب الذي يشربونه؛ إذ من فقد أحد هؤلاء خسر الدُّنيا، أما من عُدم الإقرار بالنُّبوَّة فخسارته أشدّ وأنكى، إذ خسر الدُّنيا والآخرة ـ عياذاً بالله تعالى ـ، ولا شكَّ أنّ معرفة الله، والإيمان به، وعبادته، ومعرفة رسوله، وطاعته، يحتاجها كلّ مخلوق مكلَّف، ومن حكمة الله تعالى أنّه كلّما كانَ النَّاس إلى معرفة شيء أحوج، فإنّه جلَّ وعلا يجعله سهلاً مُيسَّراً غير ذي عِوَج(٣).

ولحاجة النَّاس إلى معرفة النُّبوَّة، والإقرار بالرَّسول، فقد وضّحها المولى جلَّ وعلا في كتابه توضيحاً أعظم من أن يُشرح في هذا المقام، إذ الشرح يطول.

يقول ابن تيمية: فتقرير النُّبوَّات من القرآن الكريم أعظم من أن يُشرح في هذا المقام، إذ ذلك هو عماد الدين، وأصل الدعوة النبوية، ويَنبوعُ كلِّ خير، وجِماعُ كلِّ هدى(٤).

---

(١) ابن تيمية، كتاب النبوات، مقدمة المحقق، ١/ ٢٠.
(٢) المصدر السابق، ص ٤٤٧.
(٣) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م، ٩/ ٦٦، ١٠/ ١٢٩.
(٤) ابن تيمية، النُّبوَّات، ١/ ٢١.

ولابن تيمية كلام رائع نفيسٌ يُجمل فيه ما قُدّم بيانُه، يقول فيه: فإنّ الله سبحانه جعل الرُّسُل وسائط بينه وبين عباده، في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرّهم، وتكميل ما يُصلحهم في معاشهم ومعادهم، وبُعثوا جميعاً بالدعوة إلى الله، وتعريف الطريق الموصل إليه، وبيان حالهم بعد الوصول إليه.

* فالأصل الأول يتضمَّن إثباتَ الصفات والتوحيد والقدر، وذكر أيام الله في أوليائه وأعدائه، وهي القصص التي قصّها على عباده، والأمثال التي ضربها لهم.

* والأصل الثاني يتضمَّن تفصيل الشرائع، والأمر والنهي والإباحة، وبيان ما يُحبّه الله وما يكرهه.

* والأصل الثالث يتضمن الإيمان باليوم الآخر، والجنة والنار، والثواب والعقاب.

وعلى هذه الأصول الثلاثة مدار الخلق والأمر، والسعادة والفلاح موقوفة عليها، ولا سبيل إلى معرفتها إلا من جهة الرُّسُل، فإنّ العقل لا يهتدي إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها، وإن كانَ قد يُدرك وجهَ الضَّرورة إليها، من حيث الجملة، كالمريض الذي يُدرك وجه الحاجة إلى الطبّ ومن يُداويه، ولا يهتدي إلى تفاصيل المرض ووصف الدواء له، وحاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطبّ؛ فإنّ آخر ما يُقدَّر بعدم الطبيب موتُ الأبدان، وأما إذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتاً لا تُرجى الحياة معه أبداً، أو شَقِيَ شقاوة لا سعادة معها أبداً، فلا فلاح إلا باتباع الرَّسول[1].

ويقول أيضاً: النُّبوَّة مشتملة على علوم وأعمال، لا بدّ أن يتصف الرَّسول بها، وهي أشرف العلوم، وأشرف الأعمال، فكيف يشتبه الصادق فيها بالكاذب[2].

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٩/ ٩٦ـ٩٧.
(٢) ابن تيمية، النُّبوَّات، ١/ ٢٢.

٤ ـ الحكمة من بعث الرُّسُل :

أ ـ الأنبياء والرُّسُل هم صفوة الخلق، ومصطفو الحقّ، وحاجة الخلق إليهم ماسّة :

إنَّ الخلق بحاجة إلى الرُّسُل ليبلّغوهم ما يُحبّه الله ويرضاه، وما يغضب منه ويأباه، وكثير من العصاة والمنحرفين ضلّوا في متاهات الشقاوة، هذا مع وجود الأنبياء عليهم السلام، فكيف تكون الحال لو لم يُرسل الله تعالى رسلاً مُبشِّرين ومُنذِرين.

فالرُّسُل بُعثوا يُهذّبون العباد، ويُخرجونهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ويُحرّرونهم من رقّ عبودية المخلوق، إلى حرية عبادة رب الأرباب الذي أوجدهم من العدم، وسيُفنيهم بعد الوجود، ويبعثهم بعد الفناء، ليكونوا إما أشقياء، وإما سعداء.

ولو تُرك النَّاس هملاً دون إنذار وتخويف، لعاشوا عيشة ضَنْكاً، في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، وعادات منحرفة، وأخلاق فاسدة، وأصبحت الحياة مجتمعَ غابٍ، القويّ فيهم يأكل الضعيف، والشريف فيهم يذلّ الوضيع، وهكذا.. فاقتضت حكمته جلَّ وعلا ألاَّ يخلق عباده سُدًى، ولا يتركهم هملاً، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

ومن رحمته جلَّ وعلا بهم، أن منّ عليهم فبعث فيهم رسلاً مُبشِّرين ومُنذِرين يتلون عليهم آيات ربهم، ويُعلّمونهم ما يُصلِحهم، ويُرشدونهم إلى مصدر سعادتهم في الدُّنيا والآخرة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

ب ـ إنَّ الغاية العظمى التي أوجد الله الخلق لأجلها هي عبادته، وتوحيده، وفعل مَحابّه، واجتناب مَساخطه :

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات، ٥٦]، فلا يستطيع الإنسان أن يعرف حقيقة العبادة؛ من فعل ما يُحبّه الله ويرضاه، وترك

ما يكرهه الله ويأباه، إلا عن طريق الرُّسُل الذين اصطفاهم الله من خلقه، وفضّلهم على العالمين، وجعلهم مبرّئين من كلّ عيب مشين، وكلّ خلق معيب، وأيّدهم بالمعجزات والحجج والبراهين، وأنزل عليهم البيّنات والهدى، وعرّفهم به، وأمرهم أن يدعوا النَّاس إلى عبادته وحده حقّ العبادة(١).

ج ـ إقامة الحُجَّة على البشر بإرسال الرُّسُل:

* كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء، ١٦٥].

* قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء، ١٥].

* قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤].

فالله سبحانه وتعالى أرسل الرُّسُل؛ ليقطع دابر الكافرين، فلا يعتذروا عن كفرهم بعدم مجيء النذير، وليَعلم الله تعالى عِلْمَ ظهور، وإلا فهو تعالى يعلم ـ بالعلم الأزلي ـ من يطيعه ممن يعصيه، وليقيم على عباده الحُجَّة الدامغة، فيحيى من حيَّ عن بيّنة، ويهلك من هلك عن بيان وبرهان.

د ـ إنَّ النَّاس لا يدركون بعقولهم كثيراً من الغائبات، فهم بحاجة لمن يعلمهم ذلك:

لا يعرف النَّاس الغائبات ولا يدركونها، مثل معرفة أسماء الله وصفاته، ومعرفة الملائكة والجن والشَّياطين، ومعرفة ما أعدّ الله للطائعين في دار رضوانه وكرامته، وما أعدّ للعاصين في دار سخطه وإهانته، لذا فإنّ حاجتهم إلى من يعلّمهم هذه الحقائق، ويُطلعهم على هذه المغيّبات ضرورية.

وقد امتدح الله تعالى عباده الذين يؤمنون بالغيب، فقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١

---

(١) ابن تيمية، النُّبوَّات، ١/ ٢٣.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ١ ـ ٣]، فلو لم يبعث الله الرُّسُل، لما عرف النَّاس هذه الأمور الغيبية، ولما آمنوا إلا بما يُدركونه بحواسّهم، فسبحان الخلاّق العليم الذي منّ على عباده ببعثة الأنبياء والمُرسَلين.

هـ ـ الخلق بحاجة إلى القدوة الحسنة، ممن كمّلهم الله بالأخلاق الفاضلة، وعصمهم من الشبهات والشهوات النازلة:

إنّ الأنبياء هم نبراس الهدى، ومصابيح الدجى، يقتدي بهم الخلق، ويتخذون من سيرتهم وحياتهم قدوة يسيرون على منوالهم حتى يصلوا إلى دار السلام، ويحطّوا رحالهم في ساحة ربّ الأنام(١).

فالرُّسُل هم قدوة الأتباع، والأسوة الحسنة لمن أطاع، في العبادات، والأخلاق، والمعاملات، والاستقامة على دين الله. قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

و ـ الرُّسُل عليهم السلام جاؤوا لإصلاح النفوس، وتزكيتها، وتطهيرها، وتحذيرها من كلّ ما يُرديها:

لقد بُعثوا لدلالة الخلق على الطريق المستقيم، وإرشادهم إلى المنهج القويم وتوجيههم نحو الأخلاق الحميدة، وتنفيرهم من المساوى الذميمة. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة، ٢].

وقد أوضح ابن تيمية حاجة العباد إلى بعثة المُرسَلين في مواضع شتَّى من كتبه. فمن ذلك قوله: والرسالة ضرورية للعباد، لا بدّ لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كلّ شيء، والرسالة روح العالم، ونوره، وحياته، فأي صلاح

(١) ابن تيمية، الفتاوى، ١٩/ ٩٣ ـ ٩٤.

للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور، والدُّنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة. وكذلك العبد ما لم تُشرق في قلبه شمس الرسالة، وينالَه من حياتها وروحها، فهو في ظلمة، وهو من الأموات. قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فهذا وصف المؤمن، كانَ ميتاً في ظلمة الجهل، فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان، وجعل له نوراً يمشي به في النَّاس، وأما الكافر فميِّت القلب في الظلمات[١].

وقال ابن تيمية: «والرسالة ضرورية في إصلاح العبد في معاشه ومعاده، فكما أنه لا صلاح له في آخرته إلا باتباع الرسالة، فكذلك لا صلاح له في معاشه ودنياه إلا باتباع الرسالة، فإنّ الإنسان مضطرٌ إلى الشرع، فإنه بَينَ حركتين، حركة يجلب بها ما ينفعه، وحركة يدفع بها ما يضرّه، والشرع هو النور الذي يُبيِّن ما ينفعه وما يضرّه، والشرع نور الله في أرضه، وعدله بَينَ عباده، وحِصنُه الذي من دخله كانَ آمناً. وليس المراد بالشرع التمييز بَينَ الضارّ والنافع بالحسّ، فإن ذلك يحصل للحيوانات العجم، فإن الحمار والجمل يميّز بَينَ الشعير والتراب، بل التمييز بَينَ الأفعال التي تضرّ فاعلها في معاشه ومعاده، كنفع الإيمان والتوحيد والعدل والبر والتصديق والإحسان والأمانة والعفة والشَّجاعة والحلم والصبر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصِلة الأرحام، وبرّ الوالدين، والإحسان إلى المماليك والجار، وأداء الحقوق، وإخلاص العمل لله، والتَّوكُّل عليه، والاستعانة به، والرضا بمواقع القدر به، والتسليم لحُكمه، والانقياد لأمره، وموالاة أوليائه، ومعاداة أعدائه، وخشيته في الغيب والشهادة، والتقرُّب إليه بأداء فرائضه واجتناب محارمه واحتساب الثواب عنده، وتصديقه، وتصديق رسله في كل ما أخبروا به، وطاعته في كل ما أمروا به، مما هو نفع وصلاح للعبد في دنياه وآخرته، وفي ضد ذلك شقاوته ومضرته في دنياه وآخرته.

---

(١) ابن تيمية، الفتاوى، ١٩/ ١٩ ـ ١٠٠.

ولولا الرسالة لم يهتد العقل إلى تفاصيل النَّافع والضَّارِّ في المعاش والمعاد، فمن أعظم نعم الله على عباده وأشرف مِنَّةٍ عليهم أن أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبيَّن لهم الصِّراط المستقيم، ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام والبهائم، بل أشرّ حالاً منها، فمَن قَبِل رسالة الله واستقام عليها، فهو من خير البرية، ومن ردَّها وخرج عنها فهو من شرّ البرية، وأسوأ حالاً من الكلب والخنزير والحيوان البهيم»[١].

إن حاجة النَّاس إلى الرُّسُل لا تماثلها حاجة، واضطرارهم إلى بعثتهم لا تفوقها ضرورة، فهم في أشد حاجة، وأعظم ضرورة[٢]، وهذا ما وضّحه ابن تيمية بقوله: وليست حاجة أهل الأرض إلى الرَّسول كحاجتهم إلى الشمس والقمر والرياح والمطر، ولا كحاجة الإنسان إلى حياته، ولا كحاجة العين إلى ضوئها، والجسم إلى الطعام والشراب، بل أعظم من ذلك، وأشدّ حاجة من كلّ ما يُقدَّر ويخطر بالبال، فالرُّسُل وسائط بَينَ الله وبين خلقه في أمره ونهيه، وهم السفراء بينه وبين عباده[٣].

فاضطرار العباد إلى المُرسَلين لا يُعادله اضطرار، وحاجتهم إلى المُبشِّرين والمُنذِرين لا تُماثلها حاجة[٤].

وقال ابن قيِّم الجوزيَّة: فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدُّنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرُّسُل، ولا سبيل إلى معرفة الطَّيِّب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا يُنال رضا الله البتة إلا على أيديهم، فالطيِّب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هَديَهُم وما جاؤوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم تُوزَن الأقوال والأخلاق والأعمال،

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٩/ ١٠٠.
(٢) ابن تيمية، النُّبوَّات، ١/ ٢٧.
(٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٩/ ١٠١.
(٤) ابن تيمية، النُّبوَّات، ١/ ٢٧.

وبمتابعتهم يتميّز أهل الهدى من أهل الضَّلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأي ضرورة وحاجة فُرضت فضرورة العبد وحاجته إلى الرُّسُل فوقها بكثير، وما ظنّك بمن إذا غاب عنك هَديُه وما جاء به طرفة عين، فسد قلبك، وصار كالحوت إذا فارق الماء ووُضع في المِقلاة، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرُّسُل كهذه الحال، بل أعظم، ولكن لا يحسّ بهذا إلا قلبٌ حيٌّ، «وما لجرحٍ بميتٍ إيلام» (١).

والرُّسُل هم قادة للبشر يسيرون بهم على طريق الخير، ويهدونهم إلى سبيل الرشاد، ويُجّنبونهم سُبُلَ الغواية والضَّلال، وهم قدوة للناس في أخلاقهم وعبادتهم، وطريقة حياتهم، وقد أمر الله سبحانه باتباعهم والسير على طريقهم فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] (٢).

٥ ـ وظائف الرُّسُل:

إنّ للرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ غايات عظمى، ووظائف كبرى، وأهدافاً سامية، أُجمل بعضها في النقاط التالية:

أ ـ دعوة النَّاس إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ب ـ تبليغ الشريعة الرَّبانيّة إلى النَّاس:

قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ

---

(١) ابن قيّم الجوزيَّة، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار الإسلامية، بيروت، الطبعة (٢٧)، ١٩٩٤م، ، ١/ ٦٩.

(٢) عمر أحمد عمر، رسالة الأنبياء من شعيب إلى عيسى، دار الحكمة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٧م، ١/ ٧.

رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

ج ـ تبيين ما أُنزل من الدين:

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

د ـ دلالة الأمة على الخير، وتبشيرهم بالثواب المُعَدّ إن فعلوه، وتحذيرهم من الشر وإنذارهم بالعقاب المعدّ إن اقترفوه.

قال تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٥].

هـ ـ إصلاح النَّاس بالقدوة الطيبة، والأسوة الحسنة في الأقوال والأعمال:

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]. وقال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٢١].

و ـ إقامة شرع الله بينَ العباد وتطبيقه:

قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

ز ـ شهادة الرُّسُل على أممهم يوم القيامة بأنهم قد بلَّغوهم البلاغ المبين:

قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فهذه بعض وظائف المُرسَلين، التي تزيدهم شرفاً إلى شرفهم، وفضلاً إلى فضلهم، ويكفيهم فخراً أنهم يُبلِّغون عن رب العالمين، فسبحان من خصَّهم بهذه الرتبة العليَّة ومنحهم هذه الوظيفة السَّنية، واصطفاهم واختارهم من بَينِ سائر عباده، ليقوموا بهذه الخدمة المرضية(١).

٦ ـ أمور تفرَّد بها الأنبياء:

أ ـ الوحي:

خصَّ الله الأنبياء دون سائر البشر بوحيه إليهم، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [الكهف: ١١٠]، وهذا الوحي يقتضي عدة أمور، يفارقون بها النَّاس، فمن ذلك تكليم الله بعضهم، واتصالهم ببعض الملائكة، وتعريف الله لهم شيئاً من الغَيب، يقول الله تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧]، ومن ذلك الإسراء بالرَّسول ﷺ إلى بيت المقدس، والعروج به إلى السَّماوات العُلا، ورؤيته للملائكة والأنبياء، واطِّلاعه على الجنة والنار، ومن ذلك رؤيته للمُعذَّبين في قبورهم، وسماعه تعذيبهم، وفي الحديث: «لولا ألا تَدافَنُوا لدعوتُ الله أن يُسْمِعَكُم عذابَ القبرِ»(٢).

ب ـ الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم:

ومما اختصهم الله به، أنَّ أعينهم تنام، وقلوبهم لا تنام، فعن أنس رضي الله

---

(١) ابن تيمية، النُّبوَّات، ١/٢٨ ـ ٢٩.
(٢) صحيح مسلم، كتاب الجنة، ٤/٢٠٠، رقم ٢٨٦٨.

عنه في حديث الإسراء: والنبيُّ نائمةٌ عَيناهُ، ولا ينامُ قلبه، وكذلكَ الأنبياءُ تنامُ أعيُنُهم ولا تَنامُ قُلوبُهم[١].

وهذا وإن كانَ من قول أنس إلا أنَّ مثله لا يقال من قبل الرأي كما يقول ابن حجر[٢] وقال ﷺ عن نفسه: «تَنامُ عَينِي ولا يَنامُ قَلبي»[٣].

ج ـ الأنبياء لا يورِّثون:

مما اختصَّ الله به الأنبياء أنهم لا يُورِّثُون، بل ما تركوه من الأموال يكون صدقة من بعدهم، فعن عائشة رضي الله عنها: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا نُورِّثُ، ما تَرَكناهُ صَدقةٌ»[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا يقتسمُ ورثتي ديناراً، ما تركتُ بعدَ نفقةِ نسائي، ومؤونةِ عاملي، فهو صدقةٌ»[٥].

ولهذا منعَ الصِّدِّيقُ أن يُصرَف ما كانَ يختصُّ به ـ أي نبينا محمد ﷺ ـ في حياته إلى أحد من وُرَّاثه الذين لولا هذا النصُّ لصُرِف إليهم، هم ابنته فاطمة وأزواجه، وعمه العباس رضي الله عنه، واحتجَّ عليهم الصِّدِّيقُ في مَنعِه إيَّاهُم بهذا الحديث، وقد وافقه على روايته عن رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة والزبير، وأبو هريرة وآخرون رضي الله عنهم[٦].

والحكمة من ذلك: أنَّ الله تعالى صان الأنبياء عن أن يورِّثوا دنيا، لئلا يكون

---

(١) صحيح البخاري، رقم ٣٥٧٠.
(٢) ابن حجر، فتح الباري، ٦/ ٦٧٠.
(٣) ابن حجر، فتح الباري، ٦/ ٦٧٠، رقم (٣٥٦٩).
(٤) صحيح البخاري، رقم (٦٧٣٠)، صحيح مسلم، رقم (١٧٥٨).
(٥) مسند أحمد، ٥/ ٤٦٣. وانظر: مسلم، رقم ١٧٦٠.
(٦) ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٤م، ٢/ ٤٥.

ذلك شُبهةً لِمَن يقدح في نبوَّتهم بأنهم طلبوا الدُّنيا وخلَّفُوها لورثتهم(١).

أما قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦]، فالمراد بهذا الإرث: العلم والنُّبوَّة ونحو ذلك، لا إرث المال، يقول ابن كثير معلقاً على هذه الآية: ورثه في النُّبوَّة والملك. وليس المراد وراثة المالك لأنه قد كانَ له بنون غيره، فما كانَ لِيُخَصَّ بالمال دونهم. ولأنه قد ثبت في «الصحاح» من غير وجه، عن جماعة من الصحابة، أن رسول الله ﷺ، قال: «لا نُورِّثُ، ما تَرَكْنا فهو صَدَقةٌ»، وفي لفظ: «إنَّا مَعاشرَ الأنبياءِ لا نُورِّثُ»، فأخبر الصادق المصدوق أن الأنبياء لا تُورَّثُ أموالهم عنهم كما يُورِّثُ غيرهم، بل تكون أموالهم صدقة من بعدهم على الفقراء والمحاويج، لا يخصُّون بها أقرباءهم لأن الدُّنيا كانت أهون عليهم وأحقر عندهم من ذلك، كما هي عند الذي أرسلهم واصطفاهم وفضَّلهم(٢).

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٦]، ليس المراد به إرث المال، وإنما إرث العلم والنُّبوَّة، وفي الحديث: «وإنَّ الأنبياءَ لم يُوَرِّثُوا ديناراً ولا دِرْهماً، وإنَّما وَرَّثوا العِلمَ، فمَن أخذَهُ أخذَ بحَظٍّ وافرٍ»(٣).

د ـ تخيير الإنسان عند الموت:

مما تفرَّد به الأنبياء أنهم يُخيَّرون بَينَ الدُّنيا والآخرة، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما مِنْ نَبيٍّ يَمرَضُ إلا خُيِّرَ بَينَ الدُّنيا والآخرةِ»، وكان في شكواه الذي قُبِضَ فيه، أخذَتْهُ بُحَّةٌ شديدةٌ، فسمعتُه يقول:

---

(١) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م، ٤/ ١٩٥.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ٢/ ١٧.

(٣) منصور بن راشد التميمي، العصمة في عقيدة أهل السنة والجماعة، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، ١٤٢٩ه، ص ٤٢.

﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [النساء: ٦٩]، فعَلِمْتُ أَنَّهُ خُيِّرَ» (١).

هـ ـ لا تأكل الأرض أجسادهم:

ومن إكرام الله لأنبيائه ورسله، أنَّ الأرض لا تأكل أجسادهم، فمهما طال الزمان وتقادم العهد تبقى أجسادهم محفوظة من البِلى. وفي الحديث: «إنَّ الله حَرَّمَ على الأرضِ أن تأكلَ أجسادَ الأنبياءِ» (٢)

و ـ العصمة:

العصمة من الأمور التي خصَّ الله تعالى بها أنبياءَه ورُسُلَه عليهم السلام دون سائر البشر، وقد عرَّفَها الراغبُ الأصفهانيُّ في المفردات فقال: حِفظُهُ إيَّاهُم أولاً بما خصَّهم به من صفاء الجوهر، ثم بما أولاهم من الفضائل الجسمية والنفسية، ثم بالنُّصرة وتثبيت أقدامهم، ثم بإنزال السَّكينة عليهم، وبحفظ قلوبهم وبالتوفيق(٣).

وقد أخذ الحافظ بن حجر تعريف الراغب بشيء من التصرف فقال في الفتح: وعصمة الأنبياء على نبينا وعليهم الصلاة والسلام حِفظُهم من النقائص، وتخصيصهم بالكمالات النفسية والنُّصرة والثبات في الأمور وإنزال السَّكينة(٤).

وقد عرَّفَها الشيخ منصور بن راشد التميمي في رسالته العلمية: «العصمة هي: حِفظُ الله الرُّسُل مما يُنفِّر عن القَبول قبل النُّبوَّة، وحِفظُهم من الكذب

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، رقم ٤٥٨٦.
(٢) سُنَن أبي داود، رقم ١٠٤٧.
(٣) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص ٣٣٧.
(٤) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق وتصحيح: محمد فؤاد عبد الباقي، محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٣٧٩ه، ١١/ ٥١.

والكتمان في التبليغ بعد النُّبوَّة، وكذا من الكبائر، وتوفيقُهم للتوبة والاستغفار من الصغائر وعدم إقرارهم عليها»(١).

٧ـ الإيمان بالأنبياء والمُرسَلين:

الإيمان بأنبياء الله ورسله ركنٌ من أركان الإيمان، فلا يتحقَّق إيمان العبد حتى يُؤمن بجميع الأنبياء، ويصدق بأن الله تعالى أرسلهم لهداية البشر، وإرشاد الخلق، وإخراج النَّاس من الظلمات إلى النور، وأنهم بلَّغُوا ما أُنزل إليهم من ربهم البلاغَ المبين، فبلغوا الرسالة، وأدّوا الأمانة، ونصحوا الأمة، وجاهدوا في الله حقَّ جهاده.

قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، ومن السنة قول النبي ﷺ: «الإيمانُ أنْ تؤمنَ بالله وملائكتِه وكتبِه، وبلقائهِ ورسلِه وتُؤمنَ بالبَعثِ»(٢).

ولا بدَّ في الإيمان أن يُؤمن العبد بالله وملائكته، وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويُؤمن بكلِّ رسول أرسلَه، وكلِّ كتابٍ أنزلَه(٣).

والإيمان بأنبياء الله تعالى لا يتمُّ حتى يُؤمن العبدُ بجميعِهم من غير حَصرٍ، مَن قصَّهم الله علينا ومن لم يَقصُصْهم، فقد أخبرنا جلَّ وعلا أنَّ هناك أنبياء لم يَقْصُصْهم علينا.

---

(١) منصور بن راشد التميمي، العصمة في عقيدة أهل السنة والجماعة، ص ٥١.

(٢) صحيح البخاري، رقم (٤٨).

(٣) ابن تيمية، الفرقان بَينَ أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٥، ص ١١٧.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

قال ابن تيمية: فنُؤمن بما سمَّى الله في كتابه من رُسُلِه، ونُؤمن بأنَّ الله سوّاهم رسلاً وأنبياء لا يعلم أسماءهم إلا الذي أرسلَهم، ونُؤمن بمحمد ﷺ، وإيمانُكَ به غيرُ إيمانك بسائر الرُّسُل، إيمانك بسائر الرُّسُل: إقرارُك بهم وإيمانُك بمحمد إقرارُك به وتصديقك إياه دائباً على ما جاء به، فإذا اتبعت ما جاء به أدَّيت الفرائض، وأحللتَ الحلال، وحرَّمتَ الحرام، ووقفتَ عند الشُّبهات، وسارعتَ في الخيرات[(١)].

وقال أيضاً: من أطاع رسولاً واحداً فقد أطاع جميع الرُّسُل، ومن آمن بواحد منهم فقد آمن بالجميع، ومن عصى واحداً منهم فقد عصى الجميع، ومن كذَّبَ واحداً منهم فقد كذَّبَ الجميع؛ لأنَّ كل رسول يصدِّق الآخر ويقول: إنه رسول صادق، ويأمر بطاعته، فمن كذَّبَ رسولاً فقد كذَّبَ الذي صَدَّقَه، ومن عصاه فقد عصى من أمر بطاعته[(٢)].

٨ ـ نوح عليه السَّلامُ من أولي العزم:

إنَّ نوحاً عليه السَّلامُ مع كونه نبيّاً ورسولاً هو أيضاً أحد أولي العزم من الرُّسُل، وهذه مرتبة عالية، لا ينالها إلا قِلَّةٌ من المُرسَلين، فالرُّسُل وإن كانوا كلُّهم صفوة الخلق، وقد اختارهم الله من بَينِ الخلائق على علم، لكن لَمّا لم يكن لفضل الله حد ينتهي إليه تفاضلوا فيما بينهم، قال تعالى: ﴿۞ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥].

فيأتي في مقدمة قافلة الأنبياء والرُّسُل أُولو العزم منهم، وهم نُجباء الرُّسُل،

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٧/ ٣١٣.
(٢) المرجع نفسه، ١٩/ ١٨٠.

ذوو الحَزم والصَّبر، القائم على تزكية نفوسهم بمراقبة أمر الله، الحريصون على إصلاح أُمَّتِهم، بدلالتهم على كلِّ خير، وتحذيرهم من كلِّ شرٍّ، مع الصبر على المكروه، في تحمُّلِ الأذى منهم، وأُولو العزم من الرُّسُل، نوح وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً، وهم المذكورون في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]، لقد خصَّ هؤلاء الخمسة بالذِّكر من بَينِ النَّبيِّين؛ لأنهم أصحاب الكتب والشرائع، وأُولو العزم من الرُّسُل[١].

ومهما يكن من أمر فإن لهؤلاء الخمسة مزيد فضل على غيرهم من الأنبياء والمُرسَلين، سواء قلنا إن الأنبياء والمُرسَلين كلُّهم أولو عزمٍ، أو قلنا إن أُولي العزم من الرُّسُل هم هؤلاء الخمسة فقط، لأن الأنبياء يتفاضلون فيما بينهم لقوله تعالى: ﴿۞ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وكون أولي العزم هم هؤلاء الخمسة هو الذي عليه أكثر أهل العلم من المفسِّرين وغيرهم، قال الشيخ السعدي في تفسير الآية السابقة: يُخبِر تعالى أنه أخذ من النَّبيِّين عمومًا، ومن أولي العزم ـ وهم هؤلاء الخمسة المذكورون ـ خصوصًا، ميثاقَهُم الغليظَ وعهدَهُم الثَّقيلَ المؤكَّد، على القيام بدين الله والجهاد في سبيله، وأُمر النَّاس بالاقتداء بهم[٢].

وقد تكرَّر ذِكرُ هؤلاء الخمسة في آية الشُّورى في قوله تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم

---

(١) أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت: ٥١٦هـ)، تفسير البغوي؛ معالم التنزيل، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرون، دار طيبة، الرياض، ١٤١١هـ، ٦/ ٣٢٠.

(٢) السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، دار ابن الجوزي، الدمام، ط٤، ١٤٣٥ه، ١/ ٦٥٩.

مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣].

وإفرادُهم بالذكر في هذه الآية وتخصيصُهم بهذه الوَصيَّة العظيمة من إقامة الدين، وعدمِ التفرُّق فيه، خيرُ دليل على حيازتهم لهذه الفضيلة التي أهَّلتهم لتحمُّل تلك المسؤولية العظيمة على أكمل وجه(١).

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: يقول لهذه الأمة: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾: فذكر أوَّلَ الرُّسُل بعد آدم وهو نوح، عليه السَّلامُ وآخرَهم وهو محمد ﷺ، ثم ذكر من بَينِ ذلك من أولي العزم وهم: إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ـ عليهم السلام ـ وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة، كما اشتملَت آيةُ الأحزاب عليهم في قوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ [الأحزاب: ٧]، والدِّينُ الذي جاءت به الرُّسُلُ كلُّهم هو: عبادة الله وحده لا شريك له(٢).

٩ ـ نوح عليه السَّلامُ أوَّلُ الرُّسُل إلى أهل الأرض:

جاء في حديث الشفاعة الطويل عند البخاري قولُ أهل الموقف لنوح عليه السَّلامُ: «يا نوحُ أنتَ أوَّلُ الرُّسُلِ إلى أهلِ الأرضِ». وظاهر الحديث يُفيد: أنَّ آدم عليه السَّلامُ لم يكن رسولاً، والصحيح أنَّ آدمَ نبيٌّ ورسول، فنوحٌ عليه السَّلامُ هو أوَّل الرُّسُل إلى أهل الأرض بعد أن وقع الاختلاف بَينَ بني البشر في التوحيد، فكفر بعضُهم، وبقي بعضُهم على الإيمان، وإلى هذا تُشير الآية الكريمة: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]، إذن: فالأولوية المذكورة في حقِّ نوح عليه السَّلامُ مقيَّدة بما بعد

(١) عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السَّلامُ ص ٢٨.
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٧/ ١٩٤.

وقوع الاختلاف، فلا يُنافي ذلك نُبوَّةَ آدمَ عليه السَّلامُ، فإنه أُرسل إلى أولاده فقط، ولم يكن بينهم خلافٌ في توحيد الله وعبادته وحده دون غيره(١).

وقولهم له: «يا نوحُ أنتَ أوَّلُ رسولٍ أرسلَه الله إلى أهلِ الأرضِ»: يُحتجُّ به على أن نوحاً أوَّلُ الرُّسُل، وأن آدمَ نبيٌّ مُكلَّم فقط، ولو صحَّ أنه رسول فالمعنى أنه رسول إلى ذُريَّته بخلاف نوح فإنه أُرسل إلى قومه وهم أهل الأرض في ذلك الوقت، أما آدم فإنه أرسل إلى ذريته بشريعة خاصة قبل وقوع الشِّرْك(٢).

وفي قول أهل الموقف في شأن نوح «أنت أوَّل الرُّسُل إلى أهل الأرض» يفيد أن رسالته كانت عامَّة للناس كافَّة، وهذا معارَض بقوله ﷺ: «أُعطِيتُ خَمساً لَم يُعطَهُنَّ أَحَدٌ قَبلي: ... فذكر منها: وكانَ النّبيُّ يُبعثُ إلى قومِه خاصَّةً وبُعثْتُ إلى النَّاسِ عامَّةً»(٣).

فقد أُجيب بأجوبة متعدِّدة منها: كون نوح عليه السَّلامُ أُرسل إلى أهل الأرض إنما هو باعتبار أن قومه هم وحدَهم كانوا أهل الأرض، ولم يكن يومَها على الأرض غير قومه، فلا يُنافي خصوصية رسالته بقومه، وهو المدلول عليه بصريح قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٩].

فنوح عليه السَّلامُ أُرسل إلى قومه وهم في ذلك الوقت أهل الأرض جميعاً، بعد وقوع الشِّرْك في الأرض، وبذلك لا يبقى تعارُض بَينَ كون آدم رسولاً وبين كون نوح هو أوَّل رسول أُرسل إلى أهل الأرض(٤).

١٠ ـ نوح عليه السَّلامُ الأب الثاني للبشر:

نوح عليه السَّلامُ هو الأب الثاني للبشرية بعد آدم عليه السَّلامُ، وهذا محلُّ

---

(١) عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السَّلامُ ص ٢٥.

(٢) عبد العزيز بن عبد الله بن باز، مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، تحقيق: محمد بن سعد الشويعر، دار القاسم للنشر، الرياض، السعودية، ١٤٢٠ه، ٣/ ٣٢.

(٣) صحيح البخاري، رقم ٤١٩.

(٤) عبد العزيز بن عبد الله بن باز، مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، ٣/ ٣٢.

اتفاقٍ بَينَ العلماء من أهل الإسلام لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]. وإنّ الفصل بَينَ المفعولين بضمير الفصل يُفيد الحَصْر، أي لا باقيَ من البشر في الأرض بعد نوح إلا ذريته، وهذا النص القطعي في ثبوته يدلُّ بوضوح أن البشرية التي وُجدت بعد نوح عليه السَّلامُ هي من ذريته، وهو شرف اختُصَّ به نوحٌ بعد آدم، فلِنوحٍ عليه السَّلامُ حقُّ الأبوَّةِ على كلِّ كائن بشري من بعده إلى قيام الساعة.

وهناك إشكال يَرِدُ على كون نوح أبا البشر بعد آدم عليه السَّلامُ، ويتمثَّل ذلك في المراد بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾، في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٤٠].

يُفهَم منه أنه آمن به عددٌ من النَّاس من غير أهله لأن قوله: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ عطف على أهله، والعطف في الأصل يقتضي المغايرة، كما أشرنا إليه سابقاً، ومعلوم أنه آمن بنوح عليه السَّلامُ من غير أهله عدد قليل، وغالبيَّتهم من الضِّعاف والطبقات الدُّنيا في المجتمع، وهم الذين سمَّاهم الملأ من قوم نوح بالأراذل، والله لا يختار نبيّاً ممن هو في نظر القوم من الأراذل، وإنما يختار الأنبياء ممن لا مَطعنَ في نسبهم، ولا في سيرتهم، والآية تدلُّ على أنه قد نجا من الغرق غيرُ أهله، وبالضرورة يكون منهم النسل، فإذا كانَ ذلك، فكيف يصير جميع الباقين من ذرِّية نوح عليه السَّلامُ؟

والجواب على هذا الإشكال يكون من وجهين:

الجواب الأول: إن قلنا إن جميع من كانَ معه في السَّفينة هم من أولاده من نسله، انتظم أن نوحاً عليه السَّلامُ هو أبو البشر كلهم، وسُمِّي لذلك آدمَ الأصغر، وقد حكى الرازيُّ عن بعض المفسرين، أنهم قالوا لم يكن في سفينة نوح إلا من كانَ من نسله وذريته، فعلى هذا القول، لا إشكال في أن البشر بعد نوح إنما توالدوا منه ومن أولاده، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ المراد بهم أيضاً

أهله، فيكون من إطلاق العام وإرادة الخاص[(١)].

وهذا القول ضعيف مخالف لظاهر القرآن الكريم؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ ءَامَنَۚ﴾ عطف على أهله، والعطف يقتضي المغايرة، وعليه فيكون النَّاجُون من الغرق أهلَه ومَن آمن به من غير أهله، وهو الذي عليه جمهور المفسرين.

والجواب الثاني: أن الناجين من الغرق لهم ذريّةٌ وأولادٌ، وإنما الذين بَقُوا هم نسل نوح عليه السَّلامُ، وبهذا صح أن نوحاً هو أبو البشر جميعاً بعد آدم[(٢)].

قال ابن جرير: قالوا إنما الذين كانوا معه في الفلك قوم كانوا آمنوا به واتبعوه غير أنهم بادوا وهلكوا، فلم يبق لهم عقب، وإنما الذين هم اليوم في الدُّنيا من بني آدم ولد نوح وذريته دون سائر ولد آدم، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].

١١ ـ نوح عليه السَّلامُ أبو الأنبياء والمُرسَلين:

لئن تشرَّفَ نوحٌ بالأبوّة للبشر بعد آدم عليهما السلام، فلقد تشرَّفَ أيضاً كذلك بأبوّته للأنبياء والمُرسَلين، فهذه النقطة وإن كانت داخلة في التي قبلها في كون نوح عليه السَّلامُ أباً لجميع من بعده من البشر عُلم ضرورةً أنه أيضاً أبو الأنبياء والمُرسَلين بعده، لكن لما كانَ الأنبياء والمُرسَلون هم صفوة البشر وخلاصتهم نوّه الله بتشريف نوح بهذه الخصلة، بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٦]، فأحببنا أن نفردها عما قبلها بالذكر ولو بإيجاز[(٣)].

وتبيَّن مما تقدَّم أنَّ نوحاً عليه السَّلامُ هو الجد الأعلى لإبراهيم ـ خليل الرحمن ـ ومَن بعده من الأنبياء، كما أنَّ إبراهيم هو أيضاً جَدٌّ لجميع الأنبياء

(١) عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السَّلامُ، ص ٢٣.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٣.
(٣) المرجع نفسه، ص ٢٤.

والمُرسَلين بعده، فهؤلاء ذرِّيةٌ بعضُها من بعض، قال الرازي: فبيَّن أنه تعالى شرّف نوحاً وإبراهيم عليهما السلام بالرسالة، ثم جعل في ذريتهما النُّبوَّة والكتاب، فما جاء بعدهما أحدٌ بالنُّبوَّة إلا وكان من أولادهما، وإنما قدَّمَ النُّبوَّةَ على الكتاب؛ لأنَّ كمال حال النبي أن يصير معه الكتاب والشرع(١).

١٢ ـ نوح عليه السَّلامُ، نسبه وسبب تسميته وأولاده:

لم يـرد في الكتاب العزيـز، ولا في السنة الصحيحة المباركة فيما وقفت عليه نسب نوح عليه السَّلامُ، ولم يرد لأبيه ذكر، وإن كانَ الحافظ ابن كثير قد ذكر في كتابه «قصص الأنبياء» نسب نوح عليه السَّلامُ، فقال: نوح بن لامك، بن متوشلخ بن خنوخ، بن يرد بن مهلابيل بن قينين بن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر، والله أعلم بصحَّة ذلك(٢).

وقيل سُمّي نوحاً ـ كما قال يزيد الرقاشي ـ لكثرة ما ناح على نفسه، أي في دعوة قومه إلى الله، وفيما قاله يزيد الرقاشي نظر، لما عُلم من أنَّ تسميته بنوح سبقت نبوَّتَه، ودعوةَ قومه إلى الدين، والمُسبَّب لا يتقدم على سببه، وإنما قلنا ذلك لأنه لم يكن أحد ممن سماه بنوح من والديه وأقاربه يعلم أنه سيكون رسولاً، وسيرفع صوته بالدعوة إلى الله، اللهم إلا إذا قلنا إن ذلك كانَ إلهاماً من الله ألهمهم بهذا الاسم، ثم إنَّ نوحاً هو وقومه من العجم باتفاق، وعليه فليس بالضرورة أن يكون معنى الكلمة في لغة قوم نوح في ذلك الوقت هو المعنى نفسه في اللغة العربية، لتباين اللغات في دلالات الألفاظ، ولو كانَ كذلك لقيل نَوح بفتح النون، ولا معنى للكمة العربية بضم النون(٣).

وإذا ثبت أن البشر كلَّهم من ذرِّية نوح ـ عليه السَّلامُ ـ كما بيَّنا، حَسُن بنا أن

(١) عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السلام، ص ٢٤.
(٢) ابن كثير، قصص الأنبياء، ١/ ٢٠٩.
(٣) د. عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السَّلامُ، ص ١٨.

نذكر أسماء أولاد نوح ـ عليه السَّلامُ ـ ممن كانَ معه في السَّفينة، وقد اتفقت الروايات عن النبي نوح عليه السلام أن أولاده ثلاثة، هم:

❋ (سام) أبو العرب.

❋ و(حام) أبو الحبش.

❋ و(يافث) أبو الروم.

فقد أخرجه الترمذي وحسنه، وابن سعد، وأحمد وأبو يعلى وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وصححه عن سمرة بن جندب أنَّ النبي ﷺ قال: «سامُ أبُو العربِ، وحامُ أبُو الحَبَشِ، ويافِثُ أبو الرُّومِ»[١].

وقال ابن حجر العسقلاني: روى الحاكم وغيره من طريق أبي هريرة ورفعه: «وُلد لنوح سام وحام ويافث، فوُلد لسام: العرب وفارس والروم، وولد لحام: القبط، والبربر، والسودان، وولد ليافث: يأجوج ومأجوج، والترك والصقالبة»[٢].

وما رفعه الحاكم أوقفه ابن جرير على ابن وهب بن مُنبِّه، فروى بسنده عنه أنه قال: إنَّ سامَ بن نوح أبو العرب وفارس والروم، وإن حام أبو السودان، وإن يافث أبو الترك، وأبو يأجوج ومأجوج، وهم بنو عم الترك[٣].

ولعل التفصيل الوارد في حديث أبي هريرة الضعيف مَصدرُه وهبُ بن مُنبِّه؛ لأنه معروف بالأخذ عن بني إسرائيل، والله أعلم[٤].

---

(١) الشوكاني، فتح القدير، ٦/ ٢١٢.
(٢) وفي سنده ضعف، قاله ابن حجر العسقلاني في فتح الباري شرح صحيح البخاري، ٢٠/ ٤٧.
(٣) تاريخ الطبري، ١/ ٧٤.
(٤) عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السَّلامُ، ص ١٩.

١٣ ـ نوح عليه السَّلامُ كثير الشكر لربِّه على نعمائه:

هذه صفة من الصفات التي اشتهر بها نوح عليه السَّلامُ، لكونه كانَ يُكثر منها حتى صار معروفاً بها من بَينِ إخوانه من الأنبياء والمُرسَلين، قال تعالى في حقّه: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

فوصفه الله أولاً بالعبودية التي هي أرقى المراتب في سُلَّم الدرجات عند الله، ثم أتبعها بصفة الشكر التي هي نتاج الأولى[١].

قال الشوكاني: وصفه الله بكثرة الشكر وجعله كالعلة لما قبلها إيذاناً بكون الشكر من أعظم أسباب الخير، ومن أفضل الطاعات حثّاً لذريته على شكر الله سبحانه[٢].

وحقيقة الشكر اعتراف القلب بالنِّعمةِ للمُنعِم بها، وترديدها على اللسان ذكراً وثناء على الله بها، ثم إعمال الجوارح في طاعة الله إظهاراً لشكر النِّعمة، وبهذا ندرك أهمية الشكر في تحقيق العبودية لله تعالى.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: ففيه التنويه بالثناء على نوح عليه السَّلامُ بقيامه بشكر الله، واتصافه بذلك والحث لذريته أن يقتدوا به في شكره ويتابعوه عليه، وأن يتذكَّروا نعمة الله عليهم إذ أبقاهم واستخلفهم في الأرض وأغرق غيرهم[٣].

وفي قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ﴾ [الإسراء: ٣]، تذكير للأمم عموماً وبني إسرائيل خصوصاً بأن الله إنما نجّى نوحاً، ومن معه من الهلاك بسبب كثرة شكره لله تحريضاً على الاقتداء به في ذلك.

---

(١) عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السَّلامُ، ص ٢٨.
(٢) الشوكاني، فتح القدير، ٤/ ٢٨٢.
(٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ١/ ٤٥٣.

وصحَّ عن جمع من أئمة التابعين كقتادة السدوسي، وإبراهيم النخعي، وغيرهما، مع اختلاف بينهم في السياق أنَّ نوحاً عليه السَّلامُ كانَ إذا لبس ثوباً قال: بسم الله، وإذا نزعه قال: الحمد لله، وإذا أكل قال: بسم الله، فإذا فرغ من الأكل قال: الحمد لله، وإذا شرب حمد الله، وقال: الحمد لله الذي سقانيها على شهوة ولَذَّة وصِحَّة، ولهذا سُمِّي شكوراً، وهذا الذي ذكر في هذه الآثار هو جزء يسير في تطبيقات الشكر في بعض معانيه، ونماذج قليلة كانت تظهر على لسان نوح عليه السَّلامُ عند تجدُّد النِّعمة لربِّه، وإلا فإن الشكر أعم مما ورد في الآثار، إذ يشمل الأعمال القلبية واللسان والجوارح.

وعلى كل حال فإن نوحاً عليه السَّلامُ قد حاز قصب السبق في هذا الميدان بثناء الله عليه بكثرة الشكر في كتابه الكريم، فكان له ذلك ذكراً حسناً في الأولين والآخرين، ولهذا فإن أهل الموقف يوم القيامة يناشدون نوحاً عليه السَّلامُ بتلك الصفات التي اشتهر بها أن يشفع لهم عند الله لفصل القضاء بَينَ العباد، فيقولون: «. . . وقد سماك الله عبداً شكوراً»[١].

ولكن يجب العلم بأن تميُّز نوح ـ عليه السَّلامُ ـ بهذه الصفة وغيرها لا يعني أنه أفضل من غيره من الأنبياء مطلقاً، فالمفضول قد يختصّ من الصفات بما يقتصر عنها الفاضل، والله يخصُّ بعض عباده بما يشاء من الفضائل[٢].

١٤ ـ عمر نوح الذي عاشه في الدُّنيا:

إنَّ النَّاس في زمن نوح ومن كانَ قبله إلى آدم عليهما السلام، كانوا يعمَّرون مُدداً طويلة من العمر، حتى كانَ عمر الواحد منهم يقترب من الألف أو يزيد، ثم إن النَّاس لم يزالوا في نقصان أعمارهم من ذلك الوقت إلى يومنا هذا[٣].

---

(١) أبو بكر، قصة نوح عليه السَّلامُ، ص ٣٠.
(٢) المرجع السابق، ص ٣٠.
(٣) المرجع نفسه، ص ٣٠.

ولعلَّ الحكمة من وراء زيادة أعمارهم في الفترات الأولى من تاريخ البشرية ـ والله أعلم ـ أن البشرية كانت في طور التنشئة والتأسيس، فاقتضى ذلك أن يُمدَّ في عُمرها ليتمَّ التناسل، والتكاثر بينها على أكمل وجه، فعاش نوح عليه السَّلامُ في تلك الفترة، فكان عمر نوح عليه السَّلامُ من قبيل أعمارهم المديدة، كما أخبر الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

وهذه المدة من عمر نوح ـ عليه السَّلامُ ـ التي هي ألف إلا خمسين عاماً محلُّ اتِّفاق بَينَ العلماء لدلالة القرآن الكريم عليها بصريح العبارة، ولكن الآية الكريمة لا تدلُّ على أن هذه المدة جميع عمره، بل غاية ما فيها أن نوحاً عليه السَّلامُ عاش هذه المدة بعد البَعثة، وقبل الطُّوفان، وأما بعد الطُّوفان فإنه قد عاش بعده جزماً لظاهر قوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ [العنكبوت: ١٤]، أي أنه بعد تلك المدة أخذهم الطُّوفان، ونحن نجزم بأن نوحاً عاش بعد الطُّوفان، ولكنَّ الله أعلم كم المدة التي عاشها بعد الطُّوفان.

ولهذا اختلف أهل العلم في المدة التي عاشها قبل البَعثة، كما اختلفوا في المدة التي عاشها بعد الطُّوفان، وأقوى ما ورد في ذلك ما نُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما، فقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصحَّحه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بعث الله نوحاً وهو ابن أربعين سنة، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله، وعاش بعد الطُّوفان ستين سنة حتى كثر النَّاس وفشوا[1].

وبهذا يكون مجموع عمر نوح عليه السَّلامُ على قول ابن عباس ألفاً وخمسين سنة، وما نُقل عن ابن عباس في مدة عمر نوح قبل البَعثة وبعد الطُّوفان ليس محلَّ

(١) الشوكاني، فتح القدير، ٥/ ٤٣٧، السيوطي، الدر المنثور في التفسير المأثور، دار الفكر، بيروت، ٢٠١١م، ٨/ ٣١.

اتِّفاق، بل قد خالفه في ذلك جمعٌ من التابعين، ككعب الأحبار، وقتادة، ووهب بن منبه، وغيرهم، بل وخالفَ ابنَ عباس فيه تلميذُه عكرمة، فقد أخرج عبد بن حميد بسنده عن عكرمة قال: «كان عمرُ نوحٍ قبلَ أن يُبعَثَ إلى قومه، وبعدَما بُعِثَ ألفاً وسبعَمائةِ سَنةٍ».

وأكثر ما وقفت عليه في طول عمر نوح ما رواه ابن جرير قال: «حدثنا نصر بن علي الجهضميّ قال: حدثنا نوح بن قيس، قال: حدثنا عوض بن أبي شداد، قال: إن الله أرسل نوحاً إلى قومه، وهو ابن خمسين وثلاثمائة سنة، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، ثم عاش بعد ذلك خمسين وثلاثمائة سنة، فأخذهم الطُّوفان» [(١)].

فهذا يدلُّ أن عُمر نوح عليه السَّلامُ قبل البَعثة، وبعد الطُّوفان ليس محلَّ اتِّفاق، لعدم وجود النقل عن المعصوم الذي لا سبيل إلى معرفة الغيبيات إلا من طريقه، وأقربها إلى الصواب إن شاء الله ما تقدم نقله عن ابن عباس رضي الله عنهما[(٢)].

والخلاصة أنَّ نوحاً عليه السَّلامُ قد مدَّ الله في عمره حتى عاش كل هذه المدة ومع ذلك فإن عمره كانَ في نظره قليلاً، قال ابن أبي الدُّنيا: حدثنا محمد بن عاصم، أخبرني نافع أبو هرمز، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء ملك الموت إلى نوح، فقال: يا أطولَ النَّبِيِّين عُمراً، كيفَ وجدتَ الدُّنيا ولَذَّتها؟ قال: كرجلٍ دخلَ بيتاً له بابانِ، فقام وسطَ البيتِ هُنيَّةً، ثم خرج من الباب الآخر[(٣)].

---

(١) الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، ٢٠/ ١٧. وانظر: الطبري، تاريخ الطبري تاريخ الرُّسُل والملوك، المرجع السابق، ١/ ٧٠.

(٢) أبو بكر، قصة نوح عليه السَّلامُ، ص ٣١.

(٣) ابن أبي الدُّنيا، كتاب الزهد، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ-١٩٩٩ م، ١/ ٣٦٠، رقم (٣٦٣).

ثانياً: مضمون دعوة نوح عليه السَّلامُ:

إن دعوة الأنبياء والرُّسُل ـ عليهم السلام ـ هي دعوة واحدة في أصولها على مرّ الزمان والمكان، الكل منهم كانَ يبذل غاية جهده، وأقصى طاقاته لربط النَّاس بخالقهم، وتوجيههم الوجهة الصحيحة[١].

* قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

* قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

* في سياق القصص القرآني: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩].

فالآيات الكريمة المذكورة وغيرها تترى، كانَ يفتتح بها النبي أو الرَّسول رسالته إلى قومه بكل وسيلة يؤكد على توحيد الله عزَّ وجلَّ، في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، وحاكميته وعبادته، وتقواه وطاعة رسله.

فأساس دعوة الأنبياء والمُرسَلين تعبيد النَّاس لله تبارك وتعالى، وتحقيق التوحيد له عزَّ وجلَّ، فلا تعلو قضية أخرى مهما كانت أهميتها على قضية التوحيد.

وكان الأنبياء مع دعوتهم للتوحيد، يدعون قومهم إلى ترك المنكرات: كالتَّطفيف في الميزان، والبغي على النَّاس، وهكذا الدعاة إلى الله تعالى، يجب

---

(١) أحمد سليمان الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م، ص ١١٦.

أن يكون التوحيد أساس دعوتهم، ومنطلقها، ومع ذلك يُعنَون بعلاج المشكلات المتفشية في عصرهم[(١)].

* ومضمون دعوة نوح سبراً من النصوص القرآنية، التوحيد، وعبادة الله، وتقواه وطاعته.

* قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩].

* وقال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٦ـ١٠٨].

* وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٥ـ٢٦].

* وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣].

* وقال الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٢ـ٤].

وهذه الآيات وغيرها وضَّحت مضمون دعوة نوح عليه السَّلامُ لقومه التي ارتكزت على توحيد الله عزَّ وجلَّ، وتحقيق العبادة له وحده، وتقواه وطاعته.

١ ـ توحيد الله في رسالة نوح عليه السَّلامُ:

حينما انحرفت الإنسانية في عقيدتها، شاءت رحمة الله أن يرسل نوحاً عليه السَّلامُ مُبشِّراً بالحقِّ في مجال العقيدة، وبالخير في مجال الأخلاق، وبالعدل في مجال التشريع.

---

(١) أحمد سليمان الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، المرجع السابق، ص ١١٧.

وتضعنا النصوص الصحيحة والأخبار أمام نوح ـ عليه السَّلامُ ـ وهو رجل ناضج، ومكتمل، أرسله الله لهداية قومه، وأما طفولته وشبابه وكل ما كانَ قبل الرسالة فليس لنا به علم، ولكن الله سبحانه وتعالى له سُنَن خاصة بمن بعثهم أنبياء ورسلاً، وذلك أن الله سبحانه يختارهم من ناحية النسب من أشرف الأسر، ولقد سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان بن حرب عن رسول الله ﷺ قائلاً: كيف هو فيكم؟ فردّ أبو سفيان قائلاً: هو فينا ذو حَسَب، فقال هرقل: وكذلك الرُّسُل تُبعث في أحساب قومها.

ويُعلِّل ابن خلدون سُنة الله في بعث الرُّسُل في أحساب قومهم، بأن ذلك إنما هو لأجل أن يكون للرسول أسرة ذات شوكة ومَنَعةٍ تحميه من أذى الكفار حتى يبلِّغ رسالة ربه، ويتم مراد الله في إكمال دينه ومِلَّتِه، ورسول الله ﷺ يقول في حديث صحيح: «ما بعثَ الله نبيّاً إلا في مَنَعةٍ مِن قَومِه» [١]. ومن هذه السُّنة الإلهية نُوقن ـ إن لم تكن لدينا نصوص صريحة ـ أن نوحاً كانَ من أسرة كريمة، هذا من ناحية الأسرة[٢].

وأما من ناحية الإعداد التربوي، فإن الله سبحانه وتعالى يصطنعهم لنفسه: يقول الله تعالى لسيدنا موسى عليه السَّلامُ: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ [طه: ٤١]، ويصنعهم على عينه: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]، وأما سيدنا يحيى عليه السَّلامُ فإنه كانَ تقيّاً وبرّاً بوالديه، ولم يكن جبّاراً عصيّاً، وسيدنا عيسى عليه السَّلامُ، جعله مباركاً أينما كان، ورسولنا محمد ﷺ يقول له الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ومن هذا وغيره نؤكد أيضاً أن نوحاً عليه السَّلامُ لم يكن بدعاً من الرُّسُل، وأنه كانَ على خلقٍ كريم، يقول ابن خلدون عن الأنبياء والرُّسُل عامة: ومن علاماتهم

---

(١) عبد الحليم محمود، قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرُّسُل، ص ٦٥.
(٢) المرجع السابق، ص ٦٥.

أنه يوجد لهم قبل الوحي خُلُقُ الخير، والزكاة ومجانبة المذمومات والرجس أجمع، وهذا هو معنى العصمة، وكأنه مفطور على التنزّه عن المذمومات، والمنافرة لها، وكأنها منافية لفطرته، وكان نوح عليه السَّلامُ على خلق كريم، ما في ذلك شكٌّ، فلما انتهى إعداد الله له إلى غايته، فاجأه الوحي، وتلك أيضاً سُنَّةُ الله في أنبيائه، فإنه حينما تصبح نفوسهم ـ بتربية الله وعنايته ـ أهلاً للتلقي عنه يُفاجئها الوحي مثلاً وهي سائرة في الوادي المقدس وفي البقعة المباركة، كما حدث لسيدنا موسى، بينما هو سائر مع أهله رأى ناراً فقال لأهله: امكثوا هنا، وذهب نحو الضوء، فإذا به سمع النداء الإلهي ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤]، أو يفاجى الوحي النبي وهو في الغار فيأتي الملك آمراً: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، وفاجأ الوحي نوحاً عليه السَّلامُ على نحوٍ من هذه الأنحاء، لقد فاجأه بالأمر ـ ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [نوح: ١] ـ بماذا ينذرهم؟[(١)]

لقد بعث الله سيدنا نوحاً حينما عمّ الفساد؛ ليبشّر بالحقِّ والخير والعدل، وبدأ سيدنا نوح عليه السَّلامُ بالتوحيد: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وهذا الذي قاله سيدنا نوح لقومه هو التبشير بالتوحيد، والتوحيد هو جوهر الرسالات السماوية جميعاً، والله سبحانه وتعالى يُؤكِّد لسيدنا محمد خاتم النَّبيِّين ذلك قائلاً: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

والتوحيد هو ما نعبر عنه في الإسلام بـ«أشهد أن لا إله إلا الله»، وهو العلامة الأصلية والطابع الحقيقي والجوهر الثابت لكل دين سماويٍّ صادق[(٢)].

---

(١) عبد الحليم محمود، قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرُّسُل، ص ٦٧.
(٢) الصفحة نفسها من المرجع السابق.

والمعنى الحقيقي للتوحيد هو: علم العبد واعتقاده واعترافه بتفرُّد الرَّبِّ بكلِّ صفة كمال، واعتقاده أنه لا شريك له، ولا مثيل في كماله، وأنه ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، وإفراده بالعبادة[١].

فالله لا يكون له شريك في ذاته ولا صفاته، وكذا في عبادته ومعاملته سبحانه وتعالى، وهذا التعريف مستند على الدلالة الواضحة لمعنى «لا إله إلا الله»: إذ إنها تدلُّ بالمطابقة على التفرُّد في الألوهية فلا تُصرف العبادة إلا له، وبالالتزام على تفرُّده في الربوبيَّة، كما تدلُّ على اتصافه عزَّ وجلَّ بكافة صفات الكمال والجلال بالتَّضمُّن[٢]، فهي الكلمة المفسِّرة للتوحيد من ناحية العلم، ومن ناحية العمل[٣].

والمعنى الحقيقي للتوحيد: هو الاعتقاد اليقيني أن كل ما في الكون من خَلْق ورزق، وعطاء ومنع، وحياة وموت، وغنى وفقر، وقوة وضعف، وعِزٍّ وذلٍّ، مردّه إلى الله سبحانه، فالله سبحانه وتعالى مُتفرِّد بالخلق والرزق والإحياء والإماتة وسائر أنواع التصريف والتدبير لملكوت السَّموات والأرض، ويجب إفراده بالحكم والتشريع، فهو الذي أرسل الرُّسُل وأنزل الكتب، قال تعالى:

---

(١) عبد الرحمن السعدي، طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول، دار البصيرة، الاسكندرية، ٢٠٠٠م، ص ١١؛ فوز بنت عبد اللطيف الكردي، تحقيق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، الطبعة ١١، ١٤٢١هـ ص ١٠٣.

(٢) دلالة الشيء على تمام معناه يسمى مطابقة، ودلالته على تعض معناه يسمى تضمناً، ودلالته على معنى آخر خارج عن معناه يسمى لازم له عقلا أو عرفا يسمى التزاماً، للتوسع في معنى الدلالات، يُنظر: عبد الرحمن حبنكة الميداني، ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، تحقيق: حسين مؤنس، دار القلم، دمشق، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م، ص ٢٧.

(٣) فوز بنت عبد اللطيف الكردي، تحقيق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات، ص ١٠٤.

﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

والله سبحانه وتعالى يجب إفراده وحده بالعبادة فلا يُعبد غيرُه، ولا يُدعى سواه، ولا يُستغاث ولا يُستعان إلا به، ولا يُنذَر ولا يُذبَح إلا له، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣] [(١)].

كما أن أعظم ما يحتاجه العبد معرفة أسماء الله، ليحمده ويمجده ويثني عليه ويسأله المغفرة، والرَّحمة ويتوب إليه، وهذا ما سنقف عليه في محلِّه في قصة نوح عليه السَّلامُ.

وإذا آمن الإنسان بالتوحيد لن ينظر إلى غير الله، فيكون خوفه منه، ورجاؤه فيه، وثقته به، واتِّكاله عليه، وإذا اعتقد التوحيد رأى أن كل ما سوى الله مُسخَّرٌ لله، وإذا اعتقد التوحيد تحرّر من ذلِّ العبودية لغير الله، لأن كل مخلوق مُسخَّر لله، وتتكاتف آيات الله وأحاديث الرَّسول الكريم ﷺ على دعوة الإنسانية إلى التوحيد حتى تتحرّر من رق العبودية[(٢)].

ولقد بشَّرَ سيدنا نوح عليه السَّلامُ بالتوحيد، وبشَّر بالتوحيد جميع الرُّسُل، وإذا فُهم التوحيد على حقيقته واتَّخذته الإنسانية شعاراً لها يكون علاجاً لكثير من ألوان العنف في المجتمعات، فالإنسانية في مختلف أزمنتها وأمكنتها تخاف الموت وتخشاه، فتنقاد إلى استعباد الأقوياء، والذِّلة أمام الطغاة.

ولكن هذا الوضع لا يتماشى قط مع عقيدة التوحيد، فإن مالك الملك إنما هو وحده الذي يملك الموت والحياة، إنه يملك إماتة الطغاة أو تركهم لحكمة يعلمها سبحانه، وهو الذي قدّر الآجال وحدّدها، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

---

(١) فوز بنت عبد اللطيف الكردي، تحقيق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات، ص ١٠٧.
(٢) عبد الحليم محمود، قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرُّسُل، ص ٦٨.

والحرص على الحياة ـ أو الجبن ـ ليس من أسباب إطالة الأجل، والشَّجاعة والإقدام ليسا من أسباب تقصير الأجل، وقد بَيَّنَ الله ذلك في كتابه الكريم الذي يُعبِّر عن جميع الرسالات السابقة إبانة تامة، وكما أنه لكل أجل كتاب، فإنه لكل أمة أجل.

أما هؤلاء الذين قالوا: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤]. فإن الله سبحانه يرد عليهم: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وهؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران: ١٦٨].

فإن الله سبحانه وتعالى يأمر رسوله ﷺ أن يرد عليهم قائلاً: ﴿فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨]. وأما الذين يَفِرُّون أمام أعداء الله فهؤلاء ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ [آل عمران: ١٥٥].

إذن فالمؤمن الصادق لا يعرف الجبن، ولا يستزلُّه الشَّيطان موسوساً له بالخوف من غير الله تعالى.

وإذا كانَ خوف الموت هو السبب الأول في ذِلَّةِ الإنسان واسترقاقه، فإن السبب الثاني هو همُّ الرزق، والنَّاسَ عادة ينتابهم القلق ويغمرهم الحرص على أقواتهم، ويلجأ بعضهم إلى وسائلَ لا تليق بالكرامة الإنسانية، بل يصل الأمر بالبعض إلى مستوى التملُّق والمداهنة والمراءاة، وبعضهم يصل به الأمر إلى الغش والرِّشوة والاختلاس، وتستعبده المادة فيُصبح عبداً مسترقّاً.

ولكن الدين ـ وقد حرّر المجتمع من خوف الموت ـ فقد حرّره أيضاً من همِّ الرزق، فالرزق بيد الله تعالى ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦].

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أن الرزق في السَّماء محدّد ومقسوم، وأقسم سبحانه على أن ذلك حقٌّ واقع، لقد أقسم سبحانه لما يعلم من ضعف الطبيعة البشرية وإشفاقها وقلقها بالنسبة لأمر الرزق ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢ـ٢٣].

وما من شك في أن السعي إلى الرزق مطلوب، وأن العمل الجاد الكادح إنما هو من سمات الإسلام، كل ذلك حقٌّ، وإذا كانَ الرزق بيد الله تعالى، وإذا كانَ العمل مطلوباً، فإن ما يَنهى عنه الإسلام إنما هو هذه الصورة الجشعة القلقة التي تحاول اقتناص المال في السبل غير المشروعة، أو التي ترى أن عبداً من عباد الله بيده الرزق، إعطاءً ومنعاً، وبيده الرزق زيادة ونقصاً، أو أخذاً وتركاً، فالتوحيد ـ إذن ـ علاج للجبن، وعلاج للقلق من أجل الرزق[1].

وقد أخذ سيدنا نوح ـ عليه السَّلامُ ـ يدعو إلى التوحيد في هِمَّةٍ لا تَفتر، وفي نشاط لا يتوانى، وأخذ يدعو ليلاً ونهاراً، وأخذ يدعو جهراً حينما تُتيح له الظروف الدعوة الجهرية، ويدعو سرّاً حينما يستلزم الأمر الدعوة سرّاً، فلم يكن يدع فرصة تمرُّ إلا ويشرح فيها رسالة الله: مُبشِّراً ونذيراً، مُرغِّباً في ثواب الله وجنته، ومُخوِّفاً من عقابه وعذابه.

لقد أخذ نوح يشرح لهم قدرة الله وشمول علمه، ودعاهم إلى التَّفكُّر في أنفسهم قائلاً: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤]، ألا ترون أنه خلقكم في بطون أمَّهاتكم خلقاً من بعد خلق؟

لقد كنتم تراباً ثم نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم كنتم أجِنَّةً، وكنتم في جميع هـذه الأطوار في رعاية الله، محفوظين بحفظه، محاطين بعنايته، وبعد ذلك كنتم أطفالاً فشبّاناً... وهكذا، وستعودون إليه من جديد في أية لحظة شاء، فارجعوا إليه بالتوبة والإنابة، والطاعة قبل أن تواجهوه وهو غير راضٍ عنكم،

---

(١) د. عبد الحليم محمود، قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرُّسُل، ص ٧١.

ثم: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥ ـ ١٦].

ثم: ألم تروا كيف جعل لكم الأرض بساطاً، وجعل لكم فيها مسالك وسبلاً للإقامة والانتفاع، وفي كل ذلك ما نرى في خلق الرحمن من تفاوت.

وأخذ سيدنا نوح يُعدِّد نعمَ الله: منها اليسير ومنها العظيم، الظاهر منها والباطن، ونعم الله كثيرة لا تُحصى ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، وأعلن لهم قانون «الاستغفار»، وسيدنا نوح أوَّل من أعلن هذا القانون: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠].

هذه هي مقدمة القانون أو قاعدته وأساسه، فإذا كانَ الاستغفار الخالص النصوح، وإذا كانَ الالتجاء إلى الله بطلب المغفرة في صدق كانت النتيجة: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: ١١]، أيْ: يتنزل الغيث المحيي لأرضكم الجدباء، الذي يملأ أنهاركم الجارية بالخير والنماء، ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾ [نوح: ١٢]، فإن الإمداد بالأموال والبنين ـ وقد أتى بهما القرآن بصيغة الجمع مُترتِّباً على الاستغفار، وإن هبة الجنات والأنهار ـ وقد أتى بهما القرآن بصيغة الجمع أيضاً ـ مُترتِّبةٌ على الاستغفار، هذا هو «قانون الاستغفار» الذي أعلنه نوح عليه السَّلامُ.

وهذا القانون عامٌّ لا يحدُّه زمان ولا يحدُّه مكان، فمن التجأ إلى الله في العصر الحاضر بالاستغفار الخالص الصادق فإن الله سبحانه يهيّئ له من الظروف ما يجعله يعيش في سعة من الرزق، وفي يسار من المال، إنه وعد الله الذي أوحاه إلى رسوله نوح ليعلنه للناس، ووعد الله لا يتخلف.

ولقد أوضح رسولنا ﷺ ـ فيما بعد ـ زاويةً مُهمَّةً من زوايا قانون الاستغفار وهي عدم وقوع العذاب على المستغفر، يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

إنَّ سيدنا نوحاً عليه السَّلامُ كانَ يُنبِّه قومَه إلى الظروف والملابسات التي تُشير إلى صدقه، إنه لا يسألهم على دعوته أجراً ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [هود: ٢٩]، إنه ـ إذن ـ لا يطلب مالاً ولا يدعو بدعوته من أجل النقود.

وإذا سأله سائل عن السبب في قيامه بهذه الدعوة فإنه يقول:

* أُبلِّغُكم رسالاتِ ربِّي.

* وأنصَحُ لكم.

* وأهديكم إلى ما أعلمه عن الله، وذلك لأني: أعلم من الله ما لا تعلمون.

وهل من العجب أن يأتيكم ذِكرٌ من ربكم، فيه هدى ونور لكم، على لسان رجل منكم، من أجل أن تتوبوا إلى الله وتُؤمنوا وتنالوا رحمته؟

إنَّ الإنذار عادة يقود ذوي النفوس الخيّرة إلى التقوى، والتقوى سببٌ في رحمة الله، فهل من العجيب أن يرسل الله لكم ـ وهو أرحم الراحمين ـ من يقودكم بإنذاره إلى رحمة الله؟

كان هذا منطق نوح عليه السَّلامُ ولقد استجاب له بعض الأشخاص من قومه[١].

كانت دعوة نوح ـ عليه السَّلامُ ـ للتوحيد هي حجر الزاوية في بناء الرؤية الكلية عن الله والكون والحياة والإنسان، وبيان حقيقة العالم، وحقيقة الخالق، والوصول إلى طبيعة العلاقة بينهم.

وإنَّ توحيد الله عزَّ وجلَّ هو أساس الإيمان وسِرُّ السعادة في الدُّنيا والآخرة، والقلوب مفتقرة إلى معرفته سبحانه والتعلُّقِ به ومحبته وخوفه ورجائه، أكثر من

---

(١) عبد الحليم محمود، قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرُّسُل، ص ٧١ـ ٧٤.

حاجتها إلى الطعام والشراب وسائر الضروريات[(١)]. وقد جاءت الآيات القرآنية تُقرِّر هذا الأصل منها:

* قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

* وقوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٩٧ ـ ٩٨]، وغيرها من الآيات التي يأمر الله تعالى عباده أن يعرفوه، فيعبدوه ويعظموه[(٢)].

٢ ـ قيام نوح عليه السَّلامُ بدعوة قومه إلى عبودية الله تعالى وتحقيق العبودية في نفسه:

إنَّ المتأمِّل في قصة نوح عليه السَّلامُ ودعوته لقومه يرى عظم هذا النبي في قيامه بأداءِ مُهمَّة التبليغ لقومه، ودعوته إيَّاهم لعبادة الله تعالى وحده، حيث مكث عليه السَّلامُ فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم ليلاً ونهاراً، سِرّاً وعلانيةً، وكانت دعوة نوح عليه السَّلامُ التي دعا قومه إليها هي دعوة التوحيد الخالص، وتحقيق عبودية الله تعالى، وترك عبادة الأصنام[(٣)].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٖ﴾ [هود: ٢٥ ـ ٢٦]. وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾:

---

(١) وليد خالد الربيع، أثر القرآن الكريم في بناء الشخصية الإسلامية، التراث الذهبي، الرياض؛ مكتبة الإمام الذهبي، الكويت، ١٤٣٩ هـ ـ ٢٠١٨ م، ص ٦١.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٢.

(٣) فريد إسماعيل التوني، عبودية الكائنات لرب العالمين، مكتبة الضياء جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ، ص ١٦٨.

* ﴿وَلَقَدۡ﴾ : الواو للاستئناف، واللام للقسم، وقد: حرف تحقيق.

* ﴿أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ : حملنا رسالتنا وأوحينا لعبدنا نوح إلى قومه، وهم الذين عاش بينهم ويعرفونه ويعرفهم، وهم في فجر الحياة البشرية مع بدايات تشكُّل الجماعات والمجتمعات والأقوام.

* ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ : أي فحوى رسالته لهم ما سجلته الآية من قوله، إنِّي يا قوم لكم أنتم لا لغيركم، وأنتم من تعرفونني، نذيرٌ: مُنذِرٌ مُحّذِّر من سوء عواقب ما أنتم فيه، مُبين: واضح الإنذار لا لبس فيما أقول، ولا تعمية ولا تعقيد، بل كلام بسيط مفهوم، والتحذير واضح أن الكفر والشرك عواقبه في الدُّنيا والآخرة وخيمة وبيلة، وإن التَّظالم لا يؤدي إلا إلى سوء النتائج[١].

وفي قوله: ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ إن كلمة ﴿إِنِّي لَكُمۡ﴾ نفقه منها درساً وحكماً رائعة، أن الداعية «الرَّسول وغيره» لا يعيش لنفسه ولا لشهواته ولا لأقاربه فحسب، وإنما يعيش للناس لإسعادهم، ويُفني عمره في إنقاذهم من الضَّلال إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن ضيق الدُّنيا إلى سعة الدُّنيا والآخرة.

وحقاً إن الذي يعيش لنفسه وشهواته ولدنياه يعيش صغيراً ويموت صغيراً، وإن الذي يعيش للناس يعيش كبيراً ويموت كبيراً، يبقى ذكرُه الحسن العاطر على كل لسان، وهكذا عاش نوح عليه السَّلامُ، وسائر الأنبياء والمُرسَلين من بعده[٢].

ومن الآيات الكريمة المذكورة يظهر الأدب الرفيع في الطريقة التي سلكها نوح - عليه السَّلامُ - في طرحه للموضوع من خلال:

* **التمهيد**: حيث مَهّد نوح عليه السَّلامُ للموضوع الذي سيطرحه بطريقة

---

(١) أحمد نوفل، تفسير سورة هود، ص ١٠٩.

(٢) محمد عبد القادر أبو فارس، مع الأنبياء في الدعوة إلى الله، ص ٣٠.

عنيفة قوية، ليُحدث في نفوسهم جلبة وقلقاً يُهيِّئُها للاهتمام والترقُّب الشديد لما سيقوله لهم، وقد صاغ نوح هذا التمهيد بقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، والبداية قوية، يكون لها تأثيرٌ بالغ الأهمية في لفت الأنظار للموضوع المطروح.

* **صلب الموضوع**: من أدب الكلام أن تُعرض المواضيع ذات الأهمية الكبرى بكلمات بسيطة واضحة لا لبس فيها ولا غموض، حتى يفهمها المخاطبون، على المستويات المختلفة، وهكذا فقد اختار نوح لموضوعه ألفاظاً واضحة المعنى والمراد، كيلا ينصرفَ الذهن عن المعنى الأصلي المراد، ولا يترك أي مجال للتأويل، فلخص موضوع رسالته بقوله ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [1]، وهذه الكلمة هي قاعدة الدين ومحوره وعموده وملخَّصه، التوحيد وإفراد الله بالعبادة، والإنسان عابد بالفطرة، لا يملك إلا أن يَعبدَ، فهو إما أن يَعبدَ الإلهَ الحقَّ وإما أن يعبد الشَّيطان أو الهوى أو الأوثان، أو المال والشهوات... إلى آخر المعبودات، والأنبياء مُهمَّتُهم أن يَردُّوا النَّاس إلى عبادة رب النَّاس وحده، وما أجمل كلمة الصحابي ربعي بن عامر لرستم قائد جيوش الفرس، إذ قال له: «إن الله ابتعثنا لنُخرجَ العبادَ من عبادة العباد إلى عبادة الله رب العباد.....».

ولم يقل: أن تعبدوا الله، ولكن أتى بها بصيغة الحصر ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، فكثير من النَّاس يؤمنون بالله ويعبدونه، ولكنهم يشركون في كل ذلك، كما قال تعالى في أكثر من موطن في قرآنه، ومن ذلك ما في سورة يوسف إذ قال الله سبحانه: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

وإنَّ العبادة مفهوم شامل ـ كما لا يخفى ـ يُنظِّم شؤونَ الحياة كلها، فكلُّ

---

(١) عودة عبد عودة عبد الله، أدب الكلام وأثره في بناء العلاقات الإنسانية في ضوء القرآن الكريم، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م، ص ٣٠٨.

ميادين الحياة ميادينُ عبادة، وكل نشاط في هذه الحياة إن ابتُغِيَ به وجهُ الله فهو عبادة، والعادات بالنِّيَّاتِ تغدو عباداتٍ، والعباداتُ بلا نِيَّاتٍ عاداتٌ[١].

أ ـ وصفه بالعبودية:

إن من مضمون دعوة نوح عليه السَّلامُ دعوةُ النَّاس لعبادة الله، وإفراده وحده بذلك، وقد أثنى الله على دعوته وجهده في كتابه العزيز، فوصف الله عزَّ وجلَّ نوحاً عليه السَّلامُ بالعبودية، فقد استطاع أن يُحقِّقَها في أعلى مستوياتها.

فوصفه الله تعالى بأنه كانَ عبداً شكوراً، قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، وذِكر صفة الشكر بعد صفة العبودية من باب ذكر الخاص بعد العام، فالشكر من العبادة، وقد اختصَّ نوح عليه السَّلامُ بصفة الشكر فكان كثير الشكر في مجامع حالاته كلِّها، وجعل الله تعالى الشُّكْرَ عِلَّةً لما قبله من حملِ نوحٍ في السَّفينة ونجاته مع مَن معه، فالشكر أعظم أسباب الخير، ومن أفضل الطاعات، فكانت نجاة نوح عليه السَّلامُ ومن معه ببركة شكره، وفيها حثٌّ للذرِّية على الاقتداء به، وزجر لهم عن الشِّرْك الذي هو أعظم مراتب الكفر[٢].

وجاءت هذه الصفة ـ العبودية ـ لنوح عليه السَّلامُ في معرض الإشفاق عليه، لعناد قومه، ورَفضِهم دعوته، فقال تعالى: ﴿۞كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ [القمر: ٩]، وإضافته لرب العزة في قوله: ﴿عَبْدَنَا﴾ هو تشريف لمنزلة نوح عليه السَّلامُ، فجمع بذلك بَينَ تكريمين:

ـ **الأول**: ذكره عليه السَّلامُ بعنوان العبودية.

(١) أحمد نوفل، تفسير سورة هود، ص ١١٢.

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٥ه، ٣/ ٣١٠؛ الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، نقلاً عن فريد إسماعيل التوني، عبودية الكائنات لرب العالمين، ص ١٦٣.

ـ **الثاني**: إضافته إلى ضمير التعظيم، وهذا تعظيم له عليه السَّلامُ ورفع لمحله وقَدْرِه.

وجاءت هذه الصفة والإضافة لنوح ـ عليه السَّلامُ ـ على سبيل العموم لا الخصوص كما في الآية السابقة، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ٨٠ـ٨١]، فوصفه عليه السَّلامُ بصفة الإحسان، وهي أعلى مراتب العبودية، ومعناها: أن يعبد المرءُ ربَّه سبحانه كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإن الله يراه، كما بَيَّنَ ذلك المعنى الرَّسول محمد ﷺ ونوح عليه السَّلامُ من المحسنين بخلوص عبوديَّتِه، وكمالِ إيمانه، وهو من المُصدِّقين المُوحِّدِين.

وقد وُصف نوح عليه السَّلامُ بالعبودية مقروناً مع لوط عليه السَّلامُ في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]، فمع وصف الله تعالى لنوح عليه السَّلامُ بصفة العبودية التي استحقها، وصفه سبحانه بالصَّلاح أيضاً(١).

وقد شهدت السُّنةُ المطهَّرةُ بصفة العبودية لنوح عليه السَّلامُ، ففي حديث الشفاعة أن النَّاس يذهبون إلى نوح عليه السَّلامُ فيقولون: «يا نوحُ أنتَ أوَّلُ الرُّسُلِ إلى أهلِ الأرضِ وسَمَّاكَ الله عبداً شَكوراً، أَما تَرى إلى ما نحنُ فيهِ، ألا تَرى إلى ما بَلَغْنا، ألا تَشْفَعُ لنا إلى ربِّكَ؟ فيقولُ: ربي غَضِبَ اليومَ غَضَباً لم يَغضَبْ قَبْلَه مثْلَه وَلا يَغضبُ بَعْدَه مثْلَه نَفْسي نَفْسي ائْتوا النَّبيَّ ﷺ فيَأْتوني فَأَسْجُدُ تَحتَ العَرشِ فيُقَال: يا محمَّدُ ارفَعْ رَأسَكَ واشفَعْ تُشَفَّعْ وَسَلْ تُعْطَهُ. قَالَ محمَّدُ بنُ عُبَيدٍ لا أَحفَظُ سائِرَه»(٢).

(١) فريد إسماعيل التوني، عبودية الكائنات لرب العالمين، ص ١٦٤.
(٢) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، رقم (٣١٦٢).

ب ـ قيامه بالعبودية:

قام نوح ـ عليه السَّلامُ ـ بالدعوة إلى عبودية الله وتحقيقها في نفسه حقَّ القيام، وأخلص له في أعماله كلِّها، فلم يَصرِفْ شيئاً من العبادة لغير الله عزَّ وجلَّ، بل وَجَّهَها لخالقِه سبحانه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

*** الأقوال:**

ـ كانَ عليه السَّلامُ كثير الشكر في جميع أحواله حتى اختُصّ بهذه الصفة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ [الإسراء: ٣].

ـ وكان عليه السَّلامُ كثيرَ الدُّعاءِ والتَّوجُّهِ إلى الله تعالى، والآيات في هذا المعنى كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾ [القمر: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ١١٧ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٧ ـ ١١٨] فكلها آيات شاهدة على أن نوحاً عليه السَّلامُ كانَ كثيرَ الدُّعاءِ والتوجُّه إلى الله سبحانه[١].

ـ وكان عليه السَّلامُ كثيرَ التَّضرُّع إلى الله تعالى وطلب المغفرة والرَّحمة منه سبحانه، فقال تعالى مخبراً عنه عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، وهكذا فكلما ازداد العبد خضوعاً لله تعالى ارتفعت منزلته ودرجته[٢] وكلما ازداد القلب حباً لله ازداد له عبودية، وكلما ازداد له عبودية ازداد له حباً[٣].

ـ وكان دائمَ الذِّكر لله، يستنصر ببركةِ اسم الله: فقال تعالى عنه: ﴿۞وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [هود: ٤١].

---

(١) فريد إسماعيل التوني، عبودية الكائنات لرب العالمين، المرجع السابق، ص ١٦٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٦٥.

(٣) ابن تيمية، العبودية، تحقيق: محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة السابعة، ٢٠٠٥م ص ٥٣.

❁ **الأعمال القلبية :**

ـ **كانَ نوح عليه السَّلامُ متوكلاً على الله تعالى حقَّ التَّوكُّل ،** فيقول الله تعالى عنه : ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس : ٧١] .

ـ **ويقول مخبراً عن إيمان نوح عليه السَّلامُ بقضاء الله وقدره :** ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود : ٣٤] والإيمان بالقدر من أعظم أركان الإيمان بالله تعالى .

ـ **ويقول مخبراً عن إيمانه بوعد الله تعالى :** ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود : ٤٥] .

ـ **ويقول مُخبراً عن إخلاصه في أداء الرِّسالة :** ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء : ١٠٩] .

ـ **وكان عليه السَّلامُ حريصاً على المؤمنين يتواضع لهم ،** ولا يتوانى في تذكير قومه بالآخرة والحساب ، قال تعالى عنه : ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ [هود : ٢٩] . وقوله : ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود : ٣٤] . وقوله : ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء : ١١٣] .

ـ **وكان كثير الثَّناء على ربِّه بأسمائه وصفاته ،** فقال تعالى على لسانه : ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح : ١٠] . وقال : ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود : ٤١] . ومن صفات الله تعالى التي أثنى بها نوح عليه السلام على ربه بها :

❁ صفة الإرادة ، قال تعالى حكاية عنه : ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ﴾ [هود : ٣٤] .

❁ وصفة العلم ، قال تعالى : ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ﴾ [هود : ٣١] .

❁ وصفة الخلق ، قال تعالى : ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ

تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح: ١٣ـ١٦].

*** الأعمال الظاهرة:**

إنَّ من أوضح الأعمال الظاهرة التي قام بها نوح عليه السَّلامُ امتثالاً لأمر ربه هي بناء السَّفينة، التي أمر الله تعالى ببنائها، قال تعالى: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [هود: ٣٦ـ٣٧].

وقام عليه السَّلامُ وأصحابه ببناء السَّفينة، وكان قومه يسخرون منهم ويستهزئون، قال تعالى: ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [هود: ٣٨ـ٣٩] (1).

وهكذا حقَّق نوح ـ عليه السَّلامُ ـ عبودية القلب، وعبودية الجوارح، وعبودية اللسان، وعلّمها لأتباعه ممّن آمن به، ودعا إليها على بصيرة وعلم من عند الله عزَّ وجلَّ.

٣ ـ أكمل العباد تحقيقاً للعبودية:

يرتقي عباد الله في درجات العبودية بحسب نصحهم فيها، وسعيهم في تحقيقها، وأهل الكمال في ذلك سبقت لهم من الله الحسنى يتبوّؤون منها أرفعها، بما يزدادونه من معرفة ربهم، وإقبالهم على مرضاته، تصديقاً لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد: ١٧]، فيزيدهم محبَّةً له، وتعظيماً لقدره جلَّ وعلا، فيكونون أكمل الخلق وأفضلهم وأقربهم إلى الله

---

(١) فريد إسماعيل التوني، عبودية الكائنات لرب العالمين، ١٦٨.

وأقواهم وأهداهم وأتمَّهم عبودية لله من هذا الوجه[(١)].

إنّه وجه كمال المعرفة، وكمال المحبة، التي هي أصل تحقيق العبودية. والمكملون لهذا هم عباد الله حقاً، وهم أولياؤه المُتَّقون، وعلى رأسهم أنبياء الله ورسله[(٢)]، فعبوديتهم هي عبودية خاصَّةِ الخاصَّةِ التي لا يستطيع أحد أن يُبارِيَهم فيها[(٣)].

إنَّ الأنبياء والمُرسَلين عرفوا الله بالوحي، والفطرة السليمة والعقل الراجح حقَّ المعرفة، وعبدوه حقَّ العبادة، وهم أشد النَّاس اجتهاداً في العبادة، لما امتنَّ عليهم به من معرفته، وهم دائبون على شكره، معترفون له ـ مع تمام اجتهادهم ـ بالتقصير في أداء حقِّه[(٤)].

وقد وصفهم الله بالعبودية في مقام تكريم شأنهم، فقال تعالى عن نوح عليه السَّلامُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ [الإسراء: ٣]، وقال عن محمد ﷺ: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال في آخرين من الرُّسُل: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [ص: ٤٥].

وهم ـ عليهم السلام ـ مع عظيم قَدْرِهم في تحقيق العبودية، متفاوتون في المراتب، متفاضلون في الدرجات، قال تعالى: ﴿۞ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ﴾ [الإسراء: ٥٥]، فأعلاهم درجة أولو العزم من الرُّسُل، ثم باقي الرُّسُل فالأنبياء[(٥)].

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٠/ ٢١٠.

(٢) فوز بنت عبد اللطيف الكردي، تحقيق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات، ص ٨٣.

(٣) محمد بن صالح العثيمين، القول المفيد على كتاب التوحيد، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة (٢)، ١٤٢٤هـ، ١/ ٣٦.

(٤) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١١/ ٢٢١.

(٥) فوز بنت عبد اللطيف الكردي، تحقيق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات، ص ٨٥.

وأكمل أولي العزم نبيُّنا محمد ﷺ الذي وصفه الله تعالى بكمال العبودية لله في مواطن كثيرة منها؛ قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١]، كما أنه ﷺ كان ينهى المسلمين عن إطرائه، ويحب أن يصفوه بالعبودية فيقول: «إنَّما أنا عبدُ الله، فَقولُوا عبدُ الله ورسولُه» (١).

وكان محمد ﷺ أعرف الخلق بربِّه جلَّ جلالُه، مُتَعبِّداً له بجميع أسمائه وصفاته، وسيرته ﷺ تُترجم هذا، **فقد كانَ يُظهر ذُلَّه وافتقارَه في كل شأن: ويُكثر من الاستغفار والتوبة**، وقد حدّث عن ذلك بقوله: «**واللهِ إنِّي لأستغفرُ الله وأتوبُ إليه في اليومِ أكثرَ مِن سَبعينَ مرَّةً**» (٢).

ويُكثر من الدعاء ويُلِحُّ فيه ويَتَضرَّع لربِّه السَّميع المُجيب، الجواد الكريم، حتى أن أبا بكر الصديق: أشفَقَ عليه يومَ بدرٍ مِن كَثرةِ ما بَكَى وتضرَّعَ، فأخذَ بيدِه وقال: حسبُكَ يا رسولَ الله(٣).

وكان رسول الله محمد ﷺ كثير العبادة والتهجُّد في الليل، يقومُ لِيُصلِّي حتى تَرِمَ(٤) قدماهُ أو ساقاهُ، فيُقال له، فيقول: أفلا أكونُ عبداً شَكوراً(٥).

وكذا كانَ كثيرَ الصِّيام، دائمَ الحمدِ والثَّناء على ربِّه بما هو أهله، وكان متواضعاً في تعامله، كريماً في أخلاقه، قيل في وصفه وقت دخوله مكة يوم الفتح: أن النبي ﷺ دخل مكة وذقنه على راحلته متخشعاً، فحياته كلها دليل على

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة، ص ٧٤١.
(٢) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب الاستغفار، ص ١٢١٣.
(٣) صحيح البخاري، كتاب المغازي، ص ٧٥٢.
(٤) ترم: أي تنتفخ وتتشقق لطول قيامه وركوعه وسجوده.
(٥) صحيح البخاري، كتاب التهجد، ص ٢٢٤.

كمال عبوديته، وكيف لا يكون كذلك وهو أعرف العباد بالله جلَّ جلاله؟[١]

٤ ـ دعوة نوح عليه السَّلامُ قومه إلى تقوى الله عزَّ وجلَّ:

اهتَّم نوح ـ عليه السَّلامُ ـ بدعوة قومه إلى توحيد الله عزَّ وجلَّ وإفراده بالعبودية والحث على تقواه، لأن تقوى الله عزَّ وجلَّ هي الضمانة الحقيقية لاستقامة النَّاس على ذلك المنهج، وعدم التفلُّت منه هنا أو هناك، وعدم الاحتيال عليه أو الالتواء في تنفيذه، كما أنها هي مبعث الخُلُق الفاضل المنظور فيه إلى الله، بلا رياء ولا تظاهُر ولا مُماراة[٢]. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، وقد لخَّصَت هذه الآية: عناصرَ رسالتِهِ بجُملٍ ثلاثٍ هي:

* ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾.
* ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.
* ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ أيْ: إذا لم تؤمنوا بالله، وتعبدوه وحده لا شريك له، نزل بكم عقابه وعذابه، فالرشد والعقل يقتضيان منكم أن تتَّقوا ذلك، ومن أجل هذا فإنني أعرض عليكم عرض حثٍّ وحضٍّ أن تتقوا الله وعذابه الذي أنذرتُكم به في عاجل حياتكم وآجلها، ودلّ على كل هذا باللّزوم الذهني عبارة ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؟ والاستفهام في هذه العبارة يحمل معاني التعجّب والاستغراب والاستنكار من كونهم لا يتقون، وهي تتضمن معنى الحثِّ والحضِّ على أن يتَّقُوا، والفاء عاطفة على ما سبق في مقول قول نوح عليه السَّلامُ المصرّح به أو المطويّ الذي يُفهم باللّزوم الذهني، وقدّم حرف الاستفهام عليها؛ لأن الاستفهام في العربية له الصدارة.

---

(١) فوز بنت عبد اللطيف الكردي، تحقيق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات، ص ١٨.
(٢) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/ ٣٧١١.

ونلاحظ أن هذه الجمل الثلاث قد لخصت كليات عناصر الدين:

* الإيمان بتوحيد الله عزَّ وجلَّ.

* طاعة الله وعبادته وحده في فعل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، والتقرب إليه بمراضيه ومحابّه.

* الحذر من عقابه العاجل والآجل، واتخاذ ما يقي منه، وهو يستلزم الطمع بثوابه، واتخاذ ما يظفر به، بالنسبة إلى من آمن وأسلم(١).

وقال الله تعالى في سورة الشعراء: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٥: ١١٠].

وبعد أن عرض نوح عليه السَّلامُ على قومه مضمون دعوة الله الحقِّ، من توحيد الله عزَّ وجلَّ وإفراده بالعبادة ودعاهم إلى ذلك قال لهم في ختامها: ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ﴾، وهذا ما أمكننا استنباطه واستخراجه من مُتفرِّقات القصة في القرآن الكريم.

وبيَّن لهم نوح ـ عليه السَّلامُ ـ أنه رسول بعثه الله تعالى إليهم ليُبَلِّغَهم رسالاته، وأنه أمين في نقل ما يأمره الله بتبليغه، فلا يزيد فيه شيئاً، ولا ينقص منه شيئاً، دل على هذا آية: إنِّي لكم رسول أمين، أيْ: إنِّي لكم على وجه التخصيص رسول مبعوث من عند الله، وأمين على رسالات ربي، أُبلِّغُها لكم كما أتلقَّاها بالوحي عنه، لا أزيد فيها ولا أُنقص منها، ويترتَّب على كونه رسولاً لله مبلغاً عن ربه رسالاته، أنهم مأمورون من قبل الله بطاعته.

﴿ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾؛ أيْ: فاتقوا عذاب الله وأطيعوني، فيما أدعوكم إليه،

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، دار القلم، دمشق والدار الشامية، بيروت، ٢٠٠٦م، ص ٦٤.

لأنكم إذا لم تُطيعوني فيما أدعوكم إليه، وأنا رسول مبلِّغ عن الله كنتم مُستحقِّينَ لعقابه وعذابه، فليست قضيَّتي، وإنما قضيَّةُ الله ربِّي وربِّكم.

ولعل المدعوِّين يتبادر إلى أذهانهم بأن للدَّاعي مصلحةً شخصية يحصل عليها من جرَّاء اتِّباعهم له، فكانَ من الحكمة في الدعوة أن يُعلن الرَّسول تجرُّدَه من أيَّةِ مصلحة شخصية يحصل عليها من قومه الذين يدعوهم إلى دين الله، ربِّه وربِّهم، ومعلوم أن أدنى المصالح وأخفَّها مطالبتُهم بأجر على ما يُقدِّمُه لهم من تعليم ونصح وإرشاد ومجاهدة في ابتغاء الخير لهم، وظاهر أن التبرُّؤَ من أدنى المصالح وأخفِّها يستلزم بداهة التبرُّؤ مما هو أصعب على نفوس القوم وأشَدُّ[١].

وقد أبان لهم نوح ـ عليه السَّلامُ ـ أنه ما يسألهم على ما يبذل لهم من أجر، مهما كانَ قليلاً وخفيفاً، ولكن ليس معنى ذلك أنه لا يطلب أجراً مطلقاً، إنها مثالية خيالية بالنسبة إلى البشر، وهو لا يدَّعيها، بل هو ضامن أجراً يظفر به عند رب العالمين، فقد تكفل الله عن المدعوِّين إلى دينه وعبادته بأجر الدُّعاة، فقال نوح عليه السَّلامُ: إن أجري إلا على رب العالمين، أيْ: ما أجري الذي أستحقُّه إلا على كفالة رب العالمين، فهو وحده الضامن، وهو وحده الذي تحمّله وتكفَّل به، وهو وحده الذي أثق بأنه سيمنحني إياه، وبما أن أجري على رب العالمين، ولا أسألكم منه شيئاً قليلاً أو كثيراً، فإني أعيد عليكم مقالتي لكم، وأنا متَّصف بكامل التَّجرُّد من أيَّةِ مصلحة أطلبُها لنفسي منكم فاتَّقوا الله وأطيعون[٢].

وإن التَّقوَى في مضمونها: هي اتِّخاذ وقاية من عذاب الله بفعل الطاعات واجتناب المَنْهِيَّات، ثم إن عطف الطاعة على التَّقوَى في كثير من الآيات فيه إشارة إلى أن التَّقوَى المأمور بها لا تتحقَّق إلا بطاعة الرَّسول واتِّباعه[٣].

---

(١) عبد الرحمن حبنكة الميداني، نوح عليه السَّلامُ في القرآن المجيد، ص ٦٥.
(٢) المرجع السابق، ص ٦٥.
(٣) عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السَّلامُ، ص ٣٨.

أ ـ مراحل التَّقوَى :

إنَّ المتدبِّر لكتاب الله تبارك وتعالى يجد أن التَّقوَى هي من أكثر الأمور التي وجَّهَ القرآنُ لها العناية، وحمل النفوس على الاهتمام بها . وأصل التَّقوَى من الوقاية .

* أول مراحل التَّقوَى : اجتنابُ الشِّرْك .

* المرحلة الثانية : اجتناب الكبائر .

* أما المرحلة الثالثة التي تكمل بها التَّقوَى فهي : الابتعاد عن الصغائر .

ويدلُّ على ذلك ما رُوي عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه قال : «لا يَبلُغُ العَبدُ أَنْ يَكونَ مِنَ المُتَّقين حتَّى يَدَعَ ما لا بَأسَ به حَذَراً لِمَا به البَأسُ» (١) .

وعلى هذا فالتَّقوَى هي أرفع الدرجات التي يجب على المؤمن أن يرتفع إليها، مهما تحمّل في سبيل ذلك من صعاب ومشقات .

ب ـ تعريفات التَّقوَى :

ذكروا للتقوى تعريفات كثيرة، وتعدَّدت في ذلك كلماتهم وأقوالهم، وسأذكر بعض التعريفات لكي تكون نبراساً نهتدي بنوره، ومنها :

* قيل : إن التَّقوَى أن يُطاع الله فلا يُعصى، ويُذكَرَ فلا يُنسَى، ويُشكَرَ فلا يُكفرَ .

* قيل : التَّقوَى : هي ترك الإصرار على المعصية وتركُ الاغترار بالطَّاعة، فالمُتَّقي لا يُصِرُّ على معصية وإن كانت صغيرة، ولا يَغترُّ بطاعة وإن كانت عظيمة .

---

(١) سُنَن الترمذي، في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم ٢٤٥١ .

* قيل : إن التَّقوَى ألاّ تختارَ على الله سوى الله ، وأن تعلم أن الأمور كلها بيد الله .

* من تعريفات التَّقوَى : ألاّ يراكَ مولاكَ حيثُ نَهاكَ .

ويجمع هذه التعريفات جميعاً أمور ثلاثة :

ـ **أولًا** : أن تُجتنب الذُّنوبُ صغيرُها وكبيرُها ، فإن الإصرار على الصغائر قد يُؤدِّي إلى الكبائر .

ـ **ثانياً** : أن تَحذرَ من كل ما تُقدِم عليه من قول وعمل ، كالذي يسير في طريق مليء بالأشواك يكون حذراً في كل خطوة يخطوها ، وهذا ما جعله علامة التَّقوَى بعض الصحابة رضوان الله عليهم . فقد قيل : إن عمر بن الخطاب سأل أُبيَّ بن كعب عن التَّقوَى فقال له : أما سلكتَ طريقاً ذا شَوكٍ؟ فقال : بلى ، قال : فما عملتَ؟ قال : شمَّرتُ واجتهدتُ ، قال : فذلك التَّقوَى .

ـ **ثالثاً** : ألا تحقر شيئاً من صغائر الأمور ، فلقد ورد عن سيدنا رسول الله ﷺ أنَّه مرّ بتمرة مسقوطة فقال : «لولا أنْ تكونَ صَدَقةً لأَكَلْتُها» [(١)] . وقد رُوي في الأثر : «مَن أَحَبَّ أَنْ يَكونَ أكرمَ النَّاسِ فَليتَّقِ الله ، ومَن أَحَبَّ أَنْ يَكونَ أَقْوى النَّاسِ فَليتوكَّلْ على الله ، ومَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكونَ أغْنى النَّاسِ فَليكُنْ بما في يدِ الله أَوثَقَ بما في يَدِه» [(٢)] .

ج ـ الفرق بَينَ العبادة والتَّقوَى :

مما تقدَّم نُدركُ خطر التَّقوَى ، وعظيم شأنها ، ورفيع منزلتها ، ونُدرِكُ أن التَّقوَى ثمرةٌ يانعةٌ لا بدَّ لتحقيقها من خمسة أمور ، وهي : الإيمان ، والطاعة ،

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب البيوع ، رقم ٩٥٠ ، ٢/ ٧٢٥ .

(٢) فضل حسن عباس ، خماسيات مختارة في تهذيب النفس الأمارة ، دار النفائس للنشر ، عمان ، الأردن ، (ط١/ ٢٠١١م) ، ص٢٨ .

وترك المعصية، والتوبة، والإخلاص، فإذا انتفى واحد من هذه الخمسة انتفت التَّقوَى.

ومن هنا نعلم أن التَّقوَى ليست العبادة ـ كما يظن كثير من النَّاس ـ فرُبَّ عابدٍ كَثُرَت عبادتُه ولكن لا ترفعه عبادته لدرجة التَّقوَى. وفي الكتاب والسنة أدلة كثيرة، وبراهين ساطعة على ما بَيَّنتُه لك.

* قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٦].

* قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ١ ـ ٣].

* قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

فهذه الآيات الكريمة ميَّزَت بَينَ العبادة والتَّقوَى، فنوح وإبراهيم ـ عليهما السلام ـ كلٌّ يأمر قومه بالعبادة والتَّقوَى، وفي الآية الثالثة أمرٌ للناس من الله أن يعبدوا الذي خلقهم وخلق الذين من قبلهم، راجين أن ترتفع بهم عبادتهم وأن تُوصِلَهم إلى درجة التَّقوَى[(١)].

وفي السُّنَّة المُطهَّرَة يقول الرَّسول ﷺ: «إيَّاكُمْ والظَّنّ، فإنَّ الظَّنَّ أكذَبُ الحَديثِ، ولا تَحَسَّسُوا ولا تَجَسَّسُوا ولا تَحاسَدُوا ولا تَباغَضُوا ولا تَدابَروا وكُونُوا عِبادَ الله إخْواناً، المُسْلِمُ أَخُو المُسلِمِ لا يَحقِرُهُ ولا يَظْلِمُهُ لا يَخْذلُهُ، بِحَسْبِ امرِيٍ مِن الشَّرِّ أَنْ يَحقرَ أَخاهُ المسلِمَ، كلُّ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ، دَمُهُ ومالُهُ وعرضُهُ، إنَّ الله لا ينظرُ إلى صُورِكم وأجسامِكُم ولكن ينظُرُ إلى قلوبِكُم وأعمالِكُم، التَّقوَى ههُنا التَّقوَى ههُنا ويشيرُ إلى صَدْرِه»[(٢)].

(١) فضل حسن عباس، خماسيات مختارةً في تهذيب النفس الأمارة، المرجع السابق، ص ٢٩.

(٢) صحيح مسلم، كتاب البر والصِّلة، رقم ٢٥٦٤، ٤/ ١٩٨٦.

ومن هذا الحديث الشريف نُدرِك أولاً أن التَّقوى لا بدَّ لها من تجنُّبِ هذه الأعمال جميعاً، التي ذُكِرَت في الحديث، ونُدرِكُ ثانياً أن التَّقوى إنما هي سِرٌّ بَينَ العبد وربِّه، ولهذا أشار النبي الكريم ﷺ إلى صدره.

ويُؤيِّد هذا من كتاب الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

ومن الآيات التي بيَّنَت حقيقةَ التَّقوى بياناً جامعاً وبيَّنَت أن هذه التَّقوى لا يَنعمُ المرء بدفئها وظلها ونورها، إلا بعد أن يَتَّصِفَ بأُمَّهات الفضائل، ويُوَفَّقَ لأُمَّهاتِ العبادات وأصولها، هي قوله تعالى: ﴿۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

انظروا ـ أرشدني الله وإياكم ـ إلى الخصال الكريمة، والصفات الحميدة التي تحدَّثَت عنها هذه الآية الكريمة، وكيف أنها ذُكِر فيها أصول الشريعة الثلاثة: العقائد، والعبادات، والأخلاق، إضافة إلى خمس عشرة خصلة، جُعلت التَّقوى ثمرةَ ذلك كلِّه، كما جاء في آخر الآية الكريمة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ممَّا تقدَّم نُدرِكُ السِّرَّ، ونُدرِك الحكمة التي من أجلها ذكر الله التَّقوى في أوَّل كتابه الكريم ﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٢].

اللهم اجعلنا من المُتَّقين الذين قُلتَ فيهم ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا﴾ [مريم: ٦٣] (١).

---

(١) فضل حسن عباس، خماسيات مختارةً في تهذيب النفس الأمارة، ص ٣٠.

د ـ كتاب الله يُبيِّن أوصاف المُتَّقين :

هذه الآيات حَرِيَّةٌ بالعناية والتقدير والاهتمام؛ لأن فيها أوصافاً يجب على المسلم أن يتحراها محاولاً أن يتحلى بها، وخاصةً أنها أوَّل آية في كتاب الله تُبيِّن أحوال المُتَّقين، فورودها في أوَّل القرآن دليل على أهمية شأنها وعظيم خطرها، ومن أهميتها كذلك أنها وَصفٌ لأولئك الذين انتفعوا بالقرآن العظيم، واهتدَوا به فتلَوه وتَدبَّروهُ[١].

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٥].

*** الصفة الأولى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾:**

كانَ أوَّل مدح للمتقين أنهم صدَّقوا بما أخبرهم الله به من الغيب، فكان إيمانهم بما غاب عنهم لا يقل عن إيمانهم بما تشاهده حواسهم، وسواء كانَ هذا الغيب يمكن أن يقام عليه دليل عقلي كالإيمان بالله وصفاته أم لا دليل عليه، كالإيمان بالقدر، وسواء كانَ هذا الغيب من الأمور التي كانت مشاهدة لبعض النَّاس، كالرَّسول ﷺ الذي شاهده الصحابة رضوان الله عليهم، وشَرُفُوا بأنوار مشافهته، ورؤيته والقرب منه، ولم يشاهده مَن بعدَهم هذه المشاهدة الحاضرة، سواء كانَ هذا أم ذاك فهو غيب يستحقُّ المؤمنون به الثَّناءَ، ومن الإيمان بالغيب: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشَرِّه كما جاء في الحديث الصحيح[٢]، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [الملك: ١٢].

---

(١) فضل حسن عباس، خماسيات مختارة في تهذيب النفس الأمارة، ص ٢٥.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، رقم ٨٦٩.

❊ الصفة الثانية : ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ :

إنَّ إقامة الصلاة هي أوَّل الأركان العملية التي أفلح بها هؤلاء المتَّقون، وإقامة الصلاة تكون بتأديتها تامَّةً بأركانها وآدابها والمداومة عليها، والخشوع فيها والإقبال عليها بنشاط وجدٍّ ورغبة من غير فتور ولا كسل، ومن شأن هذه الصلاة أنها تُكسب صاحبَها قوَّةً في الحقِّ وثباتاً على الخير وزيادة في اليقين، وتنفي عنه القلق والهلع، والاضطراب والجزع، وتجعله سَوِيَّ التفكير مَرهوبَ الجانب، مُستقيمَ السَّير، لا تَهزُّهُ الحوادث والصعاب، ولا تُبطرُهُ النِّعَمُ ولا تُضعِفُه النِّقمُ.

ثم إن من شأن هذه الصلاة كذلك أنها تُدخِلُه زُمرةَ المُفلحين الفائزين، ولو لم يكن من ثمرتها سوى أنها تُورِثُه الفردوسَ لكان في ذلك خير غنيمة، وأعظم فائدة، ودليل ذلك في كتاب ربنا تبارك وتعالى: ﴿ ۞إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٣].

ويقول في آخر هذه الصفات: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ [المعارج: ٣٤ ـ ٣٥]. ويقول سبحانه في سورة المؤمنون: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٢]. ويقول في آخر هذه الصفات: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٩ ـ ١١].

فانظروا ـ أرشدكم الله ـ إلى عظم شأن الصلاة في هذين الموضعين من كتاب الله؛ الموضع الأول في سورة المعارج: حيث بَيَّنَ الله سبحانه ما يُخلّص الإنسان من سيِّى الصفات، وهي الجزع، والهلع، ومنع الخير، حيث ذُكرت الصلاة مرَّتين، وفي السورة الثانية سورة المؤمنون: حيث بَيَّنَ الله الصفات التي يستحقُّ

صاحبها الفلاحَ والفوز، وفي هذه الحالة كذلك ذُكِرَت الصلاة مرَّتين[(١)].

ففي الموضع الأول قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٢]، وفي الموضع الثاني: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٩].

* **الصفة الثالثة:** ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾:

إنّ الله تبارك وتعالى ـ جلّت حكمته ـ لم يُكلِّف النَّاس شططاً ولا رهقاً ولذا جاء نظم الآية الكريمة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فنفقتهم لا تعدو أن تكون شيئاً قليلاً مما أعطاهم الله حتى الزكاة المفروضة كانت قليلة النسبة، فهي تختلف باختلاف المال المُزكّى، فقد تكون واحداً في الأربعين إذا كانت دراهم أو ذهباً أو فضة، وكذلك بعض الأنعام كالغنم، وقد تكون عشراً كالزروع التي تسقى بماء السَّماء، وقد تكون نصف العشر، فلم يسأل الله النَّاس جميع أموالهم أو أكثرها، ولو سُئِلوا ذلك لشق عليهم وبخلوا، فأُخذوا، وهذه الحكمة العظيمة فيما طلب منهم هي في حقيقتها نعمة من الله: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠]، ولذلك امتنَّ الله على المسلمين فلم يسألهم أن يُنفِقوا أموالَهم جميعَها، ولم يَشُقَّ عليهم في السؤال[(٢)].

* **الصفة الرابعة:** ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾:

تُبيِّن هذه الصفة وحدة الانتماء إلى دين الله في شرائع الرسل جميعاً، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢]. فأساس دعوة الأنبياء عليهم السلام توحيد الله تبارك وتعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [الشورى: ١٣].

---

(١) فضل حسن عباس، خماسيات مختارة في تهذيب النفس الأمارة، ص ٣٣.
(٢) المرجع السابق، ص ٣٥.

فالأنبياء إخوة والمؤمنون كذلك، وفي هذه الصفة مدحٌ وثناء على مَن آمن من أهل الكتاب ولكنه مع ذلك مدح للمسلمين الذين يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله، ولا يُفرِّقون بَينَ أحد من رسله، ويقولون سمعنا وأطعنا غفرانك ربَّنا وإليك المصير.

إن الإيمان بما أُنزل على النبي ﷺ وعلى غيره من الأنبياء يستلزم الإيمان بالأنبياء أنفسهم، ومن بدهيات عقيدة المسلم وجوب الإيمان بالرُّسُل عليهم السلام، وأما الذين يقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض، ويريدون أن يتخذوا بَينَ ذلك سبيلاً، فيقول القرآن الكريم فيهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١٥١ ـ ١٥٢].

* **الصفة الخامسة: ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾:**

إنّ اليقين هو العلم بالشيء علماً ينفي الشَّكَّ والشبهة عنه، وقد يكون بدهياً، وقد يكون بحاجة إلى نظر واستدلال، فيقينك بالشيء لا يكون تامّاً إلا إذا اشترك في إثباته عقلك، ووجدانك، بحيث يصير من الأمور التي تملك عليك كل مشاعرك وأفكارك، فلا يتطرق له أدنى ريب، ولأجل هذا ذُكِرت هذه الصفة بعد قوله سبحانه ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ مع أن الآخرة من الغيب، ولكن خُصَّت الآخرة باليقين، وذلك للعناية بشأنها، فإنَّ الإيقان بشيءٍ ما لا يترك مجالاً للتقصير أو الغفلة، فنسأل الله أن يرزقنا اليقين. فإن من أيقن بالآخرة لا بد أن يعمل لها[1].

وبعد هذه الصفات يذكر الله تبارك وتعالى جزاء أولئك المُتَّقين ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، فهم أولاً المُتمكِّنون من الهدى الثابتون

---

(١) فضل حسن عباس، خماسيات مختارة في تهذيب النفس الأمارة، ص ٣٦.

عليه، والهداية نعمة من نعم الله عظيمة ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]. وهذا القسم الأول من الجزاء العظيم، أما القسم الثاني فهو الفلاح، فهؤلاء المتَّقون كملت لهم السعادة وسيلة وغاية ومبدأ ونهاية[١].

وقد وضَّح القرآن الكريم قيمة التَّقوَى وجعلها غاية منشودة، وكتب عنها كثيرٌ من العلماء[٢]، وبيَّنوا حقيقتها وثمارها وآثارها وصفات المُتَّقين التعبُّديَّة والسُّلوكيَّة، وكل ما يتعلق بهذه القيمة الرَّبانيَّة السامية.

٥ ـ تفسير بعض الآيات من سورة نوح عليه السَّلامُ:

إنّ سورة «نوح» عليه السَّلامُ خاصة بدعوة نوح لقومه، وفي الآيات الأولى منها إشارات واضحة إلى تكليف الله لنوح عليه السَّلامُ بتبليغ الرسالة، وقيامه بذلك، وبيان مضمونها وما يترتب على قبولها من خير عميم.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ١ ـ ٤].

أ ـ تكليف نوح بتبليغ رسالته:

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾: في هذه الآية يُؤكِّد الله عزَّ وجلَّ في كتابه للناس أجمعين أن مصدرَ الرسالة ومنبعَها الأول والأخير كانَ ولا يزال في جميع العهود وبالنسبة لجميع الرُّسُل والأنبياء من عهد نوح ـ عليه السَّلامُ ـ إلى عهد محمد ﷺ خاتم النَّبيِّين والمُرسَلين هو الله تبارك وتعالى خالق الخلق

---

(١) فضل حسن عباس، خماسيات مختارة في تهذيب النفس الأمارة، ص ٣٧.
(٢) من العلماء: أحمد فريد في كتابه التَّقوَى الغاية المنشودة والدرة المفقودة، وانظر: محمود أحمد سعيد الأطرش في كتابه حقيقة التَّقوَى وطرق الوصول إليها. وانظر: أحمد خليل جمعة وهيثم هلال حمزة في كتابهما «التَّقوَى: مفهومها ـ أركانها ـ نفحاتها».

ومصدر الوجود، فهو الذي خلق الخلق، وأرسل إليهم الرُّسُل لهدايتهم إلى سواء السبيل، وهو الذي كلَّفَ رُسُلَه جميعاً بالدعوة إلى عبادته وتقواه، وإلى طاعة رسله فيما يبلغونه عنه(١).

جاء البيان مُؤكَّداً بـ ﴿إِنَّآ﴾؛ لأن التأكيد مُسلَّط على كل ما جاء في السورة من دعوة نوح قومَه وليس خاصّاً بالجملة الأولى فقط، فهذه قضية قد صارت مُؤكَّدة من حديث القرآن الكريم عن نوح عليه السَّلامُ، واستُعمل ضمير العظمة مراعاة لحال المقصودين الأوَّلين من الخطاب في السورة، وهم الكافرون المُكذِّبون برسالة محمد ﷺ، وهؤلاء تُناسِبُهم عبارات العظمة والعزّة والسلطان، ونظير ذلك ما لو كانَ الموضوع فيه ما يقتضي الإشعار بسلطان الرَّبِّ، وقدرته وعزته وجبروته، فيناسبه ضمير العظمة.

وفي هذه الجملة ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ ما يلي:

* بيان الإرسال والمُرسِل ﴿أَرْسَلْنَا﴾.
* وبيان الرَّسول ﴿نُوحًا﴾.
* وبيان المُرسَلِ إليهم ﴿قَوْمِهِۦٓ﴾.

بقي بيان الرسالة، وقد جاء بيانها بقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. في قوله: ﴿أَنْ أَنذِرْ﴾ أن: تفسيرية بمنزلة «أي» وما بعدها تفسير لما أرسل الله نوحاً به، والإنذار: هو الإعلام بأمر يُخاف منه للتَّحذير من وقوعه باتِّخاذ أسباب تفاديه.

عذاب أليم: عقاب مُؤلمٌ للمعذَّبين الذين لا يُحقِّقون المطلوبَ الرَّبانيَّ منهم(٢).

---

(١) أحمد سليمان الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، ص ١٢٧.
(٢) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٦٧.

ب ـ قيام نوح برسالته :

قال تعالى : ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾ [نوح : ٢] فهذا القول مُفصحٌ عن مهمته في الإنذار، مُبينٌ في حجَّتِهِ، لا يُتمتم ولا يُجمجم، ولا يتلعثم في دعوته، ولا يدع لبساً ولا غموضاً في حقيقة ما يدعو إليه، وفي حقيقة ما ينتظر المُكذِّبين بدعوته[١] .

فالنذير هو في ذاته واضح مكشوف، ليس له باطن يخالف ظاهره، وهو أيضاً مُبينٌ لحقائق الدين وشرائعه، ومُوضِّحٌ لها، ومُبينٌ للحق والباطل، والخير والشر، والحلال والحرام وغير ذلك مما جاء به الدين، وهذا ما امتازت به رسالات الله للناس، وما امتاز به رسل الله أجمعون، بخلاف مبادى النَّاس ومذاهبهم، فهي ذات مظاهر لخداع الجمهور، وذات بواطن تُخفيها ولا تُظهرها، لخدمة أصحاب المنافع والمصالح منها، المُتواطِئِينَ على صنعتها وزخرفتها[٢] .

وما يدعو إليه نوح عليه السَّلامُ بسيط وواضح ومستقيم : ﴿ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ عبادة الله وحده بلا شريك، وتقوى الله تهيمن على الشعور والسلوك، وطاعة رسوله تجعل أمره هو المصدر الذي يستمدون منه نظام الحياة وقواعد السلوك .

وفي هذه الخطوط العريضة تتلخَّص الديانة السماوية على الإطلاق، ثم تفترق بعد ذلك في التفصيل والتفريع، وفي مدى التصوُّر وضخامته وعمقه وسعته وشموله وتناوله للجوانب المختلفة للوجود كلِّه، وللوجود الإنساني في التفصيل والتفريع .

وعبادة الله وحده : منهج كامل للحياة، يشمل تصوُّرَ الإنسان لحقيقة الألوهية

---

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/ ٣٧١١ .
(٢) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص١٦٩ .

وحقيقة العبودية وحقيقة الصِّلة بَينَ الخلق والخالق، وحقيقة القوى والقيم في الكون وفي حياة النَّاس . . ومن ثم ينبثق نظام للحياة البشرية قائم على ذلك التصور، فيقوم منهج للحياة خاصٌّ. منهج ربانيٌّ مرجعه إلى حقيقة الصِّلة بَينَ العبودية والألوهية، وإلى القيم التي يُقرِّرها الله للأحياء والأشياء.

وتقوى الله: هي الضمانة الحقيقية لاستقامة النَّاس على ذلك المنهج، وعدم التلفت عنه هنا أو هناك، وعدم الاحتيال عليه أو الالتواء في تنفيذه. كما أنها هي مبعث الخلق الفاضل المنظور فيه إلى الله، بلا رياء ولا تظاهُر ولا مماراة.

وطاعة الرَّسول: هي الوسيلة للاستقامة على الطريق، وتلقِّي الهدى من مصدره المتَّصل بالمصدر الأول للخلق والهداية، وبقاء الاتصال بالسَّماء عن طريق محطة الاستقبال المباشرة السليمة المضمونة(١).

لقد ورد لفظ «العبادة» في سياق قصة نوح ـ عليه السَّلامُ ـ أربع مرات، وأما لفظ «الطاعة» فجاء في ثلاثة مواضع، اثنان منها في سورة الشعراء، والثالث في سورة نوح، وورد لفظ «التَّقوَى» خمس مرات، ثلاث منها في سورة الشعراء(٢).

وقد تفرَّدَت سورة نوح ـ عليه السَّلامُ ـ بالجمع بَينَ العبادة والتَّقوَى والطاعة: فهذه الكلمات الثلاث لم ترد مجتمعة إلا في سورة نوح، فهي آخر السور الكريمة التي تحدَّثت عنه من حيث ترتيب المصحف، فناسب أن يلخِّصَ دعوتَه بهذه الكلمات الثلاث التي لا تنفكُّ واحدةٌ منها عن الأخرى، وفيها سرّ بديع اختصت به السورة، إذ يظن الكثيرون أن العبادة والتَّقوَى شيء واحد، ولكن شتان ما بينهما، فما أبعد الفرق بَينَ العبادة والتَّقوَى، فكم من عابد لا تصل به عبادته ولا ترتفع به إلى مرتبة التَّقوَى(٣).

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/ ٣٧١١.
(٢) أحمد سليمان الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، ص ١٢٢.
(٣) الرقب، المرجع السابق، ص ٢٦، حسن عباس، قصص القرآن الكريم، ص ١٨٣ـ ١٨٤.

وقد لاحظنا أن الأكثر وروداً في قصة نوح عليه السَّلامُ «التَّقوَى» حيث وردت خمس مرات، ولا غرابة في ذلك، فهي وصية الله إلى عباده: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

وعَقَّب على هذه الآية الفيروز آبادي فقال: يُفهم منها أنه لو كانت في العالم خصلة هي أصلح للعبد وأجمع للخير وأعظم للأجر وأجلُّ في العبودية، وأعظم في القدر وأولى في الحال وأنجح في المال من هذه الخصلة، لكان الله سبحانه أمر بها عباده وأوصى خواصّه بذلك لكمال حكمته ورحمته، فلما أوصى بهذه الخصلة الواحدة جميع الأولين والآخرين، من عباده واقتصر عليها: علمنا أنها الغاية التي لا مُتجاوَزَ عنها، ولا مُقتصَرَ دونها، وأنه عزَّ وجلَّ قد جمع كل محض نُصح، ودلالة وإرشاد وسنة وتأديب وتعليم وتهذيب في هذه الوصية الواحدة، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، يُشعر بأن الأمر كلَّه راجع إلى التَّقوَى(١).

فهذه هي الخطوط العريضة التي دعا نوح ـ عليه السَّلامُ ـ إليها قومه في فجر البشرية، هي خلاصة دعوة الله في كل جيل بعده(٢).

* ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾.
* ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾.
* ﴿وَأَطِيعُونِ﴾.

فإن تفعلوا ذلك ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وجزاء الاستجابة للدعوة إلى عبادة الله وتقواه وطاعة رسوله هي المغفرة

---

(١) أحمد سليمان الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، ص ١٢٣.
(٢) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/ ٣٧١٢.

والتخليص من الذنوب التي سلفت وتأخير الحساب إلى الأجل المضروب له في علم الله. وهو اليوم الآخر. وعدم الأخذ في الحياة الدُّنيا بعذاب الاستئصال، وسَيرِدُ في خطابِ نوح لربِّه أنه وعدهم أشياء أخرى في أثناء الحياة.

ثم بَيَّنَ لهم أن ذلك الأجل المضروب حتميٌّ يجيء في موعده، ولا يُؤخَّر كما يُؤخَّر عذاب الدُّنيا. . وذلك لتقرير هذه الحقيقة الاعتقادية الكبرى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، كما أن النص يحتمل أن يكون تقريراً لكل أجل يضربه الله ليُقِرَّ في قلوبهم هذه الحقيقة بوجه عام، بمناسبة الحديث عن الوعد بتأخير حسابهم ـ لو أطاعوا وأنابوا ـ إلى يوم الحساب[١].

وهذه القضايا تكرَّرت في القرآن الكريم في حديثه عن قصة نوح عليه السَّلامُ، ومضمون دعوته، وبيَّنَت الآيات الكريمة في سورة نوح بأنهم إذا راجعوا أنفسهم فآمنوا، وعبدوا الله وحده، واتَّقَوه، وأطاعوا الرَّسول، غفر لهم من ذنوبهم التي سبقت منهم، والتي كانت بسبب إصرارهم على الكفر والفسوق والعصيان[٢].

٦ ـ الإسلام دين نوح عليه السَّلامُ والرُّسُل جميعاً:

إنَّ الدين المشروع عند الله تعالى هو الإسلام، وما سواه من الأديان غير مُعتدٍّ به، وهذا أمر لا شكَّ فيه ولا غموض، لأنَّ ما سِوى الإسلام من الأديان إنما هو من وَضْع البشر أصلاً كالوثنيَّة بمختلف صورها، أو ممّا عبثت به يد التحريف والتبديل.

وأما الدِّينُ الذي أرسل الله جلَّ وعلا به جميع الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام فهو الإسلام الذي هو عبادة الله وحده[٣]، ونبذ عبادة ما سواه، وكل واحد من

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/ ٣٧١٢.
(٢) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٧٩.
(٣) عبد العزيز الحميدي، الرسائل الشمولية، دار الدعوة ودار عيون المعرفة، ط١، ٢٠٠٠م، ص ٤٧١.

الأنبياء والرُّسُل عليهم السلام يقول لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، فهم متفقون على الدعوة إلى التوحيد الخالص، والنهي عن الشرك، فالغاية التي بُعثوا من أجلها هي إفراد الله تعالى بالعبادة، والنهي عن جميع الموبقات، من الكفر، والفسوق، والعصيان، والشرائع كلها تدعو إلى هذه الغاية العظيمة، إذ هي مُهمَّة جميع الرُّسُل، من لدن نوح عليه السَّلامُ إلى رسولنا محمد ﷺ(١).

يقول ابن تيمية: فهذا دين الأولين والآخرين من الأنبياء وأتباعهم هو دين الإسلام، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وعبادته تعالى في كل زمان ومكان، بطاعة رسله عليهم السلام، فلا يكون عابداً له من عبده بخلاف ما جاءت به رسله: كالذين قال فيهم: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى: ٢١]، فلا يكون مؤمناً به إلا من عبده بطاعة رسله، ولا يكون مؤمناً به، ولا عابداً له إلا من آمن بجميع رسله، وأطاع مَن أُرسل إليه، فيُطاع كلُّ رسول إلى أن يأتي الذي بعده، فتكون الطاعة للرسول الثاني(٢). فالرُّسُل جميعاً متفقون في الدعوة إلى أصل الدين الذي هو الانقياد لله سبحانه وتعالى بالطاعة والعبادة.

* قال تعالى عن نوح عليه السَّلام: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢].

* وقال تعالى عن إبراهيم عليه السَّلامُ: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

---

(١) ابن تيمية، النُّبوَّات، ١/ ٣٩.

(٢) ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تحقيق: علي بن حسن ـ عبد العزيز بن إبراهيم ـ حمدان بن محمد، دار العاصمة، السعودية، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م، ١/ ٨٣ـ٨٤.

* وقال تعالى عن إبراهيم ويعقوب عليهما السلام: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣٢].

* وقال تعالى عن يوسف عليه السَّلامُ: ﴿أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

* وقال عن موسى عليه السَّلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

* وقال تعالى في أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: ٤٤].

* وقال تعالى حكاية عن سحرة فرعون الذين آمنوا بموسى عليه السَّلامُ: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

فقد فهموا أن الدين الذي دعا إليه موسى عليه السَّلامُ هو الإسلام، وهذا يدلُّ على وضوح الأمر(١).

* وقال تعالى عن سليمان عليه السَّلامُ في كتابه لبلقيس: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣١].

* وقال تعالى عن أمة عيسى عليه السَّلامُ: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

* وقال تعالى عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ

---

(١) عبد العزيز الحميدي، الرسائل الشمولية، ص ٤٨٢.

مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٢ ـ ٥٣].

يعني أن المؤمنين منهم بدينهم حقاً يقولون إنَّا كنَّا من قبل نزول القرآن مسلمين، فلم يقولوا إنا كنا قبله يهوداً أو نصارى(١).

* وقال تعالى عن لوط عليه السَّلامُ: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٦].

٧ ـ اتحاد الدين وتعدد الشرائع:

قال تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [الشورى: ١٣].

فذَكَر الله سبحانه وتعالى أنه شرع لهذه الأمة من الدين ما شرعه للأمم السابقة، حيث أمر الله عزَّ وجلَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يُقيموا ديناً واحداً، ونهاهم عن الفرقة والاختلاف، وهذا الدين هو الإسلام الذي بيَّنته الآياتُ السابقة، الذي هو عبادة الله وحده، وخصَّ بالذكر أولي العزم من الرُّسُل ابتداءً بنوح عليه الصلاة والسلام، وانتهاء بمحمد ﷺ لفضلهم وإمامتهم، أما شرائع الأنبياء الفرعية فهي مُتعدِّدة متنوعة على حسب ما تقتضيه حاجة أُممهم، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ [المائدة: ٤٨](٢).

ومعنى هذه الآية: أي جعلنا لك يا محمد وللرسل قبلك شرعة ومنهاجاً، يجمعها الدين الذي اصطفاه الله للناس ورَضِيَه لهم، ولكلِّ حزب من أحزاب الكفر والشرك شِرعةٌ ومنهاجٌ في حياتهم، همُا الدين الذي افتراه قادتُه ومشى عليه الأتباع.

---

(١) عبد العزيز الحميدي، الرسائل الشمولية، ص ٤٨٢.
(٢) المرجع السابق، ص ٤٨٢.

وأما **الشريعة**: فهي المبادى والأُسس الاعتقادية، والقواعد العامة الأصول التي هي كمورد الشاربة، تَرِدُها الأمة آخذينَ منها مفاهيمهم ومبادئهم، وعقائدهم والقواعد العامة لدينهم الذي يدينون له.

وأما **المنهاج**: فهو من الدين ما يجمع الأحكام التفصيلية لأعمال الحياة، وأنواع السلوك فيها، وهذه الأحكام تستند إلى المبادى والأسس الاعتقادية، والقواعد العامة، التي لها في الدين عنوان الشريعة. فعلى هذا نستطيع أن نفهم أن قول الله تعالى:

* ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾: يدلُّ على أنه قد أبان وأظهر وأوضح لنا المبادى والأسس الاعتقادية والقواعد العامة الأصول.

* ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ أيْ: كلَّ ما وَصَّى به نوحاً، كالتوحيد، والطاعة، والعبادة، والإيمان بيوم الدين، وتقوى الله والإسلام له.

* ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾: أيْ: والذي جاءَك به الوحيُ من عندنا.

* ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾: أيْ: وكل ما وَصَّينا به أيضاً إبراهيم وموسى وعيسى، فدلنا هذا على أن المبادى والأسس الاعتقادية، والقواعد العامة الأصول التي وصَّى بها نوحاً، وأوحى بها لمحمد ﷺ ووصَّى بها إبراهيمَ وموسى وعيسى، جميعها قد شرعها الله لنا في عموم قضايا الدين(١).

فما يثبت لنا في كل ذلك هو شريعة لنا؛ لأنها عقائد وحقائق وأصول لا تقبل النسخ ولا التبديل، ولكنها قد تقبل إضافات بيانية وتفصيلية، واقتصر النصُّ من الرُّسُل السابقين على نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ـ عليهم السلام ـ؛ لأن

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٦٠.

ما جاء من بيان تفصيلي عما أُنزل عليهم «من شريعة» شاملٌ لما أُنزل من ذلك على جميع المُرسَلين(١).

* ﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾: إن المراد من إقامة الدين تأدية حقوقه دوماً، وملازمته مع الاستقامة في حمل أعبائه وواجباته، وقد نهى الله عن التفرُّق في الدِّين الذي شرعه، أيْ: نهى عن الاختلاف في مبادئه وعقائده، وقواعده العامة الأصول؛ لأن الاختلاف في ذلك يُفضي إلى تفرُّق الأمة الرَّبانيَّة الواحدة، وانقسامها إلى أمم متعادية متباعدة، وربما يوصلها هذا الانقسام إلى أن يكفِّرُ بعضُها بعضاً، ويقاتل بعضُها بعضاً.

ولدى تتبع مضامين رسالات جميع المُرسَلين التي يُمثِّلُها في القديم نوحٌ عليه السَّلامُ، ثم إبراهيم عليه السَّلامُ الذي هو من شيعته، ويُمثِّلُها في بني إسرائيل موسى وعيسى عليهما السلام، ويُقدِّم صورتَها المُثلى خاتم الأنبياء والمُرسَلين محمد ﷺ، ونلاحظ أن مبادئها وعقائدها وقواعدها العامة الأصول، وأُسُسَها الفكرية واحدة، فأتباعُ كل الرُّسُل إذا لم يختلفوا عما جاء به رُسلُ ربهم، واتَّبعوه كما أنزله الله غير محرّف ولا مُبدَّل ولا زائد ولا ناقص، هم أمة واحدة من لدن آدم ـ عليه السَّلامُ ـ حتى خاتم النَّبيِّين(٢).

وبعد هذا انتقل النصُّ في الآية إلى معالجة المشركين المُكذِّبين بالرَّسول محمد ﷺ فقال تعالى خطاباً له: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣]، أيْ: صعب عليهم أن يتحمَّلوا قبول ما تدعوهم إليه، إذ رأوه أكبر من قدرة نفوسهم على تحمّله، واستعمل الكِبَر كناية عن الصعوبة على النفس؛ لأن الشيء إذا كبُر ثقل، وإذا ثقل شقَّ على المدعوّ إلى حمله أن يحمله(٣).

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٦٠.
(٢) المرجع السابق، ص ١٦٢.
(٣) المرجع نفسه، ص ١٦٢.

واستعمال فعل (كبُر) يُشعر بثقل ما يدعوهم إليه الرَّسول على نفوسهم، ولو كانَ مرفوضاً لديهم فكريّاً وعلميّاً لكان من المناسب استعمال غير هذه الكناية، مما يدلُّ على ارتيابهم أو عدم اقتناعهم أو شعورهم بأنه باطل، فيظهر أنهم في هذه المرحلة لم يكن دافعهم لعدم الاستجابة عدم الاقتناع بما يدعوهم إليه الرُّسُل، وإنما كانَ دافعهم ثقله على نفوسهم(١).

وبالتأمُّل نلاحظ بواعث استثقال نفوسهم له، وهي ما يأتي:

* أنه يدعوهم إلى الإيمان بأنه رسول الله، ويدعوهم إلى اتِّباعه، وهما أمران كبيران ثقيلان على نفوس كبرائهم إذ يشعرون بأنهم أحق بأن يكونوا مُتَّبَعِين لا تابِعينَ.

* إنه يدعوهم إلى ترك ما هم عليه من شرك وعادات، وهذا يتضمّن أنهم ضالّون، فإذا استجابوا لما يدعوهم الرَّسول إليه كانَ اعترافاً منهم على أنفسهم بأنهم كانوا ضالِّين جاهلين، وذلك كبير وثقيل على نفوسهم.

* إنه يدعوهم إلى ترك كثير من عاداتهم وأفعالهم، مما يُحرِّمه الدين، وهذا أمر ثقيل على نفوسهم، لتعلق شهواتهم وأهوائهم بها تعلُّقاً شديداً.

* إنه يدعوهم إلى القيام بتكاليف دينية لم يسبق لهم أن قاموا بها، فالقيام بها كبير وثقيل على نفوسهم لما فيه من تحمّل ما يشق عليهم تحمّله(٢).

وقد وجه الله لهم الإقناع بأمرين:

الأمر الأول: أن رسالة النُّبوَّة اصطفاء من الله، وهو سبحانه يجتبي من يشاء بحكمته، إذ هو أعلم حيث يجعل رسالته: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ [الشورى: ١٣]، يجتبي: أيْ: يصطفي ويختار، ومن أسس الإيمان بالله أنه حكيم

(١) عبد الرحمن حسن حبنكلة الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص ١٦٣.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٦٤.

عليم، فإذا أراد أن يرسل رسولاً لم يتبع في ذلك أهواء عباده، ولم يستشرهم في أمره، بل هو بحكمته وعلمه يجتبي إليه من يشاء من عباده، ولا يكون مجتباه إلا أفضلهم وخيرهم وأكملهم وأحسنهم عقلاً وخلقاً ونفساً وتُقًى، وأبعدهم عن كل نقيصة. أيْ: فمن الخير لكم ومن مصلحتكم أن تتَّبعوا من اجتباه الله بحكمته، ولو كانَ كبيراً على نفوسكم.

الأمر الثاني: أن النَّاس مُمتحَنون في هذه الدُّنيا، والمُمْتَحَنُ عليه أن يُؤمن بالحق، وعليه أن يُطيع الله في أوامره ونواهيه، حتى يَحكمِ له بالهداية، ويجعلَه من المَهديِّين المُنعَّمين في دار النعيم يوم الدين، ومن كانَ على غير ذلك فمن الخير له أن يُنيبَ إلى ربه ويرجع إليه بصدق الإيمان وحسن الطاعة حتى يهديه الله إليه، ومن هداه الله فحكم له بالهداية رضي الله عنه وجعله من أهل دار النعيم، أيْ: فهذه الإنابة من مصلحتكم ولو كانت ثقيلة عليكم، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، أيْ: يَحكم ويَقضي بأن مَن أناب إليه تائباً راجعاً بالإيمان والعمل الصَّالِح فقد اهتدى بالإنابة، فيزيده معونة حتى يتقرَّب إليه تعالى بالطاعات والصَّالِحات، ويلزم من الحكم له بالهداية أن يَرضى عنه، ويجعلَه من أهل الجنَّةِ المُنَعَّمِين يوم الدين، ذلك هو الخير العظيم، والسعادة الأبدية[١].

٨ ـ الأنبياء إخوة لِعَلاَّتٍ، أُمَّهاتهم شتَّى ودينهم واحد وشريعة الإسلام خاتمة الرسالات:

قال رسول الله ﷺ: «الأنبياءُ إخوةٌ لعَلّاتٍ، أُمَّهاتُهم شتَّى ودِينُهم واحدٌ»[٢]، والعَلّات هي الضَّرائر، وأصله من تزوج امرأة ثم تزوج أخرى، كأنه عَلَّ منها،

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٦٣.

(٢) صحيح البخاري، رقم ٣٤٤٣، صحيح مسلم، رقم ٢٣٦٥.

والعَلَلُ: الشّربُ بعدَ الشّربِ، وأولاد العَلّاتِ: الأخوة من الأب من أُمَّهاتٍ مُتعدِّدة[١].

وفي هذا الحديث دلالة واضحة على أن أصل دين الأنبياء واحد، وهو التوحيد، وأن شرائعهم مُتعدِّدة، فما يصلح من الشرائع للأمم السابقة قد لا يصلح كلُّه أو بعضُه للأمم اللاحقة، وقد يُشدِّدُ الله على بعض الأمم فيُحرِّم عليهم ما أحَلَّه لغيرهم، ثم يُبيحُه جلَّ وعلا لمن يأتي بعدهم، وأما أصل الدين فإنه لا يتغير بتغيُّر الأمم والأمكنة والأزمنة، فكان الإسلام دين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جميعاً، وإذا أُطلق الإسلام دخل فيه الشرائع ضمناً؛ لأن التكاليف الشرعية هي القواعد التطبيقية للإسلام، حيث إنها من أمر الله تعالى ونهيه، ولا يتم الإسلام إلا بطاعة الله فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وإن اختلفت الشرائع في بعض التفاصيل فإنها جميعاً من أمر الله جلَّ وعلا ونهيه[٢].

وقد جاء إطلاق الدين في هذا الحديث على التوحيد؛ لأن الدين جاء في مقابلة الشريعة، والأصل أن الدين إذا أُطلق، وكذلك الإسلام فإن ذلك يشمل الشريعة، فالقرائن هي التي تُبيِّن المقصود، إذاً فليس هناك أديان سماوية، إنما الدين عند الله واحد هو الإسلام، ولقد شرع الله جلَّ وعلا هذا الدين منذ أن أهبط آدم عليه السَّلامُ إلى هذه الأرض، وكلما انحرف أبناء آدم عن هذا الدين أرسل الله إليهم رسلاً يهدونهم إليه[٣].

فكان أوَّلَ رسول إلى البشرية بعد آدمَ عليه السَّلامُ نوحٌ عليه السَّلامُ، وخاتمهم محمد ﷺ، وكان كل نبيٍّ يُبعث إلى قومه خاصّةً حتى بُعث محمدٌ ﷺ إلى النَّاس كافة، وجعله الله تعالى خاتمَ المُرسَلين، فليس بعد القرآن كتاب

(١) الرسائل الشمولية، ص ٤٨٣.
(٢) عبد العزيز الحميدي، الرسائل الشمولية، ص ٤٨٣.
(٣) المرجع السابق، ص ٤٨٤.

مُنزَل، ولا بعد محمد ﷺ رسول مُرسَل، فرسالته ختمت الرسالات السماوية، قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وبرسول الله ﷺ اكتمل بناء الدعوة الإسلامية، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مَثَلي وَمَثَلَ الأَنبياءِ من قَبلي، كَمَثَل رَجل بَنَى بَيتاً فَأَحسَنَه وَأَجمَلَه، إلا مَوضع لَبنَة من زَاويَة، فَجَعَلَ النَّاس يَطوفونَ به، وَيعجبونَ لَه، وَيقولونَ هَلا وَضَعتَ هَذه اللَّبنةَ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبنَة وَأَنَا خَاتم النَّبيِّينَ»[١].

فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام قاموا بهداية أقوامهم نحو الرشاد، فأسهم كل واحد منهم بوضع لبنة في بناء الدعوة إلى الله، حتى إذا توقّف نزول الوحي من السَّماء بعد عيسى عليه السَّلامُ وفشا الجهل وعمَّت الظلمات، وأصبحت البشرية بحاجة إلى من يأخذ بيدها نحو النور والهداية، أكمل الله جلَّ وعلا بمحمد ﷺ ذلك البناء، فبعثه إلى النَّاس كافة، ورسول الله ﷺ لم يُبعث ببناء قصر جديد بل أكمل الله به القصر الذي شُيّد بالأنبياء قبله عليهم الصلاة والسلام، لأنه لم يُبعث بدين جديد، وإنما بُعث إلى توحيد الله جلَّ وعلا، الذي دعا إليه الأنبياء جميعاً من قبله، وهذا صريح في الدلالة على اتِّحاد دينِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام[٢].

ولقد أكمل الله جلَّ وعلا برسالة محمد ﷺ الدِّينَ للنَّاس جميعاً، قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ﴾ [المائدة: ٣]. وأصبحت شريعة الإسلام التي نزلت على محمد ﷺ وارثةً مُكمِّلةً لشرائع المُرسَلين، ابتداءً من نوح عليه السَّلامُ، وهي ما شرعه الله لعباده من الدين في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات، وإنما سُمِّيت شريعةً؛ لأنها تُقصَد ويُلجأ إليها، كما يُلجأ إلى الماء عند العطش، أو أنها تكون معروفة المنبع

(١) صحيح البخاري، المرجع السابق، رقم ٣٥٣٥.
(٢) عبد العزيز الحميدي، الرسائل الشمولية، ص ٤٨٦.

والحَدِّ، ومنها قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وجوهرها سياسة الدُّنيا بالدِّين، حتى يكون المرء على وَفق نظر الحقِّ تعالى، ومرادِه من خلقِ النَّاس في قوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، إذ الإحسان، كما قال رسول الله ﷺ: «أنْ تَعْبدَ الله كأنَّكَ تَراه، فإنْ لَم تكنْ تَراه فإنَّه يَراكَ»، وهو: أن تكون حياتك، وعبادتك وعادتك، كلُّها وَفقَ مُرادِ الله تعالى ومحلَّ مرضاته، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

والشريعة تنقسم إلى شقَّين: العبادة، والحياة العامة، ولسياسة الدُّنيا بالدِّين يجب أن يتلاءم الدِّين مع الدُّنيا، وإلا لما كانَ صالحاً للعمل به، ولا صالحاً للاستمرار في كل زمان ومكان، فهو: مجموع الشرائع والقواعد التي تجمع عباد الله في كل زمان ومكان[١].

ولما كانَ النبي محمد ﷺ رسول الله وخاتم النَّبيِّين، بل نبي الأنبياء، ورسول الرُّسُل، وفقاً للآية الكريمة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]؛ فقد آتاه الله تعالى كلَّ ما تحتاجه البشرية من أصول ومبادى وأحكام، تكفل للبشرية صحّةَ الإيمان وسلامة العقيدة، كما تُنظِّم للناس شؤون حياتهم وتفاصيل معاشهم، ولهذا كانت شريعة الإسلام متكاملة صالحة لسياسة الدنيا، كما أنها السبيل للفوز والنجاة في الآخرة.

* * *

(١) محمد إبراهيم الكتاني، الدعوة إلى استقلال الفكر في الإسلام، تنسيق وإعداد: محمد حمزة الكتاني، دار الحديث، ط١ ٢٠١٤م، ص٣٦.

المبحث الثالث

مواقف قوم نوح عليه السَّلامُ من دعوته

ورد اسم نوح ـ عليه السَّلامُ ـ في القرآن ثلاثاً وثلاثين مرة، وذُكر نوح في القرآن على حالتين:

الحالة الأولى: ذُكر اسمُه مجرَّداً، أو مضافاً إلى قومه ضمن الحديث عن قصته، إحدى عشرة مرة.

الحالة الثانية: ذُكِر اسمه مجرَّداً، أو مضافاً إلى قومه، ولكن ليس ضمن الحديث عن قصته، وإنما في إشارة سريعة إليه، أو إلى رسالته، أو إلى شريعته، أو إلى كفر قومه وتكذيبهم، وذلك بما يتفق مع موضوع السورة، أو السياق الذي وردت فيه الإشارة، وذلك في اثنين وعشرين موضعاً.

والسور التي ورد اسم نوح عليه السَّلامُ فيها مجرَّداً أو مضافاً إلى قومه، لكن ليس ضمن قصته، هي سورة: آل عمران، النساء، الأنعام، الأعراف، التوبة، هود، إبراهيم، الإسراء، مريم، الحج، الفرقان، الأحزاب، ص، غافر، الشورى، ق، الذاريات، النجم، الحديد، التحريم.

والسور التي وردت فيها مشاهد ولقطات من قصة نوح عليه السَّلامُ هي: الأعراف، يونس، الأنبياء، المؤمنون، الشعراء، العنكبوت، الصافات، القمر، نوح، ويتفاوت المقدار المعروض من قصته في هذه السور طولاً وقصراً، وتُعرض المشاهد واللقطات من القصة بالمقدار الذي يتفق مع موضوع السورة

وسياقها، وشخصيتها والعبرة المقصودة منها، فسورة «نوح» كلها في الحديث عن قصته مع قومه، وسورة «هود» عرضت مشاهد ولقطات طويلة من قصته، وسورة يونس والشعراء عرضت لقطات أقصر، بينما وردت الإشارة إلى القصة في سورة العنكبوت في آيتين اثنتين، تضمَّنَتا معلومة هامة لم تَرِدْ في السور الأخرى[١].

واللافت للنظر أن السور العشر السابقة التي تحدَّثت عن قصته هي سور مكية، وهذا يتَّفق مع طبيعة القرآن المكي، الذي يُوظِّف «القصص» لإثبات نبوَّة محمد ﷺ، وبيان أن القرآن الكريم كلام الله، وتقديم الدُّروس والعظات للمؤمنين المُسْتضْعَفين في مكة[٢].

إنَّ قصة كفاح نوح الرَّسول مع قومه قصّها الله في مكة على نبيِّه، لكي يُثبِّتَ فؤادَه ويُوضِّحَ أن ما يلقاه من عِنادٍ وتكذيب، وإعراضٍ وتعذيبٍ، قد تعرَّض له من كانوا قبله من الرُّسُل، كما كانَ ذِكر القصة مُهمّاً بالنسبة للمؤمنين حتى يزدادوا إيماناً مع إيمانهم، وكذا وهو مهم أيضاً للكافرين حتى يعتبروا ويرجعوا عن ضلالهم إذا عرفوا عاقبة من قبلهم من المُكذِّبين الضَّالِّين[٣].

ونظراً لأن معظم عناصر سيرة نوح قد وردت بالتفصيل في سور «العهد المكي» في أثناء وجود الرَّسول ﷺ في مكة المكرمة قبل الهجرة إلى المدينة المنورة، فلم يكن ثمة داعٍ للحديث عنها مرة أخرى في السور المدنية التي أُنزلت على الرَّسول في أثناء إقامته بالمدينة، وما ورد من ذكر نوح كانَ مجرَّد إشارة عابرة، لذلك نجد ذكره في كل سورة من السور المدنية لا يزيد عن «آية» واحدة، وعلى هذا فقد تحوَّلت القصة المفصلة في سور العهد المكي إلى مجرَّد «مثل عابر» في آيات العهد المدني.

---

(١) صلاح الخالدي، القصص القرآني، ١/ ١٥٢.
(٢) المرجع نفسه، ١/ ١٥٢.
(٣) طه وادي، أولوا العزم من الرُّسُل، دار النشر للجامعات، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ٢٢.

ومن هنا وجدنا أن ذكر نوح عليه السَّلامُ قد ورد في العهد المدني في سبعة مواضع، وكل موضع يتكون من آية واحدة في الغالب[١].

وقد بَيَّنَ الدكتور طه وادي في كتابه (أولو العزم من الرُّسُل) أن:

* ٥٤, ٩٤٪ من الآيات في قصة نوح عليه السَّلامُ في العهد المكي.

* ٤٦, ٥٪ من الآيات في قصة نوح عليه السَّلامُ في العهد المدني[٢].

إن عناية الذكر الحكيم بقصة نوح عليه السَّلامُ بهذا الشكل المفصل في مواضع عدة، يُوضِّح مدى الجهد والجهاد اللَّذَين بذلهما هذا الرَّسول الكريم على المستويَين: النفسي والمادي، من أجل إعلاء كلمة الله ونشر عبادته بَينَ قوم مشركين، خاصة أنه أوَّل رسول من ذرِّية آدم عليه السَّلامُ[٣].

أولاً: مواقف قوم نوح من دعوته في سورة هود:

وردت قصة نوح في خمس وعشرين آية من الآية (٢٥) إلى الآية (٤٩) في سورة هود، والمشاهد واللقطات المعروضة من القصة في هذه السورة من أطول المشاهد، وتكاد تكون أطول من المشاهد المعروضة في سورة نوح نفسها، التي تخصَّصت بالحديث عن قصته.

وتحدَّثَت آيات سورة هود عن إرسال نوح إلى قومه ودعوته لهم إلى عبادة الله وحده، ورَدَّ الملأ الكفار من قومه عليه، وإثارة شبهات لهم حول دعوته وأتباعه، ونَقضِ نوح عليه السَّلامُ لتلك الشبهات، ورفض العرض الذي قدمه له كفار قومه بطرد أتباعه المؤمنين، وطلبِ قومه إيقاع العذاب بهم، وردّه على طلبهم.

كما تحدَّثَت الآيات عن إخبار الله له بأنه لن يُؤمن من قومه إلا من قد آمن،

---

(١) طه وادي، أولوا العزم من الرُّسُل، ص ٢٢.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٢.
(٣) المرجع نفسه، ص ٢٣.

وأمرِه له بصنع السَّفينة، وتَعرضُ الآيات بعض ما جرى بينه وبين قومه الكفار أثناء صنعه للسفينة، وتعرض مشهد بدء الطُّوفان، وفوران التنور بالماء، وتحميل نوح في سفينته زوجين من كل حيّ، والمؤمنين معه، وجريان السَّفينة في أمواج الطُّوفان باسم الله، وتُصوِّر الآياتُ ما جرى بَينَ نوح وبين ابنه الكافر، وهلاك ذلك الكافر غرقاً، كما تصوِّرُ انتهاء الطُّوفان وزوال الماء، واستقرار السَّفينة بركَّابِها على جبل «الجُودِيِّ».

وتُسجِّلُ الآيات سؤالَ نوح لربِّه عن غرق ابنه، وعتابَ الله وبيانه أنه ليس من أهله، لأنه عمل غير صالح، وتأدُّب نوح مع ربه وطلبه منه العفو والرَّحمة، وتختم الآيات القصة بمنظر نزول نوح وأتباعه المؤمنين من السَّفينة إلى الأرض، واستئناف الحياة من جديد على وجه الأرض، وتوظف الآياتُ قصةَ نوح في القرآن دليلاً على نُبوَّةِ محمد ﷺ[1].

وفي هذه الفقرة سنهتم بإذن الله بالحوار والجدال بَينَ نوح عليه السَّلامُ والملأ من قومه حتى صناعة السَّفينة.

وأما ما يتعلق بركوب السَّفينة وما بعدها فسيأتي الحديث عنه بإذن الله في المبحث الرابع المتعلِّق بالطُّوفان العظيم:

١ ـ شبهات الملأ من قوم نوح على دعوته:

قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧]. وهذا جواب قادة قوم نوح على دعوته لقومه بعبادة الله، وشرح الآية:

ـ ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾:

جاء الفاء حرف عطف يفيد التعقيب والمسارعة في الجواب، أي أنهم لم

---

(١) الخالدي، القصص القرآني، ١/ ١٥٤.

ينظروا فيما قال ولم يتدبروا ولم يتعقّلوا ولم يتمعّنوا ولم يتفكروا، بل أجابوا على الفور حتى يقطعوا الطريق على باقي القوم.

والملأ هم أصحاب المراكز والقيادات، والممتلئون بالثروة والمالئون المقاعد القيادية والمُهمَّة في البلد، وهي كلمة تلفت النظر بقوة، فأن تظهر هذه الفئة منذ فجر التاريخ، فهذا أمر ينبغي أن يلفت اهتمام أصحاب الدراسات الاجتماعية والنفسية والسيكولوجية والإنثروبولوجية والسياسية فهو أمر لافتٌ، فهذه الكلمة في هذا المشهد في هذه القصة في هذا الوقت المبكر من تاريخ البشرية وفجر تاريخها تلفت عنايتَنا بقوة، فأخطر الظواهر اليوم نشأت منذ أوَّل يوم كأنه لا جديد على البشرية إلا مقدار الهيمنة وأدواتها وصُوَرها، والملأ واحد، والهيمنة واحدة، لكن صور النفوذ والسيطرة والأدوات قد تختلف، والمبدأ واحد[١].

ولتسميتهم باسم «الملأ» ملحظ ذو دلالة: قال الإمام الراغب في معنى «الملأ»: الملأ: جماعة يجتمعون على رأي، فيملؤون العيون رُواء ومنظراً، والنفوس بهاء وجلالاً، يقال: فلان ملء العيون، أيْ: مُعظَّم عند مَن رآه، كأنه ملأ عينه من رؤيته[٢].

وكان لقوم نوح الكفار مَلأٌ، وكل كفار لهم ملأ، يقودونهم في مواجهة الحق، وهؤلاء «الملأ» كانوا يجتمعون على كفرهم ويلتقون في جلساتهم على التآمر والمكر ضد نوح عليه السَّلامُ ورسالته، ويتفقون على أساليب حربه ومواجهته، ويضعون خطة إعلامية، ينفذونها في أتباعهم وجنودهم وأعوانهم.

وسُمِّيَ هؤلاء «الملأ»؛ لأنهم كانوا يملؤون عيون جماهيرهم وأتباعهم مهابة وخوفاً، ويملؤون نفوس جنودهم رهبة وإجلالاً، أيْ: كانوا ملء عيون أتباعهم

---

(١) أحمد نوفل، تفسير سورة هود، ص ١١٤.

(٢) صلاح الخالدي، القصص القرآني، ١/ ١٧٠. وانظر: الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص ٧٧٦.

ونفوسهم وقلوبهم وعقولهم، ولهذا كانوا يخافون منهم، ويرهبونهم، ومن ثم كانوا يتَّبعونهم وينفذون ما يطلبونه منهم، ويجنِّدون لهم أعواناً في رفض الحق ومواجهة نوح عليه السَّلامُ.

هذه هي الآثار الخطيرة لظاهرة الملأ التي نلحظها في قصص الأنبياء في القرآن، والتي كانت تُمثِّل القيادة الشَّيطانية الجاهلية لحزب الشَّيطان في مواجهة الحق وجنوده، وتُخبرنا آيات القرآن في قصة نوح عليه السَّلامُ، أن هؤلاء «الملأ» هم الذين قادوا قومهم في مواجهته، وهم الذين أثاروا الشبهات ضدّه، وضد أصحابه، وقدموا طلباتهم له، ووجهوا تهديداتهم إليه، وقد واجه نوح عليه السَّلامُ هؤلاء الملأ وفنَّدَ شبهاتهم ولم يستجب لطلباتهم، ولم يرضخ لتهديداتهم، وإنما تحدّاهم، وحاربهم، واستعلى عليهم بإيمانه، مُتوكِّلاً على الله ربه[١].

- ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾:

يُؤتى بالاسم الموصول دائماً لاستحضار ما في حيّزه من الصِّلة، إذ لا يتم تشخيصه، أي الموصول إلا بصلته، والصِّلة هنا «كفروا»، ويبدو أن القوم كلهم على هذه الصفة، لكن يبدو أن هؤلاء هم مُنظِّروا الكفر ومُزيِّنوه ومُروِّجوه، والمستفيدون منه، وهم مستثمروه وقادته وطليعته وحُرَّاسه[٢]، و«مِن قومه»؛ أي من قوم نوح.

- ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾:

جاءت بصيغة الحصر أجابوا نوحاً بأنا لا نراك إلا بشراً تام البشرية مثلنا، فكيف نتبعك وكيف تقودنا؟ ونسوا هم أنهم يقودون المجتمع وهم بشر، بل من أرذل البشر[٣].

---

(١) الخالدي، القصص القرآني، ١/ ١٧١.
(٢) أحمد نوفل، تفسير سورة هود، ص ١١٤.
(٣) المرجع نفسه، ص ١١٤.

إنها الشبهة التي وقرت في نفوس جُهَّال البشر: أن الجنس البشري أصغر من حمل رسالة الله، فإن تكن رسالة فَلْيَحْمِلْها ملكٌ أو مخلوق آخر، وهي شبهة جاهلية مصدرها عدم الثقة بهذا المخلوق الذي استخلفه الله في أرضه، وهي وظيفة خطيرة ضخمة، لا بد أن يكون الخالق قد أودع في هذا الإنسان ما يكافئها من الاستعداد والطاقة، وأودع في جنسه القدرة على أن يكون من بَنِيه أفراد مُهيَّؤُون لحمل الرسالة، باختيار الله لهم، وهو أعلم بما أودع في كيانهم الخاص من خصائص هذا الجنس في عمومه.

وشبهة أخرى جاهلية كذلك، هي: أنه إذا كانَ الله يختار رسولاً، فلِمَ لا يكون من بَينِ هؤلاء الملأ الكبراء في قومهم، المتسلطين العالين.

وهو جهل بالقيم الحقيقية لهذا المخلوق الإنساني، والتي من أجلها استحقَّ الخلافة في الأرض بعمومه، واستحقَّ حمل رسالة الله بخصوصيته في المختارين من صفوفه، وهذه القيم لا علاقة لها بمال أو جاه أو استطالة في الأرض، إنما هي في صميم النفس، واستعدادها للاتصال بالملأ الأعلى، بما فيها من صفاء وتفتُّح، وقدرة على التلقِّي، واحتمال للأمانة، وصبر على أدائها، ومقدرة على إبلاغها... إلى آخر صفات النُّبوَّة الكريمة، وهي صفات لا علاقة لها بمال أو جاه أو استعلاء، ولكن الملأ من قوم نوح، كالملأ من قوم كل نبي تُعْميهم مَكانتُهم الدنيوية عن رؤية هذه الخصائص العلوية، فلا يُدركون مُبرِّراً لاختصاص الرُّسُل بالرسالة، وهي في زعمهم لا تكون لبشر، فإن كانت فهي لأمثالهم من الوجهاء العالين في الأرض ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾، هذه واحدة، وأما الأخرى فأدهى[1].

- ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾:

جاءت صيغة الحصر للمرة الثانية في هذه الآية، وهي صيغة مقصودهم منها:

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/ ١٨٧٢.

الاعتراض والرفض والاستخفاف والرؤية بَصيرِيَّة وبَصَريَّة معاً، بمعنى أننا نتفكَّر في أمركم فنجدكم الأفقر، أو نراكم بعيوننا أنكم فقراء المجتمع، فكيف ندخل في دينٍ، هؤلاء هم مادته، وهؤلاء هم رجاله وأتباعه.

ويبدو أن التفكير الطبقي مُبكِّر في المجتمعات، وأن هذه النظرة العنصرية عميقة عتيقة قديمة، والنظر إلى النَّاس بفَوقيَّةِ الذات ودُونيَّةِ الآخر قد نُحتت في صخر الواقع الاجتماعي منذ عصور سحيقة، فنحن الآن في تفسير هذه الآية نتحدث عن فجر البشرية وبواكرها، والأراذل في نظرهم طبقياً لا أخلاقياً، فحتى وإن كانَ ابن الطبقة الثَّريَّة مُنحطاً في النظرة الأخلاقية فهو من العرق المُقدَّس أو المُنزَّه أو الأعلى في النظرة الطَّبَقيَّة، والمُهِمُّ في نظرهم مقياسهم لا مقياس الحقِّ والواقع، والدِّين والرسالات(١).

إن نسبة كلمة ﴿أَرَاذِلُنَا﴾ لأتباع نوح عليه السَّلامُ تُظهر مدى الحقد والاحتقار الذي حمله الملأ أو الأشراف من القوم للضعفاء منهم، فهؤلاء الضعفاء لا مكانة لهم ولا قيمة لتحرُّكاتهم أو لتوجُّهاتهم الروحية، فتوجُّهاتهم تلك نابعة من رأي الملأ عن عدم تثبُّت أو تفكُّر في رسالة نوح(٢).

ومعنى ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾: يعيبون عليهم، أيْ: على المؤمنين سرعة استجابتهم لدعوة نوح، واعتبروها سذاجة، وفجاجة وتسرّعاً وسطحية، وقِلَّةَ تعمُّق في المسألة، وهذا رأي خطير، غير نضيج ولا خمير، لم يُنضِجْهُ تقليبُ الأنظار فيه ولا الأفكار، وكأنهم هم عقلاء ذلك الزمان، وراشدوه، وما هم إلا حمقى فارغة عقولهم وقلوبهم، ملأى كروشهم وجيوبهم، وهم قد مارسوا ما عابوه بأن رَدُّوا الدعوة بادى الرأي فتأمَّلْ(٣).

---

(١) أحمد نوفل، تفسير سورة هود، ص ١١٥.

(٢) زاهية الدجاني، أحسن القصص بَينَ إعجاز القرآن وتحريف التوراة، دار التقريب بَينَ المذاهب الإسلامية، الطبعة الثالثة، ٢٠٠١م، ص ٣١.

(٣) أحمد نوفل، تفسير سورة هود، ص ١١٥.

ـ ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾:

هذه هي المرة الثالثة التي يستعمل فيها الملأ فعل الرؤية فقالوا أولاً: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا﴾، ثم قالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا﴾، والآن: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾، فالمهم هو ذواتهم ونظرتهم ورؤاهم وعبقريتهم الفائقة، وموازينهم الدقيقة.. لا يهمُّ الحقيقة ما تكون، المهم أننا بموازيننا نرى أن لا فضل لكم، ولا ميّزة ولا شرفاً ولا تقدّماً علينا في شأن، طبعاً هم قد أسقطوا سلفاً القيمة الدينية والاعتبارات الأخلاقية.. فما بقي إلا القيمة المادية، والنظرة الاجتماعية، والمقاييس الطبقية.

وقدموا «لكم» على «علينا» لتأكيد تجرُّد المؤمنين ـ بزعمهم ـ من الامتيازات عليهم، وكل كلمة تُعبِّر عن مكنون نفسي، ومخزون فكري وثقافي، والقرآن بكلماته التي تنقل كلماتهم ينقل لنا الشحنة الشعورية والعاطفية والفكرية التي ترافقت مع الكلمات، وما عليك إلا التدقيق والنظر، وتتجلّى تلك السطوح والأعماق في نفوس هؤلاء، ويا عجباً لا ينتهي ممَّن لا ينهل كل المعاني من كلمات القرآن والسبع المثاني(١).

ـ ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾:

جاء حرف بل: للاضطراب الانتقالي، كأنهم يقولون: لم نسترسل في الكلام، فلنختصره ولندلف إلى النتيجة في التوّ والحال، فنقول ما يحسم المسألة من أصلها، أنتم في نظرنا وظننا من الكاذبين، فلمَ إطالة الرَّدِّ والسؤال والكلام؟

ومن منهجية القرآن العجيبة أن الملأ في كل قصص القرآن لم يجزموا بكذب المؤمنين، وحاشا بطبيعة الحال، فالأنبياء أولى مزاياهم الصدق المطلق، فكانوا يُعبِّرون دواماً بالظن، وهنا مؤشر على شيء من فطنة، فحتى لا تُردَّ دعواهم فوراً

---

(١) نوفل، تفسير سورة هود، ص ١١٦.

عبَّروا بالظن، لكن هذه التُّهمة وُجِّهت منذ وقت مبكر للأنبياء، وحاشاهم، لكن بصيغة الظن لا اليقين(١).

ومن اللوازم الفكرية لهذا الاتِّهام الإشعارُ بأنهم سيكونون سفهاء محرومين من العقل والبصيرة لو آمنوا بنوح وأسلموا له واتَّبعوه، ومن لوازمه الفكرية أيضاً الاتِّهام بالمصلحة الشخصية(٢).

وهذه التهمة الأخيرة التي جاءت في سياق سورة هود يقذفون بها في وجه الرَّسول وأتباعه، ولكنهم على طريقة طبقتهم «الأرستقراطية» يُلقونها في أسلوب التَّحفُّظ اللائق «بالأرستقراط» «بل نظنكم»؛ لأن اليقين الجازم في القول والاتجاه من طبيعة الجماهير المندفعة ـ بادي الرأي ـ التي يترفع عنها السادة المُفكِّرون المُتحفِّظون، إنه النموذج المتكرِّر من عهد نوح، لهذه الطبقة المليئة الجيوب الفارغة القلوب، المُتعاظمة المُدَّعية المنتفخة الأوداج والأمخاخ(٣).

ونلاحظ في الحديث القرآني أن:

* في القصص القرآني من الدلالات النفسية والاجتماعية ما لا يُحصى.

* ليت من شُغلوا بنقل تفاهات الإسرائيليات اشتغلوا باستخراج الدلالات المستفادة من القصص، إذن لأتوا بشيء ذي قيمة.

* التفكير الطبقي والتمييز على أساسه قديم في البشرية، ومُتجدِّد.

* هذا التفكير يخدم نظريَّة التسلُّط.

* الدين ثورة على القيم الفاسدة إضافة إلى نسفه للشرك.

* لم يُكذَّب الرُّسُل ومن آمن معهم بصيغة القطع، وإنما دائماً وبمنهجية

---

(١) المرجع نفسه، ص ١١٦.
(٢) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٩١.
(٣) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/ ١٨٧٣.

قرآنية عجيبة كانَ الملأ يواجهون الرُّسُل بتهمة الكذب بصيغة الظَّنِّ لاشتهارهم المطلق بالصدق.

* يزعم الفاسدون والذين يقاومون دعوات الإصلاح والتغيير الذي هو سنة الكون أنهم ينطلقون من فكر نضيج، ولا يتعسَّفون الآراء، ويعتنقونها فجَّةً.

* رسالات التوحيد هي حركات التحرير الحقيقية للبشر، في كل طور وفي كل مكان(١).

٢ ـ جواب نوح عليه السَّلامُ على اعتراضات الملأ من قومه:

قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ۝٢٨ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ۝٢٩ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣٠ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٢٨ ـ ٣١].

تضمَّنَت الآيات السابقة ردَّ قوم نوح أو الملأ منهم على دعوة نوح لهم بعبادة الله وحده، ورد نوح ـ عليه السَّلامُ ـ عليهم، وعلى إعراضهم واستكبارهم في سماحة النبي وفي استعلائه وفي ثقته بالحقِّ الذي جاء به، واطمئنانه إلى ربه الذي أرسله، وفي وضوح طريقه واستقامة منهاجه، فلا يَشتِمُ كما شَتَموا، ولا يَتَّهِم كما اتَّهموا، ولا يدّعي كما ادّعوا، ولا يحاول أن يخلع على نفسه مظهراً غير الحقيقة، ولا على رسالته شيئاً غير طبيعتها.

ـ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾:

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾: في سماحة ومَودَّةٍ بندائهم ونسبتهم إليه ونسبة نفسه إليهم(٢)،

---

(١) أحمد نوفل، تفسير سورة هود، ص ١١٨.
(٢) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/ ١٨٧٣.

﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ : أيْ: أفكرتم في احتمال أن أكون على بيِّنة من ربِّي تشهد لي بأني صادق فيما أبلغكم عنه، أفتصدِّقُوني؟ فكِّروا وأخبروني(١). والهمزة للاستفهام، ومعناها: التعجُّب، والرؤية بصرية، أو بصيرية، والثانية أرجح(٢).

﴿ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ : أيْ: كنت مُتمكِّناً من بيِّنة تدلُّ على أنني على الحقِّ والوضوح والحُجَّة القاطعة، وهذه الحُجَّةُ مقطوع أنها من الله بدلالتها الناصعة القاطعة، وعجز البشر عن مثلها(٣)، فنوح عليه السَّلامُ يُقدِّم في هذا استعداده لتقديم بيِّنة خارقة يشهد الله له من خلالها بأنه رسول صادق حقّاً، يُبلغ عن ربِّه، وفي هذا دفع اتِّهامه بالتَّوهُّم أو الكذب، فالمعجزة حُجَّة قاطعة وآية دامغة(٤).

- ﴿ وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ :

﴿ وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ ؛ وأعطاني ووهبني رحمة واسعة كائنة من عنده، ولعل الرَّحمة هنا هي النُّبوَّة أو النُّبوَّة وسائر عطاء الله له، فقد جاءت ﴿ رَحْمَةً ﴾ نكرة للتكثير والتعظيم(٥).

وقال الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني: وآتاني رحمة لكم من عنده: هي الدين وما فيه من تعاليم ووصايا، تتضمَّن سعادتكم ونجاتكم، وفي ذلك رحمة عظمى لكم، أيْ: أفكَّرتُم في مضمون هذه الرسالة التي جئتكم بها والتي هي رحمة عظيمة لكم، فكِّروا وأخبروني(٦).

---

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٩١.
(٢) نوفل، تفسير سورة هود، ص ١١٩.
(٣) المرجع نفسه، ص ١١٩.
(٤) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٩١.
(٥) نوفل، تفسير سورة هود، ص ١١٩.
(٦) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٩٠.

﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾؛ فأُخفيت عليكم ولُبِّسَت عليكم، ويحصل هذا بالنسبة إلى الأتباع لتأثير قادتهم المُضلِّين فيهم(١).

وبالنسبة للقادة المُضلِّين وغيرهم بسبب صوارف نفسية، كالكِبر ورغبات الفجور، واتِّباع الأهواء، وحُبِّ العاجلة، مع وساوس شياطين الإنس والجن، وتسويلاتهم، وفي هذا ردّ نوح عليه السَّلامُ على اتِّهامهم المؤمنين، بأنهم اتَّبعوه وأسلموا عند بادى الرأي(٢). أيْ: خفيت عليكم البيِّنة والرَّحمة، فلم تروا أنها من عند الله.

وفي هذه الصيغة ﴿ وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾؛ ما يُشير إلى وضوح الرسالة التي جاء بها نوح، ومن شأن كل العقول أن تدرِكَها، ولولا أن هناك حائلاً حال دون عقولهم لأدركوها، وهذا يمثِّل غاية الرفق بمشاعرهم، والحرص على أُلفتهم، فكأنه يقول لهم: أنا لا أتَّهمكم بعدم إدراك نُبوَّتي، وإنما أتَّهِمُ الذي حال بينكم وبينها، فلم تُدرِكُوها، وهذا يدفعهم تلقائيّاً إلى التفكير والبحث عن هذا الحائل(٣).

وفي قوله: ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾؛ من بديع هذه الاستعارة ـ هنا ـ أن فيها تطابقاً لمقابلة قولهم في مجادلتهم ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا ﴾، ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ ﴾، ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ ﴾، فقابل نوح عليه السَّلامُ كلامهم مقابلة بالمعنى واللفظ، إذ جعل عدم رؤيتهم من قبيل العمى(٤).

---

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ، ص ٩٢.
(٢) المرجع نفسه، ص ٩٢.
(٣) عودة عبد الله، أدب الكلام وأثره في بناء العلاقات الإنسانية في ضوء القرآن الكريم، ص ٣١١.
(٤) نوفل، تفسير سورة هود، ص ١٢٠.

- ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ﴾ :

تُعدُّ كلمة ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ من أطول الكلمات في القرآن الكريم، وهي تتكون من استفهام وفعل وفاعل ومفعول به، بل مفعولين، فهي خمس كلماتٍ في واحدة فتأمل هذه اللغة، وتأمل تاج اللغة القرآن الذي جاءت شمس البلاغة فيه، وفي ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ﴾ : الواو حالية على الأرجح، والجملة تتكون من مبتدأ وخبر، أي وأنتم لهذه الحُجَّة والبيِّنة كارهون مفارقون، فكيف يكون هذا والدِّين اختيار وليس إجباراً[١].

فدلَّ هذا البيان على أن قاعدة (لا إكراه في الدين) قاعدة ثابتة في الرسالات الرَّبانيَّة كلِّها[٢].

إنَّ لفظ ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ : مُكوَّن من الهمزة، ونلزم هي الفعل، ومن الذي نلزمه؟ هو المخاطب، ونلزمه بماذا؟ بالإيمان بمنهج الله تعالى. إذن، فهناك استفهام وفعل وفاعل مستتر في الفعل تقديره «نحن»، ومفعول أوَّل ومفعول ثان، المفعول الأول هو كاف الخطاب في قوله: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أي أنفرضها عليكم بالقهر وأنتم لا تريدونها وتكرهونها؟ طبعاً لا؛ لأن الإيمان بالنسبة للإنسان لا بد أن يكون طواعية وعن اختيار، ولو أن الله سبحانه أراد كل خلقه مكرهين لكانوا كذلك، ولكن الله تعالى يريد أن يأتيه الإنسان عن حُبٍّ واختيار وليس عن قهر، لأن الإكراه هو إخضاع القوالب، والله يريد قلوباً تخشع وليس قوالِبَ تخضع، ولو أن الحقَّ يريد الإخضاع بالإكراه لأخضعنا كما أخضع كل الكون وجعلهم مقهورين لأمره[٣].

---

(١) نوفل، تفسير سورة هود، ص ١١٩.
(٢) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٩٢.
(٣) المرجع نفسه، ص ٩٢.

إذن: فالدين لم يأت للإكراه ولكنه جاء لنؤمن به طواعية واختياراً[١]. والله يقول: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وهذا مبدأ عظيم وقويم، مبدأ الاختيار في العقيدة والاقتناع بالنظر والتَّدبُّر، لا بالقهر والسلطان والاستعلاء[٢].

ومن هذا يتبيَّن أن:

* الدين إقناع وليس إخضاعاً.

* الأنبياء يستخدمون الحُجَّة لإلزام النَّاس المحَجَّة وليس الإكراه.

* الحجاج فنٌّ يحتاج إلى ملكة وتدريب، والأنبياء هم أساتذة هذا الفن.

* البيِّنة حُجَّة عقلية وبرهان قد تخفى على المادي في تفكيره، والمحبوس في قوقعة مألوفاته.

- ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾:

﴿وَيَٰقَوْمِ﴾: تلطَّف نوحٌ إلى قومه في توجيه أنظارهم لِمَسِّ وجدانهم، وهذا يُرشدنا إلى ضرورة التلطُّف[٣].

وتُواصل الآية مرافعة النبي الكريم نوح عليه السَّلامُ في تفنيد موقف قومه، ففي السابقة بَيَّنَ ما آتاه الله من بيِّنة ورحمة، وفي هذه يُبيِّن أنه لا يسأل على دعوته شيئاً فهما متكاملتان متدرجتان، وهناك افتُتِحت الآية بـ ﴿يَٰقَوْمِ﴾، وهنا كذلك ﴿يَٰقَوْمِ﴾ ويا قوم: الواو: عاطفة، ويا: للنداء، وقوم: منادى. وفي قوله: ﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ﴾: لا أطلب منكم على دعوتي لكم وإرشادي مالاً ولا أجراً تدفعونه لي، ونكَّرَ ليفيد العموم، أيْ: مالاً، أي مال.

---

(١) محمد متولي الشعراوي، قصص الأنبياء، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠١١م، ١/ ٤٥.
(٢) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/ ١٨٧٤.
(٣) نوفل، تفسير سورة هود، ص ١٢١.

﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾: إنه لما نفى سؤالهم استعمل في النفي ﴿مَالًاۖ﴾، ﴿لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ﴾، لا ولما أثبت استخدام كلمة «الأجر»، فقال: ﴿إن أجري إلا على الله﴾؛ لأن أجر الله عزَّ وجلَّ أعمُّ وأعظم، وأهمُّ من المال، فما المال الذي يُعظِّمه النَّاس إلا باب واحد من أبواب العطاء الإلهي، ولعله آخر ما يشغل بال المؤمن. وقد استخدم النص الكريم حرف الجر «على» ولم يقل «من الله»؛ ليُفيد أن الله كتب على نفسه تفضُّلاً منه، وليكون العباد على ثقةٍ بتحقُّق وعده[1].

وهذا ردٌّ من نوح عليه السَّلامُ على ما يُشعِرُ به قولهم ﴿بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ من اتِّهامه بالمصلحة الشخصية لديهم، فبيَّن لهم أنه لا يسألهم على ما يدعوهم إليه أي أجر، حتى يظنُّوا به الكذب، ويصدّهم ذلك عن الإيمان بما جاءهم به من عند الله.

ـ ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾:

دلَّ هذا القول على أن قوم نوح عليه السَّلامُ طلبوا منه أن يطرد مَن سمَّوهم أراذلهم حتى يستجيبوا له، فردَّ على طلبهم بالرفض وذكرَهم بوصفِ الذين آمنوا، لا بالوصف الذي وصفهم به قومهم، لإرادة التعميم ولبيان الداعي الذي يُوجب عليه ألا يطردهم، وهو وصف الإيمان.

ويظهر أن الداعي إلى إعادة قوله لقومه في هذا النص ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾ أمران:

ـ **الأول**: أنهم كرَّروا مطالبته بطرد من سمَّوهم أراذلَهم.

ـ **الثاني**: إقناعهم بأن هؤلاء بشر مثلهم، وأنهم في الحياة الدُّنيا ممتحنون مثلهم، ومسؤولون عن الإيمان والطاعة والإسلام والعمل الصَّالِح مثلهم، وأنهم

---

(١) نوفل، تفسير سورة هود، ص ١٢٢.

مبعوثون للحساب والجزاء، وأنهم ملاقو ربهم يوم الدين مثلهم، فيحاسبهم ويجازيهم، وهذا الإقناع لم يأت بالنص السابق.

أيّ: فكيف أطردهم وأنا مسؤول عن دعوتهم إلى دين الله، وعن تبليغهم شريعته، وتكليفهم اتّباعي، كل هذه المعاني دلت عليها جملة: ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾، وذلك عن طريق اللوازم الفكرية، وهي كما يلي:

* لماذا يلاقون ربهم؟
* ليحاسبهم ويجازيهم.
* عماذا يحاسبهم؟
* عمّا كُلِّفوا أن يؤمنوا به، ويعملوه في الحياة الدُّنيا.
* وهكذا تتسلسل اللوازم حتى سائر عناصر موضوع امتحان النَّاس في الدُّنيا[١].

- ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾:

هو استدراك على ما تضمَّنَته أقوال قومه له، من أنهم أهل رأي وفكر وعقل وتبصّر ببواطن الأمور وحقائقها. أيْ: أنتم تزعمون أنكم كذلك، وتتّهمون من اتّبعني بأنهم اتّبعوني عند بادي الرأي، دون تعمق في التفكير ولا تبصّر ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾، أي تخطون بتفكيركم إلى مواطن الجهل، لا إلى مواطن المعرفة والعلم.

لقد دلّ قوله لهم: ﴿تَجۡهَلُونَ﴾ بصيغة الفعل المضارع التي تدلُّ على التكرار والتجدّد، على أنَّ جهلهم مُكرَّر مع كل دعوة لهم، ولو كانَ المراد مجرَّد وصفهم بالجهل لكان المناسب أن يكون التعبير: ولكني أراكم قوماً جاهلين،

---

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٩٤.

فاسم الفاعل يدلُّ بصيغته على الوصف الموجود دون ملاحظة ماضٍ أو مستقبل أو تجدّد، والأصل فيه الحال.

* يجهلون في ماذا؟

* إنهم يجهلون في أمور كثيرة طرحوها منها رفض الاستجابة لدعوة نوح.

* يجهلون خصائص الربوبيَّة والإلهية.

* ويجهلون قدرة الله على الوحي لبشر مثلهم، وبعثه رسولاً للناس.

* ويجهلون وظيفتهم في الحياة، وأنهم ممتحنون فيها.

* ويجهلون مسؤوليتهم أمام الله خالقهم وبارئهم.

* ويجهلون أن الرَّسول مكلّف مثلهم، فهو يُبلِّغ عن ربه ما يأمره بتبليغه ومطالب بالإيمان والعمل الصَّالِح كما هم مطالبون.

* ويجهلون أن هؤلاء الذين يرونهم سفهاء هم مثلهم في الإنسانية.

* ويجهلون أن كل ذي إرادة وفكر مُمْتحَن في الحياة الدُّنيا ومسؤول أمام ربه.

* ويجهلون أن الرَّسول لا يملك أن ينتقي أتباعه انتقاء إلى غير ذلك من عناصر جاهليتهم وجهالاتهم[١].

ومن الآية السابقة تتضح الأمور التالية:

* أساس الدين التسوية بَينَ العباد، فلا يتفاوتون إلا بمقدار تقواهم وتقرُّبهم إلى الله.

* لا يُقاس النَّاس بدخولهم واستهلاكهم ونمط معيشتهم، وإنما بِقِيَمِهم وأخلاقهم.

---

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٩٥.

* طلب طرد المؤمنين تكرَّر مع الأنبياء منذ نوح إلى خاتم الأنبياء عليهم السلام، ومن هنا قال الله لخاتم المُرسَلين:

* ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

* جميع الخلق حسابهم على الله وليس حساب أحد على أحد.

* الجهل أخطر أعداء الإنسان[١].

- ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾:

هذه الآية مواصلة لمرافعة نوح، وهنا يُرتِّب الكلام على طلبهم بطرد المؤمنين بقوله: ﴿مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ﴾، والمعنى: ﴿وَيَٰقَوْمِ﴾: الواو عاطفة، ويا للنداء، وقوم منادى. وفي قوله: ﴿مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾: من يدفع عني غضب الله إن طردتُ عباده، والنصر هنا بمعنى الحماية ورفع العذاب، إشارة إلى أن طرد المؤمنين يستحق تعذيب فاعله، ولستُ مستعداً لذلك ولا أحد يمنع عني وقوع العذاب إن فعلته.

﴿إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ﴾: من يحميني إن طردتُ المؤمنين، أيْ: ويا قوم من ينصرني فيحميني ويُنجيني من عقاب الله إن طردتُ هؤلاء الذين ترونهم أراذل، وأنا مسؤول عند الله عن دعوتهم إلى دينه، وعن تبليغهم مطالب هذا الدين، وعن ضَمِّهم ضمن أتباع هذا الدين، وهم مسؤولون عن الإيمان والطاعة والإسلام والعمل الصَّالِح؟ وجواب هذا السؤال: لا أحد ينصر فيحمي ويقي من عذاب الله إذا شاء الله أن يعذب أحداً[٢].

---

(١) نوفل، تفسير سورة هود، ص ١٢٤.
(٢) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٩٦.

وخُتمت الآية بالاستفهام ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، وتُقال هذه الكلمة ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ للبديهيات العقلية، التي لا تحتاج إلى إعمال عقل كثير، فنوح عليه السَّلامُ يُنكر على قومه عدم تذكُّرهم الحقائق التي سبق أن بيَّنَها لهم في مناظراته السابقة لهم، مع أنه كانَ عليهم أن يضعوها في ذاكرتهم دوماً، ولا ينسوها حتى تكون مانعة لهم من اجترار الأفكار التي سبق دفعها بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة، وحتى تكون مانعة لهم من رفض اتباع الحق بدافع الكبر الطبقي، أو بأي دافع آخر، وحتى تكون دافعة لهم إلى حماية أنفسهم من عذاب الله[(١)].

وفي استنكاره عدم تذكُّرهم ما سبق بيانه لهم، مع إلزامهم أو إفحامهم بانقطاع حججهم وتَعِلاتهم، معنى الحضّ والحثّ لهم أن يتذكروا دوماً، فالتذكر دافع للتبصر بالأمور، ثم للاتِّعاظ بالنَّصائح والوصايا، والأحداث الواعظات، لذلك يغلب في أقوال المفسرين مثل: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ بنحو ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، نظراً إلى الهدف من الدعوة إلى التذكر، وهو الاتِّعاظ، والاتِّعاظ هو التأثُّر بالنُّصح والأمر والنهي والعمل بمقتضاه[(٢)].

ويتضح من الآية الكريمة:

* أن العقل والشرع تطابقا على تعظيم المؤمن التَّقيّ وإهانة الفاجر.

* أن تعظيم الكافر وطرد المؤمن وإهانته يستوجبان غضب الله وعقابه وعذابه.

* أن الأنبياء حريصون على هداية كل البشر الفقير والغني، الشريف والوضيع، وأن المقاييس عند الله بالتَّقوَى[(٣)].

---

(١) الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص ٩٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ٩٧.

(٣) نوفل، تفسير سورة هود، ص ١٢٦.

قال تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٣١]، مواصلة لكلام نوح عليه السَّلامُ في الرَّدِّ على قومه، وقد بَيَّنَ هنا أنه لا يدعي ملك خزائن الله، ولا عِلْمَ الغيب، أي أنه يُؤكِّد بشريَّته ويُواصل رَدَّه على ازدراء قومه للمؤمنين البسطاء[١].

- ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾:

لم أزعم يوماً ولم أقل لكم إني أملك خزائن الله، أو أنها عندي في متناولي، هذا لم أدعه يوماً، وخزائن الله: إما خزائن رزقه أو خزائن غيبه[٢].

ويُفهم من قوله هذا أنه لا يملك خزائن الله حتى يتصرف بها على ما يشتهي هو، أو يشتهي قومه، ويظهر أن قومه حاولوا استدراجه بالأسئلة ليقول لهم: عندي خزائن الله، فأنا أُجري الخوارق والآيات بالتَّصرُّف الذَّاتيِّ.

فردّ عليهم بصدق النُّبوَّة وحدود صلاحياتها فقال لهم: ولا أقول لكم عندي خزائن الله.

وهذه الجملة معطوفة على الجمل السابقة التي لخَّصَت رُدودَه على قومه المبدوءة بقوله: يا قوم. وكذلك حاولوا استدراجه لِيدَّعِيَ أنه يعلم الغيب كله، ليستغلوا ذلك في أمور تجارتهم أو زراعاتهم أو غير ذلك من أمور دنياهم، فردّ عليهم بقوله:

- ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾:

ولا أعلم كل الغيب، إنما أعلم منه ما يُعلِّمني الله عزَّ وجلَّ، فهو في هذا

(١) نوفل، تفسير سورة هود، ص ١٢٦.
(٢) المرجع السابق، ص ١٢٧.

يقطع تشهِّياتهم حتى لا يسألوه عما لا يعلمه من مسائل الغيب، مثل: متى تقوم الساعة؟

أو عن مسائل من أمور دنياهم المتعلِّقة بالأرزاق أو الأولاد أو غير ذلك، رغبة في أن يستكثروا من الخير ولا يمسُّهم السُّوء مما يكرهون من أمور الدُّنيا، وإذا كانَ من اعتراضاتهم عليه اعتراضهم على بشريته أبان أنه كانَ بإمكانه أن يقول لهم: إنه مَلَكٌ على صورة بشر، ويُلبِّسَ الأمر عليهم، لكن صدق النُّبوَّة والرسالة يمنعه من ذلك، لأنه ليس من شأن النبي أن يكذب في صغيرة أو كبيرة.

ـ ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾:

أي: ولو قلت لكم إنني ملك، لأمكنني أن ألبس عليكم الأمر، وأخادعكم بذلك، لكني رسول من عند الله، وليس من شأن الرَّسول أن يكذب ولو لتأييد دين الله، فأنا لا أقول لكم: إنِّي ملك، بل بشر مثلكم ولكن يوحى إلي، وعرفنا أنهم طالبوه بأن يطرد مَن سمَّوهم أراذلهم، ويظهر أنهم حاولوا استدراجه لأن يقول عنهم: هؤلاء طبقة منبوذة خارجة عن دائرة البشرية الراقية المكلّفة، وإنما خُلقوا ليكونوا خداماً وعبيداً للبشر، وهم على صورة البشر، وأنهم لا يستطيعون أن يكونوا أفضل من ذلك عند الله[١].

هذه النظرة الطبقية المقيتة قد تكرَّرت في المجتمعات البشرية، وتظهر بَينَ حين وآخر في كل النَّاس، لذلك رَدَّ نوحٌ عليه السَّلامُ على قومه بقوله:

ـ ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾:

أي: لا أقول للذين تحتقرونهم وتعيبونهم وتنتقصهم أعينكم ومقاييسكم، وتستخفُّ بهم موازينكم الفاسدة لن أقول إن الله لن يعطيهم خيراً كما تزعمون.

---

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٩٩.

ـ ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ :

أي: كيف أقول لهم ذلك القول، وأتجنّى عليهم، والصدق في الإيمان والطاعة والعمل هو من أعمال القلوب والنفوس، وما في القلوب والنفوس موكولٌ علمه إلى الله ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ : وهو الذي يحاسبهم ويُجازيهم على ما في أنفسهم من خير أو غير ذلك.

كيف أحكم بأن الله لن يؤتيهم خيراً، وهذا أمر من خصائص الله عزَّ وجلَّ، الذي يعلم ما في النفوس من خير أو شر، ويُجازي على مقادير ما فيها من ذلك إن خيراً فخير، وإن شراً فشر[(١)]. وليس لي إلا ظاهرهم، وظاهرهم يدعو إلى التكريم، وإلى الرجاء في أن يؤتيهم الله خيراً[(٢)].

ـ ﴿ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ : **أيْ**:

* إذا طردت هؤلاء الذين وصفتموهم بأنهم أراذلكم استجابة لطلبكم.
* أو قلت: عندي خزائن الله.
* أو قلت: إنِّي أعلم الغيب.
* أو قلت: إنِّي ملك.
* أو قلت: للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً.

وفي تفصيل هذه الجملة ﴿ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، نجدها مُؤكَّدة بعدة مؤكدات، هي: إنَّ، والجملة الاسمية، واللام المزحلقة. أيْ: إنِّي إذن لواحد من الظالمين الذين يستحقون عقاب الله، إذا ادَّعيتُ أي دعوى من هذه الدّعاوى: الظالمين للحق وقد جئت أُبلِّغه. الظالمين لنفسي، فأُعرِّضها لغضب الله.

---

(١) الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص ١٠٠.
(٢) المرجع نفسه، ٤/ ١٨٧٥.

الظالمين للناس فأنزلهم غير ما أنزل الله لهم[١].

وهكذا ينفي نوح عليه السَّلامُ عن نفسه وعن رسالته كلَّ قيمة زائفة، وكلَّ هالة مصطنعة يَتطلَّبُها الملأ من قومه في الرَّسول والرسالة، ويتقدَّم إليهم بها مجرَّدة إلا من حقيقتها العظيمة التي لا تحتاج إلى مزيد من تلك الأعراض السطحية، ويردّهم في نصاعة الحق وقوته، مع سماحة القول وردّه إلى الحقيقة المجرَّدة ليواجهوها، ويتخذوا لأنفسهم خطَّةً على هداها، بلا مَلَقٍ ولا زَيفٍ ولا محاولة استرضاء على حساب الرسالة وحقيقتها البسيطة، فيُعطي أصحاب الدعوةِ الدعوةَ في أجيالها جميعاً، نموذجاً للدعاية ودرساً في مواجهة أصحاب السلطان بالحقِّ المجرَّد، دون استرضاء لتصوراتهم، ودون ممالأة لهم، مع المودة التي لا تنحني معها الرؤوس.

وعند هذا الحد، كانَ الملأ من قوم نوح قد يئسوا من مناهضة الحُجَّةِ بالحُجَّة، فإذا هم ـ على طبقاتهم ـ قد أخذتهم العِزَّةُ بالإثم، واستكبروا أن تغلبهم الحُجَّة، وأن يُذعنوا للبرهان العقلي والفطري، وإذا هم يتركون الجدل إلى التَّحدِّي[٢].

ولم يكن أمامهم بعد أن ألزمهم وأفحمهم بحججه وبياناته، وهم مصرّون على كفرهم، إلا أن يقولوا له إنك إنسان كثير الجدال، وأن يُشعروه بأنهم غير مستعدين للاقتناع بأدلته وحُججه مهما كانَ شأنها، وأن يتهرَّبوا من المناظرة الفكرية، فتحدَّوه أن يأتيَهم بما كانَ توعّدهم به من عقاب الله، إن كانَ من الصادقين[٣].

---

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/ ١٨٧٥.

(٢) المرجع السابق، ٤/ ١٨٧٥.

(٣) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٠١.

٣ ـ عجز قوم نوح عن الردود العقلية والمنطقية التي احتجَّ بها نوح عليه السَّلامُ:

كان الملأ من قوم نوح قد يئسوا من مناهضة الحُجَّة بالحُجَّة، ورفضوا أن يُذعنوا للبرهان العقلي، ولما أعياهم ذلك آثروا أن يتركوا الجدال إلى التَّحدِّي.

أ ـ قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢].

إنه العجز يلبس ثوب القدرة، والضعف يرتدي رداء القوة، والخوف من غلبة الحق يأخذ شكل الاستهانة والتَّحدِّي، ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وأنزلْ بنا العذاب الأليم الذي أنذرتنا به، فلسنا نُصدِّقك ولسنا نبالي وعيدك.

أما نوح فلا يُخرجه التكذيب والتَّحدِّي عن سمة النبي الكريم، ولا يُقعده عن بيان الحق لهم، وإرشادهم إلى الحقيقة التي غفلوا عنها وجهلوها في طلبهم منه أن يأتيهم بما أوعدهم، وردّهم إلى هذه الحقيقة، وهي أنه ليس سوى رسول، وليس عليه إلا البلاغ، أما العذاب فمن أمر الله، وهو الذي يُدبِّر الأمر كلّه، ويُقدِّر المصلحة في تعجيل العذاب أو تأجيله، وسنته هي التي تنفذ، وما يملك هو أن يردّها أو يحوِّلَها، إنه رسول وعليه أن يكشف عن الحق حتى اللحظة الأخيرة، فلا يُقعده عن إبلاغه وبيانه أن القوم يُكذِّبونه ويَتحدَّونه[١].

ب ـ ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٣]:

أي: لست أنا الذي آتيكم بما أنذرتكم به، إنما يأتيكم به الله، إن شاء هو، لا إن شئت أنا، ولا إن شئتم أنتم، وأنا ذو وظيفة من الله محدَّدة، أنا رسول مبلِّغ عن الله، وجواباً عما يجول في نفوسهم من تكذيب وتَحدٍّ مشعر بأنه عاجز عن أن

---

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/ ١٨٧٥.

يُحقِّقَ ما توعّدهم به، قال لهم عليه السَّلامُ: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾: أيْ: وما أنتم بقادرين على حماية أنفسكم من عذاب الله إن شاء أن يُنزله بكم، ولن تفرُّوا منه، أو تُعجزوا جنوده عن طلبكم وإدراككم بالعقاب، وحينئذٍ لن تنتفعوا بنصائحي لكم، وهذا ما أبانه نوح عليه السَّلامُ لهم بقوله:

ج ـ ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤].

أي إن إرادة الله غالبة، فإنه إذا أراد أن يُغويكم لِردِّكم الحق، فلو حرصتُ غاية مجهودي ونصحت لكم أتمّ النصح ـ وهو قد فعل عليه السَّلامُ ـ فليس ذلك بنافع لكم شيئاً[١].

﴿هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾: ﴿هُوَ رَبُّكُمۡ﴾ أيْ: هو الذي خلقكم ضمن نظام التربية، وهو الممتحن لكم في الحياة الدُّنيا، وهو الذي رزقكم، وهو الذي أحياكم، وهو يُميتكم، وهو الذي يُحاسبكم ويُجازيكم على أعمالكم إلى سائر صفات الربوبيَّة، فهو سيدكم ومالككم وإليه جميع أمركم، أما أنا فلست إلا رسولاً مبلِّغاً.

﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾: أيْ: وإلى ربكم ترجعون يوم الدين لمحاسبتكم ومجازاتكم على أعمالكم. هذه أهم المراجعات الجدليَّة بَينَ نوح وقومه في سورة هود عليه السَّلامُ[٢].

د ـ ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥].

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾: هذا الضمير محتمل أن يعود إلى نوح، كما كانَ السياق في قصته مع قومه، وأن المعنى: أن قومه يقولون، افترى على الله كذباً،

---

(١) السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ٢/٧٤٩.
(٢) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٠٣.

وكذب بالوحي الذي يزعم أنه من الله، وأن الله أمره أن يقول: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ «أي: كلٌّ عليه وزره» ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

ويحتمل أن يكون عائداً إلى النبي محمد ﷺ وتكون هذه الآية معترضة، في أثناء قصة نوح وقومه، لأنها من الأمور التي لا يعلمها إلا الأنبياء، فلما شرع الله في قَصِّها على رسوله، وكانت من جملة الآيات الدالة على صدقه ورسالته، ذكر تكذيب قومه له مع البيان التام فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أيْ: هذا القرآن اختلقه محمد من تلقاء نفسه، أيْ: فهذا من أعجب الأقوال وأبطلها، فإنهم يعلمون أنه لم يقرأ ولم يكتب، ولم يرحل عنهم لدراسة على أهل الكتاب، فجاء بهذا الكتاب الذي تَحدَّاهم أن يأتوا بسورة من مثله.

فإذا زعموا ـ مع هذا ـ أنه افتراه، عُلم أنهم معاندون، ولم يبق فائدة في حِجاجهم، بل اللائق في هذه الحال، الإعراض عنهم، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾ أيْ: ذنبي وكذبي، ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أيْ: فلم تستلجُون في تكذيبي[١].

وهذا في أصول البلاغة اسمه الالتفات، فبينما يطوف التعبير في تفاصيل قصة سيدنا نوح، إذ يلتفت السياقُ إلى النبي محمد ﷺ لتسليته والتخفيف عنه، حينما شعر بالضيق من جراء تكذيب قومه له[٢]، لكي يُخففَ عنه، ويُثبِّت عزيمته، ويُذكِّره بأن هؤلاء الذين يَتَّهِمونه بالكذب إنما هم مجرمون في حقِّه، وأنه بريء من هذه الجريمة[٣].

وعند هذا المقطع من قصة نوح، يلتفت السياق لفتة عجيبة، إلى استقبال مشركي قريش لمثل هذه القصة، التي تُشبه أن تكون قصَّتَهم مع الرَّسول ﷺ

(١) السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ٢/ ٧٤٩.
(٢) محمد راتب النابلسي، تفسير النابلسي (تدبر آيات الله في النفس والكون والحياة)، مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠١٦م، ٦/ ٥١.
(٣) المرجع السابق، ٦/ ٥١.

ودعواهم أن محمداً يفتري هذا القصص، فيرد هذا القول قبل أن يمضي في استكمال قصة نوح: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي﴾، ﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ﴾. وهذا الاعتراض لا يُخالف سياق القصة في القرآن، لأنها إنما جاءت لتأدية غرض من هذا السياق[١]. ويتبيَّن لنا من الآية السابقة أمورٌ من أهمها:

* الإنصاف بَينَ الداعي والمدعوِّين مدعاةٌ لتخفيف غُلَواء المدعوِّين في الصَّدِّ عن الدعوة.

* الرُّسُل الكرام رمز الحكمة في الدعوة والحُجَّة والإقناع.

* بساطة المنطق مع عمقه وصدقه مُؤثِّران في المدعوِّين، وسبب في كسب القضية.

* تنظيم تفكير المدعوِّين يساعدنا في تحديد موقفهم، بل كسبهم إن أحسَنَّا ذلك.

* مهمٌّ جدّاً إيقاظ عقول من ندعوهم ليفهموا عنا ويستجيبوا لنا.

* إهمال العقل وتعطُّله خسارة للدَّاعي والمَدعوِّ والدَّعوة[٢].

ثانياً: موقف الملأ من قوم نوح من دعوته في سورة الأعراف:

تحدَّثَت سورة الأعراف عن إرسال الله عزَّ وجلَّ نوحاً إلى قومه ودعوته لهم إلى عبادة الله وحده، واتِّهام الملأ من قومه له بأنه ضالٌّ، وردّه لذلك الاتِّهام، وتقديمه نفسه ودعوته لهم، وإزالة عجبهم من بعثِ رسول من البشر، وتكذيبهم له، ثم تدميرهم ونجاة الذين آمنوا معه[٣].

---

(١) السيد قطب، ٤/ ١٨٧٦.
(٢) أحمد نوفل، تفسير سورة هود، ص ١٤١.
(٣) الخالدي، القصص القرآني، ١/ ١٥٣.

وقد أوجز الله عزَّ وجلَّ في سورة الأعراف قصص دعوات المُرسَلين لأقوامهم، وبدأها بقصة دعوة نوح ـ عليه السَّلامُ ـ قومَه إلى دين الله، وتبليغه إياهم رسالات ربِّه، فقال تعالى فيها: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٩ ـ ٦٤].

١ ـ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾:

هذه سُنَّةُ الله في إرسال كل رسول من قومه، وبلسانهم، تأليفاً لقلوب الذين لم تفسد فطرتهم، وتيسيراً على البشر في التَّفاهُم والتَّعارُف، وإن كانَ الذين فسدت فطرتهم يعجبون من هذه السُّنة، ولا يستجيبون، ويستكبرون أن يؤمنوا لبشر مثلهم، ويطلبون أن تبلغهم الملائكة، وما كانوا ليستجيبوا إلى الهدى، مهما جاءهم من أي طريق، لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه، فخاطبهم بتلك الكلمة الواحدة التي جاء بها كلُّ رسول(١).

٢ ـ ﴿فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾:

إن العبادة طاعة طوعية، ممزوجة بمحبَّة قلبيَّة، أساسها معرفة يقينيَّة تُفضي إلى سعادة أبديَّة، والذي يستحقُّ العبادة هو الذي خلقَنا وصوَّرَنا وأبدعَنا، الرَّازق، المُحيي، المُميت، سبحانه وتعالى، فلا رافع ولا خافض ولا مُعِزَّ

---

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٣/١٣٠٨.

ولا مُذَل ولا مُعطي ولا مانعَ، ولا رازقَ ولا جبَّارَ، إلا الله، وما تعلم النَّاس أفضلَ من التوحيد[١].

فهي الكلمة التي لا تتبدَّلُ، وهي قاعدة هذه العقيدة التي لا تُوجد إلا بها، وهي عماد الحياة الإنسانية التي لا تقوم على غيره، وهي ضمان وحدة الوجهة، ووحدة الهدف، ووحدة الرِّباط، وهي الكفيل بتحرَّر البشر من العبودية للهوى، والعبودية لأمثالهم من العبيد، وبالاستعلاء على الشهوات كلِّها[٢].

والتوحيد هو أن تُوحِّد الله وتتوكَّلَ عليه، وتُرضيه بطاعته، وأن تتَّقِي سخط الله، فليس في الكون معبود بحق إلا الله، ولا رازقَ إلا الله، ولا مُعطيَ إلا الله، ولا مانعَ إلا الله... وحينما تعلم أن كل شيء بيد الله تتَّجِهُ إلى الله وحدَه، ولا تتَّجِهُ إلى أحد سواه[٣].

ولقد دعا نوح عليه السَّلامُ قومه إلى توحيد الله عزَّ وجلَّ، وإفراده بالعبادة، وأنذرَهُم عاقبةَ التكذيب بها في إشفاق الأخ الناصح لإخوانه، وفي صدق الرائد الناصح لأهله[٤].

٣ ـ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾:

نرى هنا أن ديانة نوح عليه السَّلامُ، أقدم الديانات، كانت فيها عقيدة الآخرة، عقيدة الحساب والجزاء يوم القيامة، ودلَّت هذه العبارة على أن نوحاً عليه السَّلامُ قد أخبرهم بنبأ البَعث إلى يوم الدين، وبما في ذلك اليوم من حساب وقضاء وحكم وجزاء وعذاب في دار العذاب المُعَدَّة للكافرين المُكذِّبين الظالمين، ونعيم للمؤمنين المُتَّقين في جنات النعيم، وذلك لأنه لا يخاف عليهم

---

(١) النابلسي، تفسير النابلسي، ٤/ ٥٥٤.
(٢) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٣/ ١٣٠٨.
(٣) النابلسي، تفسير النابلسي، ٤/ ٥٥٥.
(٤) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٣/ ١٣٠٨.

عذاب يوم إلا إذا كانَ قد أنبأهم به، وبأنهم مَدينون، ومُحاسَبون ومُجازَون على أعمالهم، ويلزم عقلاً أن يكون مع الجزاء بالعقاب جزاءٌ بالثواب، فدلَّت اللَّوازمُ الفكرية على أنه أخبرهم بدار العذاب، وبدار النعيم، وقد أشعرهم نوح عليه السَّلامُ برحمته لهم وشفقته عليهم إذ قال لهم: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، فمن أجل ذلك يدعوهم إلى الإيمان بالله وحده، وعبادته وحده لا شريك له[١].

٤ ـ ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾:

كما قال مشركو العرب لمحمد ﷺ إنه صبأ ورجع عن دين إبراهيم، وهكذا يبلغ الضَّلال بالإنسان أن يحسب من يدعوه إلى الهدى هو الضال، بل هكذا يبلغ التبجُّح الوَقِح بعدما يبلغ المسخ في الفطرة، وهكذا تنقلب الموازين، وتبطل الضوابط، ويحكم الهوى، ما دام أن الميزان ليس ميزان الله الذي لا ينحرف ولا يميل.

وماذا يقول المنحرفون عن هدايات السَّماء، وعن المهتدين بهدى الله؟ إنهم يُسَمُّونَهم الضَّالِّين. ماذا يقول المنحرفون عن الفتاة التي لا تكشف لحمها؟ وعن الفتى الذي يستقذر اللحم الرخيص؟ إنهم يسمون ترفُّعَها هذا، ونظافتها، وتطهرها، رجعية وتخلُّفاً وجموداً، وكذلك الفتى العفيف[٢]، وغير ذلك من الأمور المنحرفة عن منهج الله الرباني.

* ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾: أيْ: لنعتقد اعتقاداً جازماً مستنداً إلى رؤية فكرية قلبية أنك في ضلال عن الحقِّ وضياع، وضياعُك هذا مُبينٌ واضح، لا يحتاج إلى إقامة دليل. لقد ردّوا عليه بادِّعاء أنه في ضلال مُبين، دون تقديم أية حُجَّة، وأكَّدوا ادِّعاءهم هذا بمؤكِّدات دلَّ عليها حرف «إن» في الجملة، ودل

(١) الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص ٤٥.
(٢) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٣/ ١٣٠٩.

عليها أيضاً مضمون الرؤية الجماعية ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ﴾ .

* ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾ : أيْ : في داخل ضلال أنت مُحاطٌ به .

* ﴿مُّبِينٍ﴾ : أيْ : واضح جَلِيٌّ لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه، ولا يحتاج إلى كشف الأستار عنه، وظاهر أن هذا الادِّعاء منهم ليس فيه إلا الشتيمة، ومعلوم أن كلَّ ادِّعاء فيه تجريح واتِّهام بنقيصة دون حُجَّة أو برهان، هو من السباب والشتائم، لقد قابلوا دعوته الرفيقة لهم وقابلوا رحمته بهم، وشفقته عليهم بالطعن والشتيمة[١] .

٥ ـ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾ :

أي : لقد شتمتموني، بأني كالغريق في الضَّلالة، وأقول لكم في الدفاع عن نفسي : ليس بي أية ضلالة قليلة أو كثيرة، صغيرة أو كبيرة، فأنا خال من أية ضلالة .

جواب مشبع بالتهذيب الذي يتحلَّى به الدعاة إلى الله المُحاطون بعناية الله، الملتزمون بمقتضيات الحكمة في الدعوة[٢] .

وقد جاء النفي القاطع في القرآن الكريم في قوله : ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾ ؛ لأن منهج الله لم يأتِ به نوح من عنده، وإنما جاء به من عند الله عزَّ وجلَّ، وما دام نوح هو الرَّسول المبلِّغ والله هو صاحب المنهج، وما دام المنهج من عند الله، فلا يُمكن أن تكون فيه ضلالةٌ واحدة، ولا شُبهةُ ضلالة[٣] .

لقد دفع نوح عليه السَّلامُ الاتِّهامَ بالنفي فقط ولم يَرُدَّ على الشتيمة بمثلها، وخاطبهم بقوله : ﴿يَٰقَوْمِ﴾ فنسبهم إلى نفسه، وأضافهم إلى ذاته، وبعد أن نفى عن نفسه ما اتَّهموه به، أبان لهم أنه لم يدعُهم إلى ما دعاهم إليه من تلقاء نفسه،

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٤٦ .
(٢) المرجع السابق، ص ٤٦ .
(٣) المرجع نفسه، ص ٤٦ .

ولكنه مبعوث مُرسَل من رب العالمين، مُكلَّف بتبليغ رسالاته، ومأمور بأن ينصح لقومه(١). فقال لهم:

٦ ـ ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦١ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾:

فهو مبعوث مُرسَلٌ من رب العالمين، وهو مسؤول عن القيام بوظائف تتعلَّق بمهمته:

*** الوظيفة الأولى: أنه يُبلِّغُهم تباعاً رسالات ربّه.**

قال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾، ويُفهم من صيغة الجمع في ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾ أن تنزيل البيانات الرَّبانيَّة عليه قد كانَ على وفق سنة الله في التدرُّج في تنزيل بياناته، فما كانَ ينزل به الوحي على نوح عليه السَّلامُ ليبلغه لقومه، قد كانَ بيانات منجمة في أزمان مُتعدِّدة، كل بيان منها بمثابة رسالة، وبعد أن تجتمع الرسالات كلها، ويُكمل الله الدين لعباده، تكون جميعها مُنضمّة في رسالة واحدة، فالتَّعدُّد باعتبار تنجيم التنزيل في أزمان، والإفراد هو باعتبار جمع النجوم المنزَّلة في رسالات مفرَّقة وضمّها متكاملة في كتاب واحد هو الرسالة التي بعث الله بها رسوله(٢). فتبليغ رسالات الله هي الوظيفة الأولى لنوح عليه السَّلامُ، وهي الوظيفة الأولى لكل المُرسَلين عليهم السلام.

*** الوظيفة الثانية: هي النصح للقوم.**

يشمل هذا استخدام كل الوسائل الإقناعية والتربوية على اختلاف صورها، وأشكالها، والنصح مظهر من مظاهر الإخلاص لله في الدعوة، ومظهر من مظاهر الرَّحمة والشفقة وحرص الناصح على خير المنصوح دون ملاحظة ثواب منه، فقال نوح لقومه: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾، والمُرسَلون كلُّهم نَاصَحون لأقوامهم،

---

(١) الشعراوي، قصص الأنبياء، ١/ ٢٠.
(٢) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٤٩.

وكذلك يجب أن يكون الدعاة إلى الله . والمؤمنون بعضهم لبعض نَصَحةٌ وادُّونَ، والدِّينُ الحقُّ الصادق هو النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامّتهم .

وبعد أن أبان نوح عليه السَّلامُ لقومه هاتين الوظيفتين من وظائفه التي حمّله الله مسؤولياتها، ذكر لهم أن ما يبلغهم إياه وما ينصحهم به مستند إلى علم، والعلم مُباين للضلال الذي يُولِّده ويدفع إليه الجهلُ، فقال لهم: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

إنه عليه السَّلامُ يَردُّ على قومه اتِّهامهم له بأنه في ضلال مبين، بإثبات أنه يعلم حقائقَ من الله لا يعلمونها، وفي هذا غاية الرَّدِّ المُهذَّب مع توجيههم للانتفاع بما يعلمهم من علم لا شكَّ فيه ولا شائبة تشوبه، لأنه وحيٌ من الله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾، أيْ: لا من نفسي ونظراتي الخاصَّة وتأمُّلاتي، بل من الله، أيْ: بوحي من الله. ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: أيْ: ممّا هو من أمور الغيب التي لا تُعلم إلا عن طريق الوحي، أو ممّا لم تُوجِّهوا هِمَّتكم للتفكير فيه حتى تعلموه .

*** الوظيفة الثالثة: المجادلة الإقناعية بالتي هي أحسن:**

دلّ على هذه الوظيفة حكاية النصّ عن مجادلته لهم، لإقامة الحُجَّة عليهم، فقال تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣]، أيْ: أكرهتم ترك ما أنتم عليه، واتِّباع ما جئتكم به، وعجبتم أن جاءكم ذِكرٌ من ربِّكم على رجل منكم، أما المُتعجَّب منه فقضيَّتان:

- **القضية الأولى**: أن يأتيهم ذِكرٌ من ربِّهم .

- **القضية الثانية**: أن ينزل هذا الذِّكر على بشر منهم، ويكون هذا الرجل رسولاً لله، يُبلِّغ قومه الذِّكر الذي أنزله الله عليه ليبلِّغَه لقومه .

ولم يطرح نوحٌ عليه السَّلامُ قضية نبوَّته ورسالته، قبل طرح قضية الذِّكر الذي جاءهم به من ربِّهم، بل بدأ يطرح قضية هذا الذكر، ليكون ساحة فكريّة معروضة للمناظرة والمجادلة حول عناصرها .

ولما كانَ الذِّكر الذي يبعث الله به رُسُلَه مُشتمِلاً على قضايا تحتاج إلى إثبات حتى تُقامَ عليها الأدلة البرهانية، والأدلة الإقناعية، فتتحوَّل إلى حقائق يقينية، كانَ البدء بطرحه هو الأسلوب الأجدى للإقناع أو للإلزام والإفحام، فالربوبيَّة وتوحيدها، والإلهية وتوحيدها، وصفات الله التي منها علمه وحكمته وقضاؤه وقدره، وقدرته على كل شيء، وخلقه لكل شيء، وعنايته بعباده، وعدله، كلها أمور معها أدلتها العقلية البرهانية، وتشهد لها ظواهر الكون، ومجريات الأحداث(١).

ومتى ظهر لهم أن ما يدعوهم إليه حقٌّ لا ريبَ فيه، ولا شائبة تشوبه، كانَ أمر إثبات نُبوَّتِه ورسالته، وإثبات أنه يُبلِّغ هذا الذكر عن ربِّه، وإثبات أن الله يُوحي به إليه، أمراً مُمهَّداً سهلاً، ونستفيد من هذا أن البدء بالإقناع حول مضمون الرسالة بالنسبة إلى قوم ليس لهم عهد قريب بالأنبياء والمُرسَلين، هو الأمر الحكيم، وهو ما اتّخذه نوح عليه السَّلامُ في مجادلته قومه.

وقد جاءت تسمية مضمون الرسالة ذكراً لأمرين:

ـ **الأمر الأول**: أن بعض عناصر رسالات المُرسَلين هي من الحقائق المغروزة في عقول النَّاس ونفوسهم وضمائرهم فهي لا تحتاج أكثر من كشف لها وتذكير بها.

ـ **الأمر الثاني**: أنَّ كلَّ عناصر رسالات المُرسَلين حقائقُ وتعاليمُ ربانيَّةٌ، ينبغي تعلُّمُها وتفهُّمُها أولاً، ثم تعهُّدها بالتذكير حيناً بعد حين، على مدى الأيام والسنين، وعند كل عمل يقتضي شيئاً منها، وعند كل عارضة لتكون عناصرها الإيمانية حاضرة في الذاكرة، فتدفع المؤمنين بها إلى طاعة الله والتزام شريعته، ولتكون أحكامُها ووصاياها برامجَ مذكورة، ونوراً مبيناً، ويهتدي به السالكون في ظلمات الأهواء والشهوات، ووساوس الشَّياطين، وتسويلاتهم، وتضليلات

---

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٥٢.

المُضلِّين، ويسترشد بها مقتحمو عقبات النفوس والأهواء، ومصاعب الحياة، وما فيها من صنوف ابتلاء بالشر والخير، والنفع والضرّ، وكل ما فيه فتنة لاختيار الصبر واختيار الشكر.

وطوَّل البيانُ في هذا النص عناصر المجادلة الإقناعية والإلزامية والإفحامية حول القضيتين المتعجَّب منهما ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ﴾ ، وهما:

* ﴿ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ : أيْ: مُوحًى به من ربكم.

* ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ : أيْ: مُنزَل على رجل منكم.

فالعنصر الأول: ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ : أيْ: ليُنذرَكُم بعقابِ الله المُعجَّل والمُؤجَّل، إذا لم تؤمنوا، ولا يكون الإنذار إلا بعد البيان التعليميِّ واتِّخاذ الوسائل الإقناعية، ولا يكون أيضاً إلا مصحوباً بالبشرى لمن آمن وأطاع، وهذه الغايةُ لُوحِظَ فيها المُذكِّرُ.

والعنصر الثاني: ﴿وَلِتَتَّقُوا۟﴾ : أيْ: ولِتدرِكوا خطر عقاب الله، فتجدوا في أنفسكم دافعاً لأن تتَّقُوهُ بالإيمان والعمل الصَّالِح الرشيد، الناشئَينِ عن اختياركم الحُرِّ[١].

والعنصر الثالث: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ : أيْ: ولِترجُوا رحمة الله بأن يُدخِلَكم جنَّاتِ النعيم، إذا اتّقيتم فآمنتم وأطعتم، وهذه الغاية لُوحِظَ فيها المتلقون بعد التأثُّر بمضمون الذكر[٢].

لقد كشف لهم نوح عليه السَّلامُ هدف الرسالة: **(لينذركم، ولتتَّقوا، ولعلكم ترحمون)**، فهو الإنذار لتحريك القلوب بمشاعر التَّقوَى، ليظفروا في النهاية

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٥٣.
(٢) المرجع نفسه، ص ٥٣.

برحمة الله، ولا شيء وراء ذلك لنوح، ولا مصلحة ولا هدف إلا هذا الهدف السامي النبيل(١).

وفي هذا تلخيص عامٌ لمُهِمَّات الذِّكْر المُنزل على نوح عليه السَّلامُ، ولوظيفة نوح في قومه:

* الإنذار والبشارة في الذِّكْر المُنزل، وفي بيانات الرَّسول المُبلِّغ عن ربِّه.

* وجاء التأثُّر باتّقاء العقاب، وطلب الثواب من قبل القوم، ببيانات الذِّكْر ووسائل تربية الرَّسول.

* رجاء الظفر برحمة الله في جنات النعيم، وبالعيش السعيد في الحياة الدُّنيا، مِن قِبَل مَن استجاب لله ورسوله(٢).

ولكن الفطرة حين تبلغ حدّاً معيَّناً من الفساد، لا تتفكَّر ولا تتدبَّر ولا تتذكَّر، ولا ينفع معها الإنذار ولا التذكير(٣).

٧ ـ ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾:

* ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾: وفي هذا إيجاز لكل ما كانَ منهم، إن قوماً قد كذَّبوا رسولَهم، وهم ذوو قُوَّة ومَنَعةٍ، واستمرُّوا على تكذيبهم أحقاباً، لا بد أن يكون منهم أمور كثيرة، من إيذاء الرَّسول ومن آمن به، ومقاومةٍ لدعوته، وإصرارٍ على الظُّلم والطُّغيان، والفسق والفجور والعدوان.

* وكانت العاقبة: ﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ ﴾.

---

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٣/ ١٣٠٩.
(٢) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٥٤.
(٣) السيد قطب، في ظلال القرآن ٣/ ١٣٠٩.

وفي هذا إيجاز للحدث الأخير في قصة نوح مع قومه تضمّن إلماحاً للطوفان العام، الذي أغرق الله به المُكذِّبين، وإلماحاً للأحداث التي نتج عنها ركوب نوح ومن معه وما معه في الفلك، وجريُها بعناية الله وحفظه حتى مستقرّ النجاة.

* ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾: وأخيراً: تلخِّص الآياتُ الصفةَ الدائمة التي سبَّبت لقوم نوح التكذيب والعناد والإصرار على الكفر، والظُّلم والطُّغيان، حتى الإهلاك الشامل بالطُّوفان، فقال عزَّ وجلَّ في آخر الآية: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾، «عَمِين»: جمعُ «عَمٍ» بمعنى: أعمى، أيْ: هم عَمُون عن رؤية الحق، والاهتداء بآياته ودلائله، وعن رؤية أنوارها البيانية والفِكريَّة والوجدانية، والعمى أنواع، فمنها ما هو في البصر الظاهر، ومنها ما هو في القلوب والبصائر[(١)]. ولقد رأينا مِن عماهم عن الهدى والنُّصح المخلص والنذير، فبعماهم هذا كذَّبوا، وبعماهم لاقَوا هذا المصير[(٢)].

ثالثاً: موقف الملأ في «سورة المُؤمِنون»:

جاء في سورة (المُؤمِنون) عرضُ لقطاتٍ من حديث الملأ من قوم نوح عليه السَّلامُ لصدِّ النَّاس عن دعوة التوحيد وتقوى الله وإفراده بالعبادة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المُؤمنون: ٢٣ ـ ٢٦].

١ ـ ﴿يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾:

كلمة الحقِّ التي لا تتبدَّل يقوم عليها الوجود، ويشهد بها كل ما في الوجود ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؟ وتخافون عاقبة الإنكار للحقيقة الأولى التي تقوم عليها الحقائق

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٥٥.
(٢) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٣/ ١٣١٠.

جميعاً؟ وتستشعرون ما في إنكارها من تجنٍّ على الحقِّ الباهر، وما يعقب التَّجنِّي من استحقاقٍ للعذاب الأليم؟

ولكن كبراء قومه من الكفار لا يناقشون هذه الكلمة، ولا يتدبَّرون شواهدَها، ولا يستطيعون التَّخلُّص من النظرة الضيِّقة المتعلِّقة بأشخاصهم، وبشخص الرجل الذي يدعوهم، ولا يرتفعون إلى الأفق الطليق الذي ينظرون منه إلى تلك الحقيقة الضخمة مجرَّدة من الأشخاص والذوات، فإذا هم يتركون الحقيقة الكبرى، التي يقوم عليها الوجود، ويشهد بها كلُّ ما في الوجود، ليتحدثوا عن شخص نوح(١).

٢ ـ ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾:

أي: إذا لم تُؤمنوا بالله، وتعبدوه وحده لا شريك له، نزل بكم عقابُه وعذابه، فالرُّشد والعقل يقتضيان منكم أن تتَّقوا ذلك، ومن أجل هذا، فإنني أعرض عليكم عرض حثٍّ وحضٍّ أن تتَّقوا عقاب الله وعذابه، الذي أنذرتُكم به في عاجل حياتكم وآجلها.

لقد دلَّ على كل هذا اللزوم الذهني عبارة: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، والاستفهام في هذه العبارة يحمل معاني التَّعجُّب، والاستغراب والاستنكار من كونهم لا يتقون، وهي تتضمَّن معنى الحثِّ والحضِّ على أن يتَّقوا. والفاء: عاطفة على ما سبق في مَقُول قَولِ نوحٍ عليه السَّلامُ المُصرَّح به أو المطويِّ الذي يُفهَم باللُّزوم الذِّهنيِّ، وقُدِّم حرف الاستفهام عليها لأن الاستفهام في العربية له الصَّدارة(٢).

ونلاحظ في بداية حديث سورة المُؤمِنون عن نوح ـ عليه السَّلامُ ـ أنَّها لَخَّصَت كليات عناصر الدين، وهي:

* الإيمان بتوحيد الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/ ٢٤٦٤.

(٢) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٢٥٢.

* طاعة الله وعبادته وحده في فعل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، والتقرُّب إليه بمراضيه ومحابّه.

* الحذر من عقابه العاجل والآجل، واتِّخاذُ ما يقي منه، وهو يستلزم الطمع بثوابه واتِّخاذ ما يظفر به بالنسبة إلى من آمن وأسلم(١).

٣ ـ ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾:

يعنى بـ «الملأ»: سادةَ القوم وكبراءَهم وأعيانهم ووجهاءَهم الذين يملؤون العيون. وقد جاء بيان قولهم معطوفاً عطف تعقيب على قول نوح الذي تضمَّن بيان دعوته وتبليغ رسالته التي أرسله الله بها إلى قومه.

ونلاحظ أن هذا النص في سورة «المُؤمنون» قد جاء فيه وصفُ ملأ قومِ نوحٍ بأنهم كفروا، وجاء فيه بيان ما قاموا به من إقناع لجماهيرهم بأن نوحاً ليس رسولاً من عند الله.

وأما ما نزل في سورة الأعراف قبل النَّصَّين السَّابقَين فلم يَصِفْهم الله فيه بالكفر، إذ جاء فيه خطاباً لنوح: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠].

وكذلك نلاحظ النصَّ الذي جاء في سورة «هود» لكن جاء فيه بيان ما واجهوا به نوحاً عليه السَّلامُ إذ جاء فيه: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧].

وهذا يدلُّنا على أن مقالتهم هذه كانت في بداية الدعوة، وأنهم كانوا في طريق إقامة البراهين والحجج لهم، فهم والحالة هذه لا يُوصَفون بأنهم كفروا،

(١) الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص ٢٥٢.

إذ الذين يُوصَفون بالكفر هم من دمغتهم الحُجَّة ووَضَحَت لهم الأدلة، وصفهم الله بالكفر فقال في نصِّ «هود» و«المُؤمِنون»، ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ [هود: ٢٧]. ونلاحظ أيضاً التكامل في المقالات الثلاث من هذه النصوص:

ـ **فالأولى**: جاءت خطاباً لنوح: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾: أيْ: أنت تائه ضائع ضالٌّ، لكن هذا القول لا يتضمَّن اتِّهامه بالافتراء والكذب على الله بصورة جازمة، إذ فيه احتمال أن يكون ضلاله ناشئاً عن تهيُّؤات تهيَّأت له.

ـ **الثانية**: جاءت خطاباً لنوح أيضاً: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾.

ـ **الثالثة**: جاءت خطاباً لجماهير قومهم، بُغيةَ صدِّهم عن الإيمان بنوح واتِّباعه، ﴿مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ إلى آخر مقولاتهم لهم.

ونلاحظ أن هذه الفقرة الثالثة قد تضمَّنَت سِتَّ مقولات قالها ملأ قوم نوح لجماهيرهم لصدّهم عن الإيمان بنوح واتِّباعه[(١)].

* **المقولة الأولى**: ﴿مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾:

إن ملأ قوم نوح حاولوا إقناع جماهيرهم لصدِّهم عن الإيمان به واتِّباعه، بأن البشر لا يصلحون لأن يكونوا رسلاً يُرسِلُهم الله عزَّ وجلَّ، زاعمين ومُوهِمين بأن البشريَّةَ تمنع من الاتِّصال بربِّ العالمين لتلقي رسالة منه، وتمنع من الاتِّصال برسول ربِّ العالمين من الملائكة لتلقِّي رسالة الله عنه.

وأشاروا إلى نوح عليه السَّلامُ في مقولتهم باسم الإشارة «هذا» إشعاراً بأنه رجل لا يستحقُّ أن يُنظر إليه باحترام وإكبار، وقصدوا تحقيره أمام جماهيرهم ليصرفوهم عن احترامه كلِّياً، أو لِيُثيروا نفوس صغار العقول منهم لازدرائه والسُّخريَّة منه، باعتباره بشراً مثلهم، ويدّعي الاتصال بالله، وأنه رسول مبعوث

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٢٥٤.

من قِبَلِه، ومثل هذا الادِّعاء لا يَدَّعِيه إلا من بعقله اختلال، أو نوع من أنواع الجنون.

ومن سبر النُّصوص القرآنية ظهر لنا أن تعلُّل مُكذِّبي الرُّسُل في تكذيبهم بعلّة بشريتِّهم ظاهرة تكرَّرت في الأمم، وكان في مقدمة من أخبرنا الله عنهم قوم نوح، وكان آخرهم الذين كذَّبوا برسول الله محمد ﷺ من العرب، ثم تبعهم وخاض خوضهم[١].

* **المقولة الثانية**: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾:

يتفضَّل: التفضُّل تكلُّف الفَضل، والفَضلُ في اللغة الزِّيادة، وشاع في زيادة الشرف والرِّفعة والمكانة الاجتماعية، وفي كمال الخلق والسلوك. وقد زعم ملأ قوم نوح لجماهيرهم أن نوحاً يريد بادِّعاء أنه رسول الله أن يكون ذا فضل عليهم بصفة لا يملكون نظيرها، وهذه الصِّفة تجعله سيِّداً عليهم، وقائداً وآمراً ناهياً مطاعاً، يستمدُّ سلطانه عليهم من الله، ويفرض بذلك عليهم ما يريد، وهو غير صادق في رسالته، إذ هو كاذب في ادِّعائه[٢].

* **المقولة الثالثة**: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾:

أي: ولو شاء الله أن يُرسِلَ رسُلاً إلى النَّاس يبلِّغون عنه دينَه لأنزل ملائكة، ولم يُرسلْ رسُلاً بشراً، زاعمين ومُوهِمين أن هذا هو ما تقضي به الحكمة الرَّبانيَّة أو هو هذا الأمر المُمكن الذي تقبله العقول، أما أن يُرسِل الله رسولاً بشراً فهذا غير معقول ولا مقبول، ومُدَّعي الرسالة من البشر هو في ضلال مُبين، تتهيَّأ له أمور يزعم بها أنه رسول، أو هو كذّاب يفتري على الله[٣].

لقد قام في توهُّمهم الزائغ عن الحق أن البشر لا يصلحون لتلقّي الوحي عن

---

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٢٥٥.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٥٥.
(٣) المرجع نفسه، ص ٢٥٥.

الله عزَّ وجلَّ ولدى تحليل هذا التَّوهُّم يتبيَّن لنا أن أصحابه ما قَدَرُوا الله حقَّ قَدرِه، إذ هو لا يقوم إلا على الشَّكِّ في قدرة الله عزَّ وجلَّ، على اتِّخاذ وسيلة أو خَلْقِ سَبَبٍ يجعل به المخلوقَ من البشر قادراً على تلقِّي الوحي عن ربِّه دون حجاب، أو من وراء حجاب، أو عن طريق إرسال رسول من الملائكة إليه يبلِّغه رسالةَ ربِّه.

وهم يتناقضون مع أنفسهم في قبول هذا التَّوهُّم، إذ قبلوا أن يتلقَّى الملائكة عن الله، مع أن الملائكة خَلقٌ من خَلقِ الله، فالله القادر على أن يخلق ملائكة لديهم الاستعداد للتلقِّي عنه، كيف لا يكون قادراً على أن يخلق مثل هذا الاستعداد في بعض خلقه من البشر الذين يصطفيهم بالنُّبوَّة، ثم يُكلِّفُهم أن يكونوا رسلاً إلى أقوامهم.

وهذا إذا كانَ الأمر مَبنيّاً على توهُّمٍ قائم في تصوُّراتهم، أما إن كانَ من قبيل التعلُّل الجدليِّ الكاذب، فهم جاحدون للنبوة مع علمهم بصحَّتها، وعلمهم بصدق الرَّسول، لأنهم مستكبرون، ويتَّبعون أهواءهم وشهواتهم، ويُؤثرون الحياة الدينا، ويذرون الآخرة، ويشكّون في العقاب العاجل، وقد يكون بعضهم هكذا، وبعضهم هكذا، ويخادعون الجماهير بمقولاتهم الباطلات[1].

* **المقولة الرابعة**: ﴿ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

* ﴿ فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾: أيْ: في أجدادنا الذين كانوا رُؤوس قبائلنا وأصولها.

* ﴿ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا﴾: أيْ: ما بلغَت أسماعَنا أخبارٌ وأنباء تُخبرنا بأنه سبق في تاريخ أجدادنا أن جاءهم رسلٌ من البشر يُبلِّغون عن الله ما جاء به نوح.

إنهم يحاولون بهذه المقولة إضافة دليل تاريخيٍّ يشهد لادّعائهم بأن البشر لا يصلحون لأن يكونوا رسلاً لله، وأن الله لم يشأ إرسال رسلٍ إلى النَّاس.

---

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٢٥٦.

وتحليل هذا الدليل كما يلي :

* لو شاء الله أن يُرسل رسلاً يُبلِّغون عنه ديناً لأرسل رسلاً إلى آبائنا منذ عهود آبائنا الأوَّلين مع عبادة الأوثان من الموروثات التي ورثناها عن آبائنا .

* لكنه لم يرسل في سابق تاريخ آبائنا رسلاً مُطلَقاً .

* بدليل أنه ما بلغت أسماعَنا أخبار بذلك .

* إذن فلم يشأ الله أن يرسل رسلاً أصلاً ، فادِّعاء نوح أنه رسول الله ادِّعاء كاذب .

وهذا الدليل ساقط ، لأنه قائم على ادّعائهم أنهم لم يسمعوا بإرسال رسل سابقين ، وادّعائهم أن الأوثان من معبودات أجدادهم الأوَّلين .

وأما عدم السماع بمثل هذه الأخبار ، فإنهم لو صدقوا لما كانَ دليلاً على عدم[1] إرسال رسل قبل نوح ، فكم من أخبار ضاعت في التاريخ ، لا سيما في القرون الأولى التي لم تكن الأخبار فيها تدوَّن في الكتب .

وقد أبان الله في القرآن أنه ما من أمة انحرفت عن دين الله إلا بعث الله فيها رسولاً مُنذِراً ، استكمالاً لحكمة الابتلاء في ظروف الحياة الدُّنيا ، ولا أقل من أن يكون فيها نبي أو مُبلِّغون يُبلِّغون رسالة رسول سابق أو تعاليم ربانية ، تلقَّتها البشريةُ عن آدم عليه السَّلامُ ، أبي البشر الذي تلقَّى الدينَ عن ربِّه ، وكان آباؤهم الأوَّلون على التوحيد الذي بيَّنه ودعا إليه آدمُ عليه السَّلامُ ، ثم دخلت الوثنيَّة بعد ذلك فاقتضى حالُهم إرسالَ رسول إليهم .

إنّ عدم سماع الأخبار لا يقتضي أن الشيء أو الأمر الذي لم يُسمع خبرُه هو غير موجود في الواقع والحقيقة ، إن احتجاجهم في هذه النقطة قائم على هذا الدليل الساقط الذي لا يقبل به عاقل ، لكن الملأ من قوم نوح حاولوا به إقناع

---

(١) الميداني ، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد ، ص ٢٥٦ .

جماهيرهم تضليلاً وإيهاماً وتمويهاً، ويغلب في الاتِّباع قبول أحكام ساداتهم وكبرائهم دون أن يعرضوها على مقاييس الفكر الصحيح، وموازين المنطق السليم(١).

* **المقولة الخامسة**: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾:

أي: ما هو إلا رجل به نوعُ جنونٍ، دلَّ على أنهم لم يقصدوا أن يقولوا: هو مجنون، بل ما فيه هو نوعٌ من أنواع الجنون، عبارة ﴿بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ بصيغة المصدر المُنكَّر.

لقد تنازل الملأ من قومه في هذه المرحلة التي يعبِّر عنها هذا النصُّ عن اتِّهامه بأنه مجنون، كما اتَّهموه في المراحل الأولى التي جاء بيانها في سورة القمر: ﴿۞كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ [القمر: ٩]؛ لأنه أثبت بصبره الطويل ومناظراته ومجادلاته لهم، أنه عاقل غير مجنون، وظهر هذا لجماهير قومه، فما كانَ باستطاعة كبرائهم وساداتهم أن يُصِرُّوا على اتِّهامه بأنه مجنون، لا سيما بعد أن اتَّهموه بأنه يريد أن يتفضَّل عليهم ليسودهم ويقودهم، وهذه الإرادة لا تكون من مجنون مطبق الجنون، لكنها قد تكون ممن لديه نوع من أنواع الجنون، كجنون العظمة، وحُبِّ السلطان، والاستعلاء على النَّاس، وكجنون العشق، وجنون حُبِّ المال الذي يختل به توازُن الإنسان، وتضطرب معه تصرُّفاته.

وجاءت مقولة ملأ قوم نوح لجماهيرهم تعليلاً لظاهرة إلحاحه على دعوته وصبره الطويل فيها، وقُوَّته في مجادلة قومه لإثبات حقائقها، وبيان فساد ما هم عليه من شرك وعبادة للأوثان، وظلم وطغيان، وإفساد في الأرض وأعمال سيئة.

فكأن جماهيرهم سألوا ساداتهم، فما سبب هذه الظاهرة في نوح إذا لم يكن

(١) الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص ٢٥٨.

رسولاً حقّاً، وكان كاذباً في ادِّعائه كما تقولون؟ فقالوا لهم: ما هو إلا رجل به نوع جنون، فهو طالب زعامة وسيادة، مفتون بحبِّها، اتَّخذ للوصول إليها وسيلة ادِّعاء أنه رسول الله، فهو يُصرُّ على ذلك، ولن يصل إلى ما يُحبُّ، فإصراره على موقفه إصرار مدفوع بدافع من نوع من أنوع الجنون.

والقصر في مقولتهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾، هو من قصر الموصوف على الصفة، وهو نوع من أنواع القصر الإضافي، أيْ: لا صفة له بالإضافة إلى إصراره على ادِّعاء أنه رسول الله إلا أنه رجل به جنة ما[١].

* **المقولة السادسة**: ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾:

فتربَّصُوا: تَريَّثوا وانتظروا، التَّربُّص: الانتظار، أي إلى أن يأخذكم الموت ويُريحَكم منه، ومن دعوته، ومن إلحاحه عليكم بالقول الجديد[٢].

وهذه المقولات السِّتُّ التي وجَّهها ملأُ قوم نوح لجماهيرهم بغية صدِّهم عن الإيمان بنوح واتِّباعه، تدبرناها على قدرنا.

ويُلاحظ أنه لم يأتِ في هذا النص بيان الردِّ عليها، وكشف زَيغها، والسبب في هذا أنها مقولات لم تكن موجَّهة لنوح عليه السَّلامُ، وإنما كانت موجهة لجماهير قومهم، لإقناعهم بأن نوحاً ليس مُرسَلاً من الله، وإنما هو دَعِيٌّ كاذب، طالب زعامة وسلطان في قومه، بخلاف مقالاتهم التي وجَّهوها لنوح عليه السَّلامُ، فقد جاء في النصوص بيان الردود الحاسمة عليها، كالنصوص التي جاءت في الأعراف، وهود، والشعراء، جاء فيها بيان بعض مقولاتهم الموجهة لنوح عليه السَّلامُ[٣].

---

(١) الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص ٢٥٩.
(٢) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/ ٢٤٦٥.
(٣) الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص ٢٦١.

٤ ـ ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ :

دعا نوح ـ عليه السَّلامُ ـ ربَّه وطلب منه النصر على أعدائه عندما لم يجد منفذاً إلى تلك القلوب الجامدة المُتحجِّرة، ولم يجد له موئلاً من السُّخريَّة والأذى، إلا أن يتوجَّه إلى ربِّه وحدَه، يشكو إليه ما لَقِيَه من تكذيب، ويطلب منه النصر بسبب هذا التكذيب، قال: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾، وعندما يتجمَّد الأحياء على هذا النحو، وتهمُّ الحياة بالحركة إلى الأمام، في طريق الكمال المرسوم، فتجدهم عقبة في الطريق، عندئذ إما أن تتحطَّم هذه المُتحجِّرات وإما أن تدعها الحياة في مكانها وتمضي، والأمر الأول هو الذي حدث لقوم نوح، ذلك أنهم كانوا في فجر البشرية وفي أوَّل الطريق، فشاءت إرادة الله أن تطيح بهم من الطريق[١]. وسيأتي تفصيل ذلك في محله بإذن الله تعالى.

وفي قوله تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ﴾ [القمر: ١٠]؛ ففي هذا الدعاء ما يدلُّ على أنه قد وصل إلى مرحلة غلبة ذوي السلطان من قومه له، ولا يُمكن أن تكون هذه الغلبة فِكريَّة معنويَّة، فقد انتصر نوح عليه السَّلامُ عليهم في مجال الفكر والحُجَّة والبُرهان، فلا بدَّ أن تكون غلبةً ماديَّةً جسديَّةً، إذ عُلِم ما يُدبِّرون ضدَّه من كيدٍ للتَّخلُّص منه وممَّن معه، وهو لا يملك قُوَّةً ماديَّةً تكافِئُ قُواهُم، ومع أن حاله مع قومه تستدعي أن يدعو بأن يُنصر عليهم نصر تخليص أو انتقام، فإنه فوَّضَ إلى ربِّه تحديد الوجه الذي ينتصر به ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ﴾، وأطلق وسلم أمره لله.

* وأما في سورة الأنبياء، فقد جاء فيها أن نوحاً نادى ربه أيْ: دعا دعاء مُلحّاً جعله يرفع صوته به إلى حدِّ النداء، وذلك من شِدَّة ما وصل إليه وأهله من كرب عظيم، أشرفوا معه على قيام قومهم بتنفيذ ما توعدوهم به، ويظهر أن شِدَّةَ البلاء

---

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/ ٢٤٦٥.

قد كانت موجهة له ولأهله فقط، دون سائر من آمن به[١].

قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٦-٧٧]، فاستجاب الله له بأمرين:

الأول: أنجاه وأهله من الكرب العظيم قبل الطُّوفان، بوسائل لم يكشف النصُّ عنها، وكان ذلك بتعويق تنفيذ ما دبَّروه حتى جاء الطُّوفان.

الثاني: نصرَهُ نصرَ انتقامٍ من قومه الذين كفروا فأغرقَهم أجمعين، ونصره نصر إنقاذ في الفُلك حتى استقرارها على الجوديِّ، وهبوطه على اليابسة، الترتيب المنطقي يدلُّنا على أن الدعاء الذي جاء بيانه في سورة (المُؤمنون) قد كانَ أولاً، وأن الدعاء الذي جاء بيانه في سورة (القمر) قد كانَ بعده بمدة طويلة، وأن النداء الذي جاء بيانه في سورة (الأنبياء) قد كانَ في المراحل الأخيرة عند اشتداد الكرب، فتكاملت النصوص الثلاثة في بيان الواقع، وجاء تنزيل كلِّ نصٍّ منها مناسباً لحالة القوم، الذين كانت نجوم التنزيل القرآني في أوقاتها لمعالجتهم[٢].

رابعاً: موقف الملأ من قوم نوح من دعوته في سورة الشعراء:

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ

---

(١) الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص ٢٧١.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٧٢.

ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٠٥ ـ ١٢٢].

١ ـ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

تلك هي النهاية ـ نهاية القصة ـ يبدأ بها لإبرازها منذ البداية، ثم يأخذ في التفصيل، وقوم نوح لم يُكذِّبوا إلا نوحاً، ولكنه يذكر أنهم كذَّبُوا المُرسَلين، فالرسالة في أصلها واحدة، وهي دعوة إلى توحيد الله، وإخلاص العبودية له، فمن كذَّبَ بها فقد كذب بالمُرسَلين أجمعين، فهذه دعوتهم أجمعين.

والقرآن يُؤكِّد هذا المعنى ويُقرِّره في مواضع كثيرة، بصيغ مُتعدِّدة، لأنه كلِّيَّة من كُلِّيات العقيدة الإسلامية، تحتضن بها الدعوات جميعاً وتُقسَم بها البشريةُ كلُّها إلى صَفَّين: صَفِّ المُؤمِنين وصَفِّ الكافرين، على مدار الرسالات ومدار القرون، وينظر المسلم فإذا الأمة المُؤمِنة لكل دين وكل عقيدة من عند الله هي أمته، منذ فجر التاريخ إلى مشرق الإسلام دين التوحيد الأخير، وإذا الصفُّ الآخرُ هم الكفار في كل مِلَّةٍ وفي كل دِينٍ، وإذا المُؤمِن يُؤمن بالرُّسُل جميعاً، ويحترم الرُّسُل جميعاً، لأنهم جميعهم حملة رسالة واحدة هي رسالة التوحيد(١)، وأيُّ أمة تكفرُ برسولها، فكأنما كفرت بجميع المُرسَلين.

٢ ـ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾:

* ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾: صرَّحَ القرآن الكريم في شرعة نوح أنه الأخ لقومه الكافرين، باعتبار أُخُوَّة الإنسانية، وقال المفسرون: أيْ: ابن أبيهم وهي أُخُوّة نسب لا أخُوّة دين، وقيل: هي أُخوّة المجانسة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤]. وقيل: هو من قول العرب: يا أخا بني

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٥/٢٦٠٧.

تميم، يريدون: أي واحد منهم، فالأخ يستعمل في معنى القريب من القبيلة، ومنه قول الحماسة(١):

لا يَسألونَ أخاهُم حين يَندُبُهم في النَّائباتِ على ما قال بُرهانا

والأُخوَّة لغةً وشرعاً على درجات وطبقات، وأولها الأُخوَّة الإنسانية التي وُصف بها الأنبياء مع قومهم وقبائلهم.

* قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ﴾ [الأعراف: ٦٥].
* وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ﴾ [الأعراف: ٧٣].
* وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ﴾ [الأعراف: ٨٥].
* وقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٤].
* وقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٤٢].
* وقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٦١].

وتكرَّر ذلك في القرآن الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة، وجاء في حديث الإسراء أن الأنبياء إخوة، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: «مرحباً بالنبي الصَّالِح والأخ الصَّالِح»(٢).

وأعلى درجات الأُخوَّة، أُخوَّة الإيمان، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال رسول الله ﷺ: «المُؤمِنُ أَخُو المُؤمِن»(٣).

---

(١) تفسير القرطبي، ١٦/ ٥٠. وانظر: محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، دون تاريخ، ١٩/ ١٥٨.

(٢) محمد مصطفى الزحيلي، شرعة الله للأنبياء، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م، ص ٩٤.

(٣) سُنَن أبي داود، ٢/ ٥٧٦. وفي: محمد مصطفى الزحيلي، شرعة الله للأنبياء، المرجع السابق، ص ٩٤.

وهي التي تستحقُّ كامل الحقوق وأعلى الدرجات، ولكن ذلك دفع بعض المُتعصِّبين والمُتشدِّدين إلى حصر الأُخوَّة في هذه الدرجة، وأنكر استعمالها في الدرجات الأخرى، مُخالفاً بذلك القرآن والسُّنَّة، واستعمال الأخ حسب النَّسب والدرجات والقبائل والأعراف والأديان، وهو ما يجري عادةً في جميع المناسبات وأحقاب التاريخ والمُجاملة في لقاء الآخرين مهما كانت صفاتهم وأحوالهم.

وثبت في السيرة عن رسول الله ﷺ أنه قال لأحدهم: «يا أخا العرب»، وهو من الكلمات اللَّطيفة والمُحبَّبة في الآداب والأخلاق والمعاملات، طوال الدهر[١].

* ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾؟ وتخافون عاقبة ما أنتم فيه؟ وتستشعر قلوبُكم خوفَ الله وخشيته؟ وهذا التَّوجيه إلى التَّقوى مُطَّرِدٌ في هذه السورة[٢].

والاستفهام ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ فيه معنى العرض مع الحضّ «ألا تتقون الله» في توحيده وإفراده في العبادة وطاعته والاستجابة لرسوله.

٣ ـ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾:

لا يخون ولا يخدع ولا يغشُّ، ولا يزيد شيئاً أو ينقص شيئاً مما كُلِّفَه من التبليغ[٣] إنِّي لكم رسول مبعوث من عند الله، وأمين على رسالات ربي، أُبلِّغها لكم كما أتلقَّاها بالوحي عنه، لا أزيد فيها ولا أنقص منها، ويترتَّب على كونه رسولاً لله، مُبلِّغاً عن ربِّه رسالاتِه، أنهم مأمورون من قبل الله بطاعته فقال لهم:

٤ ـ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾:

أيّ: فاتقوا عذاب الله، وأطيعوني فيما أدعوكم إليه، لأنكم إن لم تطيعوني

---

(١) الزحيلي، شرعة الله للأنبياء، ص ٩٤.
(٢) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٥/ ٢٦٠٧.
(٣) المرجع نفسه، ٥/ ٢٦٠٧.

فيما أدعوكم إليه وأنا رسول مبلغ عن الله، كنتم مُستحقِّين لعقابه وعذابه، فليست القضية قضيَّتي، وإنما هي قضيَّة الله ربِّي وربِّكم(١).

٥ ـ ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾:

لما كانَ يتبادر لأذهان الأقوام المَدعوِّين إلى مبدأ أو فكرة أو علم أو جماعة اتِّهامهم الدَّاعي بأنَّ له مصلحةً شخصية، يحصل عليها من جراء اتِّباعهم له، كانَ من الحكمة في الدعوة أن يُعلن الرَّسول تجرُّدَه من أيَّة مصلحة شخصية، يحصل عليها من قومه الذين يدعوهم إلى دين الله ربِّه وربِّهم، ومعلوم أن أدنى المصالح وأخفَّها مطالبتُهم بأجر على ما يُقدِّمه لهم من تعليم ونُصح وإرشاد، والظاهر أن التبرُّؤ من أدنى المصاح وأخفِّها يستلزم بداهة التبرُّؤ مما هو أصعب على نفوس القوم وأشدّ. فأبان لهم نوح عليه السَّلامُ، أنه ما يسألهم على ما يبذل لهم من أجر، مهما كانَ قليلاً وخفيفاً، دلَّ على ذلك قوله: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾(٢).

٦ ـ ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

ليس معنى ذلك أنه لا يطلب أجراً مطلقاً، إنها مثالية خياليَّة بالنسبة إلى البشر، وهو لا يدَّعيها، بل هو ضامن أجراً يظفر به عند رب العالمين، فقد تكفل الله عن المدعوِّين، بأجر الدعاة إلى دينه وعبادته، فقال نوح عليه السَّلامُ: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أيْ: ما أجري الذي أستحقُّه إلا على كفالة رب العالمين، فهو وحده الضامن، وهو وحده الذي تحمّله وتكفَّل به، وهو وحده الذي أثق بأنه سيمنحني إياه، وبما أن أجري على رب العالمين، ولا أسألكم منه شيئاً قليلاً أو كثيراً، فإني أُعيد عليكم مقالتي لكم، وأنا مُتَّصف بكامل التَّجرُّد من أية مصلحة أطلبها لنفسي منكم(٣).

(١) الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص ٦٤.
(٢) المرجع السابق، ص ٦٥.
(٣) المرجع نفسه، ص ٦٥.

٧ ـ ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ :

وهنا يُكرِّر عليهم طلب التَّقوَى والطاعة، بعد اطمئنانهم من ناحية الأجر والاستغلال: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾، ولكن القوم يَطْلُعون عليه باعتراض عجيب، وهو اعتراض مكرور في البشرية مع كل رسول[١].

٨ ـ ﴿ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴾ :

لقد استكبر قوم نوح عن اتِّباعه، وتعلّلوا بأنه قد اتَّبعه الأرذلون فيمن اتَّبعه، فهم لا يستجيبون لدعوةٍ يكثر في أتباعها الأرذلون، ولِما كانت كلمة الأرذلين قد تعني: المُتَّهمين بفعل القبائح والرذائل، وأهل الطبقة الدُّنيا والمهن الحقيرة[٢].

إنَّ الفقراء هم السابقون إلى الرُّسُل والرسالات، وإلى الإيمان والاستسلام، لا يصدُّهم عن الهدى كبرياء فارغة، ولا خوف على مصلحة أو وضع أو مكانة، ومن ثم فهم الملبُّون السابقون، فأمّا الملأ من الكبراء فتقعد بهم كبرياؤُهم، وتقعد بهم مصالحهم القائمة على الأوضاع المزيَّفة، المستمدَّة من الأوهام والأساطير التي تلبس ثوب الدين، ثم هم في النهاية يأنفون أن يُسوِّيهم التوحيد الخالص بالجماهير من النَّاس، حيث تسقط القيم الزائفة كلُّها، وترتفع قيمة واحدة، قيمة الإيمان والعمل الصَّالِح، قيمة واحدة ترفع قوماً وتخفض آخرين، بميزان واحد هو ميزان العقيدة والسلوك القويم، ثم يُجيبهم نوحٌ الجواب الذي يُقرِّر القِيَم الثابتة، ويُحدِّد اختصاص الرَّسول، ويدع أمر النَّاس وحسابَهم لله على ما يعملون[٣].

٩ ـ ﴿ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١١٢ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ۝١١٣ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١١٤ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ :

﴿ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ على أنهم قالوا له: أنؤمن بك ونَنقاد لك والحال

---

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٥/ ٢٦٠٧.
(٢) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٦٦.
(٣) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٥/ ٢٦٠٨.

أنه اتَّبعك الأرذلون، وأنت تعلم أنهم أرذلون، ليسوا أخفياء عليك، فأجابهم بقوله: ﴿وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أيْ: وما تأثير علمي بما كانوا يعملون في دعوة ربانية أمرني الله بأن أُبلِّغها لجميع قومي دون استثناء، أليسوا بشراً مطالبين بالإيمان والعمل الصَّالِح، مهما كانت طبقاتهم الاجتماعية في نظركم خسيسة، ألا يستحقون مثل غيرهم ثواب الله والجنة إذا آمنوا وعملوا صالحاً؟ ألا يستحقون مثل غيرهم عقاب الله والنار إذا كفروا وعملوا سيِّئاً؟ أليسوا بشراً قابلين للتوبة والإصلاح مهما كانت أعمالهم رذيلة سيئة قبل الإيمان واتِّباع الرَّسول؟

وإذا كنت أعلم بما كانوا يعملون من سيئات، فهل من وظيفتي أن أحاسبهم عليها؟ إنما أنا رسول مبلِّغ رسالة ربي، وأما حسابهم على أعمالهم فعلى ربِّي، وهو الذي سيُحاسبهم يوم الدين ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى﴾ أيْ: ما حسابهم إلا على ربي، فعلمي بما كانوا يعملون لا يجعلني أترك دعوتهم وهم بشر من عباد الله، مسؤولون كسائر البشر عن الإيمان والعمل الصَّالِح، وهم في الحياة الدُّنيا مُمتحَنون كغيرهم، وسيُحاسبون يوم الدين، وسيُجازَونَ على أعمالهم كغيرهم.

وبعد أن أبان نوح عليه السَّلامُ ذلك، أعلن لهم برفق تمنّيه أن يشعروا بهذه الحقائق، فقال لهم: ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾: أيْ: أتمنى لو تشعرون بهذه الحقائق، والشعور بالشيء هو أوّل مراحل إدراكه، لعله مأخوذ في اللغة من الشيء يُلامس الشيء فيحسّ به الإنسان إحساساً خفيفاً، ثم انتقل توسّعاً إلى الإدراكات الفِكريَّة الأولى الخفيَّة، ثم تأتي بعد الشعور إدراكات أقوى قد تُوصل إلى العلم فاليقين.

ومع هذا التَّمنِّي يُلمِّحُ عليه السَّلامُ أنهم ما زالوا في جهالة مطبقة، إذ لم يصلوا بعد إلى مرحلة الشعور بأولى الحقائق التي يدعوهم إلى الإيمان بها[١].

وطالبوه بأن يطرد هؤلاء الذين اتّبعوه مُؤمِنين به وبما جاء به، وهم الذين

---

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٦٨.

وصفوهم بأنهم الأرذلون، واعتبروا طردَه لهم شرطاً لقبول اتِّباعه، والإسلام له.

دلّ على ذلك ردّه عليهم[١] بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وما أنا بطارد أي فرد أو جماعة دخلوا في سلك جماعة المُؤمِنين، فالإيمان يجعلهم من الأمة الرَّبانيَّة، مهما كانَ وضعهم الاجتماعي قبل ذلك، ومهما كانَ سلوكهم من قبل، فالإسلام يَجبُّ ما قبله.

وأخيراً أبان نوح عليه السَّلامُ لقومه وظيفته التي أمره الله أن يقوم بها تُجاهَ المُكذِّبين الجاحدين فقال لهم: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، أيْ: ما أنا بالنسبة إلى غير المستجيبين لدعوتي، الرافضين لها بعد البيان إلا نذيرٌ مُبين.

فهو عليه السَّلامُ يُنذِرهم بعذاب الله إذا أصرُّوا على كفرهم وعنادهم وكِبْرهم، وهو عليه السَّلامُ واضح في رسالته كل الوضوح، يدعو كل طبقات المجتمع، وكل أفراده المؤهَّلين لإدراك الدعوة، أن يُؤمنوا ويُسلموا، وليس صاحبَ تنظيمٍ سِرِّيٍّ يُخفي فيه بعضَ مبادئه وغاياته، ويجمع على ما يُخفي فيه بعضَ النَّاس دون بعض.

إنه عليه السَّلامُ «مبين» واضح كلَّ الوضوح، من فعل «أبان» بمعنى: ظهر واتّضح، فهو «مُبين» أيْ: ظاهر واضح، وهو أيضاً مُبينٌ لكلِّ عناصر دعوته لا يُخفي منها شيئاً، من فعل «أبان» الشيء إذا أظهرَه ووضّحه.

وهكذا كلُّ المُرسَلين المبعوثين من ربِّ العالمين، وهكذا كلُّ رسالات الله للناس، إنها ذوات بيانات واضحات معروضات للجميع على السواء.

وجاء تخصيص وصف «نذير» بالذِّكْر هنا؛ لأن المخاطَبين من قومه لم يستجيبوا له، ولم يُؤمنوا به وبما جاء به، فهو لهم ـ وهم على هذا الوصف ـ «نذير»[٢].

---

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٦٨.
(٢) المرجع السابق، ص ٦٩.

فلما واجههم نوح عليه السَّلامُ بحجّتِهِ الواضحة ومَنطقه المستقيم، وعجزوا عن المُضِيِّ في الجدل بالحُجَّة والبُرهان، لجؤوا إلى ما يلجأ إليه الطُّغيان كلما أعوزته الحُجَّةُ، وخذَلَه البُرهانُ، لجؤوا إلى التهديد بالقوة المادية الغليظة التي يعتمد عليها الطغاة في كل زمان ومكان، عندما تُعوِزُهم الحُجَّة، ويُعجزهم البُرهان[١].

١٠ ـ ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾:

إنَّ قوم نوح عليه السَّلامُ، عجزوا عن الدفاع عن باطلهم أمام البراهين والحجج التي أقامها عليهم نوح عليه السَّلامُ، وأفلست عقولهم حتى عن التفكير في الحصول على شبهة يتمسكون بها للثبات على باطلهم، فاضمحلَّ باطلُهم أمام سطوع الحقِّ، وتضاءلت جهودهم أمام ثبات نوح، وفترت عزائمُهم أمام صبره، وخارت قواهم أمام قُوَّة الحق، فما كانَ منهم إلا أن طلبوا منه أن يكفَّ عن دعوتهم إلى دينه، وعن بيان ما هم عليه من الضَّلال من عبادة الأصنام التي هي دين آبائهم وأجدادهم، ومن طبيعة الحال ألا يوافقَهم على هذه المطالب، إذ كيف يصحُّ لنوح عليه السَّلامُ أن يكفَّ عن دعوتهم وقد أرسله الله إليهم، أيُرضيهم في سخط الله؟، وذلك أمر يستحيل وقوعه من نبي اختاره الله لحمل رسالته مهما اشتدَّ الخطبُ عليه، وعظمت التضحية، ولما لم يُجْدهم نفعاً كلُّ تلك التوسلات في الكفِّ عن تجهيلهم، وما هم عليه من الضَّلال لجؤوا إلى استعمال القوة والتهديد بالقتل ظنّاً منهم أن هذه الوسيلة تُريحهم من الإزعاج، وتُنجيهم من الهزائم المتكرِّرة، وفي ذلك قالوا فيما حكى القرآن عنهم: ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾، والرَّجم هو القتل بالحجارة، وهو من أشد أنواع القتل فتكاً، وذلك يدلُّ على المدى الذي بلغه حقدهم على نوح عليه السَّلامُ[٢].

---

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ١/٢٦٠٨.

(٢) عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السَّلامُ، ص ٥٦.

وهكذا الطغاة يلجؤون إلى القوة والتهديد والوعيد، عندما يجدون أنفسهم وقد حاصرهم أصحاب الحقِّ من كل جوانبهم بالحُجَّة الواضحة، وبالرأي السَّديد[(١)].

وهكذا أسفر الطُّغيان عن وجهه الكالح، وكشف الضَّلالُ عن وسيلته الغليظة، وعرف نوح عليه السَّلامُ أن القلوب القاسية لن تَلين.

هنا توجَّه نوحٌ إلى السميع العليم، إلى الوليِّ الناصر الذي لا ملجأ سواه للمُؤمنين: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٧ ـ ١١١٨]، وربُّه يعلم أن قومه كذَّبوه ولكنه البَثُّ والشكوى إلى الوليِّ الناصر، ورَدُّ الأمر إلى صاحب الأمر ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: فاقض واحكم بيني وبين قومي منتصراً لأوليائك على أعدائك، فقد وصل قومي إلى مرحلة لا مطمع بعدها في استجابتهم إلى دعوة الحق، ولم يبق إلا أن تفصل الحكم والقضاء المُعجَّل يا ربِّ بحكمتك بيني وبينهم[(٢)]، ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ يضع الحدَّ الأخيرَ للبغي والتكذيب، ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، واستجاب الله لنبيه الذي يتهدَّده الطُّغيان بالرَّجم؛ لأنه يدعو النَّاس إلى تقوى الله، وطاعة رسوله، لا يطلب على ذلك أجراً، ولا يبتغي جاهاً ولا مالاً[(٣)].

١١ ـ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾:

أي: فاستجبنا له دعاءه مباشرة، فحكمنا بإغراق الأرض بالماء، وبنجاة نوح ومَن آمن معه في الفلك المشحون، فأمرناه بصُنعها وقام بأعمال الصنع حتى

---

(١) محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، ١/ ٣١٧٢.
(٢) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٧١.
(٣) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٥/ ٢٦٠٨.

كملت، وجاء الموعد المقرَّر، وأمرنا نوحاً بركوب السَّفينة، وأن يحمل معه فيها من كل زوجين اثنين وأهله إلا من سبق عليه القول، ومن آمن، وركبوا، ورفعها الماء بارتفاعه، وجرت بهم، وأنجيناه ومن معه مما توعّده به قومه. «في الفلك المشحون»: أيْ: المملوء. فالشحن هو ملء السَّفينة وإتمام جهازها كله.

١٢ ـ ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴾:

أي: وبعد مدّة متراخية عن نجاة نوح والذين آمنوا معه، من وعيد قومه لهم، أغرقنا الباقين كلَّهم، فدلَّت هذه الآية بنصّها وبفحواها ولوازم دلالاتها على أن القوم أخذوا يتسارعون إلى الجبال وكل مرتفع من الأرض فراراً من تكاثر المياه المُنصبَّة من السَّماء والمُتفجِّرة من الأرض، فكان أكثرهم قُوَّة في الصعود إلى أعالي الجبال والاحتماء بها أكثرهم في تأخير ساعة الغرق عن نفسه، لكن الماء كانَ يُلاحقه صعوداً شيئاً فشيئاً، حتى أغرقت المياه رؤوس الجبال الشامخة، عندئذ تم إغراق جميع الباقين في الأرض من قوم نوح، وهم الذين لم يركبوا معه في الفلك، واستعمال كلمة ﴿ ٱلْبَاقِينَ ﴾ يدلُّ على أن الغرق عمَّ كل قوم نوح، باستثناء الذين حملتهم الفلك(١).

وهكذا في إجمال سريع، يُصوِّر النهاية الأخيرة للمعركة بَينَ الإيمان والطُّغيان في فجر البشرية، ويُقرِّر مصيرَ كلِّ معركة تالية في تاريخ البشرية الطويل، ثم يجيء التعقيب ببيان العظة من هذه القصة، ويربطها بما يلائمها من صفات الله عزَّ وجلَّ(٢).

١٣ ـ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾:

* ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ﴾: أيْ: إن في ذلك الذي جرى من عقاب رباني شامل

---

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٧٣.
(٢) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٥/ ٢٦٠٨.

لقوم نوح لآيةً يتَّعِظُ بها من تفكّر وتدبَّر، ولم يُطغِهِ هواه، ولم تُعْمِ بصيرته شهواتُه، ونزغاتُ الشَّياطين.

* ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾: أيْ: وما كانَ أكثر الذين شملهم الغرق مُؤمنين بأن الله سيُنزل بهم عقابه، وبأن إنذارات نوح عليه السَّلامُ نازلة بهم.

إنَّ عبارة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تدلُّ على أن بعضهم ـ وهم قلة ـ كانوا يخشون هذه العاقبة نوع خشية، إلا أن تَبعيَّتهم العمياء لقومهم جعلتهم يسيرون مع قومهم، رغم تخوُّفهم من تحقُّق ما أنذرهم به نوح عليه السَّلامُ.

ونستدلُّ من هذا أن من الظواهر الاجتماعية في المجتمع البشري موافقة بعض القوم للنسبة الغالبة منهم، متنازلين عن مفاهيمهم الخاصة بتأثير التَّبعيَّة الجماعية. ولما كانت القصة تشتمل على ظاهرتين متضادتين:

ـ **الظاهرة الأولى**: إغراق قوم نوح بطُوفان شامل، وهو أثر من آثار عِزَّة الله وقوّته الغالبة.

ـ **الظاهرة الثانية**: إنجاء نوح ومن معه في الفلك المشحون، محفوظين بالحفظ والرعاية والعناية البالغة، وذلك من آثار رحمة الله.

قال الله عزَّ وجلَّ في آخر بيان القصة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٢٢]، فذكر في هذا الختام اسمه ﴿الْعَزِيزُ﴾ أيْ: القويّ الغالب، واسمه ﴿الرَّحِيمُ﴾، فما أكمل الدِّقَّة البيانية في كلام الله عزَّ وجلَّ وما أبدعها؟[١].

خامساً: نوحٌ التَّحدِّي الأكبر:

كان نوح عليه السَّلامُ لما واجهه قومه بالأذى واتَّهموه بالجنون والضَّلال وسخروا منه، وأساؤوا الأدب معه وتوعّدوه بالرَّجم وغير ذلك، تحدّاهم أكبر التَّحدِّي، حتى قال بعض أهل العلم: إن مُعجزةَ نوح ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ

---

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٧٦.

تتمثَّل في ذلك التَّحدِّي الذي تحدَّى به قومه[(١)].

قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [يونس: ٧١ ـ ٧٣].

ويظهر من النصِّ القرآني توجيه الله عزَّ وجلَّ للرسول محمد ﷺ بأن يتلو على كفار مكة في أواسط العهد المكي هذه القصة؛ تعريضاً بأنهم قاربوا بأفاعيلهم ضدّ الرَّسول والذين آمنوا معه المرحلة التي يُلائمهم فيها أن يُوجَّه لهم مثلُ هذا التَّحدِّي الذي وجَّهه نوح ـ عليه السَّلامُ ـ لقومه، فإن لم يكفِهم هذا التعريض تحدَّاهُم الرَّسول محمد ﷺ بمثله صراحةً، وهذا من بدائع أساليب التربية والتوجيه غير المباشر، فلنتابع فقرات النصِّ بالتَّدبُّر.

١ ـ ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ﴾:

أي: بعد طرح المناظرات التي اشتملت عليها سورة «يونس» قبل هذا النَّصّ، اتلُ عليهم يا محمد نبأ نوح، زمن قوله لقومه: يا قوم: «إذ» ظرفية، وهي بدل اشتمال من «نبأ» كذا قالوا، وأرى أن «إذ» ظرف عامله محذوف تقديره كما يلي: واتل عليهم نبأ نوح الكائن إذ قال لقومه: يا قوم[(٢)].

٢ ـ ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

أمر الله نبيَّنا أن يتلو على قومه المعاندين الذين يُشبِه حالُهم حالَ قوم نوح في العناد والإصرار والاستكبار، وأن يتلُوَ من نبأ نوحٍ هذا المشهدَ وهذا القول منه،

---

(١) عثمان محمد الخميس، فبهداهم اقتده قراءة تأصيلية في سير وقصص الأنبياء عليهم السلام، دار إيلاف الدولية للنشر، الكويت، ط١ ٢٠١٠م، ص ٦٥.

(٢) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٧٧.

لقومه يقول لهم: إن كانَ ثقل عليكم وشقَّ على نفوسكم مقامي فيكم مُذكِّراً واعظاً زاجراً ناهياً، وتذكيري إياكم بآيات الله سواء ما نزل في كتابه من تعاليم ووصايا أو آياته الكونية المُذكِّرة به، والمُحذِّرة من عقابه[١].

٣ ـ ﴿ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾:

أي: فأقول لكم على الله وحدَه لا غيره توكَّلتُ في أن يُحبط ما تكيدون وتُدبِّرون ويُنجيني منكم، ويُلقي عليكم عذابه، وتقديم المعمول «على الله» على عامله «توكلت» دلّ على الحصر، وإذ توكلت على الله وحده لا شريك له:

٤ ـ ﴿ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾:

أي: فأحكِمُوا كلّ أمركم الذي تستطيعون تدبيره وإحكامه، باتِّفاق عامٍّ تُجمعون عليه متّحدين، وادعوا كلَّ شركائكم من دون الله، ليجمعوا أمرهم ويشدّوا أزركم، ويمدوكم بقوًى من عندهم من الجن والإنس والأصنام التي تدعونها من دون الله تبارك وتعالى[٢].

٥ ـ ﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾:

أي: ولا يكن أمركم الذي تُجمعون عليه للتخلّص مني تدبيراً مُبهَماً لا تعرفون كيف تُنَفِّذونَه، ولا يكن أمركم تُجاهي كرباً ضاغطاً على صدوركم، لا تعرفون كيف تُنفِّسون، فإني أُعلنُ لكم هذا التَّحدِّي لتُواجهوني بما تُدبِّرون من كيدٍ ضِدِّي صراحةً وعلانيَّةً، وبذلك تخرجون من غمة الحيرة والتردُّد[٣].

٦ ـ ﴿ ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ ﴾:

أي: وبعد أن تُجمعوا أمركم وُتدبِّروا كلَّ مكايدكم وتتريَّثُوا حتى تتأكَّدوا من أنكم قادرون على التخلُّص منِّي دون أن تتعرَّضوا لأيَّة مشكلات، اقضوا وأمضوا

---

(١) أحمد نوفل، تفسير سورة يونس، ص ٢٤٦.
(٢) عثمان محمد الخميس، فبهداهم اقتده، ص ٦٥.
(٣) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٧٨.

ما دبَّرتُم من أمر[١]، سواء إعدامي أو رجمي، افعلوا ما تشاؤون[٢].

٧ ـ ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾:

أيّ: ولا تُمْهلوني لحظة واحدة، مهما ظهرت لكم دواعِ لإمهالي، وهذا غاية في التَّحدِّي، لكن مَن كانَ مثل نوح عليه السَّلامُ، وقد توكَّل على الله وحدَه لا شريك له، ضامن من ربِّه بتوكُّله عليه وتحدّيه لقومه، أن ينصرَه ولا يَخذلَه، وأن يردّ كيد أعدائه في نحورهم، وأن يُعيذَه من شرورهم[٣].

إنَّه الإيمان بالله وحده الذي يصل صاحبَه بالله القويِّ العزيز، فليس هذا التَّحدِّي تمرُّداً ولا تهوُّراً، بل هو تحدٍّ بالله وثقةٌ في حفظه ونصره وعونه، وهو المسيطر على هذا الكون بما فيه وبمن فيه، فأين القوى الهزيلة الفانية أمام قُوَّة الله وجبروته وعزَّته التي يعتصم بها نوح عليه السَّلامُ.

٨ ـ ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾:

أيّ: فإن أَبَيتُم الاستجابةَ لِما دعوتُكم إليه، فأدبرتُم وأدرتُم لبلاغاتي ظهورَكم، وأجمعتُم أمرَكم على التخلُّص مني بالقتل، فاعلموا أني ما سألتكم على الخير العظيم الذي حملته لكم من أجر، حتى يكون تولِّيكم ونفورُكم منِّي اتِّهاماً لي بالمصلحة الشخصية عندكم، وتخلُّصاً من بذل الأجر لي، واعلموا أنه ما أجري الذي هو مقرَّر لي إلا على الله الذي أرسلني إليكم لأُبلِّغَكم رسالاته، واعلموا أني مثلكم مأمور من قِبَل ربِّي أن أكون واحداً من المسلمين[٤].

وبعد عرض هذا التَّحدِّي الذي تحدَّى به نوح عليه السَّلامُ قومه، إذ اقتضت

---

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٧٩.
(٢) عثمان محمد الخميس، فبهداهم اقتده، ص ٦٥.
(٣) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٧٩.
(٤) المرجع السابق، ص ٧٩.

المرحلة التي نزلت فيها سورة «يونس» ذكر هذا التَّحدِّي على طريقة التعريض لمشركي مكة، أبان الله عزَّ وجلَّ عاقبة قوم نوح ليكون التذكير بها موعظة وعبرة للمشركين[١].

٩ ـ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾:

أي: فكذّبوه وتوعّدوه بالرَّجم هو ومَن آمن معه، إن لم ينتَهِ عن متابعة دعوته كما جاء في سورة الشعراء السابقة نزولاً، فحكَمنا عليهم بالإغراق، وأمرنا نوحاً بصنع الفلك، وأنجز نوح عملَه، وبدأت بوادرُ الطُّوفان، وأمرناه بأن يحملَ في السَّفينة من كل زوجَينِ اثنينِ، وأهله ومن آمن معه، وركبوا وجرت بهم الفُلكُ ونجَّيناه ومن معه.

١٠ ـ ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾:

وجعلناهم خلفاء ورثوا الأرض، وخَلَفوا مَن أُهلِكوا، فكانوا خيرَ خلفٍ لشَرِّ سَلَفٍ[٢].

١١ ـ ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾:

وماذا كانت نتيجة الكافرين؟ بيَّنت هذه الكلمات الكريمة ما حلَّ بالمُكذِّبين، بأن الله أغرقهم وعبَّر عن إغراقهم بضمير العظمة، وعبر عن المُكذِّبين بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وصلته ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ ليُسجِّل حيثيَّة حُكمِ الإغراق واستحضار جريمتهم، وأضاف الآيات العظيمة إلى ضمير العظمة ليُدلِّل على عظمتها، وعظمة من ساق الآيات وأوقع على الكافرين الغرق والهلاك[٣].

وفي هذه الآية يتبيَّن التنبيه على عظة تحدّي الرُّسُل، فمن اعتبر بها اتَّعظَ وخاف مغبَّة التعرُّض لهم بسوء، ويكتشف مُتدبِّرُ هذه الآية أنها ترمي إلى عدة

(١) المرجع نفسه، ص ٨٠.
(٢) أحمد نوفل، تفسير سورة يونس، ص ٢٥١.
(٣) المرجع السابق، ص ٢٥١.

أهداف: ففيها تحذير للكافرين من أن يتعرَّضوا لمثل ما تعرَّض له قوم نوح، وفيها توجيه للرسول محمد ﷺ بأن باستطاعته إن شاء أن يتحدَّى المشركين مثلَما تحدَّى نوح قومَه، وأن يتوكَّل على الله فإن الله سينصره كما نصر نوحاً عليه السَّلامُ والذي آمنوا معه، وفيها تطمين لقلوب المُؤمِنين مع الرَّسول ﷺ بأن عاقبة أمرهم أن ينصرهم الله وينتقم من مُضطَهِدِيهِم[١].

سادساً: صفات قوم نوح عليه السَّلامُ:

ذكر القرآن الكريم صفات قوم نوح عليه السَّلامُ والتي من أهمها:

١ ـ ﴿كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾:

لم ترد ﴿عَمِينَ﴾ في القرآن إلا في موضعين، جاءت هنا بالنصب في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤]، وفي الآخر بالرفع: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦]. ﴿عَمِينَ﴾: عُمْيُ القلوب غيرُ مُستبصِرين[٢].

وجاء ابن عاشور وفصَّل إجمالَ من سبقه، فقال: عَمِين: جمع عَمٍ، صفة على وزن فَعِل مثل أشِر، مشتقٌّ من العمى، وأصله فقدان البصر، ويُطلق مجازاً على فقدان الرأي النافع، وقد غلب في الكلام تخصيص الموصوف بالمعنى المجازي بالصفة المشبهة لدلالتها على ثبوت الصفة، وتمكُّنها بأن تكون سجيّة[٣].

---

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٨١.

(٢) الرمخشري، الكشاف، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ هـ، ٢/ ١٠٩.

(٣) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، (٨/ ١٩٨).

والعَمى: عمى البصر، والعَمى: عمى البصيرة، وعَمين: جمع عَمٍ، وهو جمع مذكر سالم(١).

وقد أكَّد الله ضلالَهم، فهم ضالُّون قد أعمى الله تعالى بصائرهم، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾(٢).

٢ ـ الظُّلم:

اللافت أن وصف الظُّلم بحقِّ قوم نوح تكرَّر سبع مرَّاتٍ في القرآن الكريم منها:

* قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠]. في هذه الآية بدأ الله عزَّ وجلَّ بالتذكير بقوم نوح ـ عليه السَّلامُ ـ وما جرى لهم، بعد ذلك ذكّر بقوم عاد فقوم ثمود فقوم إبراهيم، فأصحاب مَديَنَ والمُؤتَفِكات(٣).

والمُؤتفِكاتُ: هي قُرى قوم لوط المنقلباتُ عليهم لدى إهلاكهم، يقال لغة: ائتفكَتِ الأرضُ إذا انقلبت بمن عليها، ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، الفاء: هي الفاء الفصيحة، تُفصح عن محاذيف. أيْ: كفروا وكذَّبوا رُسُلَهم وظلموا وطَغَوا وبَغَوا فقضى الله بعقابهم، فعاقبهم عقاباً مُعجَّلاً في الدُّنيا ليكونوا عِبرة لمن يَعتبر، وعِظة لمن يتَّعِظ، وما ظلمهم الله بما أنزل بهم من عقاب، وما كانَ الله ليظلمهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. وجاء الفعل المضارع؛ ليُفيد استمرارَ ظُلمهم لأنفسهم حتى هلاكهم، وليُفيد استحضار تلك

---

(١) أحمد عبد السلام، إرشاد الحيران إلى توجيهات القرآن، دار المدار الإسلامي للطباعة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١١م، (٤/ ٣٥٥).
(٢) أبو زهرة، زهرة التفاسير، ٦/ ٢٨٨٢.
(٣) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٣١٣.

الصُّورة البشعة القبيحة لِظُلمِهم حتى تنفر منهم الطباع السليمة، ويذمَّهم أهلُ الحقِّ من بعدُ(١).

* وفي سورة الفرقان قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفرقان: ٣٧]. في قوله ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾: أيْ: للمشركين من قوم نوح، ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أيْ: في الآخرة، وقيل: أيْ: وهذه سبيلي في كل ظالم(٢).

* وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ [النجم: ٥٢].

* وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

* وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

لقد أمسى الظُّلم عند قوم نوح ظاهرةً لا على مستوى الآحاد والأفراد، وإنما على مستوى المجتمع كلِّه، والظُّلم يجوز أن يُرادَ به الشِّرك: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] من جهة، أو الاعتداء على أهل الحق؛ لأن الكافرين كانوا يُؤْذُونَ نوحاً عليه السَّلامُ بشتى الأساليب من جهة أخرى، أو أنهم ظلموا أنفسهم بالكفر والتكذيب، وترك شكره تعالى، وصرفهم نعمه إلى غير ما أعطاهم إياها لأجله، فاستحقُّوا ذلك العذاب(٣).

وها هنا وقفة برّاقة للراغب كعادته يقول: الظُّلمُ وَضعُ الشيء في غير موضعه المختصِّ به، إما بنقصان أو زيادة، وإما بعُدول عن وقته أو مكانه، ويقال فيما يكثر وفيما يقلُّ من التَّجاوز(٤).

---

(١) أحمد سليمان الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، ص ١٨٨.
(٢) مصطفى العدوي، التسهيل لتأويل التنزيل تفسير الفرقان، ص ١٢٣.
(٣) المرجع السابق، ص ١٨٩.
(٤) المفردات في غريب القرآن، ص ٣٢٦.

ويُفهم من كلام الراغب أن الظُّلمَ لفظٌ عامٌّ يدخل فيه ـ إضافةً إلى ما سبق ـ الكثيرُ من المعاني كالجحود والإضرار بالنفس والسرعة والكذب والخيانة والغيبة والنميمة وغير ذلك من مرذول الأخلاق(١)، ولهذا يُستعمل الظُّلم في الذَّنب الكبير وفي الذَّنبِ الصَّغير(٢).

وقوم نوح ارتكبوا الظُّلمَ بأنواعه ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ [المُؤمنون: ٢٧].

وجاء الفعل الماضي في الآيتين السابقتين في هود والمُؤمنون مرتبطاً بالاسم الموصول مرَّتَين إشارة إلى توغُّل الظُّلم فيهم، خاصةً أن كلا الآيتين ذكرت العقوبةَ بعد الظُّلم مباشرة ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ والتعبير بالفعل الماضي يدلُّ على استفحال الظُّلم فيهم وتحقُّقهم به، والارتباط بالاسم الموصول يُشير إلى اتِّساع دائرة ظلمهم كل الاتِّساع(٣).

٣ ـ قوم سوء:

وهذا الوصف لم يرد في قصص الأنبياء إلا لقومين:

* قوم نوح عليه السَّلامُ، وقد ورد في حقِّهم مرةً واحدة في سورة الأنبياء، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٦ ـ ٧٧].

---

(١) أحمد سليمان الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، ص ١٩٠.
(٢) المفردات في غريب القرآن، ص ٣٢٧.
(٣) أحمد سليمان الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، ص ١٨٨.

* وقوم لوط، وردت في شأنهم في سورة الأنبياء، قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤].

والملاحظ أن الوصفين قد جاءا في سياق قوم لوط وقوم نوح ـ عليهما السلام ـ متتاليين وفي السورة نفسها. والتعبير بـ ﴿ قَوْمَ سَوْءٍ﴾ دلالة على انهماكهم في الشَّرِّ[(١)]، وأنهم فعلوا القبيح المكروه[(٢)]، وإضافة القوم إلى السوء إشارة إلى أنهم عُرفوا به، والمراد به الكفر والعناد والاستسخار برسولهم عليه السَّلامُ[(٣)].

٤ ـ الكفر والكذب:

هم قوم كذَّبوا الرَّسول مراراً وتكراراً بقولهم أو فعلهم، وهذا دليل على انغماس هذا التكذيب في حبات قلوبهم، فكفى بهذا التكذيب كفراً وعناداً وانحداراً عن الفطرة وخصائص الرجولة[(٤)].

قال تعالى: ﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ [القمر: ٩].

وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المُؤمنون: ٢٤].

٥ ـ فاسقون:

وردت مرَّتين في سياق قصة نوح عليه السَّلامُ، ومعناها أنهم تجاوزوا

(١) الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ١٧/ ١٠٩.
(٢) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١٧/ ١١٢.
(٣) المرجع نفسه، ١٧/ ١١٤.
(٤) أحمد سليمان الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، ص ١٩١.

الحدود فيما كانوا فيه من الكفر والمعاصي[١]، قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الذاريات: ٤٦].

وفِسقُ قوم نوح حَمَل كلَّ أنواع الفسق، فهم فاسقون بالكفر والشرك، وفاسقون بالظُّلم والعدوان، وفاسقون بالبغي والطُّغيان، بارتكاب الكبائر من القبائح، وبارتكاب الفواحش، فأضاف هذا النَّصّ وصف قوم نوح بأنهم فاسقون[٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦].

وعقَّب الزمخشريُّ على قوله تعالى في سياق قصة قوم نوح وإبراهيم عليهما السلام، فقال: إن الغلبة كانت للفُسَّاق، وهذا له دلالة واضحة على اقتراف المُنكَرات وكثرة الفساد وانتشار الرذائل والخروج عن طاعة الله من كل وجه[٣].

٦ ـ الطُّغيان:

وردت مرة واحدة في القرآن الكريم بهذه الصيغة «أفعَل» في حقِّ قوم نوح على الراجح مقترنة بالظُّلم ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ [النجم: ٥٢].

والطَّاغي: المُجاوز للحَدِّ، والظالم: واضع الشيء في غير موضعه، فالطُّغيان أشدُّ من الظُّلم، وجاء التعبير بصيغة التفضيل: «أفعل» لأنهم سمعوا المواعظ وطال عليهم الأمد ولم يرتدعوا حتى دعا عليهم بعد الإصرار العظيم[٤].

---

(١) المرجع السابق، ص ١٩١.
(٢) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٦٤.
(٣) أحمد سليمان الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، ص ١٩١.
(٤) تفسير الرازي، ٢٩/ ٢٤، بتصرف يسير.

فهم بلغوا الغاية من الطُّغيان وكانوا أشد تمرُّداً من الذين بعدهم، فكان جزاؤهم من جنس عملهم ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١].

وهكذا بعد تتبُّع صفات قوم نوح عليه السَّلامُ في الآيات السابقة يظهر أمامنا مجتمع أسوأ ما يكون التزاماً وأخلاقاً ونسيجاً، طغى فيه كل شيء حتى بلغ الذروة في السوء والفسق والظُّلم والطُّغيان والكذب والكفر، وهذه المنظومة من الرذائل تُشير إلى غيرها من المصائب والدواهي، كالكبر والمكر والتَّرف والعناد والانهماك في المعاصي والتَّبعيَّة العمياء، والطَّبقيَّة المقيتة ـ فإن المعصية ولود حقود ـ وغيرها من العلل والأمراض التي جعلت منهم بيئة كريهة تكاد رائحتها تزكم الأنوف.

إنه يبدو مجتمعاً مريضاً، تتحكَّم فيه شرذمة من الأغنياء والكبراء يدور حولهم أقوام من رعاع النَّاس، وسفهائهم عطَّلوا عقولهم، ومجموعة غارقون في وحْلِ الرذيلة حتى آذانهم، وقد انتكست فطرتهم، وجمدت مشاعرهم، وتوقَّفَت أجهزة الاستقبال والإرسال عندهم، فلا يعرفون معروفاً ولا يُنكرون مُنكَراً، فكان تطهير الأرض منهم واستئصال شأفتهم أمراً إلهيّاً عادلاً، أباد خضراءهم، وقطع دابرهم، والحمد لله رب العالمين(١).

سابعاً: مُعوِّقات قبول دعوة نوح عليه السَّلامُ:

تحدَّثَ القرآن الكريم عن سيرة قوم نوح ـ عليه السَّلامُ ـ وأبرز أمراضهم وآفاتهم وصفاتهم، كما تحدَّثَ عن المُعوِّقات التي منعتهم من الاستجابة لدعوة التوحيد وإفراد الله عزَّ وجلَّ بالعبادة التي نادى بها نوح عليه السَّلامُ، ومن أهم المُعوِّقات التي ذكرها الله عزَّ وجلَّ في كتابه الكريم:

١ ـ المعوّق الأول: الكِبر:

ـ معنى الكِبر: أكثر تعريف جامع له في قوله ﷺ: «الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ

---

(١) أحمد سليمان الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، ص ١٩٢.

النَّاسِ» (١)، وغَمْطُ النَّاسِ هو ازدراؤهم واحتقارهم(٢)، وهو خُلُقٌ باطن تصدر عنه أعمال هي ثمرته، فيظهر على الجوارح، وذلك الخلق هو رؤية النفس على المُتكبَّر عليه، يعني يرى نفسه فوق غيره في صفات الكمال، فعند ذلك يكون مُتكبِّراً.

ويظهر الكِبْرُ في قوم نوح في آيات كثيرة من قصته منها: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣]. وحينما جهر في دعوتهم قالوا له: ﴿۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]. وقال: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٣١].

وجاء التصريح في سورة نوح عليه السَّلامُ بمنتهى الوضوح ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧]، دلالة على رسوخ هذه الصفة القبيحة فيهم، وهذا الاستكبار تبرز من ثناياه ملامح الطفولة البشرية العنيدة، فيحاولون كل جهدهم إغلاق آذانهم حتى لا يتسرَّب إليها صوت الحقِّ بتاتاً، وهي صورة غليظة للإصرار والعناد، كما أنها صورة بدائية لأطفال البشرية الكبار(٣).

وهذا الاستكبار دليل على وجود الحجاب الكثيف، والغطرسة النفسية عن سماع دعوة الحق، وتلك مبالغة تتَّفق مع أوضاعهم، فإنهم إذ جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم صار المانع من السماع أقوى، وكما قيل: من شرِّ أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم، وقبول الحقِّ والانقياد له، وقوم نوح عليه

---

(١) صحيح مسلم، رقم ١٠٨.
(٢) الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ١٩/ ٥١٨.
(٣) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/ ٣٧١٢.

السَّلامُ فعلوا ذلك كلِّه للعِلَّة الكامنة في نفوسهم، فهم «قوم نوح» استكبروا على ما جاء به نوح عليه السَّلامُ من الدعوة إلى الله تعالى، من حيث تعزّز النفس وترفّعها عن الانقياد، وهم يظنُّون أنهم مُحِقُّون في ذلك، وتارةً يمتنعون مع المعرفة، ولكن لا تطاوعهم أنفسهم للانقياد للحقّ والتواضُع للرسول الكريم[١].

وقال الله عزَّ وجلَّ في كتابه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣]، وقال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]. ووردت أحاديث كثيرة في ذَمِّ الكِبْر منها: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يَدخُلُ الجَنَّةَ مَن كانَ في قَلبِه مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ»[٢].

٢ ـ المعوّق الثاني: العناد:

العناد من صور الكبر والاستكبار، والمعاندون: هم الذين يتحاملون على الدعوة والدعاة، ويتَّهمونهم، ويُسيئُون بهم الظَّنَّ، ويتصدَّون لهم ولما يدعونهم إليه من حقٍّ[٣].

وجاءت كلمة ﴿عَنِيدٍ﴾ في القرآن الكريم أربع مرَّاتٍ، كلُّها في سياق الذم ـ كما يلي ـ مع ملاحظة أنه لم يرد من مشتقاتها غيرها:

* قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩].

* وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥].

* وقال تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: ٢٤].

* وقال تعالى: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَـٰتِنَا عَنِيدًا﴾ [المدثر: ١٦].

---

(١) أحمد سليمان الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، ص ١٩٦.
(٢) صحيح مسلم، رقم ٩١.
(٣) الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، ص ١٩٧.

وقد اشتهر قوم نوح بالعناد، وكان من مُعوِّقات عدمِ الاستجابة لدعوة نوح عليه السَّلامُ، فلم يَزِدْهُم دعاء نوح لهم إلا الابتعاد والفرار من الدعوة ومضمونها ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٦].

فالعناد والإصرار، هما صفتا مَن أظلم قلبُه وعقله عن النور الإلهي، فظنَّ أن النور الباهر قد يُذهب بصرَه؛ لأنه ألِفَ العيشَ في مستنقعات الرذيلة وفي دياجير الظُّلمة، كالخفافيش، فنشأت من ظلمة بصره ظلمة بصيرتِه، التي لا يعود بعدها قادراً على الانتفاع بالوحي الإلهي، وهذا ما حدث لقوم نوح عليه السَّلامُ فأساؤوا الظن به وبنواياه عناداً واستكباراً، فمنعهم العناد من الاستفادة من النور والهدى الذي جاء به من عند الله عزَّ وجلَّ.

٣ ـ المعوّق الثالث: التَّقليد الأعمى:

إنَّ تقليد الآباء والجمود على العادات، كانَ ـ في كثير من الأقوام ـ سبباً في وقوفهم أمام دعوات الرُّسُل والأنبياء عليهم السلام، ويُلحظ أن معظم الآيات التي تحدَّثَت عن اتِّباع الآباء جاءت في معرض الذمِّ، وإن كنَّا لا نعدم موضعاً أثنى الله فيه على اتِّباعهم القائم على البُرهان والدليل: كما ورد على لسان يوسف عليه السَّلامُ: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨].

وتقليد الآباء والتَّعصُّب لهم بدأ في مرحلة مبكرة من تاريخ البشرية كما هو شأن قوم نوح عليه السَّلامُ الذين ركبوا متن الغواية، فساروا خلف آبائهم الأوَّلين دون تدبُّر وتمحيص، فاتَّجهوا إلى أشد أنواع التَّقليد عمًى وجهالة، وهو التَّقليد المُتَّجه إلى العقيدة، والعبادة(١).

---

(١) عباس العقاد، التفكير ضرورة إسلامية، المكتبة العصرية، بيروت. صيدا، لبنان، ٢٠٠٨م، ص ٢٠.

ويظهر هذا الدّاء الوبيل عند قوم نوح عليه السَّلامُ في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [نوح: ٢١].

فاتَّبعوا أغنياءهم ورؤساءهم الذين أبطرتهم الأموال والأولاد، فهكلوا وخسروا سعادة الدارين، فصاروا أسوة لهم في الخسارة، والمقصود أنهم استمروا على عصيانهم لنوح عليه السَّلامُ، واتِّباعهم لذوي الجاه والمال، لا أنهم أحدثوا عصياناً جديداً، ولا اتِّباعاً جديداً، وفي ذلك إشارة إلى أن الرعاع من قوم نوح عليه السَّلامُ مؤاخذون بعصيانهم، وليس لهم عذر في أنهم تابعون لسادتهم، فما الإيمان إلا تحرير للنفس والعقل.

كما أن قوم نوح عليه السَّلامُ لم يهتدوا إلى معرفة الحقِّ من الباطل، والصدق من الكذب بأنفسهم، بل رجعوا إلى الآباء، شأنهم شأن الضعيف الذي لا يثق بنفسه، ويعيش على حساب غيره، فإذا جاء الدليل وأحاط به البُرهان، ولزمته الحُجَّة رجع إلى الآباء يتمسَّح بهم، وإلى الأوَّلين يحتكم إليهم(١)، فكان الرجل من قوم نوح عليه السَّلامُ إذا بلغ له ولد، وعَقَلَ الكلام، وَصَّاه فيما بينه وبينه ألا يُؤمن بنوح ما عاش أبداً.

إنه مشهد بائس لاستعباد الواقع المألوف للقلوب والعقول، هذا الاستعباد الذي يسلب الإنسان خصائص الإنسان الأصيلة: حرية التَّدبُّر والنظر، وحرية التفكير والاعتقاد، ويدعه عبداً للعادة والتَّقليد، وعبداً للعرف والمألوف، وعبداً لما تفرضه عليه أهواؤه وأهواء العبيد من أمثاله، ويغلق عليه كل باب للمعرفة وكل نافذة للنور، وهكذا استعجل القوم العذاب فراراً من مواجهة الحقِّ، بل فراراً من تدبُّر تفاهة الباطل الذي هم له عُبَّد(٢).

ولقد جهد نوح وُسعَه في صرف قلوب قومه عن التعلُّق بموروث الآباء، ونبَّهَ

---

(١) أحمد سليمان الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، ص ٢٠٠.
(٢) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٣/ ١٣١١.

على أن السبق في الزمان ليس آية من آيات العرفان، وإنما السابق واللاحق في التمييز والفطرة سيّان، فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما يُقيّده، وخلّصه من كل تقليد كانَ استعبده، ورَدَّه إلى مملكته بحكمه وحكمته مع الخضوع في ذلك لله تعالى وحده والوقوف عند شريعته(١).

إنَّ التَّقليد الأعمى خطر داهم، أصاب البشرية بالويلات لا على مستوى العقيدة والعبادة فقط، بل على جميع المستويات، وما يشهده العالم الإسلامي اليوم من وضع بائس، ومن تَبعيَّة قاتلة وتقليد شامل يُؤكِّد خطر هذا الجرثوم وآثاره المدمرة، فليس تقليد اليوم تقليد آحاد أو عشرات، أفراد أو جماعات، وإنما تقليد وتبعيَّة دول كاملة بقَضِّها وقضيضها، لدول قوية مُستعمِرة أو مُستغرِبة حتى اختلط الحابل بالنابل، وأمسى المسلمون في تبعيَّةٍ أخلاقية واجتماعية وسياسية واقتصادية في كل شيء، حتى دخلنا وراءهم جُحر الضَّبِّ الكَريه، حذو القذة بالقذة، وصدق فينا قول رسول الله ﷺ: «لتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ مَن كانَ قَبلَكُم شِبراً بِشِبرٍ، وذِراعاً بذِراعٍ، حتَّى لو دَخَلُوا جُحرَ ضَبٍّ لَدَخَلتُمُوهُ»(٢)

ومن هنا أزرى القرآن بالتَّقليد والمُقلِّدين في الباطل، وحقَّر من شأنهم فقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠ ـ ١٧١].

﴿قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۗ﴾ فأصرُّوا على اتِّباع ما وجدوا عليه آباءهم عصبية، وكيف يُؤثرون العُرفَ الموروثَ على هُدى الله المشروع، وخاصةً إذا لم يكن لآبائهم عقل ينضبط بتوحيد الله، ولا هَديٌ مستقيم بتنزيل الله(٣).

---

(١) محمد عبده، رسالة التوحيد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٩م، ص ١٦٠.

(٢) أحمد سليمان الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، ص ٢٠١.

(٣) حسن الترابي، التفسير التوحيدي، دار الساقي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٤م، ١/ ١٣٧.

وازدراءً لشأنهم وتحقيراً من أمرهم وصفَهم في تقليدهم لآبائهم ورؤسائهم بالراعي للبهائم السائمة يَنعِقُ ويَصيح بها في سوقها إلى المرعى، ودعوتها إلى الماء، وزجرها عن الحِمَى، فتُجيب دعوتَه وتَنزجرُ بزَجْرِه بما أَلِفَت من نُعاقِه بالتَّكرار، شبَّهَ حالَهم بحال الغنم مع الراعي يدعوها فتُقبل، ويزجرها فتنزجر، وهي لا تعقل مما يقول شيئاً، ولا تفهم له معنى، وإنما تسمع أصواتاً تُقبِل لبعضها، وتُدبِرُ للآخر بالتَّعويد، ولا تعقل سبباً للإقبال والإدبار[1].

فما أعظم التَّقليد ـ في الباطل ـ والقول المتقبل بغير بُرهان، وما أعظم كيد الشَّيطان للمقلّدين حين استدرجهم إلى أن قلّدوا آباءهم في عبادة التماثيل، وعفّروا لها جباههم، وهم معتقدون أنهم على شيء، وجادّون في نصرة مذهبهم، ومجادلون لأهل الحق عن باطلهم، وكفى أهلَ التَّقليد سُبّة أن عَبَدةَ الأصنام منهم[2].

٤ ـ المعوّق الرابع: الوثنيّة:

الوثن: واحد الأوثان، وهو حجارة كانت تُعبد من دون الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنًا﴾ [العنكبوت: ٢٥]، والوثنيَّة: هي مذهب عبدة الأوثان. وجاء ذكر الأوثان ذمّاً لها في ثلاثة مواطن من القرآن الكريم، وفي سياقين:

ـ **الأول**: الأمر باجتنابها موصوفة بالرجس مقرونة بقول الزور، وفيه إشارة لا تخفى في الحَطِّ من شأنها، والتقبيح من أمرها: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

---

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: تفسير القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠م، ٢/ ٩٣ـ٩٤.

(٢) الزمخشري، الكشاف، ١/ ٢٤٠. وانظر: الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، ص ٢٠٢.

ـ **الثاني**: الذم لها وعدم نفعها البتة لا في الدُّنيا ولا في الآخرة: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ [العنكبوت: ١٧]. ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ [العنكبوت: ٢٥].

واللافت للنظر أن كلا الموضعين الأخيرين وردا في سورة العنكبوت التي شَبَّهت عبادتهم للأصنام من دون الله ببيت العنكبوت لا يُغني عنها في حرّ، ولا في برد، ولا في مطر، ولا أذى(١).

قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١]، أيْ: وإن أضعف البيوت لبيت العنكبوت لتفاهته وحقارته، لو كانوا يعلمون أن هذا مَثَلُهم ما عبدوهم(٢).

وتظهر وثنيَّة قوم نوح في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، فكان قوم نوح هم أوَّل من عبد الأصنام في الأرض، وقد بَيَّنتُ كيف بدأ هذا الشِّرْك الكبير في صفحات سابقة.

وتجدر الإشارة إلى أن الأصنام المذكورة في الآية السابقة هي أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم، فخَصُّوها بالذِّكْر لِما لها في قلوب العامة المُضَلَّلِين من الحميَّة والاعتزاز، وهي أكبر آلهتهم التي ظلت تُعبد في الجاهلية بعدهم إلى عهد الرسالة المحمدية، وقد حرَّض الملأ من قوم نوح على تعبئة الجماهير للتمسك بعبادتها وعدم الاستجابة لدعوة نوح عليه السَّلامُ وقد أضلوا كثيراً ككل قيادةٍ ضالَّةٍ تجمع النَّاس حول الأصنام.

٥ ـ المعوق الخامس: الملأ:

إنَّ الحديث عن الملأ في القرآن ـ كما سيظهر ـ جاء في أكثر من سياق، وذلك

---

(١) تفسير القرطبي، ١٣/ ٢٢٩.
(٢) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ٢/ ٤٦١.

لخطورة ذلك الأمر على جميع المستويات، وفي مختلف العصور؛ لأن نشوء الحضارات أو كَبوَها مَنوطٌ بطبيعة وأخلاقيات القِمَّة المُؤثِّرة، وليست المشكلة في طغيان هؤلاء القادة فحسب، ولكن المشكلة تزداد تعقيداً عندما تجمد الأمة وتصبح قطعاناً تُؤجِّر عقولَها وطاقاتها وإمكاناتها لأولئك القادة الوَهميِّين، الذين سيجرّونها طوعاً أو كرهاً إلى الهاوية والجحيم(١).

والملأ: الرؤساء والوجهاء الذين يرجع إلى قولهم. وتردَّدَت كلمةُ الملأ في القرآن الكريم ثلاثين مرة منها:

* مرتان في مقام التشريف حين ذكر الله الملأ الأعلى بقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص: ٦٩]، وفي سورة الصافات: ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ [الصافات: ٨].

* وخمس مرات على معناها الظاهري وهم كبار القوم وأصحاب الرأي والمعرفة، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣].

* وثلاث وعشرون مرة في مواطن الاستعلاء والكفر والتَّمالُؤ ضدَّ الأنبياء عليهم السلام مثل: ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠] وغيرها.

وكذلك جاء وصفهم في القرآن الكريم نحو: الأحبار والرهبان، أكابر القوم، المترفين، أئمة الكفر، الملوك، المجرمين، الظالمين، شياطين الإنس(٢).

وقد تحدَّثنا في الجدال الذي حدث بَينَ الملأ ونوح عليه السَّلامُ، واتِّهاماتهم

---

(١) أحمد سليمان الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، ص ٢٠٧.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٠٨.

لنوح بأنه في ضلال مُبين، وأنه بشر مثلهم، وأنه يريد أن يتفضَّل عليهم، وأن أتباعه من الفقراء والضُّعفاء، وكيف رَدَّ نوحٌ على كل تهمة وُجِّهت إليه.

وبيَّنت سورة نوح مكر الملأ، وجمودهم على الوثنيَّة، وتقاليد الآباء والتحريض على نوح، وإيذاءَه ومن معه من المُؤمِنين ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ٢٢ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا﴾ [نوح: ٢٢ ـ ٢٤].

* **أسباب عداوة الملأ للدعوة والدعاة كثيرة**، من أهمها:

* **الكِبر**: هم يتصوَّرون أن الدعوة إلى الله تعالى وإلى طريق الحق ستُقلِّص نفوذَهم، وتُذهِبُ رواءهم، وربّما قضت على مكانتهم نهائياً، وهو تصوُّر لا يكون صحيحاً، إلا إذا كانوا من الظالمين الذين يعيشون على غَمطِ الحقِّ، ويَبْنون حياتهم على هدم حياة الآخرين، وأما إذا كانوا أهل حقٍّ وعدل ومساواة فإن الدعوة إلى الله تعالى تكون أكبر حصن لهم، وأحسن أمان[1].

* **حب الرياسة والجاه**: يقول الشيخ محمد الغزالي في هذا الصدد: إننا نلحظ في أحوال الأمم المُكَذِّبة أنها لا تبحث قضايا الألوهية والبَعث والاستقامة بحثاً موضوعياً تُعمل فيه ما وُهب لها من عقل، وتمنحه ما يستحقُّ من عناية، إنها تهتمُّ بشيء آخر يجب أن نكشفه، فإن جرثومته لا تزال تفسد الأمم حتى عصرنا الحاضر. ماذا طلب نوح من قومه؟ قال لهم: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾، ثم وصف لهم الإله الذي يدعوهم إلى عبادته ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا﴾ لكن قوم نوح لم يُفكِّروا في هذا الإله وعظمته وحقوقه، بل فكَّروا في أنفسهم ومكانتهم ومالهم وجاههم، وحسبوا أن الدعوة الجديدة ستجعل نوحاً فوقهم درجة، وتجعل مَن سبق إلى اتِّباعه أعلى قدراً، والغبيُّ يرى في الذكاء

(١) منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، ص ٢٠٩.

تحدِّياً له، ويُخاصم كلَّ شيء يتوجَّس منه[١].

* **الجهالة والسفاهة**: الجهل: هو على ثلاثة أضراب: الأول: هو خلو النفس من العلم، وهو الأصل. والثاني: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه. والثالث: فعل الشيء بخلاف ما حقُّه أن يُفعل، سواء اعتقد فيه اعتقاداً صحيحاً أو فاسداً. والسَّفَه: خِفَّةٌ في البدن، واستُعمل في خفّة النفس لنقصان العقل[٢].

* **من أعمال الملأ:**

ـ **المكر**: قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا﴾ [نوح: ٢٢].

وهنا وقفة ثاقبة لأبي السعود قال: وأما المقصود بالمكر فإما أن يكون صَرْفَ نوحٍ عليه السَّلامُ من إنفاذ دعوته، وإما صَرْفَ العامَّة عن اتِّباعه، فإن كان القصدُ الاحتمالَ الأوّل، فهو تحريض العامة على إيذاء نوح عليه السَّلامُ وقتله، وإن كانَ الاحتمال الثاني هو المراد، كانَ قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، تفسيراً له وأيضاً لهذا المكر[٣].

وكلا الأمرين عظيم، سواء صدّ النَّاس عن الحق، أو التآمر والتحريض على قتل نبي الله نوح عليه السَّلامُ، ولهذا وُصف المكر بأنه «كبّار» أيْ: عظيم وكبير، ولكن التآمر على القتل أشدّ؛ لأنه صدٌّ عن سبيل الله وغاية في المبارزة بالعداوة[٤].

ومن مكرهم قَولُهم: هذه الأصنام آلهةٌ لكم، وكانت آلهةً لآبائكم، فلو قبلتم قول نوح لاعترفتم على أنفسكم بأنكم كنتم جاهلين ضالِّين كافرين، وعلى آبائكم بأنهم كانوا كذلك، ولما كانَ اعتراف الإنسان على نفسه، وعلى جميع

(١) محمد الغزالي، المحاور الخمسة للقرآن، دار الشروق، القاهرة، ط١ ٢٠٠٠م، ص ١٠٨.
(٢) المفردات في غريب القرآن، المرجع السابق، ص ١٠٠.
(٣) الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، ص ٢١٢.
(٤) تفسير أبو السعود، ٩/ ٤٠.

أسلافه بالقصور والنقص والجهل شاقّاً شديداً، صارت الإشارة إلى هذه المعاني بلفظ «آلهتكم»، في قولهم ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ صارفاً لهم عن الدين، فلأجل اشتمال هذا الكلام على هذه الحيلة الخفيَّة سمى الله كلامَهم مَكراً[(١)].

ممَّا تقدَّم يتَّضح أن المكر: ضرب من الاحتيال، وأنه كانَ صفة بارزة في قوم نوح عليه السَّلامُ، بل في كل واحد منهم، وهم يلجؤون إلى المكر والحيلة لتدبير الشَّرِّ نحو من يتصوَّرون أنهم أعداء لهم، وعندما يفشل المكر يلجؤون إلى البطش والتنكيل.

ـ **الترف**: يظهر التَّرفُ في قوم نوح في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١].

والمعنى هنا أن الأصاغر منهم اتّبعوا رؤساءهم وأهل الثروة منهم، الذين لم يزدهم كثرة المال والولد إلا ضلالاً في الدينا وعقوبة في الآخرة[(٢)]، ومجتمع قوم نوح عليه السَّلامُ كانَ مكوّناً من طبقات عدة: الرؤساء والمرؤوسين، والأغنياء والفقراء، والأقوياء والضعفاء.

والمُترَفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين، الذين يجدون المال، ويجدون الخدم والراحة، فينعمون بالراحة والسيادة، حتى تترهّل نفوسهم وتأسَنَ، وترتع في الفسق والمجون، وتستهتر بالقِيَم والمقدَّسات والكرامات، وتَلِغَ في الأعراض والحرمات، وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا في الأرض فساداً، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوا وأرخصوا القِيَم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها، ومن ثم تتحلَّل الأمة وتسترخي، وتفقد حيويَّتَها وعناصر قُوَّتها وأسباب بقائها، فتهلك وتُطوى صفحتها[(٣)].

---

(١) التفسير الكبير، ٣٠/ ١٤٢.
(٢) الشوكاني، فتح القدير، ٥/ ٣٠٠.
(٣) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/ ٢٢١٧.

وللتَّرف أضرار كثيرة فهو: يُفسد الفطرة، ويُغلِّظ المشاعر، ويَسدُّ المنافذ، ويُفقد القلوبَ تلك الحساسية المُرهَفة التي تتلقَّى وتتأثَّر وتستجيب، ومن هنا حارب الإسلام التَّرف، وأقام نُظُمَه الاجتماعية على أساسٍ لا يسمح للمُترَفين بالوجود في الجماعة المسلمة؛ لأنهم كالعفن يُفسد ما حوله، حتى ينخر فيه السُّوس، ويسبح فيه الدُّود، ويُؤدِّي التَّرف إلى الكبر والغطرسة على عباد الله، والكذب والنفاق، وأكبر الأضرار وأشدها خطراً الوقوف في وجه دعوة الحق، ومنع وصول أنوارها وأشعتها إلى تلك العقول المظلمة الغارقة في سبات عميق(١). وهذه أهم المُعوِّقات التي واجهت دعوة نوح عليه السَّلامُ.

* * *

(١) الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، ص ٢١٦.

المبحث الرابع

بيان نوح لربِّه تُجاهَ قومه وشكواه من معصيتهم له ودعاؤه عليهم في سورة نوح

أولاً: بيان نوح لربِّه وما قام به تُجاهَ قومه:

قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ [نوح: ٥ ـ ٩].

١ ـ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴾:

أي: جعل نوح عليه السَّلامُ دعوته مظروفة في زمنَي الليل والنهار للدلالة على عدم الهوادة في حرصه على إرشادهم، وأنه يترصّد الوقت الذي يتوسّم فيه أنهم أقرب إلى فهم دعوته، وهي أوقات النهار، ومن أوقات الهدوء وراحة البال وهي أوقات الليل[١]. ويُفهم من الآيات الكريمة أنه كانَ قريباً منهم، يتحيّن أيَّ فرصة للتأثير فيهم من ليل أو نهار، من غير فتور ولا تعطيل، في وقت دون وقت[٢].

كان نوح عليه السَّلامُ يغشى قومَه جماعاتٍ وأفراداً، بالليل والنهار، بلا كلل

(١) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ص ١٧٤.
(٢) الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، ص ١٧٤.

ولا ملل، فيدعوهم إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويعرض عليهم رسالته، ويُبلِّغهم ما أمره الله بتبليغه إياه من أمور الدين، والوعد والوعيد، ويذكّرهم بآياته، وصبر عليهم صبراً عظيماً(١).

لكنّ دأبه الطويل في دعائه لقومه لم يُؤثِّر فيهم، وكلما زادهم دعاءً ازدادوا نفوراً وفراراً.

وجاء التعبير بالفرار كناية عن أشدِّ صُوَر عدم الاستجابة للدعوة، حتى كأنَّ الداعي أسد يريد أن يفترسهم وهم يَفِرُّون منه خوفاً وذُعراً ولا يحاولون تفهُّم أي شيء يعرضه نوح عليهم.

وأشد من هذا التعبير في التوبيخ ما ذكره الله بشأن بعض قادة كفار قريش، الذين فرُّوا من دعوة رسول الله محمد ﷺ فقال عزَّ وجلَّ في سورة المدثر: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ [المدثر: ٤٩ ـ ٥١].

﴿ حُمُرٌ ﴾: أيْ: حمر وحشية. ﴿ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾: أيْ: نافرة. ﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾: أيْ: فرت من أسد مفترس، أو من جماعة من الصيّادين، فكلمة: ﴿ قَسْوَرَةٍ ﴾ تُطلق في اللغة على الأسد، وتطلق على جماعة الصيادين(٢).

٢ ـ ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴾:

أي: فكان دأبهم المتكرّر، وعاداتهم التي لا يتخلَّون عنها، كلَّما دعاهم نوح عليه السَّلامُ إلى الإيمان والإسلام والطاعة، مُطمِعاً إيَّاهم أن يغفر الله لهم من ذنوبهم التي سلفت منهم، أن يقابلوا دعوته لهم بعملَين جسديَّين وعملَين نفسيَّين:

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٧٩.
(٢) المرجع السابق، ص ١٨٠.

فالعملان الجسديان هما:

الأول: أن يضعوا أصابعهم في آذانهم، لئلا يَسمعوا كلامه، ويُشعروه بأن أقواله في الهواء لغير سامع، فالأَوْلى له ألا يُتعب نفسَه بالتَّحدُّث لمن لا يسمع من كلامه شيئاً، وبهذا يُشعِرونه بأن أقواله قد صارت محفوظة لديهم مكررة، فنفوسهم تشمئزُّ منها وتتقزَّز من سماعها، وعليه أن ينصرف عنهم[١]. وهذه الحركة تُشير إلى سوء أدبهم وتصرُّفهم مع نبيِّ الله نوح، واستهزائهم به، وهذه الحركة تدلُّ على ضلالهم واقتراب هلاكهم[٢].

الثاني: أن يَستغشُوا ثيابَهم، أيْ: أن يجعلوا ثيابَهم أغشيةً وأغطيةً على وجوههم لئلا يَرَوهُ، ويُشعروه بالإدبار عنه وبأنهم عنه في حجاب، وبأنه صار ثقيلَ الظل كريهاً لديهم، فهم ينفرون من رؤية وجهه، وفي هذا مع وضع أصابعهم في آذانهم غاية الازدراء والامتهان، وإشعارٌ له بأن عليه أن ينصرف عنهم، وظل نوح عليه السَّلامُ يدعوهم صابراً مُحتسباً أجره عند الله غير مكترث بما يقابلونه به من ذلك.

والعملان النفسيان:

الأول: إصرارهم على الكفر والعناد، ورفضهم أن يستجيبوا له، دلّ عليه ﴿وَأَصَرُّواْ﴾.

أصرّ على الأمر، إذا ثبت عليه ولزمه، وأكثر ما يُستعمل في الآثام والقبائح[٣].

الثاني: استكبارهم المُسرِف الشنيع المُؤذي، عن طاعة الله واتِّباع رسوله،

---

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٨١.
(٢) عقيد خالد العزاوي، التصوير القرآني وسياقاته الدلالية، دار العصماء للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، ٢٠١٦م، ص ٣٤.
(٣) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٨١.

دلّ عليه ﴿ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ : أيْ : استكباراً مُسرفاً قبيحاً مُؤذياً، فحركة وضع الأصابع وتغطية وجوههم عنه بثيابهم تدلُّ على استكبارٍ شنيع مُؤذٍ، بلُؤمٍ وخِسّة(١) .

وهذا يدلُّ دلالة واضحة على شدة بُغضهم وكراهيتّهم لدعوة نوح عليه السَّلامُ، وكان بإمكان هؤلاء أن يبتعدوا عن الدعوة، وأن ينصرفوا عنها دون الحاجة إلى مثل هذا التصرُّف، لكنه إمعان في الضَّلال وزيادة في العناد(٢) .

٣ ـ ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾ :

أي : ثم بعد اليأس من دعوتهم جهاراً، اتَّخذتُ أسلوب الإعلان والإسرار، بحسب اختلاف أحوال النَّاس، وبحسب ملاءمة الظروف .

﴿ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ﴾ : دعوتُ أفرادَهم وجماعتهم علانية، وذلك بأسلوب التحدّث العلني مع النَّاس، وهو أسلوب غير أسلوب الخطابة، إنه أسلوب هادئ يتحمّل السؤال والجواب، والمناقشة والمجادلة، والأخذ والردّ، والمراجعات، وأما عنوان الخطابة والخطبة فهو ما جاء التعبير عنه في النَّصّ بعبارة ﴿ جِهَارٗا﴾ . ويدخل في ﴿ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ﴾ ما نعرفه في مصطلحاتنا اليوم بالدّرس والمحاضرة والمحادثة، والحوار والمجادلة ونحو ذلك .

﴿ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾ : أيْ : دعوت أفراداً منهم بأسلوب الحديث السرّيِّ، وذلك لأن بعض النَّاس يكرهون أن يُوجَّه إليهم النُّصح أو التعليم مع النَّاس بطريقة علنيَّة، ويتقبَّلون ذلك إذا كانَ بطريقة سرّيَّة .

وقد اتَّخذ نوح عليه السَّلامُ هذا الأسلوب مع مَن يرى أنهم يكرهون أن يُوجَّهوا أو يُعلَّموا أو يُنصحوا أو يُدْعَوا بطريقة علنيَّة، فهم لا يستجيبون بطريقة الأسلوب العلني؛ لأنه في تصورهم ينقص من مكانتهم لدى الجماهير التي تُكبِر

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٨١ .
(٢) عبد الرزاق أدهم الجميلي، العقيدة في القرآن أولو العزم من الرُّسُل نموذجاً، ص ١٦٤ .

من شأنهم، وتراهم عظماء في أفكارهم وآرئهم ومفاهيمهم وتصرُّفاتهم، فكيف يستجيبون لداع يدعوهم إلى ترك ما هم عليه من عقائد وسلوك في الحياة[١].

وجاء تأكيد فعل ﴿وَأَسۡرَرۡتُ﴾ بالمفعول المطلق ﴿إِسۡرَارًا﴾ للدّلالة على أنه ظلَّ كاتماً حديثَه الذي أسرّ به إليهم، لم ينشرْهُ ولم يتحدَّثْ به للناس ليكون ذلك أدعى للتأثير فيهم، أو المراد: إسراراً شديداً مبالغاً فيه، فهو مفعول مطلق لبيان النوع[٢].

ودلَّ النَّصُّ ببياناته على أن أساليب الدعوة التي قام بها نوح عليه السَّلامُ كانت كما يلي:

ـ **المرحلة الأولى**: كانت دعوته لقومه بأسلوب البثِّ العامِّ، في كل الأوقات التي يَحسُنُ انتهازُها لدعوة القوم من ليل أو نهار، إذ كانَ يغشى الأفراد فيدعوهم، ويغشى الجماعات فيدعوهم، فيُبيِّن ويشرح، ويُقيم الحُجَج، وينصح ويُرغِّب، ويرهِّب، واستمرَّ على ذلك حقبة من الزمن.

ـ **المرحلة الثانية**: صار يتصدّى للخطابة بالصوت الجهير في المجامع والمحافل التي يتيسر له أن يخطب فيها، ومعلوم أنّ الخطابة يدخل فيها ـ مع الإقناع الفكري ـ أسلوب الموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب، وأسلوب استخدام القصص والأمثال وفنون القول المحرّك للعواطف، والمثير للانفعالات التي تُهيِّئ المناخَ النفسيَّ للاستجابة، ويدخل في الخطابة تنويع أساليب الأداء والعرض للأفكار التي يُراد عرضها، وتصريف لهجات الصوت ونغماته بما يُلائم المضامين الفِكريَّة، ما بَينَ ترقيق وتحزين، وإثارة وتهييج، ودغدغة طيبة لمختلف انفعالات النفس.

وفي الخطابة كم يَجود بخيل، وَيشجُع جبان، ويبكي ضاحك، ويضحك

---

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٨٣.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٨٣.

باكٍ، ويفرح حزين، ويحزن فرحان، ويتسلّى مهموم، ويَهتمُّ سالٍ، وفي لسان الخطيب المُفوَّه الحكيم أدوات التسخين والتبريد للنفوس والقلوب والأفكار وقيادتها بامتلاك المشاعر، واستمرَّ على ذلك حقبة من الزمن.

ـ **المرحلة الثالثة**: أخذ يُمارس دعوته بأسلوبين: فالذين يرى أن الإعلان لهم لا يُنفِّرهم، يُعلن لهم أفراداً أو جماعات. والذين يرى أنهم يستكبرون عن الإعلان لهم بالدعوة، ويجعلهم يَنفُرُون ابتداءً عن الاستماع له، يزورهم في بيوتهم أو متاجرهم، أو معاملهم، أو مزارعهم، أو أماكنهم الخاصَّة، فيُحدِّثُهم سِرّاً، ويدعوهم إلى دين الله(١).

لقد اختار نوح عليه السَّلامُ الأساليب المناسبة، وتدرَّجَ بها في مجال الدعوة إلى الله وتوحيده، وإفراده بالعبادة، وبيَّن نوح عليه السَّلامُ أن السِّرِّيَّة والعلنيَّة ليسا منهجين وأسلوبين ثابتين في العمل الدَّعَويِّ، وإنما ذلك يتحدَّد حسب الظروف والإمكانات المتوافرة، ومصلحة العمل وحجم القوى المضادة، والأهداف القريبة والبعيدة المُتوخّاة.

ولقد مارس نوح عليه السَّلامُ دعوته ابتداءً علانية وجهاراً، ولما اشتد الضغط والعَنَتُ عليه التجأ إلى الأسلوب السريِّ، حيث إن الإجهار لم يعد من المصلحة، بل قد يكون مُضِرّاً لجهوده ورسالته، وأنه عليه السَّلامُ يُمكن أن يعمد إلى العلنية والتحرُّكِ المكشوف كلَّما شعر بالاطمئنان المعقول، وعدم المخاطرة برسالته وأتباعه وجهده، ولذا فإن السرية والعلنية مسألة تفرضهما الظروف الموضوعية، وهذا ما انتهجه نوح عليه والسلام، وهي سُنَّة سار على نهجها رسولنا محمد ﷺ(٢).

كان نوح عليه السَّلامُ مجتهداً في الدعوة إلى الله، وبذل غاية جهده، وكان

---

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٨٣.
(٢) عبود الراضي، في رحاب قصص الأنبياء، ١/ ١٢٣.

يدعو قومه في الأوقات والظروف والحالات المختلفة في جدّية ودأب واجتهاد، وواصل سعيَه في الدعوة «ألف سنة إلا خمسين عاماً»، قِمَّةً في الجهد، وعظمةً في المثابرة، وتألُّقاً في الاجتهاد الذي لا نظير له، تسعمائة وخمسون عاماً يعمل بدأب ليل نهار، في السِّرِّ والعلن، إنه لأمر عظيم، بل الصورة المثلى في عالم الدعوات الإلهية على الأرض، وإنه بحقٍّ نموذج فذٌّ، وقدوة في عالم الجد والاجتهاد في سبيل إعلاء كلمة الله سبحانه، ولم تتجسّد إلا عند مَن اجتباهم الله واصطفاهم لرسالته، ومَن سار على هداهم، واقتفى أثرهم واستلهم قبساً من سيرتهم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] [١].

ثانياً: ترغيب نوح عليه السَّلامُ قومه وحثُّهم على الاستغفار:

رغّب نوح عليه السَّلامُ قومه بالاستغفار حتى تتنزّل عليهم الخيرات، قال تعالى: ﴿ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ﴿١٠﴾ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴿١١﴾ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢].

بعد دعوة نوح الأولى لقومه وإصرارهم على الكفر والفسوق والعصيان، واستكبارهم عن اتِّباع رسول ربِّهم إليهم، صاروا على علم بمضمون دعوته، غير خالي الأذهانِ من أركان الإيمان، وقواعد الدين الكبرى، ولم يبقَ لهم عُذرٌ بعد التَّبليغ، وصاروا كفرة مُذنبين عن إرادة جازمة وتصميم، ولا بدَّ أن يكون نوحٌ قد أبان لهم أنهم كَفَرةٌ مذنبون، ولذلك تحوّل عليه السَّلامُ مع قومه من الدعوة إلى مبادى الإيمان، وقواعد الدين الكبرى إلى بيان ما يجب عليهم من الإقلاع عن الذنوب التي هم غارقون فيها من الكفر إلى كل ما دونه من فسوق وعصيان[٢].

فحثَّهم على الاستغفار والتوبة إلى الله سبحانه، وأنه سبحانه وتعالى يقبل منهم التوبة مهما عظمت ذنوبهم وتكاثرت خطاياهم، فكأنه يقول لهم:

---

(١) عبود الراضي، في رحاب قصص الأنبياء، ١/ ١٢٣.
(٢) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٨٥.

لا تجعلوا خطاياكم الكثيرة حاجزاً بينكم وبين التوبة، ولهذا جاء بصيغة المبالغة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾، حثّاً لهم وتشجيعاً لهم واستنهاضاً لِهِمَمِهم، فإن القوم من كثرة ذنوبهم مُنع عنهم المطر من السَّماء، وأجدبت الأرض وضاقت بهم أنفسهم[١].

١ ـ ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾:

أي: فقلتُ لهم: اطلبوا من الله أن يغفر لكم ذنوبَكم، ومعلوم أنه لا يستغفر الله من ذنبه إلا من صحّ إيمانه، وأقلع عن ذنوبه، فهو إذن يدعوهم إلى الإقلاع عما هم فيه من كفر وفسوق وعصيان، ويدعوهم إلى طلب المغفرة من الله بعد ذلك[٢].

وفي حديث نوح عليه السَّلامُ وتذكيرهم بأهمية الاستغفار، وطلب ذلك من الرَّبِّ جلَّ وعلا ﴿رَبَّكُمْ﴾ أهمية واضحة في التذكير باسم الكريم الرَّبِّ، والرَّبُّ: هو المالك المتصرِّف، ومعنى قوله تعالى ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ربوبيته للعالم تتضمَّن تصرُّفَه فيه، وتدبيره له، ونفاذ أمره كلَّ وقت فيه، وكونه معه كل ساعة في شأن، يخلق ويرزق، ويُميت ويُحيي، ويخفض ويرفع، ويُعطي ويمنع، ويُعِزُّ ويُذِلُّ، ويُصرِّف الأمور بمشيئته وإرادته، وإنكارُ ذلك إنكارٌ لربوبيته وإلهيَّتِه ومُلكِه[٣].

والربُّ هو المُربِّي جميعَ عبادِهِ بالتَّدبير وأصناف النِّعَم، وأخصُّ من هذا: تربيته لأصفيائه بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم، ولهذا كثر دُعاؤُهم له بهذا الاسم الجليل؛ لأنهم يطلبون منه التربية الخالصة[٤].

---

(١) الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، ص ٦٧.
(٢) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٨٥.
(٣) ابن القيم، الصواعق المُرسَلة، ٤/ ١٢٢٣.
(٤) السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ٥/ ٤٨٦.

والربُّ في الأصل التربية، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حدّ التمام[١]، وفيه معنى الحُنُوّ والرعاية والعطف، ونوح عليه السَّلامُ في سيرته كانَ مُستحضراً ومُتعبِّداً وداعياً لله بهذا الاسم فعلى سبيل المثال نجد ذلك:

في قول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾.

وغير ذلك من الآيات التي جاءت على أبدع ما يكون ضمن السياقات المعروفة في قصة نوح عليه السَّلامُ.

ومن آثار الإيمان باسمه سبحانه «الربّ»:

* إن اسم «الربّ» سبحانه وما يستلزم من الأسماء والصِّفات، يتضمَّن تعريفَ النَّاس غايتَهم التي خُلقوا من أجلها، وتعريفهم ما ينفعهم وما يضرُّهم، فكونه ربَّ العالمين لا يليق به أن يترك عباده سدًى هملاً لا يُعرِّفُهم بنفسه ولا بما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، وما يضرُّهم في ذلك، فهذا هضمٌ للربوبيَّة، ونسبة لِلرَّبِّ إلى ما لا يليق: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المُؤمنون: ١١٥].

* الإقرار بربوبيَّة الله عزَّ وجلَّ ـ يقتضي ويستلزم توحيد الله عزَّ وجلَّ ـ وعبادته لا شريك له، إذ إن الخالق لهذا الكون وما فيه والمتصرِّفَ فيه بالإحياء والإماتة، والخلق والرزق، والتدبير هو المستحقُّ للعبادة وحده، إذ كيف يُعبَدُ مخلوقٌ ضعيف، ويُجعل نِدّاً لله تعالى في المحبة والتعظيم والعبادة، وهو لم يَخلُقْ ولا يملك لنفسه تدبيراً، فضلاً عن أنه مملوك لله تعالى، وهذا ما احتجَّ الله عزَّ وجلَّ به على المشركين الذين أقرُّوا بربوبيَّته سبحانه، لكنهم لم يَعبدوه وحدَه، بل أشركوا معه غيرَه، وقد جاءت هذه الاحتجاجات الكثيرة في القرآن الكريم

---

(١) المفردات في غريب القرآن، ص ١٨٩.

بأساليب متنوعة منها: قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

* الإيمان بصفة الرُّبوبيَّة لله عزَّ وجلَّ: الإيمان بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، إذ إن من صفات الرَّبِّ سبحانه كونُه قادراً، خالقاً، بارئاً، مُصوِّراً، حَيّاً قَيُّوماً، عليماً، سميعاً، بصيراً، مُحسناً، جواداً، كريماً، مُعطِياً، مانعاً، وقُلْ ذلك في بقية الأسماء والصفات، فكُلُّ أثرٍ من آثار الإيمان بالأسماء الحُسنى هو في الحقيقة راجع إلى ما يتضمَّنه اسم «الرَّبِّ» سبحانه[١].

يقول ابن القيم: إنَّ الربَّ هو القادر الخالق البارئُ المُصوِّر الحيُّ القَيُّوم، العليم السميع البصير، المُحسِن المُنعم الجواد المعطي المانع، الضَّارُّ النافع، المُقدِّم المُؤخِّر، الذي يُضِلُّ مَن يشاء، ويَهدي مَن يشاء، ويُسعد مَن يشاء، ويُشقي ويُعزُّ من يشاء ويُذلُّ مَن يشاء إلى غير ذلك من معاني ربوبيَّته التي له منها ما يستحقُّه من الأسماء الحسنى[٢].

* لما كانَ من معاني «الرَّبِّ» أنه الذي يُربِّي عبادَه وينقلهم من طور إلى طور، ويُنعم عليهم بما يُقيم حياتَهم ومعاشَهم، وهو الذي أحسن خلقَهم، وأعطى كل شيء خلقَه ثم هَدَى، فإنَّ هذه المعاني من شأنها أن تُورِثَ في قلب العبد المحبَّةَ العظيمة لربِّه سبحانَه، وحُبَّ ما يُحِبُّه ومَن يُحبُّه وبغض ما يُبغضه ومَن يُبغضه، والمسارعة في مرضاته وتعظيمه وإجلاله وشكره وحمده الحمد اللائق بجلاله وعظمته وسلطانه وإنعامه.

---

(١) عبد العزيز بن ناصر الجليل، ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها، القسطاوي للطباعة والتجليد وحقوق الطباعة محفوظة للمؤلف، ط١ ٢٠١٨، ص ٩٨.
(٢) المرجع السابق، ص ٩٩.

* لما كانَ من معاني «الرَّبِّ» أنه المُتكفِّل بأرزاق خلقه، وعنده خزائن السَّموات والأرض، له الملك وله الحمد يُحيي ويُميت وهو على كل شيء قدير، فإن هذه الصفات تُورِث في قلب العبد العارف لربِّه سبحانه قُوَّةً عظيمة في التَّوكُّل عليه سبحانه في جلب المنافع، ودفع المضارّ، وفي تصريف جميع أموره، فلا يتعلَّق إلا بالله تعالى، ولا يرجو إلا إيَّاه، ولا يخاف إلا منه سبحانه، إذ كيف يتعلَّق بمخلوقٍ ضعيف مثله لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نُشوراً[1].

* لما كانَ من معاني الرُّبوبيَّة اختصاصُه سبحانه بجلب المنافع ودفع المضارّ، وتفريج الكروب، وقضاء الحاجات، فإن العباد بما أودع الله في فطرهم من معرفة ربِّهم بهذه الصفات ـ يلجؤُون إلى ربِّهم ويَتَضرَّعون إليه في الشَّدائد والملمّات، وينفضون أيديَهم من كلِّ ما سوى الله عزَّ وجلَّ، وكلما عرف العبد ربَّه بأسمائه وصفاته أثَّر هذا في دعائه وقوة رجائه، ولجوئه، وتضرُّعه لربِّه سبحانه، والوثوق بكفايته سبحانه، وقدرته على قضاء الحوائج[2]، وغير ذلك من الآثار في اسم الله عزَّ وجلَّ «الرب».

وقد استعملَ نوح عليه السَّلامُ عبارة «ربكم» في حديثه لقومه، لأن ربوبيَّة الله لهم دائمة لا تتوقَّف على إيمانهم بها، بخلاف عبارة «إلهكم» أيْ: معبودكم، إذ هم لا يعبدون ربهم.

٢ ـ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾:

أي: إن من صفات الله الدائمة أنه كثير المغفرة لعباده، فصيغة «غفّار» من صيغ المبالغة، ووصْف الله بصيغة المبالغة لا مبالغة فيه، بل هي الصِّيغة الأقرب للدلالة على حقيقة صفة الله عزَّ وجلَّ. واستعمال فعل «كان» للدلالة على

---

(١) الجليل، ولله الأسماء الحسنى، ص ٩٨.
(٢) المرجع السابق، ص ٩٨.

الكينونة المستمرَّة، والوجود الدائم، وهكذا سائر النُّصوص التي استعمل فيها هذا الفعل بالنسبة إلى صفات الله عزَّ وجلَّ(١).

و«الغفّار»: سبحانه وتعالى: الستّار لذنوب عباده، والمُسدِل عليهم ثوبَ عطفه ورأفته، ومعنى السَّتر في هذا: أنه لا يكشف أمرَ العبد لِخَلْقه، ولا يَهتِكُ سِترَه بالعقوبة التي تُشهِّره في عيونهم(٢)، وقال ابن القيم:

وهو الغَفُورُ فلو أتَى بقِرابِها مِن غيرِ شِركٍ بَلْ مِنَ العِصيانِ
لأتاهُ بالغُفرانِ مِلءَ قِرابِها سُبحانَهُ هو واسِعُ الغُفرانِ(٣)

قال الشيخ السعدي: الغَفُورُ الذي لم يزل يغفر الذُّنوب، ويَتُوبُ على كلِّ مَن يَتُوبُ(٤). وقال أيضاً: العَفُوُّ والغَفُور والغَفَّار: الذي لم يزل وما يزال بالعفو معروفاً، وبالغفران والصَّفح عن عباده موصوفاً، كل أحد مضطرٌّ إلى عَفوِه ومغفرته، كما هو مضطرٌّ إلى رحمته وكرمه، وقد وعد بالمغفرة لمن أتى بأسبابها، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

ومن ثمار الإيمان بأسمائه «الغَفُور والغفَّار»:

* محبة الله عزَّ وجلَّ وحمده وشكره على رحمته لعباده، وغفرانه لذنوبهم، وهذا الأثر يُثمر في قلب المُؤمِن تَوقِّي معاصي الله تعالى قدر الطَّاقة، وإذا زلّت القدم ووقع المُؤمِن في الذنب فإنه يتذكّر اسمَهُ سبحانه الغَفُور والغفَّار، فسيرى الرَّجاء في قلبه، ويقطع الطريق على اليأس من رحمة الله تعالى، ويُحسن الظَّنَّ بربِّه الذي يغفر الذُّنوب جميعاً.

---

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٨٥.
(٢) الخطابي، تفسير الأسماء، ص ٣٨.
(٣) ابن القيِّم الجوزيَّة، نونية ابن القيم الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، ٢/ ٢٣١.
(٤) عبد الرحمن بن ناصر السعدي، الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمُرسَلين من الكافية الشافية، دار ابن القيم، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ، ص ٧٣.

* فتح باب الرجاء والمغفرة للشاردين عن الله تعالى، والمُسرفين على أنفسهم بعظائم الذُّنوب كما قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

* الإكثار من الأعمال الصَّالِحة والحسنات لأنها من أسباب الحصول على مغفرة الله تعالى للسيئات السَّالفة، قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود: ١١٤]. وقال سبحانه: ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه: ٨٢] [١]. وقال ﷺ: «وأتبعِ السَّيئةَ الحسنةَ تَمْحُها» [٢].

فكانت من مواعظ نوح عليه السَّلامُ الحسنة ترغيبُ قومِه في استغفار ربِّهم، والإيمان به وبرسوله وإفراده بالعبادة، وبيّن لهم ولِمَن جاء بعدَهُم ثمارَ قانون الاستغفار الرَّبانيِّ، والذي من أهم ثماره:

٣ ـ ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾:

أيّ: يُنزّل الأمطار على بلادكم غزيرةً وافرة، وجاء استعمال فعل «يُرسل» بدل «ينزِّل»، لما في الإرسال من معنى تأدية المُرسَل مُهِمَّةً كُلِّف أن يُؤدِّيَها، وحُدِّدت له وظيفته فيها، وهذا ما يسمّى «الإرداف» عند علماء البديع، وهو اختيار لفظ بدل لفظ آخر هو الأصل في تأدية المعنى، وذلك لغرض بلاغي.

* جاء إطلاق «السَّماء» على الأمطار؛ لأنها كانت في جهة العُلُوِّ سحاباً، فهي سماء، إذ كلُّ ما هو في جهة العُلُوِّ بالنسبة إلى ساكن الأرض سماءٌ لغةً، وكل ما علاك فأظلَّكَ فهو سماء لغة[٣].

---

(١) عبد العزيز بن ناصر الجليل، ولله الأسماء الحسنى، ص ٥٧٠.
(٢) صحيح الترمذي، رقم ١٦١٨.
(٣) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٨٦.

والمقصود بالسَّماء هنا ـ والله أعلم ـ ماء المطر، وإن كانَ من أسمائه عند العرب السَّماء، وفي الصَّحيحَينِ عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: صَلَّى بنا رسولُ الله ﷺ صلاةَ الصُّبحِ بالحُديبيةِ على أَثَرِ سماءٍ كانَت منَ اللَّيلِ(١).

* ﴿عَلَيۡكُم﴾: أيْ: على أرضكم وبلادكم ومزارعكم لمنافعكم وسُقياكم وسُقيا أنعامِكم، ودوابّكم(٢).

* ﴿مِّدۡرَارٗا﴾: أيْ: إن استغفرتم ربَّكم يُرسِلِ المطر عليكم مُتتابعاً، كثيرَ الدُّرورِ والغَزارة، فيَكثر الخير والخصب والغلال والثمار، ويعمُّ الرَّخاء والاطمئنان، والسعادة والاستقرار(٣).

٤ ـ ﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ﴾:

المال والبنونَ من أُولى مطالب الإنسان في الحياة الدُّنيا، وهما مزيّنان للناس فيها، وقدَّمَ الأموال لتعلُّق قوم نوح بها، في المرتبة الأولى، وأما مُعظَم النَّاس فالأولويات عندهم جاءت في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

أو يقال برجحان: إن مقداراً من المال لا يَصل إلى القناطير المقنطرة يُطلب قبلَ النِّساء والبنين، ثم إن الاستزادة من الأموال تُطلب بعد البَنين، فلكلٍّ من النَّصَّينِ دلالتُه، وهما يتكاملان في الدلالة على حال النَّاس، ونظير تقديم المال

(١) البخاري، رقم ٩٩١. وانظر: أحمد سليمان الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، ص ٢٣٠.
(٢) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٨٦.
(٣) وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ، (٢٩/ ١٤٢).

على البنين بمقتضى هذا التعليل ما جاء في سورة الكهف، قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]. وكذلك جاء في نصوص أخرى مُتعدِّدة في القرآن الكريم(١).

٥ ـ ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾:

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ﴾ أي في الدَّارين ﴿جَنَّٰتٍ﴾ أيُّ بساتين عظيمة، ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ يخصّكم بذلك عمَّن لم يفعل ذلك، فإن من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هَمٍّ فرجاً، ومن كل ضيق مَخرجاً(٢).

إنَّ الاشتغال بطاعة الله سببٌ يُوجب زيادة البركة والنَّماء، وانفتاح أبواب الخيرات، وإدرار الأمطار، وزيادة الغلال، ووفرة الثمار، وقد وعدهم الله على الطاعة بخمسة أشياء: إنزال المطر، والإمداد بالأموال، والبنين، وجعل الجنات «البساتين»، وجعل الأنهار(٣).

وعن الحسن البصري: أن رجلا شكا إليه الجدب فقال: استغفر الله، وشكا إليه آخر الفقر، وآخر قِلَّة النَّسل، وآخر قِلَّة ريع أرضِه، فأمرهم كلَّهم بالاستغفار، فقال له بعض القوم: أتاك رجال يشكون إليك أنواعاً من الحاجة، فأمرتهم كلَّهم بالاستغفار، فتلا له الآية ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾.

ويلاحظ أن الخَلْق مجبولون على محبّةِ الخيرات العاجلة، لذا أطمعهم نوح بالخيرات في هذه الآية، وآية الاستغفار هذه دليل على أن الاستغفار يُستنزَل به الرزق والأمطار، قال الشعبي: خرج عمر يَستسقي، فلم يزد على الاستغفار حتى رجع، فأُمطروا، فقالوا: ما رأيناك استسقيتَ؟ فقال: لقد طلبت بمجاديح

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٨٧.
(٢) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (٨/ ١٦٩).
(٣) د. وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، (٢٩/ ١٤٥).

السَّماء التي يُستنزَل بها المطرُ ثم قرأ: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ (١).

إنَّ من أسباب الرَّخاء في الأفراد والمجتمع اللجوء إلى الله بالتوبة والاستغفار، وقد ربط الله عزَّ وجلَّ في كتابة الكريم بَينَ الاستغفار والتوبة، ونزول الغيث، وزيادة القوة، وكثرة الأولاد والبنين، والمتاع الحسن، هذا ما بيّنه الله في كتابه على لسان نوح عليه السَّلامُ مخاطباً قومه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢].

ففي هذه الآية دليل على أن الاستغفار يُستنزَل به الرِّزقُ، فنوح أمرهم بالاستغفار والذي هو الإقلاع عن المعاصي، وطَلَبِ المغفرة من الله على الذُّنوب السابقة، وهذا ربط بَينَ القيم الإيمانية والقيم المادية، فما كانَ للحياة المادية أن تسير في عُزلة عن هذه القيم الأصيلة، وما كانَ لها أن تُؤتي ثمارَها من دونها، ولئن كانَ يبدو لنا في بعض الأحيان من حياة الأمم أن هذه القاعدة لا تنطبق، إلا أن هذا هو الابتلاء بعينه، والذي يقول فيهم القرآن: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

ثم إن ذلك الرَّخاء الذي لا يستند إلى قيمة الإيمان، إنما هو رخاء زائف مَوقوتٌ بالنسبة لأعمار الشعوب والدول والحضارات، رخاء تأكله آفاتُ الانحلال الاجتماعي والانحلال الأخلاقي، والظُّلم والبغي وإهدار كرامة الإنسان، وما المجتمعات الأوربية المنحلّة حديثاً إلا أكبر شاهد على ذلك(٢).

---

(١) مجاديح: جمع مجدح: وهو نجم من النجوم، وهو عند العرب من الأنواء الدالة على المطر، فجعل الاستغفار مشبهاً بالأنواء مخاطبة لهم بما يعرفونه لا قولاً بالأنواء. يمكن النظر في: وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ٢٩/١٤٦.

(٢) شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب، السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، الدار العثمانية، عمان، الأردن، ط١ ٢٠٠٤م، ١/٤٢٣.

ثالثاً: دعوة نوح عليه السَّلامُ إلى التَّفكُّر في آيات الله في الأنفس والسَّموات والأرض وما فيهن:

قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٣ ـ ٢٠].

نمضي مع نوح ـ عليه السَّلامُ ـ في جهاده النبيل الطويل، فنجده يأخذ بقومه إلى آيات الله في أنفسهم وفي الكون من حولهم، وهو يعجب من استهتارهم وسوء أدبهم مع الله، ويُنكر عليهم ذلك الاستهتار(١)، في خطاب عقليٍّ على أُسس منطقية خاضعة للدليل والبُرهان.

١ ـ ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾:

* ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾: أيْ: ما لكم لا تخافون عظمة الله، فتُوحِّدوه وتطيعوه، وهذا استفهام إنكاريّ تعجّبي، أيْ: ما الصّارف أو الباعث أو المُفسد لكم حال كونكم لا تخشون ولا تخافون الجليل العظيم، الذي إذا شاء أهلكَكُم وعذَّبكم عذاباً شديداً بها، لأن هذه العظمة تشتمل على كمال صفات القدرة والعلم والعدل، وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كن فيكون، وإنكم لن تُعجزوه في شيء(٢).

* ﴿وَقَارًا﴾: يأتي الوقار في اللغة بمعنى الحِلم والرَّزانة، والسَّكينة والوداعة، والعظمة، وهذا المعنى الأخير هو المعنى المناسب للآية. والمعنى الظاهر: ما لكم لا تتوقَّعون آثارَ عظمة الله وجلاله، من ثواب وعقاب، وجاءت كلمة ﴿وَقَارًا﴾ مُنكَّرة لما في التنكير ـ هنا ـ من دلالة على أنه وقار عظيم جدّاً عظمةً أجلَّ

---

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/ ٣٧١٣.
(٢) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٨٨.

من أن تُوصف، إذ هي تنطلق إلى غير نهاية.

وأما عبارة ﴿مَّا لَكُمْ﴾ مبتدأ وخبر، والمعنى: أيُّ شيءٍ حصل لكم، أيْ: لعقولكم وأفكاركم ومداركِكُم وقلوبكم ونفوسكم فأفسدها وصرفها عن ترقُّب وعدِ الله العظيم، الذي يرغب فيه ويطمع العقلاء أولو الألباب، وصرفها أيضاً عن ترقّب وعيد الله العظيم، الذي يخشاه ويخافه العقلاء أولو الألباب؟ أُغشِيَ على مداركِكم فصرتم لا تُدركون دلائل آيات الله المشهودة، والمسموعة، فلا تخافون عقاب الله ولا تطمعون في ثوابه يوم الدين، وهما من آثار عظمته وجلاله.

* ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾: ما لكم لا تتوقَّعون ثوابَ الله وعقابَه اللّذين هما من آثار عظمته الظاهرة آثارُها في خلقه، والحال قد خلقكم أطواراً من تراب إلى غذاء إلى نطفة إلى علقة إلى مضغة مُخلَّقة وغير مُخلَّقة، إلى جنين، إلى طفل وهكذا؟.

أمَا دَلَّتْكم آثار هذه العظمة الجامعة لكلِّ صفات الكمال على أنه لا بدَّ أن يكون من آثارها أيضاً بعثُكم وحسابُكم ومجازاتكم على أعمالكم في يوم مُعدٍّ للجزاء، فيه دارٌ للثواب ودار للعقاب؟.

* ما الداعي لإنكار طور العودة، وأنتم تشاهدون أطوار النشأة الأولى؟

أطواراً: جمع طور، وكلمة «طور» تأتي في اللغة بمعنى «تارةً» فيقال: طوراً بعد طور، أيْ: تارةً بعد تارةً، وتأتي بمعنى الحال والوصف المتميّز بخصائصه ومقاديره الذي يتحوَّل بعد ذلك إلى وصف آخر متميّز بخصائصه ومقاديره، وهكذا، فمثلاً:

* يخلق الله الشيءَ أولاً من التراب، فيكون نباتاً «هذا طور».

* ثم يتغذى منه الإنسان، فيخلق الله من الغذاء دماً «وهذا طور آخر».

* ثم يخلق الله من الدّم نطفة «وهذا طور ثالث».

* ثم يخلق الله من النطفة علقة «وهذا طور رابع».

* ثم يخلق الله من العلقة مضغة «وهذا طور خامس».

وهكذا تتابع الأطوار حتى يكون الجنين إنساناً سَوِيّاً، فخلق الشيء في صفات مُتَحوِّلات من وضع إلى وضع هو الخلقُ في أطوار.

ويُنبِّه الخلقُ ضمن نظام الأطوار دواماً على التَّفكُّر في صفات الخالق المُدبِّر الحكيم، والعليم القدير، إذ كل طورٍ من أطوار الخلق يُوجِّه أنظارَ المُتفكِّرين لعمل الخالق في أحداث طورٍ في الخلق بعد طور، ولو بقي الخلق على طور واحد دواماً لما حدث هذا التنبيه، ولَبَدا للنَّاظر إليه أن وضعه الطبيعي الدائم هكذا، فهو لا يحتاج خالقاً[١].

وفي قول نوح عليه السَّلامُ لقومه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣ ـ ١٤] توجيه للتبصُّر والتَّفكُّر في آيات عظمة الله وقدرته في الخلق، الدَّالَّة على شمول علمه، وعظيم حكمته وقدرته وعدله، وإدراك هذه الصفات يهدي المُتفكِّر إلى حقيقة البَعث للحساب والجزاء، وأن يوم الدِّين حَقٌّ لا ريب فيه، وهو توجيه ليتفكروا في أنفسهم وخَلْق الله لهم، حتى يتوصَّلوا إلى العلم، فالإيمان بصفات الله العظمى[٢].

* ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾: فالأطوار التي يُخاطَب بها قوم نوح في ذلك الزمان لا بدَّ أن تكون أمراً يُدركونَه، أو أن يكون أحد مدلولاتها مما يملك أولئك القوم في ذلك الزمان أن يُدركوه؛ ليرجو من وراء تذكيرهم به أن يكون له في نفوسهم وَقعٌ مُؤثِّر، يقودهم إلى الاستجابة، وهذا يمكن أن يُدركَه القوم إذا ذُكر لهم؛ لأن الأجنَّةَ التي تسقط قبل اكتمالها في الأرحام، يُمكن أن تعطِيَهم فكرةً عن هذه الأطوار، وهذا أحد مدلولات هذه الآية. ويُمكن أن يكون مَدلولُها ما يقوله علم

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٩٢.
(٢) المرجع السابق، ص ١٩٣.

الأجِنَّة، من أن الجنين في أوَّل أمره يُشبِهُ حيوانَ الخَليَّة الواحدة، ثم بعد فترة من الحمل يُمثِّل الجَنينُ شِبْهَ الحيوان المُتعدِّد الخلايا، ثم يأخذ شكل حيوان مائيٍّ، ثم شكل حيوان ثَديِيٍّ، ثم شكل المخلوق الإنساني، وهذا أبعد عن إدراك قوم نوح، فقد كُشف هذا حديثاً جدّاً، وقد يكون هذا هو مدلول قوله تعالى في موضع آخر بعد ذكر أطوار الجنين: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المُؤمِنون: ١٤]، كما أن هذا النَّصّ وذاك قد تكون لهما مدلولات أخرى لم تتكشَّفْ للعلم بعدُ، فلا نُقيِّدهما[١].

ومما لا شكَّ فيه إن قوم نوح لديهم شيء من المعرفة المتعلِّقة بخلق الإنسان، ولذلك استنكر نوح عليه السَّلامُ عدم الاعتبار بهذا العلم الدالِّ على خالق واحدٍ ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣ ـ ١٤] [٢].

وعلى أية حال فقد وجه نوح قومه إلى النظر في أنفسهم، وأنكر عليهم أن يكون الله خلقهم أطواراً، ثم هم بعد ذلك لا يستشعرون في أنفسهم توقيراً للجليل الذي خلقهم، وهذا أعجب وأنكر ما يقع من مخلوق[٣].

وبعد أن وجَّهَهُم نوحٌ عليه السَّلامُ للتفكُّرِ في أنفسهم وَجَّهَهُم أيضاً للتفكُّر في آيات الله، في السَّموات، وآيات الله في النبات، وآيات الله في الأرض.

أشار نوح عليه السَّلامُ إلى الظواهر الكونية المُتقَنة العظيمة في السَّموات والأرض، للدلالة العقلية على تتابع تصاريف الخلق فيها بإتقان تامٍّ دون خالق عظيم، له كلُّ صفات الكمال، التي منها العلم الشامل والقدرة العظيمة المُكافئةُ لتصريف هذه المُكوِّنات العُظمى، والحكمة البالغة والعدل والعناية والرَّحمة[٤].

---

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/ ٣٧١٤.
(٢) عبد الرحمن حللي، رسالات الأنبياء دين واحد وشرائع عدة، مركز نماء للدراسات، بيروت، لبنان، ط١ ٢٠١٥م، ص ٥٩.
(٣) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/ ٣٧١٤.
(٤) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٩٤.

إنَّ التَّفكُّر والتَّأمُّل بالعقل النيِّر والفكر المُستنير بصفاء الفطرة في الأنفس وفي السَّموات والأرض وما بينهما يقود الإنسان السَّوِيَّ إلى توحيد الله عزَّ وجلَّ وإفراده بالعبودية والدينونة له، والاستعداد ليوم الدين والحساب والجزاء الأُخرَوِيّ.

٢ ـ ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾:

استخدم نوح ـ عليه السَّلامُ ـ المُحاججة العقلية، وخاطبهم بالعقل والمنطق، ودعاهم إلى التَّفكُّر والتَّدبُّر في مفردات خَلق العالم، التي تُحيط بهم من سماء وأرض، وإنسان وزرع، وشجر وشمس، ونجوم وقمر، ذلك أن لا بدَّ لهذه المخلوقات من خالق ورَبٍّ ومُنشِئٍ، إذ لا يُمكن أن تكون هذه الموجودات دون خالق، أو إرادة صانع، أو يكون وجودها عبثاً وسدًى، لقد طلب من قومه أن يستخدموا عقولَهم، وينظروا إلى هذه النِّعَم التي لا تُحصى، والآيات البيِّنات والخلق العظيم ببصائرهم، ويتدبَّروا في خلقها، ويستسلموا لخالقها، ويُؤمنوا به ويطيعوه[1].

فبدأ نوح بالدعوة إلى التَّفكُّر والتَّأمُّل في كيفية خلق الله للسماوات السبع، فلفتَ أبصار قومه إلى أن الله عزَّ وجلَّ هو الخالق للسماوات الطِّباقِ وما فيهن، وهذا قد يكون من القضايا المُسلَّمة لديهم باعتبارها من بقايا الموروثات التي ورثتها البشرية عن آدم والمُؤمِنين من ذريته، وهذا هو الظاهر، وإما أن يكون من الأمور التي أقام لهم الدليل عليها حتى سلَّموا بها، وبعد ذلك أراد أن يَنقُلَهم إلى الإقناع بما لم يُسلِّموا به بالاستناد إلى ما سلّموا به، وكون السَّموات سبعاً، وكونها طباقاً أمران خبريان ورثهما نوح وقومه من أبينا آدم عليه السَّلامُ ومن تعليم الله له.

وهي دعوة من نوح عليه السَّلامُ لقومه للتفكير والبحث، ومن خلال التَّأمُّل

---

(١) عبود الراضي، في رحاب قصص الأنبياء والرُّسُل، ١/ ١١٥.

والتَّدبُّر المستقيم يصل الإنسان إلى إدراك عظمة الله عزَّ وجلَّ.

وأضاف نوح عليه السَّلامُ أنها سبعُ سماواتٍ طباقٍ، أي فابحثوا وتتبعوا ما انفتحت أمامكم طرق البحث والتتبُّع، فإن من النَّاس من سيأتي ويبحث ويتوصَّل إلى ما جاء في الخبر عن السَّموات السَّبع الطِّباق.

وسؤال نوح لهم عن كيفية خلق السَّمواتِ السَّبعِ الطباق هو سؤال لهم عن حالة إتقانها البديع، الظاهرة آثارُها في المشاهدات المتكرِّرة مع توالي الأزمان في ساعات الليل والنهار دواماً، لانتزاع اعترافهم بكمال صفات الرَّبِّ الخالق، والانتقال بهم إلى حقِّ ربوبيَّته ومسؤوليتَّهم في الحياة الدُّنيا تُجاهه، فإلى قانون الدينونة والحساب والجزاء، فإلى الإيمان بيوم الدين. وقد جعل الله السَّموات السَّبعَ طباقاً، أيْ: جعل بعضَها فوق بعض، كثوب داخل ثوب، أو كُراتٍ متداخلات بعضُها داخل بعض[١].

والاستفهام في: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟﴾: يتضمَّن هدفين: **الهدف الأول**: اللوم على عدمِ الاستفادة من هذه المعرفة بالإيمان، وبالخوف من عذاب الله ونقمته، إذا كانَ جواب الاستفهام: «بلى»، و**الهدف الثاني**: توجيه أنظار المخاطبين، لهذه الرؤية التَّفكُّريَّة في خلق الله العظيم للتوصُّل من خلالها إلى إدراك ما يُدهش من عظمة الله ووقاره، فالإيمان به وبرسوله وبمضمون رسالته، فالخوف من عقابه مع رجاء ثوابه على الإيمان والعمل الصَّالِح واتِّباع الرَّسول[٢].

٣ ـ ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾:

يُلاحَظ أن نوحاً ـ عليه السَّلامُ ـ قد أبان لهم فيما لفتَ أنظارَهم إليه أن القمرَ نورٌ، وأن الشمسَ سِراجٌ، ويظهر أنهم كانوا يُفرِّقون بَينَ النُّور والسِّراج، إنهم إذا جلسوا في نور القمر طوال ليلة مقمرة لم يشعروا بأية حرارة لنوره الذي يمتد

---

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٩٥.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٩٦.

إليهم، بخلاف ما لو جلسوا في النهار في ضياء الشمس، فإنهم يشعرون بالحرارة، وقد تَصِل إلى حدّ لذع أجسادهم، كما يفعل السراج المشتعل بالنار، فإنه يعطي ضياءً مصحوباً بحرارة، وشعلته تَحرقُ مَن مَسَّها.

وهذا الذي كانَ قوم نوح يُدركونه بالحسِّ دون أن يكونوا على علم بتفسيره، وتحديد أسبابه، هو من ظواهر عناية الله بخلقِه، أن يُدركوا أنهم بحاجة إلى ضياء حار، يبعث بالحرارة باتجاه الأرض، من أجل حياة النَّاس فيها، فهي الوقود الضروري للحياة على وجه الأرض، ويدركوا أنَّ الأرضَ بحاجة إلى مدَّةِ راحةٍ من وطأة حرارة الشمس، فجعل الله لهم الليل، الذي تغيب فيه الشمس، ويدركوا أنهم بحاجة في الليل إلى نور بارد، لا تصاحبه حرارة، فجعل الله لهم القمر.

أليس كل هذا التدبير الكوني من عناية الله بالنَّاس، ومن الآيات الدالات على عظمته وجلاله ووقاره؟

وهذا ما لفتَ نوحٌ عليه السَّلامُ أنظار قومه إليه، وأما التفسير العلمي لكون القمر نوراً، وكون الشمس سراجاً، فمتى وصل النَّاس إليه أدركوا أن البيان الدينيَّ قد ألمحَ إليه، ليدلَّ على أن الدين حقٌّ، وأنَّ كلَّ بيانه صدق، فمُنزِّل الدِّين هو خالق الكون والعليم به[1].

السِّراج: هو فيما يعرف النَّاس شيء يُوقد فيُعطي شعلة نار مضيئة، والشمس في حقيقتها التي توصّل إليها العلماء، بعد آلاف السنين من عصر نوح، كرةٌ ناريَّة كبرى، سابحة في السَّماء، فاتَّفق الإلماح في البيان الدينيِّ مع ما توصَّلَت إليه المعارفُ الإنسانية بعد آلاف السنين.

وأما النور: فكاشفٌ للظلمة والنَّاسُ يُفرِّقون ـ منذ عهد نوح ـ بينه وبين الضياء الحارِّ الذي ينبعث من النار المشتعلة، إذ كانَ النَّاس يعرفون أنواراً باردة لا حرارة

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٩٧.

فيها، أقربها إلى النَّاس البدائيِّين ما يشاهدونه من انعكاس الأضواء عن الأشياء الصَّقيلة العاكسة للنُّور، كالمرآة، وهذه الكواشف المنعكسة باردة لا حرارة لها.

والقمر في حقيقته جسم في السَّماء يعكس ضياء الشمس عليه، فيأتي إلى الأرض نوراً: فاتَّفق الإلماح في البيان الدينيِّ مع ما توصلت إليه المعارف بعد ألوف السنين، قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾: أيْ: عاكساً نوراً، أو باثّاً نوراً أو ذا نور، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾: أيْ: جعل الشمس فيهن كالسِّراج، فهو من التشبيه البليغ، أو هي سراج كونيٌّ كبير يُناسب حجم الأرض وحاجتها(١).

وهكذا وجَّه نوح عليه السَّلامُ قومَه إلى التَّفكُّر والتَّأمُّل والتَّدبُّر في كتاب الكون المفتوح، وهي دعوة لإشارة التَّطلُّع فيما وراء هذه الخلائق الهائلة من قدرة مُبدِعة، وهذا هو المقصود من ذلك التوجيه، ثم عاد نوح فوجَّه قومه إلى النظر في نشأتهم من الأرض وعودتهم إليها بالموت لِيُقرِّرَ لهم حقيقةَ إخراجهم منها بالبَعث(٢).

٤ ـ ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾:

إنَّ التعبير عن نشأة الإنسان من الأرض بالإنبات تعبير عجيب مُوحٍ، وهو يُكرَّر في القرآن في صُورٍ شتَّى، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨]، وهو يُشير في هذا إلى نشأة النَّاس كنشأة النبات، كما يَقرِنُ نشأةَ الإنسان بنشأة النبات في مواضع مُتفرِّقة في القرآن الكريم، وهي ظاهرة تستدعي النظر ولا ريب، فهي توحي بالوحدة بَينَ أصول الحياة على وجه الأرض، وأن نشأة الإنسان من الأرض كنشأة النبات الذي يتكوَّن من عناصرها الأوَّلية، ومن

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٩٨.
(٢) السيد قطب، في ظلال القرآن، (٦/ ٣٧١٤).

عناصرها الأولية يتغذّى ويَنْمو، فهو نباتٌ من نباتها، وَهَبَه الله هذا اللَّون من الحياة كما وهب النبات ذلك اللَّونَ من الحياة، وكلاهما من نتاج الأرض، وكلاهما يرضع من هذه الأمّ، وكذلك يُنشِئُ الإيمانُ في المُؤمِن تَصوُّراً حقيقيّاً حيّاً لعلاقته بالأرض وبالأحياء، تصوُّراً فيه دِقَّةُ العلم وفيه حيويَّةُ الشعور؛ لأنه قائم على الحقيقة الحيَّة في الضَّمير، وهذه ميزة المعرفة القرآنية الفريدة. والنَّاس الذين نبتُوا من الأرض يَعودُونَ إلى جوفها مرةً أخرى، يُعيدهم الله إليها كما أنبتهم منها، فيختلط رفاتُهم بتربتها، وتندمج ذراتهم بذرَّاتها، كما كانوا فيها من قبل أن ينبتوا منها، ثم يُخرِجُهم الذي أخرجَهُم أوَّل مرة ويُنبتهم كما أنبتهم أوَّلَ مرَّةٍ، وهذه مسألة سهلة يسيرة لا تستدعي التوقُّف عندها لحظة، حين ينظر الإنسان إليها من هذه الزاوية التي يعرضها القرآن منها.

وقد وجَّه نوحٌ عليه السَّلامُ قومَه إلى هذه الحقيقة؛ لتستشعر قلوبُهم يَد الله وهي تُنبتهم من هذه الأرض نباتاً، وهي تُعيدُهم فيها مرة أخرى، ثم تتوقَّعُ النشأة الأخرى وتحسبُ حسابَها، وهي كائنة بهذا اليُسر وبهذه البداهة التي لا تقبل جَدَلاً[١].

ومن هنا نُدرِكُ أن قضية البَعث ليوم الدين، من الحقائق التي بَلَّغها جميعُ الرُّسُل لأُممهم، إذ هي داخلة في برنامج التَّكوين الرَّبانيّ منذ قضت إرادة الله عزَّ وجلَّ بأن يخلق النَّاسَ لِيَبلُوَهم في الحياة[٢].

٥ ـ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾:

وجَّه نوحٌ عليه السَّلامُ قومَه إلى نعمة الله عليهم في تيسير الحياة لهم على هذه الأرض وتذليلها لسيرهم ومعاشهم وانتقالهم وطرائق حياتهم: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾[٣].

---

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/ ٣٧١٥.

(٢) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٢٠٠.

(٣) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/ ٣٧١٥.

﴿بِسَاطًا﴾: أي كالبساط في سُطوحها على دائرة كرتها، فهي ذات سهول منبسطة واسعة وذات سطوح مختلفة، صالحة للحَرثِ والزَّرع واتِّخاذ المزارع والبساتين الواسعة فيها، ولإقامة المدن والقُرى، وشَقِّ الطُّرق التي تُقرِّب المسافات الشاسعات، فليست كل الأرض جبالاً ذوات رؤوس عالية، وودياناً سحيقة، وأغواراً، وليست هي كظهر القنفذ، بل هي بسطوحها المنبسطة صالحة لتسهيل مصالح النَّاس عليها، ولو كانت على غير هذه الصفة، لاشتدّ على النَّاس اتِّخاذ سبل الحياة والرزق والتنقل في أرجائها على أرضها. ﴿لِّتَسْلُكُواْ﴾: أيْ: لتدخلوا وتعبروا. ﴿سُبُلًا﴾: جمع سبيل، والسبيل هو الطريق سواء أكان ضيقاً أو واسعاً، ويُطلقُ على الطريق في الأرض وفي الجو، وفي البحر، وعلى الماديِّ والحِسِّي، وعلى المعنويِّ والفكري. ﴿فِجَاجًا﴾: جمع فجّ، وهو الطريق الواسع، أيْ: لتسلكوا من الأرض طرقاً مختلفة واسعة[(١)].

وخاطبهم نوحٌ عليه السَّلامُ بحقيقة قريبة من مشاهدتهم وإدراكهم، واجهتهم مواجهة كاملة، ولا يملكون الفرار منها كما لا يَفِرُّون من صوت نوح وإنذاره، فهذه الأرض بالقياس إليهم مَبسوطَةً مُمهَّدة، حتى جبالها قد جُعل عبرَها دروبٌ فجاجٌ، كما جعل في سهولها من باب أولى، وفي سبلها ودروبها يمشون ويركبون وينتقلون ويبتغون من فضل الله، ويتعايشون في يُسْرٍ وتبادُلٍ للمنافع والأرزاق، وهم كانوا يُدركون هذه الحقيقة المشاهدة دون حاجة إلى دراسات علمية عَويصة يدرسون بها النواميسَ التي تَحكُم وجودَهم على هذه الأرض، وتُيسِّر لهم الحياة فيها، وكلما زاد الإنسان علماً أدرك من هذه الحقيقة جوانبَ جديدةً وآفاقاً بعيدة[(٢)].

هكذا سلك نوح عليه السَّلامُ ـ أو حاول أن يسلك ـ إلى آذان قومه وقلوبهم

---

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٢٠٠.
(٢) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/ ٣٧١٥.

وعقولهم بشتى الأساليب، ومُتنوِّع الوسائل في دأب طويل، وفي صبر جميل، وفي جهد نبيل، ألف سنة إلا خمسين عاماً، ثم عاد إلى ربِّه الذي أرسله إليهم، يُقدِّم حسابه، ويبثُّ شكواه، في هذا البيان المفصل، وفي هذه اللهجة المُؤثِّرة. ومن هذا البيان الدقيق تَطَّلع على تلك الصورة النبيلة من الصبر والجهد والمشقة، وهي حلقة واحدة من سلسلة الرسالة السماوية لهذه البشرية الضَّالَّة العَميَّة، فماذا كانَ بعد كل هذا البيان[١].

رابعاً: شكوى نوح عليه السَّلامُ من معصية قومه له ودعاؤه عليهم:

قال تعالى: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾
وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ
وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا
فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾
إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن
دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢١-٢٨].

لما عرض نوح عليه السَّلامُ دعوته بطرق مُتعدِّدة، وبأساليب متنوعة، تشوَّفتِ النفوس لمعرفة نتيجة هذه الدعوة، هل قَبِلَ قومُه دعوتَه؟ وكيف كانَ قَبولُهم؟ وهل تخلَّفَ منهم أحد بعد هذا البيان والصبر الجميل؟

لقد اتَّبع نوحٌ مع قومه أسلوبَ التَّرهيب والتَّرغيب، وذكَّرَهم بنِعَمِ الله تعالى، ولفتَ أنظارهم للتأمُّل في كيفية خلقهم، وخَلقِ السَّموات والأرض، ولم يألُ جهداً في ذلك، يتساءل المرء بعد هذا كلِّه، ثم ماذا؟ وإذا بالجواب يأتي على لسان نوح عليه السَّلامُ الذي دعاهم إلى طاعته[٢].

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/ ٣٧١٥.
(٢) مجموعة باحثين، التفسير الموضوعي، ٨/ ٣٨١.

١ ـ ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي ﴾ :

بعد كل هذا الجهد، وبعد كل هذا الإنذار والأطماع والوعد بالمال والبنين والرَّخاء، بعد هذا كلِّه كانَ العصيان(١).

٢ ـ ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴾ :

واتَّبعوا أهلَ الأموال والأولاد التي لم تزدهم تلك الأموال والأولاد إلا خساراً؛ لأنهم استغلُّوها في تأييد الكفر والفساد فزادتهم خساراً، إذ لو لم تكن لهم أموال ولا أولاد لكانوا أقلَّ ارتكاباً للفساد(٢).

وبيَّن نوحٌ عليه السَّلامُ أن جماهير قومه اتَّبعوا كبراءَهم وسادتهم الذين احتلُّوا مراكزَ السيادة بَينَ قومه بأمرين هما: أموالهم، وأولادهم، لكن زيادة أموالهم واستغناءَهم بذلك لم يزدهم إلا طغياناً، والطُّغيان زادهم عند ربهم خساراً، فوق الخسار الذي حصل لهم بكفرهم، الذي يشتركون فيه مع سائر قومه، إذ هم قد تحمَّلُوا إثم ضلالِ أنفسِهم، وإثم الأعمال التي أضَلُّوا بها أتباعَهم، فحملوا بذلك مع آثامهم مثلَ آثام من ضَلُّوا بسببهم، فجاء في النَّصّ الاكتفاء بذكر زيادة الخسار الذي هو نتيجة الأعمال الطُّغيانية، عن ذكر هذه الأعمال التي طَغَوا بها، لأن ذكر النتيجة يدلُّ على مقدِّماتها، وذِكرَ المسبَّب يدلُّ على سببه أو أسبابه، وهذا من أساليب القرآن، التي يكتشف دلالتها من تدبَّر القرآن بعمق وأناةٍ وفتح الله عليه(٣).

٣ ـ ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ :

لقد مكروا مكراً مُتناهياً في الكبر، مكروا لإبطال دعوة نوح عليه السَّلامُ،

---

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/ ٣٧١٥.
(٢) عبد الرزاق أدهم الجميلي، العقيدة في القرآن أولو العزم من الرُّسُل نموذجاً، ص ٧٠.
(٣) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٢٠٣.

وإغلاق الطريق في وجهها إلى قلوب النَّاس، ومكروا لتزيين الكفر والضَّلال والجاهلية التي تخبَّطَ فيها القوم(١).

وجاءت «كبّار»: صيغة من صيغ المبالغة السماعية النادرة وهي مبالغة لكبير، لقد مكر هؤلاء القادة الكبراء بأموالهم وأولادهم في الإغواء والطُّغيان مكراً عظيماً، أوقعوا فيه أتباعهم وحاولوا إقناعهم ببطلان ما يدعوهم إليه نوح عليه السَّلامُ، وإقناعهم بالتزام ما ورثوه عن آبائهم من شرك وعبادة أوثان، وفسق وفجور وظلم وطغيان، وعادات وقبائحَ ومُنكَرات(٢).

٤ ـ ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝٢٣ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾:

قال هؤلاء السَّادة الكبراء لأتباعهم مُؤكِّدين لهم على وجه الخصوص بأن عليهم ألا يتركوا دين آبائهم في عبادة آلهتهم من الأوثان لا سيما كبارها: ودّ، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر(٣).

* ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾: بهذه الإضافة ﴿ءَالِهَتَكُمْ﴾ لإثارة النَّخوة الكاذبة والحَمِيَّة الآثمة في قلوبهم، وخصَّصوا من هذه الأصنام أكبرَها شأناً، فخَصُّوها بالذِّكْر ليُهيِّج ذِكرُها في قلوب العامة المُضلِّلين الحَمِيَّة والاعتزازَ: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ وهي أكبر آلهتهم التي ظلَّت تُعبَدُ في الجاهليات بعدَهم إلى عهد الرسالة المحمدية.

وهكذا تلك القيادات الضَّالَّة المُضلِّلةُ تُقيم أصناماً، تختلف أسماؤها وأشكالها، وَفق النَّعرةِ السَّائدة في كل جاهلية وتجمع حواليها الأتباع، وتهيج في قلوبهم الحَمِيَّةَ لهذه الأصنام، كي توجِّهَهُم من هذا الخطام إلى حيث تشاء،

---

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/٣٧١٦.
(٢) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٢٠٤.
(٣) المرجع السَّابق، ص ٢٠٤.

وتُبقيهم على الضَّلال الذي يكفل لها الطاعة والانقياد[١].

* ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾: أيْ: القادةُ المبطلون خلقاً كثيراً بهذه الأصنام، أو أضلَّتِ الأصنامُ خلقاً كثيراً حيث توهَّموا أنها آلهة حَقٌّ، أو أنها تنفع أو تضرُّ، وهو وهمٌ خاطئ، وقد استمرَّت عبادتها قروناً كثيرة، فقلَّدَهُم النَّاسُ دونَ أدلَّةٍ عقليَّة أو نَقليَّة، أو بُرهانٍ أو حُجَّةٍ[٢].

* ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾: ككُلِّ قيادةٍ ضالَّةٍ تجمع النَّاس حولَ الأصنام، أصنامِ الأحجار، وأصنام الأشخاص، وأصنام الأفكار...، سواءٌ بالصَّدِّ عن دعوة الله وتوجيه القلوب بعيداً عن الدعاة بالمكر الكُبَّار، والكيد والإصرار. هنا انبعث من قلب النبي الكريم نوح عليه السَّلامُ ذلك الدُّعاء على الظَّالمين، الضَّالِّين المُضلِّين، الماكرين الكائدين[٣].

* ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾: ذلك الدُّعاء المنبعث من قلب نوح عليه السَّلامُ الذي جاهد طويلاً، وعانى كثيراً. وقد جاء عطف هذه الجملة الدعائية من نوح على قومه بالواو، والظاهر أنه لو كانَ دعاء نوح عليهم بسبب كونهم قد أضَلُّوا كثيراً، بأن يكون العطف بالفاء التَّفريعيَّة لا بالواو، والرَّسول لا يدعو بزيادة ضلال الضَّالِّين عن الحقِّ، فالعطف بالواو يشير إلى أن المعطوف بها أمر يدخل في القضايا التي ذكرها نوح في شكواه، فما هي هذه القضية الأخيرة؟

لقد سبق ـ في النَّصِّ الذي تحدَّثنا عنه في سورة الشعراء ـ أن قادة قومه قالوا له: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]، أيْ: لنرجمنّك أنت وأهلَك، فأشار نوح في شكواه إلى قضية تهديدهم له ولأهله بالرَّجم، وبما أنهم لم يَهتدوا بعدُ إلى طريقة مقبولة لدى جماهيرهم يُنفِّذون فيها ما توعَّدوا به، إذ

---

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، (٦/ ٣٧١٦).
(٢) عبد الله شحاتة، تفسير القرآن الكريم، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م، ١٥/ ٦١١٣.
(٣) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/ ٣٧١٦.

أضلهم الله عن أن يجدوا الطريقة المناسبة، طوى نوح عليه السَّلامُ قضية التَّهديد هذه ودعا دعاءً يتَّصِلُ بها فقال: ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴾.

وإذا أبرزنا المَطوِيَّاتِ في النَّصِّ وجدنا الكلام يَتَّسِق على الوجه التالي: وقد أضَلُّوا إضلالاً كثيراً، وأضَلُّوا كثيراً من النَّاس وهدَّدُونا بالرَّجم، فأضْلَلْتَهم يا ربِّ عن التَّوصُّلِ إلى طريقة تقبلها جماهيرهم فلا تزد الظَّالمين الذين يَودُّون التخلُّصَ منِّي بالقتل إلا ضلالاً، وهذا في مضمونه دعاء بأن يُسلِّمَه الله والمُؤمِنين معه من أعدائهم(١).

٥ ـ ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارًا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴾:

بسبب ذنوبهم وإعراضهم عن الإيمان، وإصرارهم على الكفر، أغرقهم الله بالطُّوفان، ثم أدخلهم النار في عذاب القبر، أو أدخلهم نارَ جهنَّمَ، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً، لا بنونَ ولا مالَ ولا سلطانَ ولا أولياءَ من الآلهة المُدَّعاة.

وفي هذه الآية ينتهي أمر هؤلاء العُصاة العُتاة، ويُطوَى ذِكرُهم من الحياة، وذلك قبل أن يذكر السِّياقُ دعاءَ نوح عليهم بالهلاك والفناء، ولا يُفصِّل هنا في قصَّةِ غرقهم ولا قصَّةِ الطُّوفان الذي أغرقهم، لأن الظِّلَّ المُرادَ بقاؤُه في هذا الموقف هو ظِلُّ الإجهاز السريع، حتى ليعبر المسافة بَينَ الإغراق والإحراق حرف الفاء على طريقة القرآن في إيقاعاته التعبيرية والتصويرية المبدعة، وسنأتي للحديث عن الإغراق والطُّوفان بالتفصيل بإذن الله تعالى.

٦ ـ ﴿ وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾:

توضيح الآية أن غرقهم المذكور في الآية السَّابقة كانَ بسبب ذنوبهم، وبسبب دعاء نوح عليهم، فقد طال مكثُه فيهم، وما آمن معه إلا قليلٌ، وأخبره الله: ﴿ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ [هود: ٣٦].

---

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٢٠٨.

فدعا الله أن يُهلِكَ جميع الكافرين، وألا يَترُكَ أحداً يسكن داراً، حيث مكثَ نوحٌ فيهم ألفَ سنة إلا خمسين عاماً، وسلك كل سبيل إلى دعوتهم، لكنهم صَمُّوا آذانهم وتحجَّرت قلوبُهم، وكانوا طُغَاةً بُغاةً ظالمين، فدعا ربَّه أن يُطهِّرَ الأرضَ من الظَّالمين حتى لا يكون هؤلاء الطُّغاة عقبةً في وجه إيمان الجيل الجديد[١].

٧ ـ ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾:

إنَّكَ يا ربَّنا إذا تركتَ هؤلاء الكافرين الطُّغاةَ فسيحملون النَّاسَ على الشِّرْك بدعوتهم لعبادة الأصنام، وهم في نفس الوقت يُحذِّرونَ ذريَّتَهم من اتِّباع نوح، فكان الرجل يأتي بابنه إلى نوح، ويقول له: احذر من هذا الرجل فلا تتَّبِعْه، فقد حَذَّرني أبي من اتِّباعه وأنا أُحذِّرُك من اتِّباعه، وتبيَّن لنوح أن الضَّلال أصيلٌ فيهم، فهم أباطرة في الضَّلال والإضلال[٢]، لذلك قال نوح: ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾. ولفظة ﴿عِبَادَكَ﴾ تُوحي بأنهم المُؤمِنون، فهي تجيء في السياق القرآني في مثل هذا الموضع بهذا المعنى، وذلك بفِتنتِهم عن عقيدتهم بالقوة الغاشمة، أو بفتنة قلوبهم بما ترى من سلطان الظَّالمين وتركهم من الله في عافية.

ثم إنهم يُوجَدُون في بيئة وجَوٍّ يُولَد فيه الكُفَّار، وينتقلُ الكفرُ إلى الناشئة الصغار، بما يطبعه فيهم الوسط الذي أنشأهُ الظالمون، فلا تُوجد فرصة لترى الناشئةُ النُّورَ، من خلال ما تغمرهم به البيئة الضَّالَّة التي صنعوها، وهي الحقيقة التي أشار إليها قول النبي الكريم نوح عليه السَّلامُ، وحكاها عنه القرآن: ﴿ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾، فهم يُطلقون في جوّ الجماعة أباطيلَ وأضاليلَ، ويُنشِئُون

---

(١) عبد الله شحاتة، تفسير القرآن الكريم، ١٥/ ٦١١٤.
(٢) المرجع السَّابق، ١٥/ ٦١١٥.

عاداتٍ وأوضاعاً ونُظُماً وتقاليدَ، ينشأ معها المَواليدُ فُجَّاراً كُفَّاراً كما قال نوح عليه السَّلامُ.

من أجل هذا دعا نوح عليه السَّلامُ دعوته الماحقة السَّاحِقةَ، ومن أجل هذا استجاب الله دعوته فغسل وجه الأرض من ذلك الشَّرِّ، وجرفَ العَوائيرَ التي لا تجرفُها إلا قُوَّةُ الجَبَّارِ القَدير، وإلى جانب الدعوة السَّاحقة الماحقة التي جعلها خاتمةَ دُعائه وهو يقول: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ أي هلاكاً ودماراً، وإلى جانب هذا كانَ الابتهال الخاشع الوَدود[١]:

٨ ـ ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾:

ختمَ نوحٌ عليه السَّلامُ قصَّتَه في سورة نوح بهذه الآية الكريمة، وهي ترنيمةُ دعاءٍ من نبيٍّ صالح[٢].

* ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾: دعاء نوح النبي لربِّه أن يغفرَ له هو الأدب النبوي الكريم في حضرة الله العليِّ العظيم، أدبُ العبدِ في حضرة الرَّبِّ، العبدِ الذي لا يَنسى أنَّه بشرٌ وأنه يُخطئ وأنه يُقصِّر، مهما يُطِعْ ويَعبد، وأنه لا يدخل الجَنَّةَ بعملِه إلا أن يتغمَّدَه الله بفضله، وهذا هو الاستغفار الذي دعا قومَه العُصاةَ الخاطئين إليه، فاستكبروا عليه، وهو النبيُّ يستغفر بعدَ كُلِّ هذا الجهد، وكل هذا العناء، يستغفر وهو يُقدِّمُ لربِّه سِجِلَّ الحِساب[٣].

* ﴿وَلِوَٰلِدَىَّ﴾: هو برُّ النُّبوَّةِ بالوالدَين المُؤمِنَين ـ كما نفهَمُ من هذا الدُّعاء ـ ولو لم يكونا مُؤمِنَينِ لرُوجِعَ فيهما كما رُوجِعَ في شأن ولدِه الكافر، الذي أُغرق مع المُغرَقِينَ، كما سيأتي تفصيله في سورة هود.

---

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/ ٣٧١٧.
(٢) عبد الله شحاتة، تفسير القرآن الكريم، ١٥/ ٦١١٥.
(٣) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/ ٣٧١٧.

* ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾: وهذا دعاءٌ خاصٌّ لمن دخل بيتَه مُؤمِناً، لأن هذه كانت علامةَ النَّجاة، وحَصْرِ المُؤمِنين الذين يَصحَبُهم معه في السَّفينة.

* ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾: وهذا دعاؤُه العامُّ بعد ذلك للمُؤمِنين والمُؤمِنات وهو برُّ المُؤمِنِ بالمُؤمِنين كافَّةً في كل زمان ومكان، وشعوره بآصرة القُربى على مدار الزمن واختلاف السَّكَن، وهو السِّرُّ العجيب في هذه العقيدة التي تربط بَينَ أصحابها برباط الحُبِّ الوَثيق، والشَّوقِ العَميق، على تباعُد الزمان والمكان، السِّرُّ الذي أودعَهُ الله هذه العقيدة، وأودعَهُ هذه القلوبَ المربوطةَ برباطِ العَقيدةِ[١].

قال بعضُ العلماء: إن الذي استجابَ لنوحٍ عليه السَّلامُ، فأغرقَ بدعوتِه أهلَ الأرض الكُفَّار، لجديرٌ أن يستجيبَ له فيرحمَ بدعوته المُؤمِنين والمُؤمِنات[٢].

وفي مقابل هذا الحُبِّ للمُؤمِنين كانَ الكُرهُ للظَّالمين: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾: أيْ: أهلِكْ هؤلاء الظَّالمين لأنهم عقبةٌ في سبيل دعوةِ الإيمان والخير[٣].

كان الحديث عن بيان نوحٍ عليه السَّلامُ لربِّه، وما قام به من جهود تُجاهَ قومه وشكواه لله عزَّ وجلَّ، ودعائه على قومه، ونزولِ العقابِ الرَّبانيِّ بهم، اعتمدتُ على الله ثم النَّصِّ القرآنيِّ وأقوال المفسِّرينَ.

وقد عرضت تلك الصُّورة الوضيئة لجهاد النبيِّ الكريم نوحٍ عليه السَّلامُ، وتلك الصُّورةَ المطموسةَ لإصرار المعاندين الظَّالمين، وقد تركتْ هذه وتلكَ في القلب حُبّاً لهذا النبيِّ الكريم، وإعجاباً بهذا الجهد النَّبيل، وزاداً للسير في هذا

---

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/ ٣٧١٨.
(٢) محمد عبد الحق بن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٥/ ١٢٦.
(٣) عبد الله شحاتة، تفسير القرآن الكريم، ١٥/ ١١١٥.

الطريق الصَّاعد، أيّاً كانت المشاقُّ والمتاعب، وأيّاً كانت التَّضحياتُ والآلام، فهو الطريق الوحيد الذي ينتهي بالبشرية إلى أقصى الكمال المُقدَّر لها في هذه الأرض، حين ينتهي بها الله العليُّ الأعلى، الجليل العظيم[١].

* * *

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/ ٣٧١٨.

المبحث الخامس

سفينة نوح والطُّوفان العظيم

أولاً: أوحى الله لنوح بأنَّه لن يُؤمن من قومه إلا من قد آمن، وأمرَه ببناء الفلك:

قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٦ـ٣٩].

١ ـ ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾:

فالقلوب المُستعدَّةُ للإيمان قد آمنت، أما البقيَّة فليس فيها استعدادٌ ولا اتِّجاه، هكذا أوحى الله إلى نوح، وهو أعلم بعباده، وأعلم بالمُمْكِنِ والمُمتَنِع، فلم يبقَ مجالٌ للمُضِيِّ في دعوةٍ لا تُفيد، ولا عليكَ ممَّا كانوا يفعلونه من كُفر وتكذيب وتحدٍّ واستهزاء[1].

٢ ـ ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾:

أي لا تُحِسَّ بالبؤس والقلق، ولا تَحفلْ ولا تهتَمَّ بهذا الذي كانَ منهم،

---

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، (٤/ ١٨٧٦).

لا على نفسك، فما هُم بضارِّيكَ بشيءٍ، ولا عليهم فإنهم لا خيرَ فيهم[(١)].

﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾؛ بالذي يفعلونه من الكفر والسُّخريَّة والاستهزاء والصَّدِّ والأذى والتكذيب. والابتِئاس ـ افتِعالٌ من البُؤس وهو الهَمُّ والحزن ـ أيّ لا تحزَنْ حُزْنَ البائس المسكين، ولا تغتمَّ بما كانوا يتعاطَونَ من التكذيب والإيذاء في هذه المدة الطويلة، فقد انتهى زمانُ أفعالِهم وحانَ وقتُ الانتقامِ منهم[(٢)].

يتضمَّن هذا البيان لنوح عليه السَّلامُ الإشارة إلى الحكم عليهم بالإهلاك الشامل، فالتَّيئِيس من إيمانهم يدلُّ على أن الحكمة تقضي بعدم الإمهال، إذ الغاية الابتلائية قد استَنفدت كلَّ ما يلزم لها، وصار إبقاؤهم في الحياة خالياً من الحكمة، فالعقاب الشامل لهم صار هو الأمر الحكيم، كما صارت متابعة دعوتهم غيرَ مجدية[(٣)].

٣ ـ ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾:

دلَّ قول الله عزَّ وجلَّ لنوح: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ ﴾ على أن وسيلة النجاة من الغرق مَركبةٌ مائية تَعوم على الماء، وتجري فيه، وأن الماء الذي سينزل سيغمر رؤوس الجبال، فاتِّخاذ معاقلَ فيها لا يَعصِمُ من الغرق، فلا فائدة من التفكير في اتِّخاذ وسيلة أخرى غير ذلك، فكان من روائع البيان الإيجازي الذي يعتمد على لوازم الأفكار الاكتفاء بجملة ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ ﴾ للدلالة على كل هذه المدلولات التي يستدعيها فِكرُ النَّبيه الفَطِن لزوماً.

ودلَّ قوله تعالى: ﴿ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ على أن التنفيذ وخطَّةَ العمل وهندسةَ بناء السَّفينة، وتحديدَ الموادِّ التي تُصنع منها وطريقةَ التنفيذ، أمور مسبوقة

---

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، (٤/ ١٨٧٦).
(٢) نوفل، تفسير سورة هود، ص ١٤٤.
(٣) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٠٧.

بالوحي، ومحفوفة بالعناية والمراقبة التوجيهيَّة، والتسديد الدائم، حتى تبلغ الفلكُ الغايةَ المقصودةَ في إحكام الصُّنع للأمر الذي تهيَّأُ له، وذلك ضمن إمكانات نوحٍ المُتاحةِ له في زمانه[١]، والمرادُ بالفُلك السَّفينة.

إنَّ نوحاً عليه السَّلامُ قد كانَ نَجَّاراً، وكانت عنده فكرة ما عن مركبة تُصنع صالحةً لأن تقوم على الماء وتجري فيه، فهو منذ أوَّل خطوة إعدادية يقوم بها يحتاج إلى أن يكون مُحاطاً بعناية الله ومراقبته التوجيهيَّة وتسديده قبل أن يُوحِيَ إليه بالهندسة وخطَّةَ العمل.

إن عناية الله وتسديدَه له دائمان قبل الوحي له بطريقة صنع السَّفينة، وبعد الوحي له بذلك، فهي صفة لها السَّبق دوماً فجاءت سابقةً في البيان، كما أن الصُّنعَ الذي دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَٱصۡنَعِ﴾ هو تنفيذ عمليٌّ، وأوّل ملائمٍ فكريٍّ له، يخطر على البال، حاجةُ الصَّانع إلى أن يكون مُحاطاً بالعناية والإرشاد التوجيهيِّ والتسديد، فاقتضى تصفيفُ حبَّاتِ العِقدِ الكلاميِّ أن تكون عبارة ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ ملاصقةً لعبارة ﴿وَٱصۡنَعِ﴾ وعَقِبَها مباشرة دون فاصل بينهما، مهما كانَ هذا الفاصل ذا أهمية شرطية.

وجاء لفظ «أعيننا» بصيغة الجمع للدلالة على أحاطته بأنواع من العناية والتوجيه والتسديد، كالعناية بالإمداد بالقوة والعناية بتهيئة الوسائل، والعناية بالحفظ من عدوان قومه عليه إلى غير ذلك.

ودلّت «الباء» في ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ على الوعد الكريم بأنه مَحوطٌ من كل جوانبه بالعناية الرَّبانيَّة حتى كأنها ظرفٌ وهو مظروف فيه، فلا يصل إليه ما يكره، ونظيره قول الله لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٤٨].

وأما قول الله عزَّ وجلَّ بشأن موسى عليه السَّلامُ وهو طفل في قصر فرعون: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]. فأفرد العين وجعل التعدية

---

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص١٠٨.

بحرف «على»؛ لأن موسى يومئذٍ قد كان مُدلَّلاً محفوظاً في أيدي مَن ألقى الله حُبَّه في قلبه من أهل القصر الفرعوني، ولم يكن في قوم يُضمرون له الكيدَ أو يريدون به السوء.

ولما كانَ صُنع الفلك ينبغي أن يكون ضمن خطة يوحي الله بها، قال تعالى: ﴿وَوَحۡيِنَا﴾ عَقِبَ قوله: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾، فالخطَّةُ شرطٌ على وَفقِه يجري كمال التنفيذ، فتطابقَ النَّصُّ بعبارته مع الأغراض البيانية المختلفة، ومع الدلالات الفِكريَّة، وهذا من رفيع الأدب مع ما في النَّصِّ من اللَّمسات الجماليَّة البديعة[1].

٤ ـ ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾:

لقد تقرَّر مصيرُهم وانتهى الأمر فيهم، فلا تُخاطبني فيهم، لا دعاء بهدايتهم ولا دعاء عليهم، فقد ورد في موضع آخر حين يئس منهم أنه دعا عليهم[2]، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ٢٦ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ [المُؤمنون: ٢٦ ـ ٢٧].

ومن المقارنة بَينَ النَّصّين في سورتي هود والمُؤمِنون تتبيَّنُ لنا فروق تعبيرية تحمل دلالات متكاملات فيما بينها:

فالذي في سورة «المُؤمِنون» وهو النَّصّ الذي نتدبَّرُه الآن، جاء فيه أن نوحاً دعا ربه ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾، فاستجاب الله دعاءه فوراً فقال تعالى: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ إلى آخر النَّصِّ، عطفاً بالفاء الدالة على التعقيب، وبالفعل المبني للمعلوم. أما الذي في سورة «هود» وقد سبق، فقد جاء البيان فيه بالفعل المبني لغير مذكور «وأوحي» تفنُّناً في التعبير، وجاء فيه

---

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١١٠.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٢٧٤.

أن الله أيّسه من إيمان أحد من قومه في المستقبل: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾، وأن الله قال له: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أيْ: فاهْجُرْهُم وتوقَّفْ في دعوتهم حتى لا تتعرَّض لأذاهم، وأما ما كانوا يفعلونه معك من قبل من أنواع الأذى فلا تحزن من أجله، ولا تكن في غمّ وضيق بسببه، فالعقوبة نازلة بهم، والانتقام واقع عليهم، وعطفَ على هذه الجملة قولَه تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ فهو معطوف على جملة معطوفة بفاء التعقيب، فله حكم التعقيب، فيتطابق مع نصِّ سورة «المُؤمِنون»[١].

وتوقّفَ نصُّ سورة «هود» عند هذا، وانتقل إلى حكاية قيام نوح بصناعة الفلك، وحكاية بعض الأحداث التي جرت بحسب الواقع.

أما نصُّ سورة «المُؤمِنون» فلم يأت فيه بيان التيئيس، ولا التسلية بعد الابتئاس، اكتفاء بما جاء في سورة «هود»، ولكن جاء فيه بيان أن الله عزَّ وجلَّ منذ أمرَهُ بصناعة الفُلك، قال له: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾. وهكذا حتى آخر ما جاء في التعليم.

ونلاحظ أنه في هذا التعليم السَّابق لوقوع الحدث بزمن قال الله له: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ أيْ: فأدخِلْ في الفُلكِ بانتظامٍ.

أما ما جاء حكايةً لما قال الله له عند وقوع الحدث، فقد جاء التعبير فيه: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا﴾ ولم يُشِرْ ـ هنا ـ إلى موضوع الإدخال بانتظام، اكتفاء بما جاء في التعبير السَّابق، مع ما في الأمر عند وقوع الحدث السريع من إمكان تجاوُزِ بعض الشروط النظامية، وتحقيق غاية الحمل للإنقاذ، فالأمر لا يتحمّل التريُّث والأناةَ ومراعاة الترتيبات النظامية بتمامها، فإدراك الماء المنهمر والنابع وشيك.

ولم يأتِ في نصِّ «المُؤمِنون» بيان أن الله أوحى له بأن يحمل معه من آمن من

---

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٢٧٤.

قومه من غير أهله؛ لأن همَّ نوح قد كانَ موجَّهاً ساعتئذٍ لتخليص نفسه وأهله الذين كانوا هم المُعرَّضين لتدبيرات الكيد التي كانَ يُدبِّرُها قومُه ضدَّهم، أما بقية المُؤمِنين وهم قِلَّة فلم يكونوا مقصودين بهذه التدبيرات(١).

لكن لما جاء الأمر التنفيذيُّ بالإغراق، وفار التنور إنذاراً، بداية حصول الطُّوفان، وبضرورة ركوب السَّفينة بسرعة، قال الله: ﴿ ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾. فأمره هنا أن يحمل أيضاً معه مَن آمن مِن قومه من غير أهله، لأن سفينته قد صارت هي الوسيلة الوحيدة في خطة الله للإنقاذ من الغرق، والذين آمنوا معه من قومه من غير أهله يستحقُّون هذا الإنقاذ، فنزل الوحي اللاحق عند بدء تنفيذ الأمر بإضافة حمل هؤلاء في السَّفينة.

ودلّنا هذا على أن السكوت عنهم في الوحي السَّابق لا يُفيد عدم إرادة حملهم، وأن إضافتهم في الوحي اللاحق لم يكن نسخاً، وإنما رُوعي في كلٍّ من السكوت والبيان ما تقتضيه الحكمة الملائمة لمقتضى الحال.

وهكذا نلاحظ التكامل في النُّصوص مع الإشارة من خلال فروق التعبيرات إلى معان مقصودة دلَّت عليها، لم تكن تُستفاد لولا هذا الترتيبُ البياني الإبداعي الموزَّعُ في النُّصوص، مع ما تُؤدِّيه من أغراض التذكير والتوجيه والاتِّعاظ في مراحل التنزيل، وما يُلائم كلَّ مرحلة لمعالجة القوم الذين كانوا يتلقّون بيانات القرآن تباعاً(٢).

ونحاول أن نتدبر عناصر فقرة النَّصّ في سورة المُؤمِنون:

* ﴿ فَأَوْحَيْنَآ ﴾ بفاء التعقيب، أيْ: عقب دعاء نوح: ﴿ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴾، أوحينا إليه، وجاء التعبير بضمير العظمة، لأن مضمون المُوحَى به تكليفٌ بعمل يتضمَّن دلالةً على قضاءٍ ربَّانيٍّ عَظيمٍ، هو حدث الطُّوفان الكبير

---

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٢٧٤.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٢٧٥.

لإغراق القوم الظَّالمين. والفاء في ﴿ فَأَوْحَيْنَآ ﴾ تُفصح عن معطوف عليه محذوف، وبعض هذا المحذوف قد جاء التَّصريح به في نصِّ سورة «هود»، والتقدير: فاستجبنا دعاءه، وقضينا بنصره، واخترنا إهلاك قومه الظَّالمين بالإغراق، وأعلمناه أنه لن يُؤمن من قومك إلّا مَن قد آمَنَ، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون، وأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا... إلى آخر النَّصِّ.

* ﴿ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ ﴾: أن: تفسيرية، بمعنى «أي»، وأن التفسيرية هي التي يسبقها معنى القول دون حروفه. وهذه جاءت كذلك؛ لأن الفعل الذي في ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ ﴾ يتضمَّن معنى القول، وليس فيه حروفه، والكلام الذي بعدها هو الذي جاء تفسيراً لما أوحى الله به إليه.

* ﴿ ٱصْنَعِ ﴾: أصل الصنع العمل، واشتهر في الدلالة على العمل الذي يتطلَّب خبرة ومهارةً ما، كالأعمال الحرفيّة، ومنها قول الله تعالى بشأن داوود عليه السَّلامُ: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

ومعلوم أن بناء سفينةٍ تجري في بحر لُجِّيٍّ وتحمل بشراً وبهائم وموادَّ تموينيَّة، وتتعرَّض لهطول أمطار غزيرة عليها كأفواج القِرَبِ، ويتقاذَفُها مَوجٌ كالجبال، لا بدَّ لذلك من مهارة صناعية رفيعة جدّاً، يُباشرها ذو خبرة في الهندسة والبناء والتفصيل والتركيب، ولا بد له من إحاطة بالتوجيه والتسديد التامَّيْن، حذراً من وقوع الخلل أو الخطأ الذي قد يُؤدِّي بركابها إلى الغرق السريع، باعتبار أن المطلوب صنعه عمل مُبتكَر، لا يخضع لتجارب وإنما يُصنع؛ ليكون هو وسيلة النجاة مباشرة بعد إتمام الصنع.

ومع أن نوحاً عليه السَّلامُ كانت له خبرة بالنِّجارة إلا أنه لم يكن يصنع سفناً بحرية، لذلك كانَ بحاجة إلى أن يُوحى إليه، كيف يصنعها، وأن يُحاط بالعناية

والمراقبة والتوجيه والحفظ من الله عزَّ وجلَّ، فقال تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ (١).

* ﴿ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾: مرّ معنا تفسيره في سورة هود.

٥ ـ ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾:

صدرَ لنوحٍ عليه السَّلامُ الأمرُ بصنع الفلك، وهنا بدأ التنفيذ وتصوير هذا البدء ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ ﴾ وموقف قومه من هذا الصنع، والتعبير بالمضارع ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ فعل الحاضر هو الذي أعطى المشهد حيويَّتَه وجِدَّتَه، فنحن نراه ماثلاً لخيالنا من وراء هذا التعبير، ونرى فيه نوحاً وهو مُنهمِكٌ في صنع الفلك وإعدادها، ونُبصر في هذا المشهد قومَ نوح وهم يمرّون، جماعة إثر أخرى يضجّون سخرية به وبعمله الجديد هذا، ولك أن تتصوَّر ما شئت من مظاهر السُّخريَّة وأقاويلها، فالقرآن ترك تصوُّرَ ذلك لخيالك.

* وتأمّل في ذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ﴾: جملة حالية، تُصوِّر لك الأمر مستمرّاً متكرِّراً، ذلك أنهم رأوا في عمله هذا مادَّةً جديدةً هائلةً للسُّخريَّة، خصوصاً وإنه يقوم بهذا العمل في مكان لا حاجة ولا محل فيه للسفن، إذ كانت القصة بَينَ بلاد الشام والعراق، فهم كلَّما مَرُّوا به وقفوا عنده يسخرون منه(٢)؛ لأنهم لا يرون إلا ظاهر الأمر، ولا يعلمون ما وراءه من وحيٍ وأمر، شأنهم دائماً في إدراك الظواهر والعجز عن إدراك ما وراءها من حكمة وتقدير. فأما نوحٌ فهو واثق عارف وهو يُخبرهم باعتزاز وثقة وطمأنينة واستعلاء أنه يبادلهم سخرية بسخرية:

---

(١) الفُلك: مركبة بحرية تجري في الماء، انظر: الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٢٧٧.

(٢) محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن، ص ٢٧١.

* ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ : أيْ : إن كنتم تسخرون منا لإيماننا أولاً ثم لصنع سفينة النجاة ثانياً فإنَّا سوف نسخر منكم عندما تقع الواقعة، وننجو وتهلكون، وعندما نلتقي في مجمع الآخرة فأي الفريقين سخريته أشدّ؟ أنتم تسخرون منا بكلام يطير في الهواء، ونحن نسخر منكم وأنتم تغرقون في لُجَجِ الماء، وغداً عندما تكون أفئدتكم من الرُّعب هواء، والمُعامَلة بالمثل قانون إلهي وأحكام ربانية(١).

كان نوح عليه السَّلامُ يصبر على مقالاتهم، فلمّا تضجّر منهم بعد صبر طويل قال لهم مُتحدِّثاً عن نفسه وعن العاملين معه ممَّن آمن به من أهله وغيرهم: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ ويظهر أنَّ نوحاً عليه السَّلامُ قد قال هذا القول لهم مرّة واحدة، ولعلها كانت في آخر عبارات سخرية وَجَّهَها ملأُ قومه له، وبعد أن نفد صبرُه وقارب صنعُ الفلك نهايتَه، بدليل أن النَّصَّ استعمل ـ هنا ـ فعل: ﴿قَالَ﴾. ولو أنه عليه السَّلامُ قد كانَ يُكرِّر هذا القول، لكان البيان يقتضي أن يُؤتى بعبارةٍ تدلُّ على ذلك، مثل: ويقول: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾.

كان ردُّ نوح عليه السَّلامُ بعد صبر طويل على سخرية قومه منه في غاية التهذيب: إنه لم يقل: فأنا أسخر، وإنما تحدَّثَ بلسانه ولسان المُؤمنين العاملين معه. ولم يقل: فإنا نسخر منكم أكثر مما تسخرون، بل قال: كما تسخرون، فواجه مقالهم بمثله فقط(٢).

وكشف نوح عليه السَّلامُ لقومه الكافرين به دواعيَ سُخريَّتِه منهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: سوف حرف استقبال مبنيٌّ على الفتح يُخصِّص الفعل المضارع

(١) أحمد نوفل، تفسير سورة هود، ص ١٤٩.
(٢) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١١٤.

للاستقبال، وأكثر ما يُستعمل في الوعيد، ويدلُّ غالباً على أن الزمن الذي يمرّ لحدوث الأمر الموعود بوقوعه أطولُ من الزمن الذي يدلُّ عليه حرف السين في نحو ﴿ستعلمون﴾.

* ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾: أيْ: من يأتيه عقاب من الله يُخزيه، أيْ: يجعله ذليلاً مُهاناً مفضوحاً بحماقته ونقصان عقله وكثرة سفاهته، يعلمون ذلك حين يُحيط بهم الماء من كلِّ مكان، ويُدركون يومئذ أنهم الجديرون بأن يكونوا مَسخوراً منهم، فينالهم الخِزيُ والمذلَّةُ، والمهانة، ويُقال لغةً: أخزاهُ، إذا أهانه وفضحه وأخجلَه، وفي هذا إشارة إلى العذاب بالإغراق، وهو العقاب المُعجَّل في الدُّنيا.

* ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾: أيْ: ويَنزلُ عليه عقابٌ دائم لا يتحوَّل، وفي هذا إشارة إلى عذاب جهنَّمَ يوم الدين، وهو العقاب المُؤجَّل.

وهكذا انتهى فصل حكاية صناعة الفلك، وما صاحب ذلك من أحداث بَينَ نوح وقومه[1].

ثانياً: ركوب سفينة النجاة:

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤٠ ـ ٤١].

١ ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾:

* ﴿حَتَّىٰٓ﴾: حتى نهاية وبداية، هي نهاية ما قبلها وبداية ما بعدها... وهي لحظة فارقة في الزمن بَينَ شيئين ما قبلها مختلف كلِّياً وجذرياً ونهايةً عمَّا بعدَه، فهي فاصل زمني، لكنها أخطر من ذلك فاصل كوني عملي.

* ﴿إِذَا﴾: أصلها أداة شرط تُفيد تحقُّق الوقوع.

---

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١١٥.

* ﴿جَآءَ أَمْرُنَا﴾ : وقع وحلَّ أوانُ أمرنا، أي بنهاية مُهلة الكافرين، وبدء لحظة عذابهم، وأضاف «أمر» إلى ضمير العظمة لتفخيمه، أي الأمر وتعظيمه فكل ما أُضيف إلى التعظيم عظيم، فكيف إذا عبّر عن ذاته العليّة بضمير العظمة؟[١]

* ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ : وكانت علامة بدء الطُّوفان فورانُ الماء من التنور، وكان معروفاً لدى نوح عليه السَّلامُ، وكان في المكان الذي كانَ فيه نوح عليه السَّلامُ في ذلك الوقت، وتتفرَّق الأقوال حول فوران التنور، ويذهب الخيال ببعضها بعيداً، وتبدو رائحة الإسرائيليات فيها وفي قصَّة الطُّوفان كلِّها واضحة، أما نحن فلا نضرب في متاهة بغير دليل في هذا الغيب الذي لا نعلم منه إلا ما يُقدِّمه لنا النَّصُّ، وفي حدود مدلوله بلا زيادة[٢]. وإن التنور معروف، والماء لم ينبع من التنور وحده بل فاض من أنحاء الأرض، ولكنه إنما اكتفى بالنصِّ عليه وحدَه إشعاراً بالغاية ودلالة على الماء، إذ كانَ قد فار من منبع النار وهو التنور، فلأن يفور ويفيض من عامة الأماكن الأخرى أَحرى وأجدر[٣].

وقد تَحدَّث العلماء عن التَّنُّور: فقالوا هو الفرن الذي يُخبز به، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: التنُّور وجه الأرض. ويقال لغةً لكلِّ مَفْجَرِ ماءٍ تَنُّور، ويُحمل اللفظ على كل هذه المعاني. أيْ: وفارت العيون فوراناً زائداً عن عادتها، وفار وجه الأرض من المواقع التي لم تكن تتفجّر فيها عيون الماء، حتى الأماكن البعيدة عن مواطن العيون، كالمخابز فارت أيضاً، والمعنى: بدأت الأرض تتفجَّر بالماء.

ويدلُّ على أن المراد وجهُ الأرض عموماً كما قال علي رضي الله عنه في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢].

---

(١) أحمد نوفل، تفسير سورة هود، ص ١٥٣.
(٢) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/ ١٨٧٧.
(٣) محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن، ص ٢٧٢.

٢ ـ ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ :

* ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا﴾ ؛ قُلنا بضمير العظمة أيضاً ولا ريب أن الحدث جَلَلٌ ضَخمٌ عظيمٌ يناسب ضميرَ العظمة[١] . وعبَّر هنا بقوله ﴿ٱحْمِلْ﴾ ولم ترد إلا هنا ، وعُبِّر في «المُؤمنون» بقوله : ﴿فَٱسْلُكْ﴾ فقال هناك : ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أيْ : «فأدخل في الفُلك بانتظام وإحكام» [٢] .

واستنتجَ البعضُ أن «اسلك» تُفيد معنى أن السَّفينة كانت طبقات ، وأنها كانت كالغوَّاصة ، فالحَمل مطلق والسَّلْكُ يُفيد الإدخال في الشيء ، أيّ السَّفينة ولا بأس في ذلك ، وإن كانت صُنعت بإحكام وإتقان وبتوجيه وتسديد من الرحمن .

وأما قول الإسرائيليات أنها ثلاثُ طبقات ، وأنَّ طبقةً للحيوانات وطبقةً للطعام وطبقة للأناسيّ ، وأن طولها كَيت وارتفاعها كيت ، وأن عرضها كيت ، فهذا مما لا يُعتمد عليه ولا يُستند إليه ولا يُنقل ولا يُروى ، ولا يُقَرُّ ولا يُحكى وإنما ذكرناه من باب الرَّدِّ والرفض لا من باب القبول وصِحَّةِ الغرض ، معاذَ الله[٣] ، وكذلك لم يَهتمَّ القرآنُ الكريمُ بنوع الخشب الذي صُنعت منه السَّفينة ، ولا من أين قُطع ذلك الخشب؟

وأين كانَ يُقيم وهو يصنع السَّفينة؟ وكيف قطع ألواح الخشب وركَّب منها السَّفينة؟ وما مساحة تلك السَّفينة؟ وكم كانَ طولها وعرضها وارتفاعها؟ وماذا كانَ شكلها؟ كل هذه الأسئلة وغيرها عليها إجابات في الأساطير والإسرائيليات ، لكن لم يهتمَّ القرآنُ الكريم بها ؛ لأنها لا تُضيف علماً ولا تُقدِّم عِبرة أو مَوعظة لبني الإنسان[٤] .

---

(١) أحمد نوفل ، تفسير سورة هود ، ص ١٥٤ .
(٢) الميداني ، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد ، ص ٢٧٨ .
(٣) نوفل ، تفسير سورة هود ، ص ١٥٥ .
(٤) صلاح الخالدي ، القصص القرآني ، ١/ ١٨٧ .

* ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾؛ يَفهم كثيرٌ من المفسرين من هذا الجزء من الآية أن ﴿كُلٍّ﴾ مُطلَق، وهذا محال في العقل والواقع، ومهما كانَ اتِّساع السَّفينة وعظمتها فإنها لا تستوعب مخلوقات الأرض.

وأصحاب هذا القول والفرض ينطلقون من افتراض أن الطُّوفان عَمَّ جميعَ الأرض وأنَّى لهم هذا أن يُثبتوه؟ فكم وردت الأرض مُطلقةً وأُريد بها الخصوصُ، وارجعْ مثلاً إلى سورة يوسف تجد مصداق ما نقول وافراً تماماً، فقال بمجرَّد أن دخل يوسف قصر العزيز: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٦]، ولما استلم مقاليد مصر قال: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فهل هما واحد؟ وهل الأرض هنا مُطلَقة[١]؟

فهل أعدَّ حديقة حيوان شاملة وجعل فيها من كل نوع زوجين ذكراً وأنثى، ليَسلُكَ الجميعَ معه في السَّفينة أو أعدّ ما يَهمُّه حَملُه للتكاثر عند الهبوط من السَّفينة، أو ما أوحى الله له بحمله منها؟

يَرى الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني أنه لم يأتِ في البيان القرآني ما يدلُّ على أحد هذه الاحتمالات، وما رُوي في الإسرائيليات لا يُوثَق به، فمن الأجدر عدم التَّحديد، والنصُّ بإطلاقه يَصلُح لأيِّ واحد منها، وقد تُركَ بيانه؛ لأن معرفته غير ذات جدوى مُهمَّة، ويبدو ترجيح أنه أعدّ ما يَهُمُّه حَمْلُه للتكاثر عند الهبوط من السَّفينة أو ما أوحى الله له بحمله منها[٢].

ويرى د. صلاح الخالدي أن التنوين في كلمة ﴿كُلٍّ﴾ عوض عن مضاف إليه محذوف، ويسميه علماء النحو تنوين «العِوض»، والتقدير: من كل مخلوق حيّ زوجين اثنين، وكلمة ﴿كُلٍّ﴾ تدلُّ على الشُّمول والعُموم، وتدلُّنا جملة ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أن نوحاً أخذ معه في السَّفينة زوجين اثنين من

---

(١) نوفل، تفسير سورة هود، ص ١٥٥.
(٢) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١١٧.

كلِّ المخلوقات الحيَّةِ على إطلاقها، من فصائل الحيوانات والحشرات والزواحف والطيور، والمراد بالزوجين: الذَّكر والأنثى من كل صنف، كالجمل والناقة، والبقرة والثور، والتيس والشاة، والدجاجة والديك... وهكذا. ولعل الحكمة من ذلك أن الطُّوفان الذي بدأ سيقضي على كل المخلوقات الحية على وجه الأرض، وسيُزيل كل مظاهر الحياة، وذلك لاستئناف الحياة على الأرض، بعد انتهاء الطُّوفان(١).

٣ـ ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾:

الذين كانوا في السَّفينة هم المُؤمِنون، ولن يدخلها إنسان كافر، وهؤلاء المُؤمِنون قسمان:

الأول: أهل نوح المُؤمِنون، والمراد بهم أهل بيته الذين آمنوا به واتَّبعوه ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾، وتدلُّنا هذه الجملة على أن أهل نوح عليه السَّلامُ وأفراد أسرته كانوا فريقين:

* فريق آمنوا به، ولا نعرف عددَ هؤلاء ولا أسماءَهم ولا درجة قرابتهم له، فلا نعرف كم ذكراً من أهله آمن به، ولا كم أنثى آمنت به.

* وفريق آخر كفروا، ولا نعرف عدد هؤلاء ولا أسماءَهم، لكننا نجزم بما أخبرنا عنه القرآن باثنين منهم وهم: امرأته الكافرة، وابنه الكافر، ولا نعرف اسميهما لأنه من مُبهمات القرآن.

الثاني: المُؤمِنون من غير أقارب نوح وأهله، وكانوا من قومه الذين أُرسل إليهم، ولا نعرف عدد هؤلاء المُؤمِنين من قومه ولا أسماءهم، كل ما أخبرنا عنه القرآن أنهم كانوا قليلين في العدد بالقياس إلى عدد قومه الكُفَّار.

---

(١) صلاح الخالدي، القصص القرآني، (١/ ١٩٤).

٤ ـ ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [١] :

هذا خبر مُوجّه لنا، جاء معترضاً ضمن حكاية قصَّة نوح عليه السَّلامُ وقومه، لإفادتنا أمراً يهمُّ الدُّعاةَ وينفعُهم، ويُفيد الباحثين في الظواهر الاجتماعية، ويُفيد مستبصري حكمة الله في عقوباته العامة.

ولما رأى نوح عليه السَّلامُ علامة مجيء أمر الله بإغراق الكافرين من قومه، حمل أزواج البهائم في الفلك وشحنها بمواد التموين، وقال لأهله والمُؤمِنين معه: اركبوا فيها، وذكر الله ودعاه قائلاً[٢]: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾:

إنَّ ركوبهم السَّفينة باسم الله، وجريان السَّفينة وسط أمواج الطُّوفان باسم الله، وحفظها وسط الأمواج من الغرق باسم الله، ورُسُوَّ السَّفينة بعد انتهاء الطُّوفان باسم الله، ونجاةَ المُؤمِنين من الغرق باسم الله[٣].

وهذا تعبير عن تسليمها للمشيئة في جريانها ورُسُوِّها، فهي في رعاية الله وحماه، وماذا يملك البشر من أمر الفلك في اللجّة الطاغية، بله الطُّوفان[٤].

وهكذا بدأ نوح عمله المبارك بالتسمية وذِكرِ الله تعالى، أي إنه يستعين بالله تعالى في عمله، وهذا من شرع الله تعالى، قرَّره على الأنبياء والنَّاس جميعاً، ولذلك كانَ رسول الله ﷺ يبدأ جميع أعماله باسم الله، في الطعام والشراب واللِّباس والمراسلة والكتابة وغيرها، وجاءت التَّسمية في مطلع جميع سُوَر القرآن الكريم إلا سورة التوبة[٥]، وقال ﷺ: «كلُّ أمرٍ ذي بالٍ

---

(١) صلاح الخالدي، القصص القرآني، ١/١٩٣.
(٢) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١١٨.
(٣) صلاح الخالدي، القصص القرآني، ١/١٩٥.
(٤) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/١٨٧٨.
(٥) د. محمد مصطفى الزحيلي، شرعة الله للأنبياء، ص ٨٤.

لا يُفتَتَحُ بذِكرِ الله تعالى فهو أبترُ أو أقطَعُ»[١].

وفي قوله: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا﴾ لم يقلْ: اركبُوا عليها، والركوب يكون على السَّفينة، ولكن الله يريد أن يُعطيَنا لقطةً بأن السَّفينة لم تُصنَع بطريقة بدائية على شكل ألواح خشب يركب النَّاس فوقها، ولكنها مصنوعة بأحدث نظام لصناعة السفن، ولذلك فإنهم يركبون فيها، لا يركبون عليها، ولم تكن من طبقات ولكنها من عدة طوابق، وفيها عدَّةُ أدوار، لأن فيها خلقاً مختلفاً، فيها حيوانات ووحوش، حشرات ودواب وبشر وغير ذلك، ولا يمكن أن يركب هؤلاء بعضُهم مع بعضٍ، إذن فلا بد أن يكون فيها طوابق بحيث يركب كلُّ جنس معاً[٢].

وكان جريان السَّفينة باسم الله، ومرساها يكون باسم الله، أي بتسخيره وقدرته، وهكذا علّم نوحٌ عليه السَّلامُ مَن آمن معه كيف يبدؤون باسم الله في كل أعمالهم، فالحضارة الجديدة التي أسَّسها نوحٌ عليه السَّلامُ بدأت باسم الله.

وفي قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: إن ربِّي الذي يتعهَّدُني ويتعهَّدُكم لغفور للذنوب رحيم بالعباد، وغفورٌ تُفيد شِدَّةَ المغفرة وقُوَّتها، ورحيمٌ تُفيد سَعتَها وشُمُولَها[٣].

وجاء التعبير في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ لأن الذين آمنوا مع نوح بشر، وليسوا ملائكة، قد يكون منهم مَن أخطأ واستغفر أو أذنب وتاب، أو مَن آمن ولكن إيمانه تشوبه أشياء صغيرة، ولكن الله قدَّرَ أنهم آمنوا، فغفر لهم هذه الذُّنوب والهفوات الصغيرة التي ارتكبوها ولم يأخذْهم بذنوبهم[٤]، ورَحِمَهم برحمته الواسعة، فظهرت آثار اسم الله الرَّبِّ في عنايته وتدبيره وحفظه لنوح.

---

(١) مسند أحمد، ٢/ ٣٥٩. وانظر: تفسير القرطبي، ١١/ ١٢١.
(٢) الشعراوي، قصص الأنبياء، ١/ ٥٣.
(٣) نوفل، تفسير سورة هود، ص ١٥٩.
(٤) الشعراوي، قصص الأنبياء، ١/ ٥٤.

واسم الغَفُور لمغفرته لأهل الإيمان، واسم الرحيم لرحمته بهم ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقد أمر الله عزَّ وجلَّ نوحاً عليه السَّلامُ بعد الاستواء على الفلك أن يحمد الله على هذه النِّعمة من إنجاء الله لهم من القوم الظَّالمين، وأن يدعو الله عزَّ وجلَّ بأن يُنزلَه مُنزلاً مُباركاً فالله خير المُنزِلين، جاء هذا التوجيه الإلهي في سورة المُؤمنون.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المُؤمنون: ٢٨ـ٢٩].

فهكذا يُحمَدُ الله، وهكذا يُتَوجَّهُ إليه، وهكذا يُوصَف سبحانه بصفاته، ويُعترَف له بآياته، وهكذا يَتأَدَّبُ في حقِّه العبادُ، وفي طليعتهم النَّبيُّون، ليكونوا أسوةً للآخرين[(١)].

* ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ﴾: الاستواءُ هنا يُراد منه فيما يظهر من معاني الاستواء، وما يلائم موضوع النَّصِّ الذي استُعمل فيه ﴿ٱسْتَوَيْتَ﴾ معنى الاستقرار الملائم المستوي الذي لا يجعل بعضَ جوانب الفُلكِ أثقلَ من مُقابِله، لتكون عند الجَري مُستويةً على الماء.

* ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ﴾: أيْ: فإذا انتهيت من أعمال إدخال ما أُمرت بإدخاله في السَّفينة، وسلكتَ كلَّ فرد ونوع وصِنف في المكان الملائم له، واستقررتَ أنت ومن معكَ على الفلك بوضع مستوٍ منتظم، لا يميل بالفلك إلى أيِّ جانب إذا طفَت على الماء.

* ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾؛ ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ عَلَّمه الله عزَّ وجلَّ عبارةَ الثَّناء عليه فقال له: ﴿فَقُلِ﴾ ودلَّت هنا الفاء التي للترتيب مع التعقيب

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/ ٢٤٦٦.

على التكليف بالثَّناء على الله عقبَ الاستقرار المستوي على الفلك التي بدأت رحلتها على الماء[١].

* ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ أيْ: الثَّناء على الله بما هو له من كمالات، وبما أنعم به وتفضّل، وأداة التعريف في صيغة الحمد لله هي لاستغراق جنس الحمد، أيْ: الحمدُ كلُّه بأنواعه كلِّها على وَفق علم الله ومراده، لا على مقادير ما نعلم ونفهم من حدود، الحمد هو لله.

* ﴿ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي الذي خلّصنا وأنقذنا من كيد القوم الظَّالمين.

وفي ذكر هذا بيان للدافع الآنيّ لإطلاق عبارة الحمد، مع أن الحمد كلَّ الحمد هو لله دواماً، ولكن علّم الله عبادَه أن يَحمَدُوه عند كل حدوث نعمةٍ منه يُنعِمُ بها عليهم، في أحداث حياتهم الجارية، ليكونوا ذاكرين لله عندها، كما يذكرونه بالدُّعاء في مطالبهم وحاجاتهم ويذكرونه بالشكر، ويذكرونه بالطاعة، ويذكرونه بالتَّفكُّر في آياته ومظاهر قدرته وعلمه وحكمته، عند مناسباتها وقيام العباد بممارسة الأسباب ينبغي ألا يَصرِفَهم عن تذكُّر الله والثَّناء عليه، وحمده وشكره؛ لأنه هو مُسبِّبُ الأسباب، وهو مزيل العقبات، ومنه التوفيق في كل أمر، فله تبارك وتعالى الحمدُ كلُّه.

ونلاحظ مما جاء بيانه في سورة هود أن نوحاً عليه السَّلامُ قال عند البدء بركوب الفلك للذين معه: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ودلَّتنا عدَّة نصوص أن الاستعانة باسم الله تعليمٌ ربانيٌّ[٢].

* كذلك أمرَهُ الله بأن يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إذا استوى هو ومَن معه على الفلك وبأن يدعوَ ربَّه بأن يُنزلَه مُنزلاً مُباركاً، ويُثني عليه بأنه

---

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٢٨٠.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٢٨٢.

خيرُ المُنزلين، إذا انتهت مدة الرحلة البحرية، وجاء وقت الهبوط، فقال الله له: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٩]، فعلّم الله عزَّ وجلَّ نوحاً أن يدعو بهذا الدُّعاء بأن يُنزلَه مُنزلاً مُبارَكاً: أيْ: زائد الخيرات والنِّعَمِ والفضل، بما جعل الله فيه من خصب وحسن استقرار وسُكنى.

* ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾: في هذه الجملة ثناء على الله عزَّ وجلَّ، يتضمَّن استدرارَ العطف، بأن يُنزلَهم خير مُنزَلٍ إذ هو خير المُنزِلين.

ومن آثار عناصر الإيمان أن يتذكَّر المُؤمنُ عندما يخطر في باله أيُّ عملِ خيرٍ أو وصفٌ من أوصاف الكمال ممّا جعل لبعض خلقه منه، وهو ممّا يليق بالله عزَّ وجلَّ، أن الله هو خير الموصوفين به، وبأن يُثني على ربّه بذلك فهو من الذِّكْر المشروع عند هذه المناسبة، وقد علَّمنا الله سبحانه وتعالى في القرآن المجيد أن نُثني عليه بمثل هذا الثَّناء في مناسبات مُتعدِّدة منها:

* ﴿ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [المائدة: ١١٤].

* ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٩].

* ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

* ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

* ﴿ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٧].

* ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٦٤].

* ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٩].

* ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ١١٨] (١).

---

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٢٨٣.

ثالثاً: طريقة إغراق الأرض بالماء وحدوث الطُّوفان:

عرض الله عزَّ وجلَّ في سورة القمر مشهد التنكيل والتعذيب والطُّوفان العظيم، الذي أصاب قوم نوح، وكيف أن أبواب السَّماء فُتحت، وكأن الماء يُصَبُّ منها صَبّاً على خلاف المعهود من نزول المطر، وكيف تحوَّلَت الأرضُ كلُّها إلى عيون تتفجّر منها المياه بشكل عنيف وقوي، ولك أن تتصوّر من خلال الآيات الكريمة الحدَّ الذي وصلت المياه إليه من الارتفاع(١).

قال تعالى: ﴿ ۞كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [القمر: ٩ ـ ١٦].

بدأت الآيات القرآنية تُبيِّنُ تكذيب قوم نوح بالرسالة، في بيانٍ مُوجَز.

١ ـ ﴿ ۞كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾:

أي: فكذَّبوا عبدَنا نوحاً، وتكذيبُه يشمل التكذيب بأنه رسول الله، والتكذيب بما أنبأهم به عن ربِّه، وأجمل النَّصّ الأعمال التي قام بها قومه لمقاومة دعوته بعبارة ﴿وَازْدُجِرَ﴾ أيْ: منعَهُ كُبراءُ قومه، ونَهَوهُ بغِلظةٍ وعُنفٍ وشدَّة عن أن يدعوَ عامَّتهم إلى الدين الذي جاء به، وطالبوه أن يكفَّ عنهم، ونهرُوهُ بعنف ﴿وَازْدُجِرَ﴾، بدلاً من أن ينزجِروا هم ويَرعَوُوا(٢).

عندئذٍ عاد نوحٌ إلى ربِّه الذي أرسله وكلَّفه مُهمَّةَ التبليغ، عاد لِيُنْهِيَ إليه ما انتهى إليه أمرُه مع قومه، وما انتهى إليه جهدُه وعملُه، وما انتهت إليه طاقته ووُسعُه، ويدعُ له الأمرَ بعد أن لم تَعُدْ لديه طاقةٌ لم يبذلْها، وبعد أن لم تبقَ له حِيلةٌ ولا حولٌ ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾.

---

(١) عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السَّلامُ، ص ٧٠.
(٢) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/ ٣٤٢٩.

٢ ـ ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ﴾ :

انتهت طاقتي، انتهى جهدي، انتهت قوّتي، وغُلِبت على أمري، ﴿ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ﴾ انتصِرْ أنتَ يا ربي، انتصرْ لدعوتك، انتصر لحقِّك، انتصر لمنهجِكَ، انتصر أنتَ فالأمر أمرُك، والدعوة دعوتُك، وقد انتهى دوري، وما تكاد هذه الكلمة تُقال، وما يكاد الرّسول يُسلِّم الأمرَ لصاحبه الجليل القهَّارِ، حتى تُشير اليدُ القادرةُ القاهرةُ إلى عَجَلةِ الكون الهائلة السَّاحقة، فتدور دورتَها المدوّيةَ المُجلجِلة[١].

٣ ـ ﴿ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴾ :

عبّرت الآية بعبارة دلّت فيها على أن السَّماء كانت كخزَّانٍ عظيم، مليء بالماء، ولهذا الخزَّانِ أبوابٌ، وفتح الله هذه الأبواب، فانهمرتِ المياه على مقاديرها، مُنصبّةً انصباباً كأنها شَلالاتٌ مُوزّعةٌ توزيعاً منتظماً على مواقعها في الأرض. بماء منهمر: أيْ: مُنصبٍّ بشِدَّةٍ وتَتابُع[٢].

٤ ـ ﴿ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا ﴾ :

دلّ على حركة تفجير مائيّ من الأرض مُناظِرٍ لحركة الشلالات المنصبّة من السَّماء، فالأرض المُتحَدَّث عنها على امتداد مساحاتها قد فجَّرها الله عيوناً.

إنَّ التفجير يدلُّ على أشدِّ صُوَرِ تدفُّقِ الماء وتدافُعه من باطن الأرض إلى ما فوقها، والتعميم في إسناد التفجير إلى كل الأرض يُوحي أولاً بأن سطح الأرض قد تفجَّر ماءً، ولفظ ﴿ عُيُونٗا ﴾ الذي جاء تمييزاً قد حدَّد الصُّورةَ التي تمّ تفجير الأرض على وَفقِها، وهي صورةُ عيونٍ مائيَّة مُتفجِّرةٍ موزَّعةٍ على ساحة الأرض كعيون الغِربان، والقرآنُ يرسُم روعة الصُّورة الأدبية ﴿ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا ﴾ فجّر

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، (٦/ ٣٤٣٠).
(٢) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٢٣.

الله الأرضَ تفجيراً على صورة عيونٍ مائيَّة مُتدفقة متدافعة مُنبعثة بقوة[١].

٥ ـ ﴿ فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴾ :

أي: فبدون تراخ التقى الماء المنهمر والماء المتفجِّر، على أمرٍ من أمر الله قد قُضي وقُدّر للتقدير الشامل لكلِّ الدقائق والتفاصيل، قبل الأمر به، وقبل قضائه وإمضائه، وهو إهلاك قوم نوح الذين كفروا به[٢].

ونلاحظ في الآيات السَّابقة: ﴿ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴿١١﴾ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴾، حركة كونية ضخمة تُصوِّرها ألفاظٌ وعبارات مختارةٌ تبدأ بإسناد الفعل إلى الله مباشرة ﴿ فَفَتَحۡنَآ ﴾، فيُحسُّ القارئُ يدَ الجبَّارِ تفتح ﴿ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ بهذا اللفظ وبهذا الجمع ﴿ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴾ غزير متوالٍ، وبالقوة ذاتها، والحركة نفسها ﴿ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا ﴾؛ وهو تعبير يرسم مشهد التفجير وكأنه ينبثق من الأرض كلِّها، وكأنما الأرض كلُّها قد استحالت عيوناً.

والتقى الماء المنهمر من السَّماء بالماء المتفجِّر من الأرض، ﴿ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴾ التقيا على أمر مُقدَّر، فهما على اتِّفاق لتنفيذ هذا الأمر المُقدَّر، طائعان للأمر، مُحقِّقان للقدر، حتى إذا صار طُوفاناً يَطُمُّ ويَعُمُّ، ويغمر وجه الأرض، ويطوي الدَّنَس الذي يَغشى هذا الوجهَ وقد يئس الرَّسول من تطهيره، وغُلب على أمره في علاجه، امتدَّت اليدُ القويَّةُ الرحيمة إلى الرَّسول الكريم الذي دعا دعوتَه، فتحرَّكَ لها الكون كلُّه، امتدَّت له هذه اليدُ بالنجاة وبالتكريم[٣].

٦ ـ ﴿ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ﴾ :

وظاهرٌ من العبارة تفخيمُ السَّفينة وتعظيمُ أمرِها. فهي ذاتُ ألواحٍ ودُسُرٍ،

---

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٢٣.
(٢) المرجع نفسه، ص ٢٣.
(٣) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/ ٣٤٣٠.

تُوصَف ولا تُذكَر لفخامتها وقيمتها[١].

فهي ﴿ذَاتِ أَلْوَاحٍ﴾ فهذا يدلُّ على أنها أداة خشبيَّة. وهي «ذات دسر»: الدُّسُر: جمع دِسار، وهي المسامير التي تُثبَّت بها الألواحُ بعضُها إلى بعضٍ، وهي أيضاً الخيوط والحبال الليفيَّةُ التي تُشَدُّ بها ألواحُ السُّفُن. إذن: فهي مَركبةٌ من ألواح خشبيَّةٍ قد شُدَّ بعضُها إلى بعضٍ بالدُّسُر.

ونلاحظ أن التعبير عن هذه المركبة المائيَّة لم يأتِ بالاسم الخاصِّ الذي يدلُّ عليها دلالة مباشرة، وإنما جاء بذِكر بعض المواد الأساسية التي صُنعت منها، وهي الألواح والدُّسُر، وهذا من الإلماح الفني البديع الذي يُرضي ذكاء الأديب اللّماح، ويغمر مشاعرَه، لكن جاء بعد ذلك في سور أخرى لفظ ﴿ٱلْفُلْكَ﴾ وذلك في الأعراف، والشعراء، ويونس، وهود، والمُؤمنون، ثم جاء إيضاح أنها مَركبةٌ مائيَّةٌ في قوله تعالى في الفقرة الخامسة[٢].

٧ ـ ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾:

إن ذاتَ ألواحٍ ودُسُرٍ تجري، وقد امتلأت الأرض، وقد دلَّت هذه الجملة على أنها تجري جرياً مُحاطاً بالحفظ والعناية من الله ضمن بحر عظيم مُنهمِر من السَّماء، وبحر مُتفجِّر من الأرض، ومَوجٍ مُتلاطِمٍ كالجبال.

إنَّ أحوج ما تحتاج إليه هذه المركبة أن تكون مُحاطةً بالحفظ والعناية والحماية من الله عزَّ وجلَّ، للنجاة والسلامة حتى بلوغ البَرِّ السَّاكن الآمن، فأيّ تعبير أدلُّ على هذا الأمر الذي هو مطلوب راكبيها من قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾؟

فمركبة نوحٍ عليه السَّلامُ تجري بأعينِ الله، وهذا يدلُّ على أنها في غاية

---

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/ ٣٤٣٠.
(٢) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٢٧.

الحفظ والرعاية والحماية والمراقبة التامة لكلِّ حركة من حركاتها على مدى اللحظات والآناء.

٨ ـ ﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾:

يُضيف البيان ما يدلُّ على الغاية من هذا الاهتمام الشديد بحفظ سفينة نوح كلَّ هذا الحفظ، وهي مُكافَأة لنوحٍ بثواب مُعجَّلٍ له في الحياة الدُّنيا بعد أن كُفر من قبل قومه، فقال عزَّ وجلَّ ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾.

ونلاحظ أنه لم يأتِ في النَّصِّ عبارة جزاء نوح، بل جاء فيه وصفُ كونه ـ كُفر ـ من قبل قومه، أيْ: جُحد وكُذّب[١] وازدُجِرَ، وهذا جزاء من الله تعالى بالرعاية على الجفاء، وبالتكريم على الاستهزاء، ويُصوِّر مدى القُوى التي يملك رصيدَها مَن يُغلب في سبيل الله، ومن يَبذل طاقتَه، ثم يعودُ إليه يُسلِّم له أمره، وأمر الدعوة ويدعوه أن ينتصر، إن قوى الكون الهائلة كلَّها في خدمته وفي نُصرته، والله من ورائها بِجَبَروتِه وقُدرته[٢].

٩ ـ ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً ﴾:

ولقد تركنا فُلكَ نوحٍ باقيةً زمناً طويلاً من بعده، لتكون علامة على حادثة الطُّوفان، وقصة نوح مع قومه تُذكِّر بعقاب الله للمُكذِّبين الظَّالمين الطُّغاة، وتكون عِبرةً لمن يَعتبر، وذكرى لمن يذَّكَّر فقال تعالى في الفقرة الثامنة[٣].

١٠ ـ ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾:

دلَّ هذا التساؤل البديع على الغرض من ترك سفينة نوح آيةً شهدتها أجيال متتابعة من بعده، وهو أن تكون للادّكار، أيْ: للتذكّر الآخذ بيد المُتذكِّر

---

(١) الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص ٢٧.
(٢) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/ ٣٤٣٠.
(٣) الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص ٢٨.

للاتِّعاظ، إذا كانَ لديه استعداد للاتِّعاظ الإرادي، ورغبةٌ فيه، مع ما في هذا التساؤل من حضٍّ على الادّكار والاعتبار بما جرى لقوم نوح، وقد جاء هذا الحض بأسلوب الاستفهام، مع ما فيه من إشعار بقِلَّة المدّكرين، لأن السؤال يُسألُ عن واحدٍ مُدَّكرٍ يَعتبرُ بما جرى للأوَّلين من عقابٍ ربانيٍّ.

ويُحمل هذا التعبير على معانيه العديدة التي يدلُّ عليها، فتتكشَّفُ لنا وفرة الدلالات التي أدّاها تساؤُل مُوجَز ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؟ وأخيراً جاء الختام الواعظ المُنذِر في الفقرة التاسعة من النَّصِّ، فقال الله عزَّ وجلَّ خطاباً لكلِّ مَن يصلح للخطاب من معاصري التنزيل وغيرهم(١).

١١ ـ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾:

أيّ: فعلى أيّة حال كانَ عذابي لقوم نوح، وعلى أيّة حال كانت نُذري لقوم نوح؟ لقد كانَ كما صوَّره القرآنُ، عذاباً مُدمِّراً جَبَّاراً شديداً مُخيفاً، يُثير الرُّعبَ والاتِّعاظَ والاعتبار، وكل النُّذُر التي أنذر الله بها قوم نوح على لسان رسولهم نُذُرٌ صادقةٌ، حقَّقها الواقعُ الثابت في التاريخ، والذي ظلَّت آيتُه باقيةً حِقَباً تشهدها القرون، ما جاء فيها بلا نقصان، فما أبدع هذا الإيجاز وما أحكَمَهُ وما أغزرَهُ دلالةً وأوفاهُ بالمقصود من البيان(٢).

رابعاً: حوار نوح مع ابنه في وسط الأهوال الكونية والنفسية:

قال تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢ ـ ٤٣].

---

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٢٨.
(٢) المرجع نفسه، ص ٢٩.

١ ـ ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ :

لا تكون الأمواج في البحر متعالية كالجبال إلا إذا كانت الرياح العاتيات تُحرِّكُها، فوَصْفُ الموجِ بأنه كالجبال أغنى عن ذِكر الرياح العاتيات في الصُّورة، لأن الذِّهن يستدعيها في التصوُّر من خلال جبال الأمواج، لكن المياه ما زالت دون مستوى الجبال العالية، ولعلَّها غمرَتِ الوديانَ، وبدأت ترتفع حتى وصلت إلى المساكن العالية في أواسط الجبال أو قريبة منها[١].

تدلُّنا ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ على أنها مُسيَّرةٌ بقدرة الله عزَّ وجلَّ، ولذلك فإن هذه الأمواج التي وصفها الله أنها في علوّها وضخامتها كالجبال، هذه الأمواج التي لا بدَّ أن تُغرق أضخم السفن وأقواها لم تفعل شيئاً لسفينة نوح، فلم تَضْرِبْها بقوة، أو تقلِبْها أو تَضُرَّها على أي شكل من الأشكال، بل إن السَّفينة تجري ـ أي تمشي بسرعة عالية ـ بينَ أمواج كالجبال، بل إن طريقها الذي رسمه الله تعالى لها ليس فيه موج يعوقُها أو يَضرُّها، ولك أن تتخيّل سفينة في بحر هائل بينَ أمواج كالجبال، كيف يُمكن أن تُبحِرَ حتى إذا لم تُغرقْها الأمواج فإنها على الأقلِّ لا تجعلُها تسير بسرعة، ولكن سفينة نوح تسيرُ بأمر الله تعالى، فإن هذه الأمواج لا تُؤثِّر فيها[٢].

٢ ـ ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَـٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ :

* ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ : وفي هذه اللَّحظة الرَّهيبة الحاسمة يُبصِرُ نوحٌ، فإذا أحدُ أبنائه في مَعزِلٍ عنهم وليس معَهم، وتستيقظ في كيانه الأُبُوَّةُ الملهوفة، ويروح يَهتِفُ بالولد الشارد[٣].

---

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٢٩.
(٢) محمد متولي الشعراوي، قصص الأنبياء، (١/ ٥٥).
(٣) السيد قطب، في ظلال القرآن، (٤/ ١٨٧٨).

* ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ : كانَ في مكان حتى تلك اللحظة من المناداة في مكان مَعزولٍ عن الماء لارتفاعه مثلاً أو غير ذلك(١) .

وهناك من العلماء من يرى أن هذا الابن كانَ مُنعزلاً عن أبيه وقومه، ويظهر أنه قد كانَ كاتماً كفرَهُ، غيرَ مُتظاهرٍ به، عصبيَّةً لأبيه، إلا أنه كانَ في باطنه مع عقيدة قومه، ولعل اعتزاله قد كانَ اعتزالاً توفيقياً، فهو لا يُريد أن يَنصرَ قومَه على أبيه، ولا يُريد أن يتابع أباه وينصرَهُ ضدَّ قومِه(٢) .

* ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ : وفي نداء نوح عليه السَّلامُ لابنه بكلمة ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ فيه تحنُّن ورأفة ورحمة وتحبُّب وتلطُّف وتودُّد وتقرُّب لو كانَ هذا يُجدي. ﴿ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ أي؛ تفضَّلْ بنا واركبْ في سفينة النَّجاة مع النَّاجِينَ من المُؤمِنين.

* ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ : انظرِ التلطُّفَ في «مع» بدل «من»، فكأنه بهذه المُلاطَفة يُحرِّك شعوره ليستجيب، وما أجمل أجهزة الاستقبال عند الإنسان شفَّافة وحسَّاسة، حتى يستجيب لمثل هذه الإشارات، ويتأثَّر بمثل تلك اللطائف.

﴿وَلَا تَكُن﴾ : الواو عاطفة، نهياً عن أمر: اركبْ معنا ولا تكن، ولا ناهية، وتكن مضارع مجزوم بحرف النهي، ﴿مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ : أي كأنه يقول له برفق شديد: أُعيذك أن تكون من الكافرين، فلست منهم بإذن الله، ولكنَّكَ هذه اللحظة تقف معهم، فلا تكن معهم بل كن من الناجين ومعهم(٣) .

ويرى بعض العلماء أنَّ نوحاً قال لابنه: ولا تكن مع الكافرين، ولم يقلْ له: ولا تكن من الكافرين، فدلَّ هذا على أن نوحاً لم يكن يعلم أنَّ ابنَه هذا قد كانَ

(١) د. أحمد نوفل، تفسير سورة هود، ص ١٦٢.
(٢) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٢١.
(٣) أحمد نوفل، تفسير سورة هود، ص ١٦٢.

كافراً؛ لأنه لو كانَ يعلم ذلك لكان المناسب أن يقول له: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، كما قال تعالى بشأن إبليس: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

ويُخاطب الله الكافر يوم القيامة بمثل ذلك فيقول: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٩] [١]، ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: أيْ: في الدين والانعزال الهالكين[٢].

٣ - ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾:

إن البُنُوَّةَ العاقَّة لا تحفل بالأُبُوَّة الملهوفة، والفُتُوَّةَ المغرورةَ لا تُقدِّر مدى الهول الشامل[٣]. ويُجيب الابن من معزله البعيد غيرَ مُبالٍ بتأثر الوالد وشفقته: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء، أيْ: سأعتصم من الطبيعة بالطبيعة، ومهما كانَ من طغيان الماء، فإن في طبيعة الجبال أعظم مُعتَصم منها، وذلك هو منطق الإلحاد، لا يُبصِّر صاحبه مما هو أمامه إلا وراء أرنبة أنفه، ويصوّر القرآن رَدَّ الوالد عليه في جملة فيها الأسى والحزن، وفيها منطق الإيمان، يردّ على غرور الجُحُود والإلحاد[٤].

٤ - ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾:

لا عاصمَ اليوم من أمر الله بالطُّوفان العامِّ الشامل، إلا من رحمه الله، فجعل له السَّفينة وسيلة النجاة الوحيدة، لكن ابن نوح لم يستغلَّ هذه الفرصة الأخيرة له؛ لأنه لم يكن من المُؤمِنين في باطنه، وظل مُصرّاً على موقفه.

---

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٢١.
(٢) محمد جمال الدين بن قاسم الحلاق القاسمي، محاسن التأويل (تفسير القاسمي)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١ ١٤١٨هـ، ٦/ ٩٦.
(٣) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/ ١٨٧٨.
(٤) محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن، ص ٢٧٣.

ولم يطُل الحوار بَينَ الأب وابنه، ولم يَعلمْ نوحٌ من ابنه موقفَه من قضيّة الإيمان، إذ حال بينهما الموج فقطع حوارَهُما، وأخذ الموج الفُلكَ بعيداً إلى العُباب، ولم يستطع الابن أن يسرع إلى جبل شاهق فقد داهمه الماء، فكان من المغرقين[١].

٥ ـ ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾:

إننا بعد آلاف السنين، لنُمسِكُ أنفاسنا ـ ونحن نتابع السياق ـ والهول يَأخذنا كأننا نشهد المشهد، وهي تجري بهم في موج كالجبال، ونوح الوالد الملهوف يبعث بالنداء تِلوَ النداء، وابنه الفتى المغرور يأبى إجابة الدُّعاء، والموجة الغامرة تَحسم الموقف في سرعة خاطفة راجفة وينتهي كل شيء، وكأن لم يكن دعاء ولا جواب.

وإنَّ الهول هنا لَيُقاس بمداه في النفس الحيَّة ـ بَينَ الوالد والمولود ـ كما يُقاس بمداه في الطبيعة، والموجُ يَطغى على الذُّرا بعد الوديان، وإنهما لمتكافئان، في الطبيعة الصَّامتة وفي نفس الإنسان، وتلك سمة بارزة في تصوير القرآن[٢].

ويُسدِلُ البيانُ الإلهي ستاراً على هذا الحوار بَينَ منطق الإيمان وغرور الإلحاد ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾.

ولكأني أرى في هذه الجملة الرَّهيبة صواعق من مظهر الغضب الإلهي، وهي تنقض على الجهل المُتعالِم، والغرور المُتطاوِل تَسحقُه فإذا هو أثرٌ بعدَ عين، إن الجملة لتقول بأبيَنِ دلالة ما كاد هذا المسكين يُتِمُّ النُّطق بكلامه المغرور، وما كاد يطرف ببصره بحثاً عن الجبل الذي يستعصم فيه، حتى أسرعت إليه موجة فالتهمته، وكأن لم يكن.

---

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٢٢.
(٢) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/ ١٨٧٨.

وبهذه الصُّورة الحزينة الرَّهيبة يكتمل مشهد الطُّوفان حيث عرض القرآن الكريم مشهد الطُّوفان في ثلاثة مشاهد:

ـ **أولها**: الماء المنهمر من أبواب السَّماء، وهو يلتقي بالماء المتفجِّر من عيون الأرض.

ـ **ثانيها**: سفينةٌ في موج كالجبال.

ـ **ثالثها**: موج يحول بَينَ نوح وابنه الذي كانَ في معزل.

ويعرض ما بعد هدوء ثورة الماء في ثلاثة مشاهد:

ـ **الأول**: الأرض تبلع ماءها.

ـ **الثاني**: السَّماء ينقشع غيمُها.

ـ **الثالث**: السَّفينة ترسو على الجوديّ(١).

خامساً: الأمر الرَّبانيّ بنهاية الطُّوفان:

في غَمرة الأحداث التي تُصوِّرها الآيات القرآنية، وبين صَخب الأمواج التي تَنحسر وتمتدُّ في بحر هو الأرض كلها ينطوي هذا المشهد فجأة لنرى من ورائهِ مُباشرة عودة الهدوء إلى الدُّنيا، ورجوعَ كلِّ شيء إلى نظامه السَّابق، فقد هدأت الزَّمجرة، وسكنت العاصفة، ووُلدت الدُّنيا كما كانت من جديد، وتعال فلنتأمَّلْ في اللوحة الإلهية التي رسمت هذا المشهد(٢).

قال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

---

(١) أحمد الكبيسي، من أنباء القرى، برنامج أحسن القصص، الإعداد للنشر والمداخلات، فاطمة محمد ستون، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م، ص ١٤٦.
(٢) محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن، ص ٢٧٤.

إنَّ هذه الجمل القرآنية العجيبة تُصوِّر لك معنى الإرادة الإلهية وسلطانَها الرَّهيب المنبسط على الكون كلِّه، بل القابض عليه كلِّه، تتصرَّف به كما تشاء في سمائه وأرضه وبحاره وجباله وفي كل شيء، ليس في حسابها أي معنى لكبير وصغير أو لعظيم وحقير، ألا ترى كيف علّقت الآية رجوع كل شيء إلى ما كانَ عليه بعد أن التقت مياه السَّماء والأرض على طوفان هائل مخيف، على كلمة صغيرة: «وقيل» لِتُصوِّر لك سهولةَ الأمر، وأنه لا يحتاج إلا لهذا الأمر الإلهي الذي به قيام الدُّنيا وزوالها. وثم انظر إلى دقائق التعبير المصوَّر:

١ ـ ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾:

أرأيت أنه لم يقلْ: جفّفي ماءك، مثلاً، مع أنه هو التعبير المتّفِق مع طبيعة الأرض وشأنها، وإنما قال: ابلعي ماءك؛ لِيُصوِّر لك بأن الأرض لما اتَّجهت إليها إرادة العزيز الخبير انقلبت مسامها وشقوقها إلى أفواه فاغرة تبتلع بها المياه ابتلاعاً، فهي لم تُنفِّذ الأمرَ بالطبيعة المألوفة لها، وإنما بالانقياد لأمر خالقها جلَّ جلاله[1].

وجاء نداء الأرض سابقاً لنداء السَّماء، لأن المطلوب منها وظيفتان: توقُّف عيونها عن الإمداد بتدفُّق الماء، وابتلاع مياهها التي كانت قد فاضت بها، ليتناقص الماء وتستوي الفلك على اليابسة. وأما المطلوب من السَّماء فوظيفة واحدة: هي الإقلاع عن هطول الأمطار. وأغنى فعل ﴿ٱبْلَعِى﴾ عن الأمر بالتوقُّف؛ لأنه لا يكون هذا البلع إلا بعد التوقُّف. ولما جاء الأمر ﴿يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾، توقَّفت فوراً عن التفجّر، وأخذت تبلع ماءها الذي كانت قد تفجَّرت به إلى سطحها[2].

(١) المرجع السَّابق، ص ٢٧٤.
(٢) الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص ١٢٤.

وفي هذا النَّصّ القرآني الكريم نُسب الماء إلى الأرض، وأرضنا هي أغنى الكواكب المعروفة لنا بالماء، ولذلك سُمِّيت الأرض باسم الكوكب المائي، أو الكوكب الأزرق، وقد احتار العلماء منذ القدم في تفسير مصدر هذه الكمية الهائلة من الماء، والتي من دونها لم يكن ممكناً للحياة التي نعرفها أن توجد على الأرض، وقد وُضعت فروض ونظريات عديدة من أجل تفسير أصل ماء الأرض، ومن ذلك كانت فرضية اصطدام المذنبات بالأرض والتي ظلَّت سائدة فترة طويلة ثم انهارت كما انهار غيرُها من الفروض والنظريات، وكان ذلك باكتشاف علماء البراكين أن أكثر من ٧٠٪ مما يتصاعد من فوّهات بعض البراكين على سطح الأرض، ومعدّل ثورة كل منها ومتوسط ما يتصاعد من بخار الماء في كل ثورة.

وصل العلماء إلى نفس كمية الماء المتجمعة على سطح الأرض، وفي صخور ورسوبيات قشرتها، وفي الغلاف الغازي المحيط بها، وبذلك ثبت أن كل ماء الأرض قد أخرجه ربُّنا تبارك وتعالى أصلاً من داخل الأرض، وفي ذلك قال عزّ من قائل: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣٠ ـ ٣١].

وتحدَّثَ القرآن الكريم عن دورة الماء حول الأرض في آيات أخرى عديدة منها نسبة الماء إلى الأرض في الآية الرابعة والأربعين من سورة «هود» ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾؛ هو سبق قرآني واضح، حيث لم تتوصَّل العلوم المكتسبة إلى معرفة ذلك إلا في العقود المتأخِّرة من القرن العشرين.

وفي هذا النَّصّ القرآني إشارة إلى اشتراك عيون الأرض المتفجِّرة في إحداث طوفان نوح عليه السَّلامُ وهو ما أكده القرآن الكريم ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢].

٢ ـ ﴿ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي ﴾ :

إذا تأمَّلتَ في كلمة ﴿ أَقۡلِعِي ﴾ ؛ بمعنى كفِّي وأمسكي ـ تصوَّرتَ كم كانت منفتحة على مياه تنصبُّ في الأرض، وحسبُكَ أن تتأمَّلَ الآية الأُخرى في وصف ذلك : ﴿ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴾ ، لتتصور هولَ تلك المياه المنهمرة من أبواب السَّماء، ثم انظر كيف أُسند الخطاب إلى كلٍّ مَن السَّماء والأرض مع أنهما مخلوقان جامدان، ليُصوِّر لك سرعة استجابتهما لأمر الله عزَّ وجلَّ، حتى كأنهما منقادتان بسماع الأمر وفهم الخطاب(١) .

وقد توقَّفت السَّماء فوراً عن الإمطار بمجرَّد سماعها ﴿ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي ﴾ ، وانقشعت الغيوم وصارت السَّماء صَحواً لا غيومَ فيها، وفعل ﴿ أَقۡلِعِي ﴾ يدلُّ على المعنَيين، إمساك السَّماء عن المطر، وانقشاع الغيوم وانجلاء السَّماء(٢) .

يقول الدكتور زغلول النجار في قوله تعالى : ﴿ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي ﴾ يُؤكِّد النَّصُّ القرآني الكريم أن طوفان نوح عليه السَّلامُ كانَ بالماء العذب، تمييزاً له عن العديد من صور الطُّغيان البحري الذي تعرَّضَت له الأرض عبر تاريخها الطويل، ومع ذلك يأتي اثنان من علماء فيزياء الأرض وعلوم البحار الأمريكيين في عام ١٩٩٨م وهما (وليام ريان و والتر بتمان) ليجزما بأن الطُّوفان كانَ بماء البحر، وذلك في كتابهما المعنْوَن «طوفان نوح . . . الاكتشافات العلمية الجديدة عن الحدث الذي غيَّر مجرى التاريخ» ؛ يُؤكِّد هذان العالمان أن ما وصفاه من طوفان بحريٍّ فوق بُحيرة من الماء العذب كانَ حدثاً طبيعياً لا علاقة له بما جاء من أخبار قوم نوح عليه السَّلامُ، وفي هذا المؤلَّف يذكر الكاتبان أن هذا الحدث قد تم قبل ٧٦٠٠ سنة، حين أدَّى ارتفاعُ منسوب الماء في البحر والمحيطات إلى اندفاع هذا الماء المالح من البحر الأبيض المتوسط عبر وادي البوسفور ليُدمر كل شيء مرّ

---

(١) البوطي، من روائع القرآن، ص ٢٧٥ .
(٢) الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص ١٢٤ .

به، ويؤدي إلى عدد من الهجرات البشرية الكبرى، ولكن اكتشاف بقايا سفينة نوح عليه السَّلامُ على سفح جبل الجُوديِّ مطمورة وسط طبقات من رسوبيات الماء العذب التي تمتدُّ من جنوب تركيا إلى رأس الخليج العربي، مروراً بالمساحة الهائلة من أرض ما بَينَ النهرين «دجلة والفرات» ينفي مزاعم الكاتبَين الأمريكيَّين أن ما ذكراه من طوفان بحريٍّ له علاقة بطوفان نوح، ويُؤكِّدُ دِقَّةَ الوصف القرآني لواقعة الطُّوفان، وذلك من قبل ألف وأربعمائة سنة[١].

٣ ـ ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾:

وهذا مظهر للاستجابة السريعة لأمر الله فقد غِيض الماءُ أيْ: ذهب وجفَّ وكانت الاستجابة على الفور، دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾[٢]، وحقَّق الله أمره ونفَّذَ إرادته وأوقع عذابه بالكافرين وأغرقهم بالطُّوفان، ومنّ على نوح والمُؤمِنين بالنجاة[٣].

ويُظهر التوازن بَينَ الجملتين المتواليتين: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾؛ يشير ذلك إلى أن التنفيذ تم مُوافقاً للأمر دون شطط أو تقصير وبنفس الوتيرة من الإيقاع تقريباً، وفي صيغة ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ جماليَّة في الدلالة، حار فيها الدَّارسون بَينَ وصفها بالتمثيل كفن من فنون البديع، حيث عبَّر عن هلاك الهالكين ونجاة الناجين بلفظ يدلُّ على بلاغة متناهية، بيَّنَت أن الحقيقة المعنية فيها أنه هلك من قضى الله هلاكه، ونجا من قضى الله نجاته[٤].

٤ ـ ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾:

في النَّصّ القرآني الكريم تأكيد على أن سفينة نوح عليه السَّلامُ استقرت على

---

(١) زغلول النجار، من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م، ١/ ١٨٨.

(٢) فاضل السَّامرائي، على طريق التفسير البياني، ٣/ ١٥٩.

(٣) الخالدي، القصص القرآني، ١/ ٢٠٠.

(٤) نوفل، تفسير سورة هود، ص ١٧١.

جبل اسمه الجودي، وهذا الجبل يقع حقيقة في جنوب شرقي تركيا، إلى الشمال الشرقي من جزيرة ابن عمر على ضفاف نهر دجلة، بالقرب من الحدود التركية العراقية السورية، وإلى الشمال من مدينة الموصل.

ويرى الدكتور زغلول النجار أن الدراسات الأثرية أثبتت صِحَّة ذلك ودِقَّته، وذكر أنه في منتصف شهر مايو من سنة ١٩٤٨م اكتشف أحد رعاة الغنم من الأكراد، واسمه (رشيد سرحان) بقايا من أخشاب سفينة نوح عليه السَّلامُ مطمورة في كم من الرسوبيات في قمة جبل الجُودِيِّ، وتتابعت دراسات الموقع بعد ذلك في ١٩٥٣م، ١٩٥٩م، ١٩٨٠م، ١٩٨٧م، ١٩٩٤م، وظَلَّت تَتتابعُ إلى يومنا هذا، وكذلك وُجد سُمْكٌ هائل من رسوبيات المياه العذبة في سهول ما بَينَ النهرين دجلة والفرات والتي كانت مهداً لعدد من الحضارات القديمة التي تم اكتشاف بعضها، والتي يتراوح عمرها بَينَ ثلاثة وسبعة آلاف سنة قبل الميلاد، ومن المُرجَّح أن تكون هذه الرسوبيات تالية لرسوبيات الطُّوفان التي وُجدت أسفلَ منها، ووُجدت خاليةً من الآثار الإنسية وغامرة لحضارات سابقة وذلك لانتشارها الأفقي على مساحات شاسعة من الأرض، ولسُمْكها الذي يزيد على عشرة أقدام، ولطمرها للعديد من القرى القديمة التي استمر التنقيب عنها في هذه الفترة من ١٩٢٢ إلى ١٩٣٤م، وتتابع هذا التنقيب عن تلك الحضارات القديمة مُتقطِّعاً بعد ذلك إلى اليوم، وقد تأكَّدَت هذه الاستنتاجات بدراسة الرسوبيات المتجمِّعة في أحد كهوف شمال العراق والمعروف باسم (كهف شانيدار العظيم)، ويرجع عُمْرُ الرسوبيات فيه إلى حوالي مائة ألف سنة مضت، وتحوي رسوبياته عدداً من البقايا الإنسية التي قام بدراستها الدكتور رالف سولسكي من معهد سمشونيان بالولايات المتحدة الأمريكية[١].

كما أن العديد من الروايات التاريخية القديمة التي تم اكتشافها مُؤَخَّراً تُشير

(١) النجار، من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، ١/ ١٩٠.

إلى رُسُوِّ سفينة نوح عليه السَّلامُ فوق الجُودِيِّ، وذلك مثل كتابات كلٍّ من: بيراسوس من كهان الحضارة البابلية، وأبيدنوس من تلاميذ سقراط وأحد رموز الحضارة اليونانية القديمة(١).

وقال ياقوت الحموي عن الجُودِيِّ (في معجم البلدان)؛ الجُودِيُّ: ياؤه مُشدَّدة، وهو جبل مطلّ على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي من دجلة من أعمال الموصل، استوت عليه سفينةُ نوح عليه السَّلامُ لما نضب الماء(٢)، وجزيرة ابن عمر هي الأرض الواقعة بَينَ نهري دجلة والفرات في شمال العراق، وجبل الجُودِيِّ مُطلٌّ على الجزيرة، وهو قريب من مدينة الموصل العراقية المعروفة، وما زال اسمه حتى الآن جبل الجُودِيِّ وهو جبل معروف هناك(٣).

ومعنى ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ أيْ: استوت الفلك على جبل اسمه الجُودِيُّ، والمراد: أنها توقَّفَت عن الجري واستقرَّت على اليابسة استقراراً مستوياً، غير مائلة ذات اليمين ولا ذات الشمال، ولا إلى جهة مُقدَّمها ولا إلى جهة مُؤخَّرها، وكان كل ذلك بعناية الله وحفظه ورعايته التّامّات(٤).

٥ ـ ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

هي جملة مُختصَرة حاسمة مُعبِّرة عن جوِّها أعمقَ تعبير ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بُعداً لهم من الحياة فقد ذهبوا، وبعداً لهم من رحمة الله فقد لُعِنوا، وبُعداً لهم من الذاكرة فقد انتهَوا، وما عادوا يستحقُّون ذكراً ولا ذكرى، فهم قد ماتوا وانتقلوا إلى حياة البرزخ، وسيظلون فيها إلى أن تقوم السَّاعة لِيلقَوا جزاءهم، إذاً فابتعاد قوم نوح الظَّالمين الذين كفروا برسالة نوح عن الإفساد في

---

(١) النجار، من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، ١/ ١٩٠.
(٢) الحموي، معجم البلدان، ٢/ ١٧٩.
(٣) الخالدي، القصص القرآني، ١/ ٢٠١.
(٤) الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص ١٢٥.

الأرض، أصبح نهائيّاً ولم يبق على الأرض إلا المُؤمِنون[١].

﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾: هذا دعاء على الهالكين، ووصفهم بالظُّلم ليعلم الذين من بعدهم أن جميع من هلك كانَ مُستحِقّاً للهلاك، احتراساً لما قد يُتوهَّم أن الهلاك بعمومه شملَ مَن لا يستحقُّ العذاب[٢].

﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فيه تعريض بأن سالكي مسار هؤلاء في الظُّلم والتكذيب يَستحقُّون مثلَ هذا البُعد من الله، والدُّعاء عليهم، فأَولى للظالمين والمُكذِّبين أن يَعتبروا ويرجعوا عن تكذيبهم وظُلمِهم حتى لا يُنزل الله بهم ما أنزل بأمثالهم[٣].

٦ ـ بلغت الآية الغايةَ في بلاغتها، واحتوت على وجوه عديدة من الإعجاز البياني:

احتوت هذه الآية ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ على وجوه عديدة من الإعجاز البياني، وبلغت الغاية في بلاغتها، وقال بعض المفسرين: هذه الآية أبلغ آية في القرآن، وقد احتوت من أنواع البديع على أحد وعشرين نوعاً، فيها تسع عشرة كلمة، وخُوطبت الأرض أولاً بالبلع لأن الماء نبع منها أولاً قبل أن تمطر السَّماء[٤].

وذُكر في هذه الآية الشيء الكثير، وأُفردت فيها رسائل ومما قيل فيها:

أجمع المُعاندون على أن طوق البشر قاصر عن الإتيان بمثل هذه الآية[٥].

---

(١) الشعراوي، قصص الأنبياء، ١/ ٥٩.

(٢) عفيف طبارة، مع الأنبياء في القرآن الكريم، ص ٧٧.

(٣) عماد زهير حافظ، القصص القرآني الكريم بَينَ الآباء والأبناء، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ١٩٨٨م، ص ٤٦.

(٤) أحمد نوفل، تفسير سورة هود، ص ١٧٣.

(٥) السيوطي، الإتقان، ص ٢١٨.

وقيل فيها أيضاً: إنه قد أمر فيها ونهى وأخبر ونادى وسمَّى وأهلَكَ وأبقى وأسعد وأشقى وقصَّ من الأنبياء ما لو شُرح ما اندرج في هذه الجملة من بديع اللفظ والبلاغة والإيجاز والبيان لجفَّت الأقلام(١).

وهذه الآية بلغت من أسرار الإعجاز غايتَها، وحوَت من بدائع الفوائد نهايتَها، وجمعت من المحاسن اللفظية والمعنوية ما يضيق عنه نطاق البيان(٢)، وقد اهتمَّ بإظهار لطائفها وأسرارها العلامة أبو حيان المفسر حيث قال: في هذه الآية واحد وعشرون نوعاً من البديع:

* المناسبة: في قوله أقلعي وابلعي.

* المطابقة: بذكر الأرض والسَّماء.

* المجاز: ﴿وَيَٰسَمَآءُ﴾ والمراد: مطر السَّماء.

* الاستعارة: ﴿أَقۡلِعِي﴾.

* الإشارة في ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾، فإنها إشارة إلى معانٍ كثيرة.

* التمثيل في ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ عُبِّر بالأمر عن إهلاك الهالكين ونجاة المُؤمنين.

* الإرداف في ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ فلفظ واستوت، كلام تامٌّ أردفه بلفظ ﴿عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ قصداً للمبالغة في التمكُّن بهذا المكان.

* التعليل في ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾، فإنه عِلَّةٌ للاستواء.

* الاحتراس في ﴿بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وهو أيضاً ذمٌّ لهم.

---

(١) فاضل السَّامرائي، على طريق التفسير البياني، ٣/ ١٥٥.

(٢) محمد محمود أحمد وموسى الخطيب، دعاء الأنبياء والرُّسُل، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ط١ ١٩٩٩م، ص ٢٩.

* الإيجاز: وهو ذكر القصة باللفظ القصير مُستوعِباً للمعاني الجَمَّة، وعدَّد بقيَّةَ الوجوه وهي: الإيضاح، والمساواة، وحُسن النَّسق، وصحَّة التقسيم، وحُسن البيان، والتمكُّن والتجنيس، والتَّسهيم والمُقابلة، والتهذيب والوصف[١].

وألَّف أيضاً السيد محمد إسماعيل الأمير رسالة فيها سماها: (النهر المورود في تفسير آية هود)، ويدلُّ على هذا الإعجاز ما رُوي من أن كُفَّار قريش قصدوا أن يُعارضوا القرآن، فعكفوا على لباب البر ولحوم الضأن وسلاف الخمر أربعين يوماً، لتصفو أذهانهم، فلما أخذوا فيما قصدوه وسمعوا هذه الآية، قال بعضهم لبعض: هذا الكلام لا يُشبه كلام المخلوقين، فتركوا ما أخذوا فيه وتفرَّقوا[٢].

ويُروى أن ابن المقفع كانَ ـ كما في القاموس ـ فصيحاً بليغاً، بل قيل: إنه أفصح أهل وقته، أراد أن يعارض القرآن فنظم كلاماً وجعله مُفصَّلاً وسمَّاهُ سوراً، فاجتاز يوماً بصبي يقرؤها، فرجع ومحا ما عمله وقال: أشهد أن هذا لا يُعارَض أبداً، وما هو من كلام البشر[٣].

سادساً: سؤال نوح عليه السَّلامُ ربه في شأن ابنه وطلبه المغفرة والرَّحمة من الله عزَّ وجلَّ:

قال الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٥ ـ ٤٧].

(١) أبو حيّان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، دار الفكر، بيروت، ط١ ١٤٢٠هـ، ٥/٢٢٨.
(٢) عماد زهير حافظ، القصص القرآني الكريم بَينَ الآباء والأبناء، ص٤٦.
(٣) الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ١٢/٦٣.

إنَّ رحلة النجاة في بحر لُجّيّ ضمن أمواج كالجبال، وأمطار تصبُّ صباً كالجداول، إذ فَتحت لها السَّماءُ أبوابَها، قد أنسَت نُوحاً حالَ ابنه فحال الموج بينهما(١).

لقد صرفته عنه أهوال الرحلة المخيفة القاسية، فلما حطَّتِ السَّفينة على الجُودِيِّ مُستويةَ الاستقرار، وذهب الرَّوعُ والقلق الصَّارف للأفكار، ولم يبق إلاّ الانشغال بأحداث الوضع القائم، عندئذ تواردت على نوح ذكريات أرضه وبلده وقومه وذكر ابنَه الذي لم يدرِ ماذا حصل له، فتفجَّرت عاطفةُ الأُبُوَّة التي فطرها الله عزَّ وجلَّ في قلوب الآباء(٢).

١ ـ ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ﴾:

الواو إما عاطفةٌ مَشهداً على مشهد، وحدثاً على حدث، وإما استئنافية، ولعل هذا أقرب، ﴿وَنَادَىٰ﴾ نداءَ دعاءٍ ومُناجاةٍ ورجاء والتجاء، وهذا النداء نداء استغاثة مقرون بانفعال الخضوع والتضرُّع والتذلُّل، دلَّ على ذلك كلمة «نادى» إذ لو كانَ ما قاله سؤالاً عادياً هادئاً لكان المناسب التعبيرَ بنحو «ودعا»، ولكن كانَ نداء فهو يحمل معنى التلهُّف، وهو من رسول حليم، لا بد أن يقترن بالخضوع والتضرُّع والتَّذلُّل(٣).

﴿رَبَّهُۥ﴾: أي الذي يتعهَّدُه ويتولاه ويُدبِّر أمرَه، فقال في ندائه ﴿رب﴾ أيْ: يا رَبِّ، ولم تُذكر أداةُ النداء هنا استغناءً بما دلَّ عليه فعل ﴿نادى﴾(٤).

٢ ـ ﴿إِنَّ ٱبۡنِى مِنۡ أَهۡلِى﴾:

أي: من أهلي الذين وعدتني بنجاتهم، ولا يُعلِّم اللهَ أحدٌ، ولكنه من باب

---

(١) الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص ١٢٩.
(٢) المرجع السَّابق، ص ١٣٠.
(٣) المرجع نفسه، ص ١٢٩.
(٤) المرجع نفسه، ص ١٢٩.

الرَّجاء والاستجداء من الله، ودعاءٌ من قلب مكسور على الولد، إنَّ ابني من أهلي، كأنه يستحضر في هذا المقام وعداً بنجاة أهله، ويَغضُّ الطَّرفَ عن ﴿ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ .

٣ ـ ﴿ وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ :

أي: فلا يُمكن أن يُخالِفَه الواقعُ، ولعلَّه وضعَ في حسبانه أن الله عزَّ وجلَّ ربما يكون قد أنجاه بوسيلة أخرى غير الركوب معه في السَّفينة[١] أو أن نوحاً عليه السَّلامُ قد أيقن أنَّ ابنه قد غَرِقَ مع الغَرقى، ولكنه سأل الله الرَّحمة الوابلة والمغفرة الهائلة ألا تفوتَه نجاةُ الحياةِ الأبديَّة الآخرة، فأدلى إلى ربِّه بدعاءٍ من كلِّ كيانه، استهلَّه بقوله ﴿ رَبِّ ﴾ الكلمة التي تضمُّ معانيَ العناية والإكرام، والتربية ودوام الاهتمام، والصِّلةَ المستمرَّةَ، ورِفعةَ المقام، بأنَّ ابنه من أهله، وبما له من مقام عند ربِّه أن يلحظ بعضَ أهله ـ ابنَه ـ بعين عنايته وواسع رحمته، ولم يُصرِّحْ بذلك، بل عرّض بذلك تعريضاً تأدُّباً مع ربِّه واستغناءً بعلم ربه بسؤاله وحاجته، وهذا أسلوب في غاية الأدب الرفيع مع الله عزَّ وجلَّ[٢] .

٤ ـ ﴿ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ :

أنت الحكم العدل، وأنت أحكم الحاكمين في أحكامك، وإني راضٍ بكل ما تحكم وتأمر وتُقدِّر، وخاضع لقضائك وقدرك وإرادتك، لكنِّي أدعوك وأرجوك وأتوسَّل إليك مع رضائي بقضائك أيّاً يكن، فأنا عبد مستسلم خاشع منيب[٣] .

٥ ـ ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ :

لم يَنفِ الله أن يكون ابنه من الصُّلب، ولكن نفى أن يكون على عقيدته، ومن

---

(١) فاروق حمادة، آباء وأبناء ملامح تربوية، دار القلم، دمشق، ط١ ١٩٩٧م، ص ٢٠ .
(٢) المرجع نفسه، ص ٢٠ .
(٣) نوفل، تفسير سورة هود، ص ١٧٨ .

أتباعه الذين يحقُّ لهم النجاة من الغرق، وهذا هو أرجح الأقوال في المسألة، وقد أبعد النّجعةَ من قال: إنه لم يكن ولده من النسب بل كانَ من الزِّنى وهو أضعف الأقوال لدليل ما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما بأسانيد كثيرة قوله: ما بَغَت امرأةُ نبيٍّ قطُّ غيرَ أنَّه خالَفَهُ في العَمَلِ والنِّيَّةِ(١).

قال ابن كثير: وقد نصَّ غيرُ واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه، وإنما كانَ ابنَ زنية، ثم قال: قال ابن عباس وغير واحد من السَّلَف: ما زَنَتِ امرأةُ نبيٍّ قطُّ، ثم قال: وقوله: ﴿لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ أي الذين وعدتك بنَجاتهم، ثم قال: وقول ابن عباس في هذا هو الحق الذي لا محيد عنه؛ فإن الله تعالى أغيرُ من أن يُمَكِّن امرأةَ نبيٍّ من الفاحشة(٢).

وقال ابن جرير: وأولى القولين في ذلك بالصَّواب قولُ مَن قال: تأويل ذلك إنه ليس من أهلك الذين وعدتُكَ أن أُنجيهم؛ لأنه كانَ لدينك مخالفاً، وبي كافراً، وكان ابنَه لأن الله تعالى قد أخبر نبيَّه محمداً ﷺ أنه ابنُه فقال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ﴾ دلالة على أنه ابنُه إذ كانَ قوله ﴿لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ محتملاً من المعنى ما ذكرنا، ومحتملاً أنه ليس من أهل دينكَ، ثم يحذف الدين فيقال ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ كما قيل: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢] (٣).

٦ ـ ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾:

هذا تعليل وتبرير لاعتبار أنه ليس من ولده، أن الإيمان هو النسب الحقيقي، أما غير المُؤمِن فليس من أهلك الذين يشمَلُهم الوعدُ فقد قلتُ لكَ قبلُ ﴿وَمَنۡ ءَامَنَۚ﴾، وفي ذلك لفتةٌ في اعتبار أن الإنسان هو عمله، فلم يبق إلا صورة اللحم والدم، و﴿غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ يقتضي أنه فاسد طالح(٤).

(١) عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السلام، ص ٧٣.
(٢) تفسير ابن كثير، ٤/ ٢٢٦.
(٣) تفسير الطبري، ١٥/ ٣٤٦.
(٤) نوفل، تفسير سورة هود، ص ١٨٠.

فالنسب نسب الإيمان والعقيدة، وليس نسب الدم والقرابة، فاقتضى بيان هذه الحقيقة وتقريرها، ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾، وعلل السبب: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾[١].

إنها الحقيقة الكبيرة في هذا الدين، حقيقة العروة الوثقى التي ترجع إليها الخيوط جميعاً، عروة العقيدة التي تربط بَينَ الفرد والفرد ما لا يربطه النسب والقرابة[٢].

﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾؛ هذه الكلمات الرَّبانيَّة والقواطع الإلهية، أخرجته من دائرة أهله، وأبعدته إلى مهوًى سحيق لا يُذكر فيه، ولا يُلتفتُ إليه؛ لأنه اختار الكفر على الإيمان، وسلك مسالك الشَّيطان، فلم يَعُدْ للرَّحِم الماسَّة معنًى، وليس للولادة والنَّسب، ودلَّ هذا الخطاب الإلهي على أن ابنَ نوح هذا قد شمله الغرق، فكان من الهالكين لأنه كانَ من الكافرين والفاسقين في باطن أمره.

٧ ـ ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾:

تضمَّن هذا البيان زيادةً تعليميَّةً لنوحٍ عليه السَّلامُ، ساقتها المناسبة وهي تعليميَّةٌ لنا أيضاً، أيْ: إذا كنتَ لا تعلم بواطن الأمور وقد رأيت من تصاريف ربِّكَ شيئاً على خلاف ما ترغب، بحسب رغبات نفسك وعواطفك فكُنْ على ثقة تامَّةٍ بأن ربَّك عليم حكيم، وأن تصاريفه تجري على وفق علمه وحكمته.

﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ أيْ: أُؤكِّد لك التَّوجيه والنُّصحَ بهذه الموعظة التي تضمَّنَها، ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾؛ فدلَّ هذا على أن النَّهيَ

---

(١) محمد ديب الجاجي، النسق القرآني دراسة أسلوبية، مؤسسة علوم القرآن، المملكة العربية السعودية، ط١ ٢٠١٠م، ص١٢٦ ـ ١٢٧.
(٢) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/ ١٨٨٠.

نهيُ موعظةٍ وإرشاد للمستقبل، لا نهيَ تأنيبٍ على ما مضى. والمعنى: إنِّي أعِظُك أن تكون في المستقبل من الجاهلين بهذه الحقيقة، فتسأل ربك مستقبلاً سؤالاً تُطالبه فيه بأمر على خلاف مُقتضَى علمه وحكمته وعدله، مهما كانت دوافعك العاطفية والنفسية، وهذا يتضمَّن التَّوجيه للرضا التَّامِّ عن الله عزَّ وجلَّ فيما تجري به مقاديره وأحكامه، مهما كانت صادرة ضدَّ أقرب النَّاس رحماً[١].

عندئذ لم يكن من نوح عليه السَّلامُ إلا أن قال.

٨ ـ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾:

يعتذر نوح عليه السَّلامُ في هذه الآية عن سؤاله، ويُعاودُ سؤال الله لكن أن يَصرِفَ عنه أن يسأل ما ليس له به علم، فالسياق متَّصل كلَّ الاتِّصال[٢].

* ﴿قَالَ رَبِّ﴾ قال نوح مستغفراً مستعيناً بالله، قال رب، بحذف ياء النداء لمزيد تقرُّب، يا من تتعهَّدُني وتربيني وتُعلِّمُني وتُقوِّمُني وتَهديني.

* ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ﴾: إنِّي أتحصَّن بك وأحتمي بك وأعوذ بك وألوذ من أن أقع في هذه المخالفات مرة أخرى.

* ﴿أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾: هذا هو ما تعوَّذَ منه نوح، أن يسأل الله ما ليس له به علم، وأن يُوَفِّقَه للالتزام بأمره وما أذِنَ له به.

* ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾: وإن لم تغفر ذنبي وتتولَّني برحمتك يكنْ مصيري الخسران في الدُّنيا والآخرة، وأعوذ بك أن يكون أمري كذلك، والخاسر من نقص رأسُ ماله، والخاسر هنا: من فقد محبَّةَ الله ومثوبة الله[٣].

---

(١) الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص ١٣٢.
(٢) نوفل، تفسير سورة هود، ص ١٨٥.
(٣) المرجع السَّابق، ص ١٨٥.

وقد طلب نوح عليه السَّلامُ المغفرة ابتداءً لأن التَّخلِيةَ مقدَّمةٌ على التَّحلِية، ثم أعقبها بطلب الرَّحمة لأنه إذا كانَ بمحلِّ الرِّضا من الله كانَ أهلاً للرحمة[١]، وقد علَّمَنا الله بهذا كيف يكون أدب المُرسَلين مع ربِّهم لنتخذهم أسوةً لنا[٢].

ويُؤخذ من قصَّة نوح مع ابنه أن الله عزَّ وجلَّ قد يبتليَ المُؤمِنَ بوجود ولد فاسق أو كافر له، يُضادُّه في دينه ويُخالفه في عقيدته وإيمانه، ويتناصر مع أعدائه أولياءِ الشَّيطان ضدَّ أولياء الرحمن، مع إقامة الحُجَّةِ الدامغة والبُرهان السَّاطع على صدق رسالته، وهذا لا يُعاب به المُؤمِن ولا يُؤذَى به، وليس لأحد من النَّاس المُؤمِنين أن يَعيبَ أخاه المُؤمِنَ إذا ابتلاه الله بولد عاقٍّ، فاجرٍ، بل إن هذا الابتلاء ينبغي أن يكون له عبرة وأن يقوم بالتضرُّع إلى الله أن يهدي ولد أخيه الفاجر. ولا يحلُّ لمسلم أن يَعيب أخاه المسلم أو يذمَّه بسبب ولده العاصي الفاجر إذا كانَ بالغاً عاقلاً، فهو مَجزيٌّ بعمله وليس مُجرَّماً بعمل ولده قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] [٣].

سابعاً: زوجة نوح عليه السَّلامُ الكافرة:

قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٠ ـ ١٢].

---

(١) نوفل، تفسير سورة هود، ص ١٨٦.
(٢) الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص١٣٣.
(٣) محمد أبو فارس، مع الأنبياء في الدعوة إلى الله، ص ٨٥.

في هذه الآيات حديث صريح عن موقف امرأة نوح عليه السَّلامُ التي ظَلَّت على كفرها، فلم ينفعها زواجها من نبيٍّ الله نوح عليه السَّلامُ، والخيانة هنا هي: الخيانة في الدِّين بمعنى الكفر وليس المقصود بها الخيانة بمعنى الزِّنى(١).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما بغَت امرأةُ نَبيٍّ قَطُّ إنَّما كانَت خيانتُهما في الدِّينِ(٢).

وقال ابن كثير: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أي في الإيمان، لم توافقاهما على الإيمان ولا صدقتاهما في الرسالة فلم يُجْدِ ذلك كلُّه شيئاً، ولا دفع عنهما محذوراً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أيّ لكفرهما، وقيل للمرأتين ﴿ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾، وليس المراد بقوله ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ في فاحشة، بل في الدِّين فإن نساء الأنبياء معصوماتٌ عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء(٣)، لم تدخر امرأة نوح جهداً في التصدِّي لدعوة الخير والتوحيد، بل أصرَّت واستكبرت فكانت من الكافرين(٤).

لقد كَفرت امرأة نوح بزوجها، وكان الأولى بها أن تكون أوَّلَ المُؤمِنين به، لا سيما وهي زوجته وأعلم النَّاس بأحواله وأقرب النَّاس منه، ولكنها آثرت ما عليه قومها من الكفر والضَّلال فكان عاقبتها الخسران والنكال. كفرت امرأة نوح مع الكافرين، وسَخِرَت من زوجها مع السَّاخرين، فلم يُغنِ عنها نوح عليه السَّلامُ من الله شيئاً ودخلت النار مع الدَّاخلين(٥).

---

(١) أحمد الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، ١/ ١٤٣.

(٢) المرجع نفسه، ١/ ١٤٣.

(٣) تفسير ابن كثير، ٤/ ٣٩٣.

(٤) هدى عبد اللطيف عريان، الشخصية النسائية في القصة القرآنية، دار غار حراء، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م، ص ٢٨٣.

(٥) أحمد الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، ١/ ١٤٣.

وإليك تفسير الآيات المتعلِّقة بالأمثال الأربعة، فالمثل الأول والثاني في الكُفَّار، والمثل الثالث والرابع في المُؤمِنين(١).

١ ـ ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾:

يأتي المثل هنا ليلفِتَ النظر إلى أن الهداية بأمر الله تعالى، فهو يهدي من يشاء ويُضِلُّ مَن يشاء، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]، فالكافر يكفر ولو كانَ يعيش في بيئة إيمانية وحوله رفاق مُؤمِنون و مُوحِّدُون ويعرفُ الحقَّ من الباطل والخيرَ من الشَّرِّ، وهذا الذي حصل مع تلك المرأتين، فحاشا لنوحٍ عليه السَّلامُ ولِلُوطٍ عليه السَّلامُ أن يُقصِّرا في دعوة زوجتيهما إلى الله تعالى وإلى الإيمان به وإلى الحقِّ والفضيلة والمعروف والخير، ولكن القلوب المريضة تأبى إلا أن تكفر ولو كانت برعاية نبيٍّ مُرسَلٍ مُبارَك أو رجل صالح(٢).

٢ ـ ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾:

زكّى المثلُ كلًّا من نوح ولوط عليها السلام بقوله تعالى ﴿عَبْدَيْنِ﴾، وليس ذلك فحسب وإنما أردفهما بقوله ﴿صَٰلِحَيْنِ﴾، فهما حقَّقا العبوديَّةَ الخالصة لله عزَّ وجلَّ وحقَّقا الصلاح، وفيه الإشارة إلى صلاح الدين وصلاح العلاقة الصحيحة مع النَّاس، ولهذا كانت دعوة الصلاح هي دعوة الأنبياء، فقد قال يوسف عليه السَّلامُ بعد كل ذلك المُلكِ والرِّفعة والمكانةِ والعزَّة والشرف، فقد كانَ نبيّاً ورسولاً وصِدِّيقاً وقائداً وعالماً بتفسير الرُّؤى وعزيزاً وذا جاه وذا مال، قال داعياً ربَّه تبارك وتعالى: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا

---

(١) عبد الحميد الفراهي، نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، الدائرة الحميدية، الهند، ط١ ٢٠٠٨م، ١/ ٥٢٦.

(٢) عبد الستار المرسومي، اللفتات المليحة للأمثال الصريحة في القرآن الكريم، دار المعراج الدمشقية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٦م، ص ٢٩٥.

﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وقالها سليمان عليه السَّلامُ، في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

كما وردت في هذا المثل الصَّريح كلمة ﴿تَحْتَ﴾ في إشارة إلى العلاقة الزوجيَّة بمعنى أن كلاًّ من نوح ولوط عليهما السلام كانا هما الأعلى في تسلسل الهرم في بيت الزوجية(١).

٣ ـ ﴿فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾:

يتبادر لذهن العامة من النَّاس أنها الخيانة الزوجية، وهذا من الأمور التي لا ينبغي أن تكون في حقِّ الأنبياء عليهم السلام، فقد جُعل للأنبياء صفاتٍ خاصَّةً من أجل ألاّ يَنفر النَّاس عنهم وعن دعوتهم، ومن ذلك: الخلوُّ من الأمراض المعدية والعصمة من الكذب والخيانة وصيانة العِرض، من أجل ألا يجد النَّاس سُبّة عليهم، ولكن الخيانة هنا من نوع آخر، وهي:

أ ـ خيانة امرأة نوح: لم تكن امرأة نوح تُصدِّق به عليه السَّلامُ، بل وكانت تقول للناس إنه مجنون ـ حاشاه ـ، فقد جاء في تفسير ابن جرير الطبري: أن ابن عباس يُسأَل وهو إلى جنب الكعبة عن قول الله تعالى ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾، فقال ابن عباس: أما إنه لم يكن بالزِّنى ولكن كانت هذه تخبر النَّاس أنه مجنون، أو أن خيانتها له أنها كانت تُخبر الولاة في ذلك العصر بأسماء مَن يُؤمن بنوح عليه السَّلامُ، قال الماوردي في النكت والعيون: أن خيانة امرأة نوح أنها كانت تُخبر النَّاس أنه مجنون، وإذا آمن أحد به أخبرت الجبابرة به(٢). وقال: بعض العلماء أنها قد ماتت قبل الطُّوفان(٣).

---

(١) المرسومي، اللفتات المليحة للأمثال الصريحة في القرآن الكريم، ص ٢٩٦.

(٢) أبو الحسن الماوردي، تفسير الماوردي (النكت والعيون)، دار الكتب العلمية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ٦/ ٤٦ ـ ٤٧.

(٣) الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص ٣١٠.

ب ـ خيانة امرأة لوط: وخيانتها لزوجها لوط عليه السَّلامُ: أنها كانت تُعْلِمُ قومَ لوطٍ عندما يأتيه الضِّيفان، وكانت كافرة ومُنحازةً لقومها الكفرة، وخيانتها لِلوطٍ زوجِها لم تكن بارتكاب الفاحشة، قال الضَّحَّاك عن ابن عباس: «ما بَغَتِ امرأة نَبي قَط وَقَد أَهلَكَهَا الله مَعَ كفار قَومهَا، إذ قلب الله بهم البلاد عاليها سافلها»[١].

٤ ـ ﴿وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾:

أي: وحكم الله عليهما حكماً مُبرَماً بدخول النار، إذ لم يَنفَعْهما كونُهما زوجَتْي رسولَين من رسل الله، فهما يوم الدين من أصحاب النار[٢]، فلا كرامة ولا شفاعة في أمر الكفر والإيمان وأمر الخيانة في العقيدة حتى أزواج الأنبياء[٣].

٥ ـ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

وها هي ذي امرأة فرعون لم يصدَّها طُوفانُ الكفر الذي تعيش فيه في قصر فرعون عن طلب النجاة وحدَها، وقد تبرَّأت من قصر فرعون طالبةً إلى ربِّها بيتاً في الجَنَّة، وتبرَّأت من صلتها بفرعون فسألت ربها النجاة منه، وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شيء وهي ألصق النَّاس به ﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ودعاء امرأة فرعون وموقفها مثَلٌ للاستعلاء على عَرَض الحياة الدُّنيا في أزهى صوره، فقد كانت امرأة فرعون أعظم ملوك الأرض يومَئذٍ في قصر فرعون، أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهي، ولكنها استعلت على هذا بالإيمان، ولم تُعرض عن هذا العَرَض فحسب، بل اعتبرته شرّاً ودَنَساً وبلاءً

---

(١) الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص ٣١٠.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٣١٠.
(٣) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/ ٣٦٢١.

تستعيذ بالله منه وتتفلَّتُ من عقابيله وتطلبُ النَّجاة منه، وهي امرأة واحدة في مملكة عريضة قوية، وهذا فضل آخر عظيم، فالمرأة كما أسلفنا أشدُّ شعوراً وإحساساً بوطأة المجتمع وتصوُّراته، ولكن هذه المرأة وحدَها في وسط ضغط المجتمع، وضغط القصر، وضغط الملك، وضغط الحاشية، والمقام الملكي، في وسط هذا كله رفعت رأسها إلى السَّماء وحدَها في خِضَمِّ هذا الكفر الطاغي.

وهي نموذج عالٍ في التَّجرُّد لله من كل هذه المؤثِّرات، وكل هذه الأواصر وكل هذه المُعوِّقات وكل هذه الهواتف، ومن ثم استحقَّت هذه الإشارة في كتاب الله الخالد، الذي تتردَّد كلماتُه في جنبات الكون وهي تتنزَّل من الملأ الأعلى[(١)].

٦ ـ ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾:

إنها كذلك مَثَلٌ للتَّجرُّد لله منذ نشأتها التي قصَّها الله في سور قرآنه، ويذكر هنا تطهُّرَها ﴿ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ ويبرِّئُها مما رمتها به يهود الفاجرة ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾، ومن هذه النفخة كانَ عيسى عليه السَّلامُ كما هو مُفصَّل في السورة المفصِّلة لهذا المولد سورة مريم، فلا نستطرد معه هنا تماشياً مع ظلِّ النَّصِّ الحاضر، الذي يستهدف تصوير طهارة مريم وإيمانَها الكامل وطاعتها ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾. وإفراد امرأة فرعون بالذِّكْر هنا مع مريمَ ابنةِ عمران يدلُّ على المكانة العالية التي جعلتها قرينة مريم في الذِّكْر؛ بسبب ملابسات حياتها التي أشرنا إليها، وهما الاثنتان نموذجان للمرأة المتطهِّرة المُؤمِنة المُصدِّقة القانتة، يضربهما الله مَثَلاً لأزواج النبيِّ ﷺ بمناسبة الحادث الذي نزلت فيه آياتُ صدر سورة التحريم، ويضربهما مَثَلاً للمُؤمِنات من بعدُ في كلِّ جيل[(٢)].

---

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/ ٣٦٢٢.
(٢) المرجع نفسه، ٦/ ٣٦٢٢.

ثامناً: أسباب هلاك الكافرين مِن قوم نوح:

إنَّ نوحاً عليه السَّلامُ جاء في نهاية الحضارة الإنسانية الأولى، والتي بدأت من آدم عليه السَّلامُ، ثم انحرفت عن التوحيد وإفراد الخالق العظيم بالعبوديَّة، وتطوَّرت الحياة الإنسانية على وجه الأرض في قضاياها المادية، وضعفت وأخطأت السبيل في قيمها الروحيَّة ومعرفتها بخالقها العظيم، فأرسل الله عزَّ وجلَّ نوحاً عليه السَّلامُ، فأقام على الكافرين والظَّالمين والفاسقين والمُعاندين الحُجَّة، ومضت سنة الله في زوالهم واستئصالهم، وآمن معه القليل الذين أنشأ بهم حضارة السلام والبركات بعد الطُّوفان. وإن من أسباب زوال ونهاية الحضارة الإنسانية الأولى عوامل عديدة من أهمها:

١ ـ الكفر بالله عزَّ وجلَّ:

إنَّ من أهم أسباب العقاب الإلهي، وهلاك الحضارة الإنسانية الأولى بالطُّوفان العظيم، الكفر بالله، وأصل الكفر في اللغة: السَّتر والتغطية، وقد سُمِّي الكافر كافراً لأنه غطَّى بكفره ما يجبُ أن يكون عليه من الإيمان، والكفر ضدُّ الإيمان الذي هو التصديق والاعتقاد والإقرار بوحدانية الله وبربوبيته وألوهيته، والإيمان بالملائكة وشريعة الله ورسالة نوح عليه السَّلامُ واليوم الآخر وبالقضاء والقدر خيره وشَرِّه من الله.

وقد رفض قوم نوح دعوة نوح للتوحيد ورسالات الله، وكفروا بها وحاربوها ووصفهم الله بالكفر كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

إنَّ وصف نهاية الحضارة الأولى التي عاشها قوم نوح بالكفر يعني أنها في تلك الفترة التاريخية من تاريخ الإنسانية كانت منفصلة عن الدين ومتحرِّرة من تكاليف الإيمان بالله وشرعه، وهذا يُفضي بها إلى انحلال الأخلاق وانحطاطها،

وهذا ما حدث لها من حالة الشقاء والتعاسة التي كانَ يعيشها قوم نوح عليه السَّلامُ من بُعدهم عن هدايات السَّماء.

وإنَّ الجنوح المادي الذي طالما تميَّزت به قوى الكفر منذ فجر التاريخ وحتى وقتنا الراهن كضرورة من ضرورات التصاقها بالأرض ورفضها أي إيمان بالغيب أو المثل العليا، لا يُمثِّل تعبيراً عن السعادة بمفهومها الشامل، بل على العكس فإن هذا الجنوح يُمثِّل نقضاً كبيراً وانحرافاً خطيراً في تجربة يملأ خلاياها وشرايينها بالتعاسة والشقاء(١). ومهما يكن من أمر فإن الحضارة ـ أيَّة حضارة ـ محكومة بالسُّنَن الإلهية، وهذه السُّنَن في المجال الحضاري على نوعين:

* سُنَنٌ جزئيَّة تتعلَّق بعالم الشهادة، وهي سُنَنٌ تُعطي كلَّ مَن يُوظِّفها على قدر سعيه ولا تُفرِّق بَينَ مُؤمِن وكافر.

* سُنَنٌ كُلِّيَّة حاكمة على هذه السنن الجزئيَّة، وهي سنة الإيمان بالله تعالى وتوحيده، وهي التي تُحدِّد مصير الحضارات، نُمّواً وسقوطاً، وتُعتبرُ جميع عوامل سقوط الحضارات تبعاً لهذا العامل، أي غياب الإيمان بالله وتوحيده(٢).

فقوم نوح مضت فيهم سُنَّةُ الله، بأسباب عديدة منها: الكفر بالله عزَّ وجلَّ فكانت واقعة الطُّوفان العظيم والتي تعدُّ من أبرز الحوادث التاريخية وقعاً في النفس الإنسانية، حيث إنها من أقصى العقوبات التي عاقب الله بها الكُفَّار(٣).

٢ ـ الشِّرك بالله:

من المعلوم أن التوحيد هو الأصل في حياة الإنسان، وهو الذي صنع

---

(١) عبد الله محمد الأمين، الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية دراسة مقارنة، إدارة البحوث والدراسات الإسلامية، قطر، (كتاب الأمة)، العدد (١٥٣)، السُّنَّة (٣٣)، ١٤٣٤هـ، ص ١٠٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٠٣.

(٣) وفاء محمد سعيد، فقه السنن الإلهية، دار الأمة، ط١ ٢٠١٦م، ص ١٦٩.

الحضارة الإنسانية مع بداية خلق الله لأبينا آدم عليه السَّلامُ، ولكن في نهاية عهد الحضارة الإنسانية الأولى وفي عهد قوم نوح فشا فيهم الشرك، وبدأ بهم الانحراف عن دين التوحيد، كما جاء في حديث ابن عباس: كانَ بَينَ آدمَ ونُوحٍ عشرةُ قُرونٍ كلُّهم على الإسلامِ[١]، وقد استدرجهم الشَّيطان إلى الشرك، حيث زيَّن لهم وجوبَ تعظيم رجال صالحين منهم من موتاهم، ووسوس لهم أن ينصبوا إلى مجالسهم التي يجلسون إليها أنصاباً «تماثيل» على هيئة أولئك الصَّالِحين، تخليداً لذكراهم ففعلوا وسَمَّوها بأسمائهم، وجاء آخرون من قوم نوح فوسوس إليهم الشَّيطان أن من كانَ قبلكم كانوا يعبدون هذه الأصنام فعبدوها[٢].

وقد بَيَّنَّا في هذا الكتاب محاورةَ نوح عليه السَّلامُ إياهم واستعمالَه كافَّة أساليب الإقناع في سبيل دعوتهم إلى التوحيد ونبذ الشرك، وقد مضى فيهم ألفَ سَنةٍ إلا خمسينَ عاماً يدعوهم إلى الله عزَّ وجلَّ، وكان نوح عليه السَّلامُ كلَّما أعرض قومُه عن دعوته غيَّر وبدَّلَ أسلوبه فإذا أعرضوا عن الدعوة العلنية عاد ليبلغهم الدعوة بصورة سرية، ولكن مع ذلك لم تَلِنْ قلوبُهم لدعوته، إذ ران عليها حُبُّ الأوثان وعبادتُها[٣].

لقد كانَ قوم نوح هم أوَّل مشركين في تاريخ الحضارات الإنسانية، وبهم بدأ الانحراف، وكانوا مُتوغِّلين في الشِّرْك راسخين في العناد، وسجَّل القرآن عليهم موقفَهم النِّهائيَّ من الشِّرْك وعبادة الأصنام بعد المواعظ البليغة والنَّصائح الغالية التي بذلها لهم نوح عليه السَّلامُ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]. وهذا الموقف ليس مجرَّدَ شِرْكٍ

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٢/ ٤٤٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، ٢/ ٤٤٢.

(٣) محمد أمحزون، السنن الاجتماعية في القرآن الكريم وعملها في الأمم والدول، دار طيبة، ط١ ١٤٣٢هـ، ٣/ ٣٨٥.

وإصرار عليه بل هو تواصٍ به، وتناصُحٌ بالإقامة عليه وتحذيرٌ من تركه[١].

وفي موقف من مواقف الثقة بالله والتَّوكُّلِ عليه يُبيِّنُ نوحٌ عليه السَّلامُ عجزَ أصنامهم وضعفَها، فتحدَّاهُم جميعاً هم وأصنامهم التي زعموا أنها آلهة تنفع وتضرُّ، وتحدَّاهُم أن يَسعَوا في الكيد له والإضرار به ما أمكنهم ذلك، فلو كانت تلك الأصنام آلهةً حقّاً لانتقمت منه وأهلكته بما شنَّع عليها وذمَّها، قال تعالى: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]، ولم تفعل أصنامهم شيئاً، وأنى لها ذلك؟ وهي جمادات لا إدراك لديها فضلاً عن جلب نفع أو دفع ضرٍّ، والقوم بعد هذه الحجج وهذا التَّحدِّي لم يُقارعوا الحُجَّةَ بالحُجَّة والبُرهانَ بالبُرهان، بل أعلنوا تبرُّمَهم من الحجج التي يأتي بها نوح عليه السَّلامُ، وأغلقوا باب المحاورة والمجادلة وطلبوا نزول العذاب، قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢]، إنه عناد ما بعده عناد، وكل ذلك من أجل أصنام صنعوها بأيديهم وسَمَّوها آلهة بغير سلطان أتاهم[٢]. وفي النهاية قضى الله تعالى بهلاك المشركين، وهي سُنَّةٌ فيمن أشرك به وحادَّ رسولَه، وانهدَّت أركان شركهم وقواعده بالطُّوفان العظيم.

٣ ـ الظُّلم:

يعدُّ الظُّلم من أكبر عوامل سقوط الحضارات، وله مفهوم شامل عريض، يُؤدِّي إلى فقدان التوازن في كافة مجالات الحياة وعلاقة الإنسان مع نفسه ومع الله ومع غيره، وعن هذا تنبثق ظواهر نفسية واجتماعية واقتصادية مَرَضِيَّة،

---

(١) سعيد محمد بابا سيلا، أسباب هلاك الأمم السَّالفة، سلسلة إصدارات الحكمة، بريطانيا، ٢٠٠٠م، ص ١٢٨.

(٢) المرجع السَّابق، ص ١٢٨.

وتصوُّراتٌ فاسدة عن الوجود كلِّه، فيعمُّ الفسادُ الحياةَ الإنسانية بأسرها[١]، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢].

وقد تكرَّر وصفُ قوم نوح بالظُّلم في القرآن الكريم مرَّاتٍ عديدة:

* قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [التوبة: ٧٠].

* قال تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾ [النجم: ٥٢]، أي أكثر ظلماً وطغياناً من عاد وثمود[٢]. وقال تعالى: ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٤]. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [هود: ٣٧]. وفي قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: ٤٤].

إنَّ قوم نوح عليه السَّلامُ استفحل فيهم الظُّلم وأصبح ظاهرةً على مستوى المجتمع، وارتكبوه بكلِّ أنواعه، واستمرُّوا على ذلك إلى أن نزل بهم العقاب الرباني ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ١١].

وإنَّ الإهلاك بسبب الظُّلم سُنَّة من سُنَن الله في سقوط الحضارة الإنسانية

---

(١) محمد هيشور، المرجع السَّابق، ص ٢٣. والظُّلم: لفظ عامٌّ في وضع الشيء في غير موضعه، يشمل الشِّرْك وغيره من المعاصي، إلا أن الشِّرْك أعلى أصناف الظُّلم، ولا ظلم أعظم منه، بالإمكان مراجعة: محمد أمحزون، السنن الاجتماعية في القرآن الكريم وعملها في الأمم والدول، ٣/ ٣٨٩.

(٢) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ٢٤.

الأولى وإبادة مدنيَّتِها المُتخلِّفة عن نور الوحي، وإزالة سلطان الملأ الذي يُمثِّلُ القيادة السياسية والاجتماعية والفِكريَّة في تلك الحقبة من تاريخ البشر.

٤ ـ تكذيب الرَّسولِ الكريم نوحٍ عليه السَّلامُ:

وردت آيات كثيرة تدلُّ على أن تكذيب الرُّسُلِ كانَ سبباً في هلاك الأمم السَّابقة، وهذه الآيات واضحة الدلالة وصريحة في العلاقة بَينَ تكذيب الرُّسُل وبين ما حاقَ بهم من الهلاك والدَّمار[1].

قال تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ۝٤٢ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۝٤٣ وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [الحج: ٤٢ ـ ٤٤].

وهذه الآيات ونظائرها ورَدَت في سياق تسلية النبي ﷺ عمَّا يُلاقيه من قومه من التكذيب والإعراض، فالله سبحانه وتعالى يقصُّ على نبيِّه قصصَ المُكذِّبين من الأمم السَّابقة وما واجهوا به رُسُلَهم من التكذيب وما صار إليه أمرهم من الهلاك، وفي ذلك تخفيف عنه ﷺ عما يجد في نفسه من الألم والأسى بسبب تكذيب هؤلاء الكفرة، فهو ليس بدعاً من الرُّسُل في التكذيب، بل كُذِّب قبلَه رسلٌ، وفيه إنذار وتحذير للمُكذِّبين من قومه من أن يكون مصيرُهم كمصير أسلافهم الذين كذَّبوا رُسُلَهم فأخذهم الله بعاجل العذاب[2]. ومن نظائر هذه الآيات:

* قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ۝١٢ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ۝١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ [ص: ١٢ ـ ١٤]. قال ابن كثير: فجعل عِلَّةَ هلاكهم هو تكذيبهم بالرُّسُل.

---

(١) سعيد سيلا، أسباب هلاك الأمم السالفة، ص ١٩٢.
(٢) المرجع السَّابق، ص ١٩٢.

* ومنها قول الله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢ ـ ١٤].

* وقال تعالى: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر: ٤ ـ ٥].

وهذه الآيات كما ترى تتحدَّث عن هلاك جميع الأمم بسبب ما أقدموا عليه من تكذيب رُسُلهم، وهناك صنفٌ آخرُ من الآيات تدلُّ على المعنى ذاته غير أنها تتحدَّث عن مسلك أمة معيَّنة في تكذيب رسولها وهلاكها بسبب ذلك.

وتكذيب الرُّسُل هو: نسبتهم إلى الكذب أو إلى ما يقتضي ذلك في ذكر صور التكذيب، وهو من أكبر الجرائم وأعظم الشنائع التي ارتكبتها الأمم السَّابقة واستحقوا بها الهلاك، وعلى رأس تلك الأمم قوم نوح عليه السَّلامُ، فقد كانَ أصدق النَّاس لهجة وأنقاهم سريرة، وأكرمهم خُلقاً وأمانةً، فاختاره الله لرسالته، وأيَّدَهُ بالوحي الإلهي والآيات والدلائل، وما اختاره الله لرسالته إلا لعلمه بأهليَّتِه لها، وهو الذي لا تَخفى عليه خافية، وهو أعلم حيث يجعل رسالته[1].

ولعظم جُرمِ تكذيب الرُّسُل وشناعته جعل القرآنُ الكريم مَن كذَّب رسولاً واحداً كأنَّه مُكذِّبٌ لجميع الرُّسُل، قال تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفرقان: ٣٧]، بيَّنت الآية أنهم أُهلكوا بالغرق؛ بسبب تكذيبهم الرُّسُل، مع أن الله لم يرسل إليهم غير نوح عليه السَّلامُ، وذلك لأن تكذيب رسول واحد تكذيب لجميع الرُّسُل، سابقِهم ولاحقِهم، لاتِّفاق كلمتهم على التوحيد وهو أساس رسالتهم فلا فرق

---

(١) سيلا، أسباب هلاك الأمم السالفة، ص ١٩٤.

بَينَ نوح وغيره من الرُّسُل من حيث وجوب الإيمان به، فلو أن الله سبحانه وتعالى أرسل إلى هؤلاء كل رسول فإنهم كانوا سيكذبونهم كما كذَّبوا نوحاً، وفي هذا إبراز لعظم كفرهم وإظهار لفظاعة جرمهم(١).

ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفرقان: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ [الأعراف: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ [يونس: ٧٣]، والآيتان الأخيرتان خُتمت بهما قصَّة نوح عليه السَّلامُ في سورتي الأعراف ويونس لبيان استمرارهم وإصرارهم على تكذيب نوح حين مشارفتهم الهلاك(٢).

ومع هذه القصة الطويلة من التكذيب والعناد ورَدِّ الحجج والآيات، يأتي قوم نوح يوم القيامة فيُنكرون أن يكون نوح أو غيره جاءهم بنذارة، ويرومون من وراء ذلك نفي قيام الحُجَّة عليهم طمعاً في النجاة من العذاب، وأنى لهم ذلك والشهود العدول حضور؟

روى الإمام البخاري بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: يجيء نوح وأمته فيقول الله تعالى: هل بَلَّغتَ؟ فيقولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ، فيقول لأُمَّتِهِ: هل بَلَّغكُم؟ فيقولون: لا، ما جاءنا من نَبِيٍّ، فيقول لنوح: مَن يشهَدُ لَكَ؟ فيقولُ: مُحمَّدٌ ﷺ وأُمَّتُه، فنشهد له أنه قد بَلَّغَ، وهو قوله جلَّ ذِكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] (٣).

---

(١) سيلا، أسباب هلاك الأمم السالفة، ص ١٩٥.
(٢) المرجع السابق، ص ٢١٧.
(٣) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، ٤/ ١٠٥.

٥ ـ إيذاء نوح عليه السَّلامُ بأنواع الإيذاء ودعاؤه على قومه:

من أسباب العقاب الإلهي، الذي نزل بقوم نوح، إيذاؤهم له بالاستهزاء والسُّخريَّة والتكذيب وتهديدهم له بالرَّجم واتِّهامهم له بالجنون، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ [القمر: ٩]، وقوله: ﴿وَازْدُجِرَ﴾ أيْ: زجروه وأوعدوه[١]، كفعلهم الوارد في قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]، وعلى هذا فكلمة ﴿وَازْدُجِرَ﴾ حكايةٌ لفعلهم لا لمقالهم.

لقد اتَّهموه بالجنون ثم زجروه عن الاستمرار فيما هو فيه من الدعوة إلى التوحيد وذَمِّ الأصنام والأوثان، وأما على القول الثاني: فيكون تأكيداً لاتِّهامه بالجنون والتأسيس هو الأصل، والله أعلم[٢].

ووصفُ هؤلاء نوحاً بالجنون بالإضافة إلى الكذب فيه مبالغة في تكذيبه والتشنيع عليه، ذلك أن الكاذب إذا كانَ عاقلاً، فإنه يقول ما يُظنُّ أنه صدق، وقد يلتبس كلامه على النَّاس فلا يعرفون صدقه من كذبه، أما إن كانَ مجنوناً فإنه يقول ما لا يُعقل، وكذبُه في كلامه يكون واضحاً مستبيناً لكلِّ عاقل، فجعلوا كلام نوح عليه السَّلامُ مما لا يخفى كذبُه على أحد[٣].

وفي موقف آخر رَمَوا نوحاً بأنه واقع في ضلال، قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠]، فلم يكتفوا برميه بمجرَّد الضَّلال حتى جعلوه ضالاًّ ضلالاً مُبيناً واضحاً لكلِّ أحد، بالغاً الغاية في البعد عن الحقِّ[٤]، وهكذا يبلغ الضال من الضَّلال أن يحسب من يدعوه إلى الهدى هو الضَّالُّ[٥].

---

(١) سيلا، أسباب هلاك الأمم السالفة، ص٢١٧.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٢١٧.
(٣) تفسير الرازي، ١٥/ ٣٦.
(٤) السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ٣/ ٤٥.
(٥) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٣/ ٥٤٢.

حقّاً إنه قلبٌ للموازين، وتزييف للحقائق، فنوح عليه السَّلامُ أبعد النَّاس عن الضَّلال، والذين نسبوه إلى الضَّلال هم الضَّالُّون المُضِلُّون، فهم الذين اتَّخذوا أصناماً آلهة، لا تجلب لهم نفعاً ولا تدفع عنهم ضرّاً، بل هم الذين صنعوها بأيديهم وسمَّوها آلهة بغير بُرهان ولا سلطان، وما بُعِث نوح إلا لإخراجهم من هذا الضَّلال وهدايتهم إلى الحقِّ الذي هو توحيد الله جلَّ وعلا، ونبذ عبادة الأصنام، لكنهم كانوا أعداء أنفسهم، فأوبقوها بعنادهم وتعنُّتهم، ولم يقف تكذيب قوم نوح عند هذا الحدِّ، بل أثاروا الشُّبهات حول رسالته ودعوته فتارةً يوردون شبهة البشرية ومناقضتها للرسالة في زعمهم، ومرَّةً يرمونه بمُخالفة نهج الآباء أو السعي وراء الجاه والمكانة إلى غير ذلك من شبهاتهم، وقد وصل الأمر بهؤلاء المُكذِّبين إلى حد التبرُّم من سماع كلام نوح عليه السَّلامُ والتأفُّف من رؤيته إفراطاً في التكذيب، وإمعاناً في الإعراض، كما نطق بذلك نوح في قول الله عزَّ وجلَّ ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧]، ومعنى قوله: ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: غطَّوا بها وجوههم لئلا يَرَوهُ كراهةَ النظر إليه من فرط كراهتهم لدعوته[١].

ثم انتهى بهم الأمر إلى استعجال نزول العذاب الذي أوعدهم به نوح عليه السَّلامُ، ظنّاً منهم أن لا صدق لذلك الوعيد، وهكذا أيأسوه من احتمال استجابتهم وقطعوا رجاءه في إيمانهم بعد هذه المدة المتطاولة والمواعظ البالغة والحججِ الدامغة[٢]، ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾، فما كان من نوح عليه السَّلامُ إلا أن استغاث بربه، فناداه واستنفره واستفتح بينه وبين قومه ودعا عليهم:

* قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ [الصافات ٧٥].

---

(١) زاد المسير، المرجع السَّابق، ٨/ ٩٨. وفي: تفسير البيضاوي، ٢/ ٥٢٩.

(٢) سيلا، أسباب هلاك الأمم السالفة، ص ٢١٨.

* قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٦].

* قال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾ [القمر: ١٠].

* قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ١١٧ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٧ ـ ١١٨].

* قال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾ [نوح: ٢٦ ـ ٢٧]. وقد استجاب الله لنبيِّه، ونِعْم المجيب، فأهلك المُكذِّبين عن آخرهم(١).

٦ ـ استعجال العذاب:

من أسباب العقاب الإلهي الذي نزل بقوم نوح استعجالُهم العذابَ، فقوم نوح عندما يئسوا من مناهضة الحُجَّة بالحُجَّة أخذتهم العزة بالإثم، واستكبروا وأبوا الإذعان للبُرهان العقلي والفطري، وإذا هم يتركون الجدال إلى التَّحدِّي، فقد كانوا قوماً عَمِين كما وصفهم الله تعالى ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢]، إنَّه العجز يلبس ثوب القوة والضعف، يرتدي رداء القوة والخوف من غلبة الحق، يأخذ شكل الاستهانة والتَّحدِّي ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وأنزلْ بنا العذاب الأليم الذي أنذرتنا، فلسنا نصدِّقُك ولسنا نُبالي وَعيدَك(٢).

وعندما يئس نوح عليه السَّلامُ من صلاحهم واستجابتهم لدعوته، ورأى أنه لا خير فيهم، وتوصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريقة من فعال ومقال، دعا عليهم دعوةَ غضبٍ لله عزَّ وجلَّ، فلبى الله دعوته وأجاب طلبه(٣)، قال

---

(١) سيلا، أسباب هلاك الأمم السالفة، ص ٢١٩.
(٢) شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب، السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، ٢/ ٣٤٢.
(٣) المرجع السَّابق، ٢/ ٣٤٢.

تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: ٧٦]، وتحقَّقت سنة الله في قوم نوح عليه السَّلامُ.

٧ ـ الجدال بالباطل:

قال تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٤ ـ ٥].

أ ـ ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾:

فهم وحدَهم من بَينِ هذا الوجود الهائل يَشذُّون، وهم وحدهم من بَينِ هذا الخَلْق العظيم ينحرفون ـ وهم بالقياس إلى هذا الوجود ـ أصغر وأقلُّ من النمل بالقياس إلى هذه الأرض، وهم حين يقفون في صفٍّ يُجادلون في آيات الله، ويقف الوجود الهائل كلُّه في صفٍّ مُعترفاً بخالق الوجود مُستنداً إلى قُوَّة العزيز الجَبَّار، هم في هذا الموقف مقطوع بمصيرهم، مَقضِيٌّ في أمرهم مهما تبلغ قوتهم ومهما يتهيَّأ لهم من أسباب المال والجاه والسلطان[١].

ب ـ ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾:

فمهما تقلَّبوا وتحرَّكوا وملكوا واستمتعوا فهم إلى اندحار وهلاك وبوار، ونهاية المعركة معروفة إن كانت ثمة معركة يُمكن أن تقوم بَينَ الوجود وخالقه، وبين قوة هؤلاء الضِّعاف المساكين، ولقد سبقتهم أقوام وأحزاب على شاكلتهم، تُوحي عاقبتُهم بعاقبة كلِّ من يقف في وجه القوة الطاحنة العارمة التي يتعرَّض لها من يُعرِّض نفسه لبأس الله.

ج ـ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾:

أيْ: ليسوا أوَّلَ من كذَّب حتى يجهلوا عاقبة تكذيبهم وما يجرُّه عليهم هذا

---

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٥/ ٣٠٦٩.

التكذيب، فهي قصَّة قديمة من عهد نوح، ومعركةٌ ذات مواقع متشابهة في كل زمان. وهذه الآية تُصوِّر هذه القصة قِصَّةَ الرسالة والتكذيب والطُّغيان على مدى القرون والأجيال كما تُصوِّر العاقبة في كل حال[١].

د ـ ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾:

أيْ: من قوم نوح والأحزاب ومن بعدهم بتدبير وإعداد الوسائل والمكايد وأنواع المكر ضد رسولهم، ليقبضوا عليه ويمنعوه من متابعة الدعوة بالسجن والقيد أو القتل أو بالإخراج من البلاد والطرد.

هـ ـ ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾:

أيْ: لِيُوهموا بباطلهم المموّه المزخرف أن الحقَّ الذي جاء به الرُّسُل هو باطل، ولِيُزلقوا الحقَّ في مزالق الشبهات والتلبيسات التي يصطنعونها، فيُزيلوه عن مواقع ثباته في أفهام المُؤمِنين به.

و ـ ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾:

أيْ: فأخذتهم أخذَ إهلاك، وكان إهلاكاً بوسائل مختلفة، فكيف كانَ العقاب لهم على تكذيبهم رُسُل ربهم، ومجادلتهم بالباطل لدحض الحقِّ؟ وهذا الاستفهام هو عن الحال التي كانَ عليها العقاب، لأن لفظة ﴿فَكَيْفَ﴾ يُستفهم بها عن الحال، فقد كانَ بالظواهر الكونية، كالطُّوفان وإغراق البحر، وانقلاب الأرض وجَعْل عاليها سافلها إلى غير ذلك. وقد كانَ انتقاماً عادلاً لأمم كفرت كُفراً إرادياً، وظَلَّت مُصِرَّةً على العناد ورفض الحق، رغم الإمهال الطويل لهم، وكان عبرة وعظة لمن وراءهم[٢].

---

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٥/ ٣٠٧٠.
(٢) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٥٢.

٨ ـ الترف:

ومن أسباب العقاب الإلهي التَّرفُ، قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ۝١١٦ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود ١١٦ ـ ١١٧] (١).

فالظالمون وهم الأكثرون اتَّبعوا نعيم الدُّنيا ولَذَّاتِها، إيثاراً لها على عمل الآخرة وما يُنجيهم من عذاب الله.

قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]، فإذا أراد الله عزَّ وجلَّ إهلاك أمة فإنه يأمر هؤلاء الذين أُترفوا بالطاعة فيفسقون فيها ويَبقَون على ترفهم، ويَبقَون على معاصيهم ومخالفتهم لأمره سبحانه، فيحقُّ عليهم وعيدُ الله الذي أوعد من كفر به وخالف رُسُلَه من الهلاك والدمار، فيُخرِّبها سبحانه تخريباً، ويهلك من كانَ فيها إهلاكاً.

إنَّ المُترَفين هم أولو النِّعمة والحشمة والثروة والرياسة(٢)، وهؤلاء المُترَفون هم المَعنيُّون بالملأ من القوم، وهم الذين تولَّوا معارضةَ الرُّسُل، كما ورد في آيات كثيرة، منها قوله تعالى عن قوم نوح ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠]، وبيَّنَ نوح أن جماهير قومه اتبعوا رؤساءهم وأهل الثروة منهم الذين لم تزدهم كثرة المال والولد إلا ضلالاً في الدُّنيا وعقوبة في الآخرة(٣).

قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١]. ومجتمع قوم

---

(١) عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥ ١٩٩١م، ص٢٧٣.

(٢) تفسير ابن كثير، ٣/٥٤٨. وانظر: سعيد محمد بابا سيلا، أسباب هلاك الأمم السَّالفة، ص٣٦٦.

(٣) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/٣٧١٦.

نوح ساد فيه التَّرف والطبقية فهو مُكوَّن من: الرؤساء والمرؤوسين، الأغنياء والفقراء، والأقوياء والضعفاء، والمُترَفون من كل أمة هم طبقة من الكبراء المُنعَّمين الذين يجدون المال ويجدون الخدم والراحة، فينعمون بالراحة والسيادة حتى تترهَّل نفوسُهم وترتع في الفسق والمجون وتستهتر بالقيم والمقدسات والكرامات وتلغ في الأعراض والحرمات، وكانوا من أسباب الهلاك والدمار في أقوامهم الهالكة والأماكن التي عاشوا فيها(١).

وقد أخبرنا الله عزَّ وجلَّ عن كثرة القرى الظالمة التي كانَ أهلها مُترَفين، فاستحقَّت عقابَ الله عزَّ وجلَّ، قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝١١ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ۝١٣ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝١٤ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١١ـ١٥].

٩ ـ البطر:

ومن الجرائم التي تُعاقب عليها الأُمم: البطر، والبطر: هو الطُّغيان والإشراك وكفر النِّعَم، قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص ٥٨].

وقوم نوح عليه السَّلامُ بطروا النِّعمة وطَغَوا فيها، ولم يقوموا بشكرها ولا بحقها، وجحدوها، فجمعوا بينَ الكفر وفساد المعتقد والطُّغيان والاستعلاء في الأرض وعدم القيام بشكر المنعم(٢).

وقام نوح عليه السَّلامُ بتذكير قومه بنعم الله عليهم فقال لهم: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ

(١) أحمد سليمان الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، ص ٢١٥.
(٢) محمد أمحزون، السنن الاجتماعية في القرآن الكريم، ١/ ٥٠٤.

فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٣ ـ ٢٠].

ولكن القوم اعتادوا البطر وكُفرانُ النِّعَم، إذ بعد فتح أبواب الخيرات عليهم، لم يزيدوا على أن فرحوا أشَراً وبطراً وطغياناً وعُجباً من غير انتداب لشكر أو عرفان للمُنعم سبحانه، وكان شركهم وتكذيبهم من أعظم الكفران، إذ جعلوا لأصنامهم حظّاً من الإنعام والإكرام، وصرفوا لها العبادة التي لا ينبغي أن تكون إلا لله تعالى الكريم المُتفضِّل بجميع النِّعَم مع الإصرار على عبادة أوثانهم مُتواصِينَ بالتَّمسُّك بها، وكان عاقبتهم الطُّوفان الذي أبادهم ولم يترك منهم أحداً[١].

١٠ ـ الاستكبار:

من أسباب هلاك قوم نوح: الاستكبار، والكبر والتكبُّر والاستكبار: اشتقاقات من مادة «كبر» وهي متقاربة في المعنى[٢]، فالكبر ألصقناه بالخُلُق الباطنيِّ، وهو: خلق في النفس دالٌّ على الاسترواح[٣]، والركون إلى رتبة فوق المتكبَّر عليه[٤]، فمتى اتَّصف المرء بهذا الخلق يقال: في نفسه كبر[٥]، فإذا ظهر كعمل صادر عن الجوارح كانَ تكبُّراً واستكباراً[٦]. وقد بَيّنَ رسول الله ﷺ حقيقة الكبر المُتوعَّد عليه بالعقاب فقال: الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ[٧]، وغَمْطُ النَّاسِ[٨].

---

(١) محمد أمحزون، السنن الاجتماعية في القرآن الكريم، ٣/ ٤٠٦.

(٢) المفردات في غريب القرآن، ص ٤٢١.

(٣) الاسترواح: التشمم، انظر في: ابن منظور، لسان العرب، مادة (روح)، ٣/ ١٧٦٥.

(٤) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ٢٠١٠م، ٣/ ٣٦٣.

(٥) سعيد محمد بابا سيلا، أسباب هلاك الأمم السالفة، ص ١٥٧.

(٦) المرجع نفسه، ص١٥٧.

(٧) بطر الحق: رده ودفعه وإنكاره ترفعاً وتجبراً.

(٨) غمط الناس: احتقارهم. والاستكبار: صيغة استفعال دالة على الطلب، قال الألوسي: والاستكبار: طلب الكبر من غير استحقاق، صحيح مسلم، رقم١٤٧.

وصِفة الاستكبار الذَّميمة كانت شائعة في قوم نوح عليه السَّلامُ، وكانوا قوماً مستكبرين متجاوزين الحدَّ في الكبر، ووَصفهم بهذه الصِّفة نبيُّهُم نوح عليه السَّلامُ في شكواه إلى ربِّه من عنادهم وعدم استجابتهم، قال تعالى: ﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧]؛ أيّ استكباراً عظيماً غير معهود[١]، وقد أُكّد الفعلُ بالمصدر للدلالة على فرط استكبارهم[٢].

وورد هذا الوصف الدَّالُّ على مبالغتهم وإفراطهم في الكبر في قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ [النجم: ٥٢]. وقال الطبري: إنهم كانوا أشدَّ ظلماً لأنفسهم، وأعظم كفراً بربهم، وأشدَّ طُغياناً وتمرُّداً على الله من الذين أهلكهم من الأمم[٣].

وقد تكبَّر قوم نوح على الله سبحانه وتعالى بالترفُّع عن عبادته وعن الإذعان لأوامره ونواهيه وعلى نوح عليه السَّلامُ وأتباعه، ولذلك مضت فيهم سُنَّةُ الله في إهلاك أهل الاستكبار.

إنَّ الكبر خُلُقٌ ذميم، وكبيرة من كبائر الذُّنوب، وبسببه شَقِيَ كثيرٌ من النَّاس وأوبَقُوا أنفسَهم في العاجلة، واستحقُّوا العذاب في الآخرة، والنصوص الواردة في ذَمِّه، وبيان خطورته، وما أعدَّ الله لصاحبه، كثيرة لا تُحصى، منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. وقال ﷺ: «لا يَدخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ في قَلْبِهِ مثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»[٤].

---

(١) الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ٢٩/ ٧٢. أسباب هلاك الأمم، ص ١٦٥.
(٢) تفسير النسفي، (٣/ ٥٩٢). وانظر: سعيد محمد بابا سيلا، أسباب هلاك الأمم السالفة، ص ١٦٥.
(٣) سيلا، أسباب هلاك الأمم السَّالفة، ص ١٦٦.
(٤) صحيح مسلم، رقم ١٤٩.

وهذان النَّصَّانِ في الوعيد الأُخرَوِيّ، وأما في العاجلة فيكفي في بيان عاقبة صاحب الكبر ما ورد من النُّصوص الدَّالَّة على كونه سبباً في هلاك كثير من الأمم السَّالفة، وأشدُّ آثار الكبر ضرراً لصاحبه أنه يمنعه من اتِّباع الحقِّ والانقياد له بعد معرفته، فيُحرم الهداية، وينقاد للباطل بسبب كبره وعناده، ولذا كانَ كفر أغلب الأمم بسبب الإباء والاستكبار، فهم عرفوا صدق الرُّسُل، وأن ما جاؤوا به حقٌّ، ولكنهم لم يُؤمنوا بهم تكبُّراً واستنكافاً أن يتَّبعوا بشراً مثلَهم[(١)].

١١ ـ المكر:

إنَّ ما تعرَّض له نوح عليه السَّلامُ أمرٌ عظيم من مكر الكافرين به، قال تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [النمل: ٥٠]، وقد كانَ المكر صفة بارزة في قوم نوح، واستخدم الملأ من قومه كافَّة وسائل المكر وأساليبه لصَدِّ النَّاس عن دعوة التوحيد والاستجابة لعبادة الله، وآثروا الشُّبُهاتِ والاتِّهاماتِ الباطلة ووضعوا العوائق والعراقيل أمام دعوته، وقد بَيَّنَّا ذلك في الصفحات السَّابقة.

لقد دبَّروا الحيل، ونصبوا الحبائل، ليمكروا بنوح عليه السَّلامُ، فأبطلها الله وجعلها سبيلاً لهلاكهم، وأخذُ الماكرين بعقاب الله سنةٌ إلهية ثابتة مُطَّردة إلى أن يرث الله الأرضَ ومَن عليها[(٢)]، إذ قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٣].

ويُبيِّن في آية أخرى مصير هؤلاء الكافرين الماكرين، قال تعالى: ﴿ قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [النحل: ٢٦].

---

(١) سيلا، أسباب هلاك الأمم السالفة، ص ١٦٢.

(٢) الخطيب، السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، ٢/ ٣٣٢.

١٢ ـ الخطايا والذُّنوب:

قال تعالى في سورة نوح عن دعائه: ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ۝٢٤ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ [نوح: ٢٤ ـ ٢٥].

* ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾: ذلك الدُّعاء المنبعث من قلب جاهَدَ طويلاً وعانى كثيراً، وانتهى بعد كل وسيلة إلى الاقتناع بأن لا خير في القلوب الظَّالمة الباغية العاتية، وعلم أنها لا تستحقُّ الهدى ولا تستأهل النجاة.

وقبل أن يعرض السياق بقيَّةَ دعاء نوح عليه السَّلامُ يعرض ما صار إليه الظالمون الخاطئون في الدُّنيا والآخرة، فأمرُ الآخرة كأمرِ الدُّنيا، ماضٍ بالقياس إلى علم الله، وبالقياس إلى الوقوع الثابت الذي لا تغيير فيه.

* ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾: فبخطيئاتهم وذنوبهم ومعصياتهم أُغرقوا فأُدخلوا ناراً، والتعقيب بالفاء مقصود هنا، لأن إدخالهم النار موصول بإغراقهم، والفاصل الزمنيُّ القصير كأنه غير موجود؛ لأنه في موازين الله لا يُحسَب شيئاً، فالترتيب مع التعقيب كائن بَينَ إغراقهم في الأرض وإدخالهم في النار(١).

ومن أسباب العقاب الإلهي لقوم نوح وقوعُهم في المعاصي وارتكابهم الذُّنوب والخطايا، والذُّنوب والخطايا تعمُّ جميع ما ذكرتُ من أسباب هلاك الأمم السَّابقة وغيرها، لأن كلَّ مخالفة لأمر الله ذنبٌ يعاقب الله عليه، وإذا تجمَّعت الخطايا والذُّنوب على أُمَّة فإن هذه الأمة تُعاقَب ويَحِلُّ بها الهلاك(٢).

---

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/ ٣٧١٦.

(٢) شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب، السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، ٢/ ٣٣٧.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

إنَّ الذُّنوبَ سببٌ للانتقام وزوال النِّعَم[1]، فهي تعزل الأمم عن مصدر القوة الحقيقية، وتستعدي عليهم قوى الإيمان ومعها قوَّة الله[2]، وهذه سُنَّةُ الله أن يأخذ الأمم بالذُّنوب[3]، كما قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [آل عمران: ١١]. وإنَّ من أسباب سقوط الحضارة الإنسانية الأُولى وهلاكها ظهور المعاصي وارتكاب الخطايا والانغماس في الذُّنوب.

١٣ ـ الاشتغال بالدُّنيا ونسيان الآخرة:

اشتغل قوم نوح بأمور الدُّنيا وأصابهم الغرور بها، ونَسُوا الآخرة، وفرحوا بالأموال والأولاد والمتاع الزائل، وغاب عنهم الاستعداد ليوم الرحيل، وتطاولوا على أهل الإيمان، ووقعوا في سُنَّةِ الاستدراج الرَّبَّانيِّ، فكثرت أموالهم وأولادهم وأبطرتهم النِّعَم الكثيرة، وتحقَّق فيهم قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤ ـ ٤٥].

والتعبير القرآني: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، يُصوِّر الأرزاق والخيرات والمتاع، والسلطان، مُتدفِّقاً كالسُّيول، بلا حواجز ولا قيود، وهي

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار (تفسير القرآن الكريم)، ٧/ ٣٠٨ ـ ٣٠٩.
(٢) الخطيب، السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، ٢/ ٣٣٨.
(٣) المرجع نفسه، ٢/ ٣٣٨.

مُقبلة عليهم بلا حواجز ولا كَدّ ولا حتى محاولة، إنه مشهد عجيب، يرسم حالة في حركة، على طريقة التصوير القرآني العجيب.

* ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾، وغمرتهم الخيرات والأرزاق المُتدفِّقة، واستغرقوا في المتاع بها والفرح لها ـ بلا شكر ولا ذكر ـ وخلت قلوبُهم من الاختلاج بِذِكر المُنعم، ومن خشيته وتقواه، وانحصرت اهتماماتهم في لذائذ المتاع واستسلموا للشهوات، وخلت حياتهم من الاهتمامات الكبيرة، كما هي عادة المستغرقين في اللَّهو والمتاع، وتبع ذلك فساد النظم والأوضاع، بعد فساد القلوب والأخلاق، وجَرَّ هذا وذلك إلى نتائجه الطبيعية من فساد الحياة كلِّها، عندئذ جاء موعد السُّنَّةِ التي لا تتبدَّل[١].

* ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾: فكان أخذُهم على غِرَّة، وهم في سهوة وسكرة فإذا هم حائرون منقطعو الرجاء في النجاة، عاجزون عن التفكير في أي اتجاه وإذا هم مُهلَكون بجملتهم حتى آخر واحد منهم.

* ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾؛ دابر القوم: هو آخر واحد منهم، يَدبُرهم أيْ: يجيء على أدبارهم، فإذا قُطع هذا فأولئك أولى، و﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ تعني: الذين أشركوا، والشرك من أنواع الظُّلم، وهو أعظمها.

* ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: تعقيب على استئصال الظَّالمين بعد هذا الاستدراج الإلهي والكيد المتين، وهل يُحمد الله على نعمةٍ أجلّ من نعمة تطهير الأرض من الظَّالمين، أو على رحمة أجل من رحمته بعباده بهذا التطهير؟

لقد أخذ الله تعالى قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط كما أخذ الفراعنة والإغريق والرومان وغيرَهم بهذه السُّنَّة، ووراء ازدهار حضارتهم ثم

---

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٢/ ١٠٩٠.

تدميرها ذلك السِّرُّ المُغيَّب من القدر الظاهر في سُنَنِه، وهذا التفسير الرَّبانيّ لهذا الواقع التاريخي المعروف(١).

١٤ ـ سنة الاستبدال:

قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٣٨]، مضت سُنَّةُ الله في الاجتماع البشري أنه ما أهلك قوماً إلا أنشأ من بعدهم قوماً آخرين، يقومون بعمارة الأرض، ذلك أن ذهاب أمة وإنشاء أخرى لا يكون عبثاً وصُدفةً، ولكنه سُنَّةُ الله في الأمم والدول لتتجدَّد خلايا الإنسانية، وتتداولَ الحياةُ الحضارية بَينَ البشر، ليستمرَّ العالم قائماً على عقيدة سليمة وأُسس صحيحة صالحة للبقاء(٢).

وإن الحضارات كما أن لها سُنَنَ قيامٍ وسقوط، فلها سُنَنُ تجدُّدٍ وانبعاث واستبدال، وقد تحدَّثَ القرآن الكريم عن الاستبدال الحضاري، وهذا ما حدث لقوم نوح حيث تجمَّعَت فيهم أسباب الهلاك فمضت سُنَّة الله فيهم بالطُّوفان، ولكي تستأنف الإنسانية رسالتها استبدلهم الله بنوح عليه السَّلامُ والذين آمنوا معه، وكان نوح عليه السَّلامُ ومن آمن معه تميَّزوا بتوحيدهم لله، وبمنظومة سلوكية أخلاقية ربانية، متمسِّكين بالحقِّ وصابرين عليه، وأجرى الله قدرَه عليهم ومكَّن لهم في الأرض، وجمع الله فيهم شروطَ التَّمكين وأسبابه، وسنتحدث بإذن الله عن حضارة السلام والبركات التي أسَّسها نوح عليه السَّلامُ بعدما أبعد الله القوم الظَّالمين واستبدلهم بعباده الصَّالِحين.

١٥ ـ سُنَّةُ الأجل الجماعيّ:

قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، جعل الله لكلِّ فرد أجلاً تنتهي به حياته الدُّنيا، وجعل سبحانه

---

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٢/ ١٠٩١.
(٢) محمد هيشور، سُنَن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص ٧٣.

للأمم والحضارات آجالاً تنتهي إليها، وتسقط في نهايتها ويُسدَل السِّتارُ عليها، وكذلك لحركة التاريخ الجماعي للأمم سُنَن كثيرة دقيقة تسير عليها، قدَّرَها الحكيمُ العليم لا تُقصِّر عنها ولا تتجاوزها، أوقاتها مُحدَّدة وأحداثها مُقدَّرة مكتوبة ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ (١).

ونظراً لارتباط هذه الآجال بمواعيد ثابتة مُحَددة في علم الله كجزء من نظام كونيٍّ مُتماسكٍ ووفق مقاييس زمنية قد تبدو للإنسان ـ ذي القدرات النسبية المُحدَّدة ـ طويلة، ونظراً إلى أن إرادة الله سبحانه وتعالى وحكمته في خلقه شاءت أن تُمدَّ في هذه الأجيال كي تمنح لكلِّ قوم أو أمة أن تُكَفِّر عن ظلمها وطغيانها، وأن تسعى لالتزام الطريق العادل المستقيم، ونظراً لهذا وذاك يَتصوَّر البعضُ أنهم بمنأًى عن عقاب الله تعالى، وأنه لا تدهوُرَ ولا سُقوطَ ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

ويتطرَّف البعض الآخر، فيستعجلُ المصيرَ قبل تحققُّه على سبيل التَّحدِّي والاستفزاز ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، إلا أن أولئك وهؤلاء لم يُدركوا أن كتابهم لم يبلغ أجلَه، وأنه إذا جاء فليس أمامهم إلا أن يُعانِقُوا مصائرهم التي صاغوها بأيديهم سلفاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١] (٢)، وقال تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]، أيْ: لكلِّ قوم ميقاتٌ لانقضاء مُدَّتهم وأجلهم في الحياة، فإذا جاء وقت انقضاء أجلهم وفناء أعمارهم

---

(١) عبد الحميد طهماز، السنن الإلهية في الخلق، الدار الشامية للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٠م، ص ٣٥.

(٢) محمد أمحزون، السنن الاجتماعية في القرآن الكريم وعملها في الأمم والدول، ١/٣٦٧.

لا يستأخرون ساعة، والإمداد بالساعة أقلُّ مُدَّةً من الزمن ولا يتقدَّمون بالقدر نفسه، لأن الله قضى بذلك منذ حين[١].

يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ [الحجر: ٤ ـ ٥]، بيَّنت الآية أن كل القرى الهالكة كان لها أجلٌ مُقدَّرٌ في أسباب هلاكها، وذلك لما أقام الله الحُجَّة على أهلها بتقدُّم النُّذُر وفُرَصِ الإمهال وسُنَنِ الاستدراج[٢]، وتبقى سُنَّةُ الله ثابتةً وهي أن هلاك الأمم مرهون بأجلها فالهلاك الذي قدَّره الله لها، مُرتَّب على سلوكها وأعمالها، وعلى اعتقادها وتصوُّرها، ومن خلال هذا تنفذ مشيئة الله، فلا يَغُرَّ المُكذِّبين تخلُّفُ بأس الله عنهم فترةً من الوقت، ومن عدل الله أن يذوق كلُّ واحد جزاء عمله وتصرُّفه، وسُنَّةُ الله في طريقها المعلوم تمضي رويداً رويداً نحو الأجل المُقدَّر الذي يمنحه الله لتلك القرى، وحتى لا تبقى بقيَّةُ خيرٍ عند ذلك تبلغ الأمة أجلَها وتنتهي إلى مصيرها[٣].

وما من أمة عرفت الحياة ثم تمرَّدت على الحقِّ وتولَّت عن العدل إلا والله مُهلِكُها قبل يوم القيامة أو مُعذِّبُها، وهذا قدر مُقَدَّر في الكتاب المسطور، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ [الإسراء: ٥٨].

وهذا ما حدث لقوم نوح، حيث بعث الله لهم رسولاً لهدايتِّهم فرَدُّوا دعوتَه كبراً وعناداً، وأعرضوا عنها جحوداً وطلبوا منه تعجيل العذاب وكذَّبوا وجحدوا وظلموا وبطروا وأُترفوا. فوقع عليهم العقاب الإلهي بسبب ذنوبهم مع تقدير الله لهم وفق سُنَّة ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ﴾ فعِلمُ الله لا يتبدَّل وسُنَّته لا تتحوَّل، وهي جارية وحاكمة وَفق مشيئته وإرادته وعلمه وحكمته سبحانه وتعالى.

---

(١) محمد هيشور، سُنَن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص ٣٠٢.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٣٠٢.
(٣) المرجع نفسه، ص ٣٠٣.

١٦ ـ سُنَّة الهلاك :

إنَّ الله سبحانه وتعالى قضى بجعل الحساب والجزاء يوم القيامة، لكن جرت سُنَّتُه بالفصل بَينَ أهل الحقِّ وأهل الباطل في الدُّنيا لحكمة ربانية عُليا، وذلك بإهلاك الظَّالمين وإنجاء المُؤمنين في الصراع الدائر بَينَ الرُّسُل عليهم السلام وأعدائهم، وفي هذا الصراع دارت الدائرة وفق سُنَّة الله على أهل الشقاوة، فمنهم من أغرقه الله بالطُّوفان، ومنهم من أرسل عليه الريح العقيم، ومنهم من أخمدته الصَّيحة، ومنهم من أخذته الرَّجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، ومنهم من مُسخوا فغدوا قردةً وخنازيرَ، على أن الهلاك الذي حلَّ بأولئك الظَّالمين إنما هو خِزيٌ لهم في الدُّنيا ونُصرةٌ للمُؤمنين وعِبرةٌ لمن يجيء بعدهم من الأمم ليتعظوا بمصائر الغابرين، ويبتعدوا عن سُبل الشَّيطان التي كانت سبباً في إهلاك القرون الخالية المُحادّة لله ورسوله.

وقد ورد لفظ «الهلاك» في القرآن الكريم بمعانٍ مُتعدِّدة حسب موقعه في السياق كالموت مطلقاً والفساد، وافتقاد الشيء والعذاب[١]، والمعنى الأخير هو الأكثر استعمالاً في القرآن الكريم وله صلة بموضوعنا.

أما الهلاك في الاصطلاح القرآني فهو: ما يُنزله الله تعالى بأعدائه من العذاب المُستأصِل المُبيد، وقد ورد هذا كثيراً في قصص القرآن الكريم عن مصير الأمم الغابرة التي انحرفت عن جادَّةِ الصِّراط المستقيم، وجحدَت أوامِرَ الله عزَّ وجلَّ وآذَت رُسُلَه.

ومن أصناف الهلاك الذي حلَّ بقوم نوح الغرقُ، فكان عقاباً وهلاكاً عليهم، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٤]، والطُّوفان من كل شيء:

(١) الحسين بن محمد الدامغاني، إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٤ ١٩٨٣م، ص ٤٧٧.

ما كانَ كثيراً مُطيفاً بالجماعة[١]، لكنه صار مُتعارَفاً عليه في الماء المُغرق المُتناهي في الكثرة سواءً كانَ مطراً أو سيلاً[٢]، وقوم نوح هم أوَّلُ الأمم الهالكة التي وردت قِصَّتُها في القرآن الكريم لقوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٧]، ويُفهم من هذه الآية الكريمة أن الهلاك بدأ بقوم نوح، ثم استمرَّ إلى الفترة ما قبل البَعثة النَّبويَّة، حيث كانَ هلاك أصحاب الفيل، وكان قوم نوح سُكَّانَ الأرض في تلك الحقبة الزمنية البعيدة في أغوار التاريخ قبل انتشار النَّاس لقرب العهد من آدم أبي البشر عليه السَّلامُ[٣].

١٧ ـ سنة الخسران:

تحقَّقت سُنَّةُ الخسران في قوم نوح، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٣]، من سُنَّةِ الله أن الكافرين لا يُفلحون، وأنهم خاسرون، وهي سُنَّةٌ نافذة لا تتخلَّفُ، كما أن الفلاح للمُؤمنين طرد من الناموس الكبير[٤]، فكل ما كانَ يُرى على قوم نوح من نعمة ومتاع وقوة وسلطان عند الملأ، لم يكن ذلك فلاحاً في ميزان القيم الحقيقية، وإنما كانَ استدراجاً، انتهى بالويل والخسران والطُّوفان العظيم.

لقد خسر قوم نوح الإدراك والبصيرة فضاعوا في صحاري الشبهات وبحار الشهوات ووديان الضَّلال، ومضت فيهم سُنَّة الخسران ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾.

١٨ ـ الغفلة عن أسباب الهلاك:

من أسباب هلاك قوم نوح ومضيّ سُنَّةَ الله فيهم، غفلتهم عن أسباب الهلاك،

---

(١) الطاهر أحمد الزاوي، مختار القاموس، ص ٣٩٣.
(٢) ابن منظور، لسان العرب، ٢/ ٦٢٧.
(٣) محمد أمحزون، السنن الاجتماعية في القرآن الكريم، ٣/ ٥٧٩.
(٤) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/ ٢٤٨٣.

فلم ينتبهوا إلى خطورتها، بل مارسوها على مستوى الأفراد والمجتمع. وإنَّ القرآن الكريم في قِصَّةِ نوح عليه السَّلامُ وَجَّهَ الأنظار إلى الاعتبار بأحوالهم، وهي مليئة بالدُّروس والعبر والفوائد والسُّنَن وقوانين الله في حركة الشعوب وزوال الحضارات.

هذه بعض الأسباب التي وصلنا إليها من البحث في معرفة عوامل هلاك الحضارة الإنسانية الأولى، واللافت للنظر أن مقومات حضارة جديدة برزت من خلال محنة نوح ساهمت في انطلاقها بعد هبوط السَّفينة على الجُودِيِّ، وقد بدأت: باسم الله، والحمد لله على النجاة من القوم الظَّالمين، والدُّعاء لله بأن يُنزلهم مُنزلاً مُباركاً والله خير المُنزِلين، وكانت بذور تلك الحضارة متوفِّرة في سفينة نوح عليه السَّلامُ من الإنسان والحيوان والطيور والنباتات، مع القيم الروحيَّة والمبادى الأخلاقية، والتطوُّرات الفِكريَّة عن الله والحياة والكون والوجود والجَنَّة والنار والقضاء والقدر وغيرها من خلال وحي الله عزَّ وجلَّ لنوحٍ عليه السَّلامُ.

تاسعاً: الحذر من الإسرائيليات التي شوهت قصَّة نوح والطُّوفان العظيم:

علينا الحذر من الخرافات والأساطير والإسرائيليات والموضوعات التي أُلصقت بقصة نوح عليه السَّلامُ، وقد لعبت الإسرائيليات دوراً عكَّرَ صفاء قِصَّةِ نوح عليه السَّلامُ في كثير من الأحايين، فيرون مثلاً أن الله أمر نوحاً أن يغرس شجراً ليَصنع منه السَّفينة وأن النبيَّ غرسَ هذا الشجر، ثم انتظره مائة عام، ثم نجرَهُ مائةً أُخرى على رواية، وفي أربعين على أخرى(١).

والأمر كذلك بالنسبة إلى طول السَّفينة فهي ثلاثمائة ذراع في عرض خمسين

(١) محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم، ٤/ ٧٦.

ذراعاً، وقد قام الأستاذ حامد أحمد الطاهر البسيوني في كتابه: صحيح قصص القرآن بالتَّحذير من هذه الخرافات والأساطير والموضوعات والإسرائيليات، وتصدَّى لهذه الإسرائيليات وكشف عوارَها وبيَّن مخالفتها للشرع والعقل، فمن أراد التوسع فليرجعْ إليه(١).

وهناك روايات كثيرة عن دخول الحيوانات والطيور إلى السَّفينة، ومن الأسف أنها روايات أشبه بالأساطير منها بحقائق التاريخ، ومن أمثلة ذلك: دخول إبليس إلى السَّفينة في ذيل حمار(٢)، والرواية التي تذهب إلى أن (عَوْجَ بنَ عناقٍ) لم يغرقْ في طوفان نوح، وأنه قد عاش من قبل عهد نوح وإلى أيام موسى، وأنه كانَ جَبَّاراً عنيداً كافراً متمرِّداً، وأن أُمَّه عنقَ بنتَ آدم قد ولدته من زنى، وأنه كانَ طويلاً لدرجة لا يمكن أن تحدث، حتى أنه كانَ يأخذ السمكة من قرار البحار ثم يشويها في عين الشمس، وأنه كانَ يستهزئ بسفينة نوح وبصاحبها وأنه كانَ يُسمِّيها القَصعة، والواقع أن هذه الأسطورة لا تستحقُّ أن تُناقَش فلا عقل يقبلها، ولا شرع يقبلها(٣).

ومن هذا النوع من الروايات كذلك: رواية تذهب إلى أن السيد المسيح عليه السَّلامُ وبناءً على رغبة الحواريين قد أعاد (حام بن نوح) إلى الحياة، ثم سأله عن فُلكِ نُوحٍ فأخبر أن طولها كانَ ألفَ ذراع ومائتي ذراع، وأن عرضَها ستُّمائة ذراع. ومن هذا النوع كذلك: رواية تذهب إلى أنه لم يكن في الأرض قبل الطُّوفان نهرٌ ولا بحر، وأن مياه البحار إنما هي من بقية الطُّوفان.

ومن هذا النوع كذلك: رواية تذهب إلى أن القوم بعد أن استوت بهم السَّفينة على الجُودِيِّ، هبطوا إلى أسفل وابتنوا قرية سَمَّوها ثمانين، وأنهم قد أصبحوا

---

(١) حامد أحمد البسيوني، صحيح قصص القرآن، دار الحديث، القاهرة، دون تاريخ، ص ٩٤.

(٢) محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم، ٤/ ٨١.

(٣) المرجع السَّابق، ٤/ ٨٢.

ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتُهم على ثمانين لغة إحداها اللسان العربي، فكان بعضُهم لا يفهم كلام بعضٍ، وكان نوح يُعبِّر عنهم[١].

وليس هناك باحث مُنصف يُنكر أثرَ الإسرائيليات في هذه الروايات التي تجنح إلى الخيال أحياناً، وإلى منافاتها العقيدة الإسلامية الصحيحة أحياناً أخرى، وإلى تعارُض بعضِها مع بعضٍ في أحايين كثيرة، وإذا ما أردنا أن نُقدِّم الدليل على ذلك وأخذنا على سبيل المثال قصَّة تبلبُل ألسنةِ الناجين من الطُّوفان لوجدنا أثر التوراة واضحاً فيها، ـ إن لم تكن منقولة أو تكاد ـ ذلك أن التوراة حاولت أن تُقدِّم تفسيراً ساذجاً غير علميٍّ لاختلاف اللغات والأجناس، فروَت أن النَّاجين من الطُّوفان أرادوا أن يبنوا بُرجاً عالياً بُغيةَ الصُّعود إلى الله عزَّ وجلَّ في علياء سمائه، إذ كانوا يحسبون السَّماء أشبه شيء بلوح زجاجي يعلو على الأرض بضعَ مئاتٍ من الأمتار، فخشي الله شرَّهُم سبحان الله عما يقولون، واحتاط لنفسه فهبط إلى الأرض وبلبلَ ألسنتَهم فتفرَّقوا شذرَ مذرَ، ومن ثم فقد سُمِّيت المدينة (بابل)؛ لأن الرَّبَّ هناك بلبلَ لسانَ كلِّ الأرض[٢].

ومن الإسرائيليات: ما ذكره ابنُ كثير نقلاً عن التوراة فقال: وقد ذُكر أن (حاماً) ـ ولد نوح ـ واقع امرأته في السَّفينة فدعا عليه نوح أن تتشوَّه خِلقةُ نطفتِه فوُلد له ولدٌ أسود، وهو (كنعان بن حام) جدُّ السودان، وقيل: بل رأى أباه نائماً وقد بدت عورتُه فلم يَسترْها، وسترَها أخواه، فلهذا دعا عليه أن يُغيِّر نطفتَه وأن يكون أولادُه عبيداً لإخوته[٣]. وغير ذلك من الأخطاء والموضوعات والإسرائيليات المُخالفة للمعقول والمنقول، والتي للأسف تأثَّرت بها كتبُ التواريخ وأيام النَّاس وتسرَّبَت إلى التفاسير.

---

(١) مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم، ٤/ ٨٢.
(٢) المرجع السابق، ص ٨٣.
(٣) حامد أحمد البسيوني، صحيح قصص القرآن، ص ٩٧.

لقد نُسجت خرافاتٌ وأساطيرُ يجب تنقية كُتبِ التُّراث منها، والاعتماد على الرؤية الحضارية القرآنية التي قدَّمها القرآن الكريم في قصَّة نوح عليه السَّلامُ.

١ ـ افتراء بني إسرائيل على نبي الله نوح عليه السَّلامُ:

افترى بنو إسرائيل على نبي الله نوح عليه السَّلامُ، فقد زعموا أنه شرب الخمر فسكر فتعرَّى في داخل خبائه، فأبصر ولدُه حامٌ أبو كنعان عورةَ أبيه، وخرج وأخبر أخوَيه بما كانَ منه، فدخل الولدان على أبيهما وأخذا الرِّداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا للخلف حتى لا يريا عورتَه، فلما وصلا إليه سترا عورتَه، فلما استيقظ نوح وعلم بما فعل ابنُه غضبَ عليه وأخبر أن كنعانَ بنَ حامٍ وذُرِّيتَه سيكونون عبيداً لأبناء سام ويافث، وأخبر أنه سيكون عبداً لعبيد لإخوته، وبارك ساماً قائلاً: «مُبَارَكٌ الرَّبّ إِلهُ سَامٍ. وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ»[(١)].

وهذا الذي ذكروه عن نوح عليه السَّلامُ كذب وافتراء عليه، فما يكون لنوحٍ وهو من أولي العزم من الرُّسُل أن يشرب الخمر ويسكر ويتعرَّى وتُرى عورتُه، وإذا كانَ الأمر كذلك فما قيل عن حامٍ كذبٌ كذلك أيضاً[(٢)].

وعلَّق الأستاذ عبد الوهاب عبد الرزاق الراوي على رواية «الطُّوفان التوراتي في كتاب التكوين»، فقال: وهكذا يتحقَّق غرض اليهود الخبيث من هذه الرواية، وهو الطعن ثم اللعنةُ ببني كنعان، السكان الأصليين لأرض كنعان ـ فلسطين ـ ورفعُ شأنِ بني سام ومباركتُهم، ومنهم بنو إسرائيل، ولكن غفل أولئك الكتَّاب اليهود بأن العرب ذرِّية عندنا يرجعون إلى سام أيضاً[(٣)].

وعلَّق الدكتور محمد علي البارّ فقال: والغريب حقاً أن يقوم نوح السكران

---

(١) سفر التَّكوين، الإصحاح التاسع، ص ٢٦ ـ ٢٧.
(٢) عمر الأشقر، قصص التوراة والإنجيل في ضوء القرآن والسُّنَّة، دار النفائس للطباعة، ط١ ٢٠١١م، ص ٥٢.
(٣) حديث القرآن العظيم، ص ٤٤٦.

الذي تعرَّى، بلعن حفيده كنعان الذي لا دخل له في هذه الجريمة التي اقترفتها يدا نوح نفسه، كما أعلن نوح بركاته على سام جدِّ اليهود كما يعتقدون وجعل كنعان عبداً لسام، وبالتالي ينبغي أن يكون جميع أهل فلسطين عبيداً لليهود، وأرض فلسطين تكون من نصيب أولاد سام، والمقصود من ذلك قطعاً اليهود، وهكذا تُلوِّثُ التوراة المحرَّفة صورةَ الأنبياء بصورة مُزرية قبيحة، كما أنها قد لوَّثَت الله عزَّ وجلَّ ذاتَه، تعالى الله عما يقول الظالمون عُلُوّاً كبيراً[١].

٢ ـ هل عمَّ طوفان نوح الكرة الأرضية؟

تحدَّث العلماء في هذه المسألة واختلفوا فيما بينهم، ونذكر على سبيل المثال آراءهم في هذا الحدث التاريخي:

ـ **أجاب الشيخ محمد عبده** عن هذا السؤال فقال: أما القرآن الكريم فلم يرد فيه نصٌّ قاطع على عموم الطُّوفان ولا على عموم رسالة نوح عليه السَّلامُ، وما ورد من الأحاديث على فرض صِحَّة سندها فهي آحاد لا تُوجِب اليقين، والمطلوب في تقرير مثل هذه الحقائق هو اليقين لا الظنّ، إذا عُدّ اعتقادُها من عقائد الدين، وأما المؤرِّخُ ومُريدُ الاطلاع فله أن يُحصِّل من الظَّنِّ ما تُرجِّحُه عنده ثقتُه بالراوي أو المؤرِّخ أو صاحب الرأي، وما يذكره المؤرخون والمفسِّرون في هذه المسألة لا يخرج عن حَدِّ الثقة بالرواية، أو عدم الثقة بها، ولا يُتَّخَذُ دليلاً قطعيّاً على معتقد دينيٍّ.

وأما مسألة عموم الطُّوفان في نفسها فهي موضوعُ نِزاع بَينَ أهل الأديان، وأهل النظر في طبقات الأرض، وموضوعُ خلافٍ بَينَ مُؤرِّخي الأمم، وأما أهل الكتاب وعلماء الأمة الإسلامية فعلى أن الطُّوفان كانَ عامّاً لكلِّ الأرض، ووافقهم على ذلك كثير من أهل النظر، واحتجُّوا على رأيهم بوجود بعض

---

(١) محمد علي البار، الله جلَّ جلاله والأنبياء عليهم السلام في التوراة العهد القديم، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠١١م، ص ٦٨.

الأصداف والأسماك المتحجرة في أعالي الجبال؛ لأن هذه الأشياء مما لا تكون إلا في البحر، فظهورها في رؤوس الجبال دليل على أن الماء صعد إليها مرَّةً من المَرَّات، ولن يكون ذلك حتى يكون قد عمَّ الأرضَ، ويزعم أهل النظر من المتأخِّرين أن الطُّوفان لم يكن عامّاً، ولهم على ذلك شواهد يطول شرحُها، غير أنه لا يجوز لشخص مسلم أن يُنكر قضيَّةَ أنَّ الطُّوفان كانَ عامّاً لمجرَّدِ احتمال التأويل في آيات الكتاب العزيز، بل على كل من يعتقد بالدِّينِ ألا ينفي شيئاً مما يدلُّ على ظاهر الآيات والأحاديث التي صحَّ سندُها وينصرف عنها إلى التأويل إلا بدليل عقلي يقطع بأن الظاهر غيرُ المراد، والوصول إلى ذلك في مثل هذه المسألة يحتاج إلى بحث طويل وعناء شديد، وعلم غزير في طبقات الأرض وما تحتوي عليه، وذلك يتوقَّف على علوم شتَّى عقلية ونقلية، ومن هَذَى برأيه دون علم يقيني فهو مجازفٌ لا يُسمع له قولٌ، ولا يُسمح له ببثِّ جهالاته، والله سبحانه وتعالى أعلم[١].

* يقول **السيد محمد رشيد رضا**: وخلاصة هذه الفتوى أن ظواهر القرآن والأحاديث أن الطُّوفان كانَ عامّاً شاملاً لقوم نوح الذين لم يكن في الأرض غيرُهم، فيجب اعتقادُه ولكنه لا يقتضي أن يكون عامّاً في الأرض، إذ لا دليل على أنهم كانوا يملؤون الأرض، وكذا وجود الأصداف والحيوانات البحرية في قمم الجبال لا يدلُّ على أنها من أثر ذلك الطُّوفان، بل الأقرب أنه كانَ من أثر تكوين الجبال وغيرها من اليابسة في الماء، فإن صعود الماء إلى الجبال أياماً معدودةً لا يكفي لحدوث ما ذُكر منها، وكما قلنا: فإن هذه المسائل التاريخية ليست من مقاصد القرآن، ولذلك لم يُبيِّنْها بنصٍّ قطعيٍّ، فنحن نقول بما تقدَّم إنه ظاهر النُّصوص ولا نتَّخذُهُ عقيدةً دينية قطعيَّةً، فإن أثبت علماء الجيولوجية خلافَه لا يضرُّنا؛ لأنه لا ينقض نصّاً قطعيّاً عندنا[٢].

---

(١) محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم، ٤/ ٩٧.
(٢) المرجع السَّابق، ٤/ ٩٧.

* ويقول **الدكتور عمر إيمان أبو بكر**: لا خلاف بَينَ أهل العلمِ أن جميع الكُفَّار من قوم نوح قد أُهلكوا غرقاً بالماء، ولم يَنجُ منهم إلا من كانَ على ظهر السَّفينة ممَّن آمن بدعوة نوح عليه السَّلامُ، ولكن يبقى السؤال: هل المياه عمَّت جميع أرجاء الأرض المعمورةِ منها وغير المعمورة؟ أم إنَّ الإغراق كانَ خاصّاً بالقسم المعمور منها في ذلك الزمان؟ فإذا نظرنا إلى حمل اثنين من كل المخلوقات الأرضية من غير الإنسان، ترجَّح لدينا أن المياه قد عمَّت جميع أرجاء الأرضِ المعمورة وغير المعمورة، لأن الغرض من حملها إنما هو خوف انقراضها كلِّها، ولو كانت هناك مناطق أخرى سلمت من المياه تكون بعض تلك المخلوقات موجودة فيها، وعليه فلا يكون لحمل بعضها على السَّفينة حاجة، وهذا هو الذي يُفهم من كلام ابن كثير حيث قال: وعمَّ الماءُ جميعَ الأرض طولها، وعرضها، سهلها وحزنها، وجبالها وقفارها ورمالها، ولم يبقَ على وجه الأرض ممَّن كانَ بها من الأحياء عينٌ تَطرف، ولا صغير ولا كبير(١).

وإذا نظرنا إلى محدودية البشر في زمن نوح عليه السَّلامُ لكون زمنهم قريباً من زمن آدم، وأن كلَّهم كانوا في منطقة واحدة مُعيَّنة، فإذا كانَ الأمر كذلك فإن الذي يظهر أن الغرق لم يعمَّ جميع القارات الخمس بالمياه، علماً بأن بعضها لم يُكتشف إلا قبل قرنين أو قريباً من ذلك، ثم إن النُّصوص وإن دلَّت على أن الغرق قد عمَّ جميع النَّاس، لكن ليس فيها ما يقطع أن الغرق عمَّ جميع أهل الأرض، ولكننا لا نجزم برجحان أحد القولين على الآخر، بل نكل علم ذلك إلى الله تعالى(٢).

* وقال **الشيخ محمد الطاهر بن عاشور**: وعموم الطُّوفان هو مقتضى ظواهر الكتاب والسُّنَّة، ومن قالوا إن الطُّوفان لم يعمَّ الأرض فإنما أقدموا على إنكاره

---

(١) النجار، من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، ص ٦٥.
(٢) عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السَّلامُ، ص ٧٥.

من جهة قِصَر المُدَّة التي حُدِّدَت بها في كتب الإسرائيليين، وليس يلزم الاطمئنان لها في ضبط عمر الأرض وأحداثها وذلك ليس من القواطع، ويكون القصر إضافياً، أي لم يبق من قومه الذين أُرسل إليهم، وقد يُقال: نُسلِّم أن الطُّوفان لم يعمَّ الأرض، ولكنه عمَّ البشر لأنهم كانوا منحصرين في البلاد التي أصابها الطُّوفان، ولئن كانت أدلة عموم الطُّوفان غير قطعية فإن مُستَندات الذين أنكروه غير ناهضة، فلا تُترك ظواهرُ الأخبار لأجلها(١).

* وقال **الشيخ عبد الوهاب النَّجار**: إنَّ بعض العلماء يميل إلى عمومه، ويقول بعض علماء الجيولوجيا: إننا كلَّما بحثنا في أعالي الجبال وجدنا بقايا حيوانية من الأحياء التي لا تعيش إلا في الماء، وهذا يستدعي وجود طوفان على هذه الجبال، بل عددٍ من الطُّوفانات لوجود الاختلاف في عمر هذه البقايا، فلا مانع من أن يكون طوفانُ نوحٍ أحدَها، ويكون قد عمَّ، ويُستأنس لذلك بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].

ويميل فريق من العلماء إلى أن الطُّوفان لم يكن عامّاً، بل طغيان الماء كانَ على الجهة التي كانَ يسكنها نوحٌ وقومُه، وأما بقيَّة بقاع الأرض فلم يعمَّها هذا الطُّوفان، ويُستأنس لذلك بأن الهندوس كانوا يزعمون أن عمران بلادهم يمتد في الماضي إلى تاريخ أبعد من الذي قدَّرَته التوراة لنوحٍ وطوفانه، وأن عمرانهم مُتَّصلٌ من أعمق أجيال التاريخ إلى اليوم، وأنتم تعلمونَ أني غير واثق من التاريخ الذي تُقدِّره التوراة، فربَّما كانَ نوحٌ أبعدَ في الزمن ممَّا يدعيه أهل الهند.

وعلى كل حال فالمسألة ليس فيها نصٌّ من القرآن بل كلُّ ما في هذه الناحية: أن قوم نوح كفروا وعَصَوُا الرَّسول فأغرقهم الله بالطُّوفان ونجَّى نوحاً ومَن معه في الفلك وجعل ذُرِّيَتَه الباقين، فالعموم مُحتملٌ والخُصوص مُحتَملٌ، والذي أميلُ

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١٢/ ١٢٥. وانظر: عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السلام، ص ٧٥.

إليه أن يكون خاصّاً، وأن النوع الإنساني لم يكن منتشراً في جميع الكرة الأرضية، بل كانوا منحصرين في الناحية التي عمَّها الطُّوفان، وأنهم قد هلكوا وبقي نوح وذريته[١].

وقد اهتمَّ بالحديث عن الطُّوفان وما يتعلَّق به مجموعةٌ من الباحثين، ومن أهم الأبحاث:

* قصَّة **الطُّوفان بَينَ الأسطورة والدين** (دراسة وصفية تحليلية مقارنة) للأستاذ هشام محمد مباركي.

- **طوفان نوح عليه السَّلامُ في القرآن والأساطير القديمة**: لمنصور عبد الحكيم.

- **أنبياء القرآن**: عبد المجيد همو، وغيرهم من الباحثين والدارسين.

٣ ـ اهتمام علم تاريخ الأديان بالطُّوفان:

شغلت قِصَّةُ الطُّوفان العظيم حيِّزاً كبيراً في الفكر والتفكير، واسترعَت اهتمامَ الكثير من الباحثين والمتخصِّصين في الحياة العلمية والمعرفية والإنسانية، كعلم الأديان أو علم مقارنة الأديان أو علم النفس أو علم الاجتماع، أو الأنثروبولوجيا والتاريخ، مما يدلُّ على أن حادثة الطُّوفان بشِقَّيها الأسطوريِّ والدينيِّ قد تركت وقعاً كبيراً في نفوس وعقول ووجدان الأمم اللاحقة[٢].

وقد تضاربت المصادر والمراجع التاريخية في قصَّة الطُّوفان، وانفرد القرآن الكريم بالحقيقة الكاملة لقصة نوح عليه السَّلامُ والطُّوفان العظيم، لا يمكن أن تُضاهيها أي مدرسة من المدارس الإنسانية التي اهتمَّت بالطُّوفان، فقد حفظ الله ما ينفع بني البشر من سيرة نبيِّه ورسوله نوح عليه السَّلامُ، ولن تجد ذلك لا في

(١) النجار، من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، ص ٦٥.

(٢) هشام محمد مباركي، قصة الطُّوفان بَينَ الأسطورة والدين، دار الأكاديميون للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠١٥م، ص ١٣٩.

الآثار السومرية ولا البابلية، ولا التوراتية المحرفة ولا غيرها، فالنص القرآني بَيَّنَ بوضوح أن نوحاً كانَ رسولاً من ربِّ العالمين وأنه قضى من الزمن ما شاء الله له أن يقضي في دعوة قومه إلى عبادة الله الواحد القهار، وأن الله جلَّ وعلا لم يأتِ بالطُّوفان إلا بعد أن تحمَّل النبيُّ الكريم في دعوته كلَّ صنوف الأذى والاضطهاد، وإلا بعد أن جرَّبَ النبيُّ الكريم كلَّ سُبُل الإقناع دونما أيَّةِ نتيجة، وأن النَّاجين من الطُّوفان في القِصَّة القرآنية إنما نجَوا لأنهم آمنوا بالله العزيز الحكيم، وصدَّقُوا بدعوة نوح عليه السَّلامُ، بعكس النُّصوص الأخرى التي جعلت نجاتَهم إنَّما ترجع إلى أنهم من أهل الباطل ولكنهم نجَوا لأنهم من ذوي قرباه، ويزيد القرآن الكريم الأمر وضوحاً في هذه النقطة بالذات، فقصَّ علينا حوار نوح مع ابنه، وموقفَ زوجته من دعوته، ويبدو واضحاً المبدأُ القرآنيُّ العظيم: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ﴾، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾.

إنَّ النَّصَّ القرآني هو النَّصُّ الوحيد الذي تسامَى عن مهاوي الشِّرْك وضلال الوثنيَّة، فهو يذكر وبصراحة تامَّة أن القوم قد حادوا عن عبادة ربهم وانصرفوا إلى عبادة الأوثان، وفي كل هذا يُقدِّم لنا وَصفاً لله تعالى بما يتَّفقُ مع مقام الذَّاتِ العَلِيَّة، فلا يتنزَّل إلى الدَّرك الأسفل من التفكير الوثنيِّ في قصص العراق القديم، أو يصف الله سبحانه وتعالى بما وصفته التوراة المحرفة من أوصاف لا يرتضيها عقل ولا يقودها منطق، بل لا يرتضيها عقلاء النَّاس لأنفسهم في كثير من الأحيان.

وهو الوحيد الذي نَزَّهَ الله سبحانه عن النَّدم على إحداث الطُّوفان، بعكس النُّصوص الأخرى التي ذهبت إلى ندم الله أو الآلهة في النُّصوص البابلية على الإتيان بالطُّوفان، بل ذهبت التوراة إلى أبعد من ذلك، حين زعمت أن الله ـ تعالى عن ذلك عُلُوّاً كبيراً ـ قد عزم ألا يُحدِثَ طُوفاناً بعد ذلك، وأنه قد وضع علامة هي القوس في السَّماء ليتذكَّر وعدَهُ، فلا يكون طوفانٌ يُغرق الأرضَ أبداً.

لم يعتمد النَّصُّ القرآنيُّ على غيره؛ لأنه وحي من عند الله، بعكس المصادر البشرية القديمة، فالسومريون بعد أن كتبوا روايتهم عن الطُّوفان جاء البابليون من بعدهم وأخذوا منها ما أخذوا، ثم جاءت اليهود ونقلت ما نقلت عن الاثنين، وهكذا كانت كل رواية طوفانية تعتمد على رواية سبقتها في التدوين، ولكن الأمر جِدُّ مختلف بالنسبة إلى القصة القرآنية، والتي هي وحي من ربِّ العالمين، ذلك في القرن السَّابع الميلادي وفي مكة المكرمة، وفي غار حراء بدأ نزول الوحي على سيدنا رسول الله ﷺ بالقرآن الكريم، ولم يكن رسول الله ﷺ ولا قومه على دراية بقصة الطُّوفان هذه، وإلى هذا يُشير القرآن الكريم ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩].

ثم أليس كلُّ ما جاء في هذه الدراسة يدلُّ بوضوح على هيمنة القرآن الكريم على غيره من الكتب السماوية ـ فما بالُكَ بالكتابات الإنسانية ـ مِصداقاً لقوله تعالى مخاطباً الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ﴾ [المائدة: ٤٨]، ثم أليس هو الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢] (١).

٤ ـ روايات ضعيفة الإسناد:

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو جعفر، حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزدي عن أبيه حبيب بن عبد الله عن شبيل عن أبي هريرة قال: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِأُنَاسٍ مِنَ الْيَهُودِ، وَقَدْ صَامُوا يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ: «مَا هَذَا الصَّوْمُ؟» قَالُوا: هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي نَجَّى اللهُ مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْغَرَقِ، وَغَرِقَ فِيهِ فِرْعَوْنُ، وَهَذَا يَوْمٌ اسْتَوَتْ فِيهِ السَّفِينَةُ عَلَى الْجُودِيِّ، فَصَامَهُ نُوحٌ وَمُوسَى، عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، شُكْرًا

(١) محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم، ٤/ ٩٧ ـ ١٠١.

لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى، وَأَحَقُّ بِصَوْمِ هَذَا الْيَوْمِ»، فأمر أصحابه بالصوم(١).

قال الشيخ مصطفى العدوي: وهذا اليوم الذي استوت فيه السَّفينة على الجُودِيِّ: ضعيف جدّاً، وأما سائر الحديث فمعروف وله شواهد في الصحيحين وغيرهما، وثمَّ أخبارٌ كثيرة تالفة في هذا الباب(٢).

هو حديث ضعيف في شأن الطُّوفان مع قوم نوح أخرجه الطبري وغيره، وأورده ابن كثير في قصص الأنبياء من حديث عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: "لَوْ رَحِمَ الله مِن قَومِ نوحٍ أَحَداً لَرحِمَ أمَّ الصَّبِيِّ قال رسول الله ﷺ: مَكَثَ في قَومِهِ أَلفَ سنةٍ إلا خَمسينَ عَاماً يَدعوهم إلى الله، وَغَرَسَ الشَّجَرَ مائةَ سَنَةً، فَعَظمَت وَذَهَبَت كلّ مَذهَبٍ، ثمَّ قطَعَهَا ثمَّ جَعَلَهَا سَفينَةً، وَقومُهُ يمروُّنَ عَلَيهِ وَيَسخَرونَ مِنه وَيقولونَ: تَعمَل سَفينةً في البَرِّ! فَكيفَ تَجرِي!؟ قالَ: سَوفَ تَعلَمونَ، فَلَمَّا فرغَ وَنبعَ الماءُ وَصارَ في السككِ خَشيَت أمُّ الصبيِّ عَلَيهِ وكانَت تحبُّهُ حبّاً شَديداً، فَخَرَجَت بِهِ إلى أَعلَى الجَبَلِ حتَّى بَلَغَت ثلثَهُ، فَلَمَّا بَلَغَهَا الماءُ خَرَجَت بِهِ حتَّى استَوَتْ على الجَبَلِ، فلمَّا بَلَغَ الماءُ رَقبَتها رَفعَته بيَدَيها فَغَرقَا، فَلَو رَحِمَ الله مِنهم أَحَداً لَرَحِمَ أمَّ الصبيِّ(٣).

هذا وقد رُويت عن رسول الله أخبار كثيرة ضعيفة الإسناد جدّاً في شأن نبي الله نوح عليه السَّلامُ، وكذا وردت عدة روايات إسرائيلية أعرضتُ عنها عن عمدٍ

---

(١) ضعيف جداً ولمعناه شواهد إلا ما يتعلق بذكر السَّفينة فقوله: (وهذا اليوم الذي استوت فيه السَّفينة على الجودي لا يصح، والحديث أخرجه أحمد، ٢/ ٣٥٩ وغيره)، وفي سنده عبد الصمد بن حبيب الأزدي متكلَّم فيه وأبوه مجهول.

(٢) مصطفى العدوي، قصص الأنبياء، ١/ ٣٣٣.

(٣) هكذا أورده ابن كثير في قصص الأنبياء، وأخرجه الطبري، ١٢/ ٢١. وفي: والحاكم، ٢/ ٣٤٢ وغيرهم، وسنده ضعيف فيه موسى بن يعقوب وإبراهيم بن عبد الرحمن وهما ضعيفان.

وقصدٍ حتى لا أُثقل الكتابَ بذكر أشياء لا تصحُّ، وكذا لا يَنشغِل بالُ المرءِ المسلمِ بأشياء غيرِ ثابتة عن النبيِّ ﷺ والله تعالى أعلم[١].

٥ ـ مصير الأطفال من قوم نوح:

يَسأل بعضُ النَّاس عن مصير الأطفال وما ذنبهم حتى يَعمَّهُم الطُّوفان؟ وأجاب العلماء على ذلك: لقد جرت العادة أن النِّقمةَ إذا حلَّت بقوم عمَّتهم دون تمييز بَينَ صغير وكبير وبارٍّ وفاجر، وفي ذلك يقول جلَّ شأنُه: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥]، ولا شكَّ أن أخذ الصِّبية والأطفال بعموم المحنة فيه زيادةُ تعذيبٍ ونَكالٍ لآبائهم، وأما هُمْ فإنهم ماتُوا بآجالهم، وفي الوقت الذي حدَّدَه الله لهم وليس عليهم بعد الموت مُساءلة ولا أخذٌ بما فعل آباؤُهم[٢].

على أننا نرى الأطفال يهلكون بمختلف الأمراض والآفات والابتلاءات كالزلازل والفيضانات والحروب وليس ذلك عقاباً للأطفال على ذنوب ارتكبوها أو آثام اقترفوها، ولكن ذلك من باب الآجال وما قدَّرَه الله عليهم لحكم عديدة وفق علمه وحكمته، ومشيئته وقضائه وقدره العادل ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ سبحانه وتعالى.

وما قاله بعض العلماء: إنَّ الله أعقَمَ أرحامَ نساء قوم نوح أربعين سُنَّة قبل الطُّوفان حتى كبر مَن كانَ صغيراً واشتركوا جميعاً في الإثم، فحلَّ بهم غضب الله ونقمته، إن هذه الإجابة مجرَّد دعوى ينقصها الدليل، فلا كهانة في مثل هذه الموضوعات إلا بدليل[٣].

* * *

(١) مصطفى العدوي، المرجع السَّابق، ١/ ٣٣٣.

(٢) محمد السيد الوكيل، نظرات في أحسن القصص، دار القلم للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، ط١ ١٩٩٤م، ١/ ١٠١.

(٣) المرجع السَّابق، ١/ ١٠١.

المبحث السادس

ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية

قال تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٨ ـ ٤٩].

١ ـ ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾:

* ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ﴾ بُني الفعل للمجهول دون حرف عطف؛ لينتقل السياق إلى ختام القصة، وفاعل القول هو: الله، وقد أوحى الله لنوحٍ عليه السَّلامُ(١).

* ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ﴾ وكأن السَّفينة طائرة، فاستخدم كلمة ﴿ٱهْبِطْ﴾ فهي إمَّا لارتفاع الموج كانت كأنها مُعلَّقة فقيل: ﴿ٱهْبِطْ﴾، وإما أنَّ السَّفينة عالية فقيل: ﴿ٱهْبِطْ﴾، والتعبير بالهبوط يُصوِّر لنا أن الخروج من السَّفينة من أعلاها، وأن الوصول إلى اليابسة قد كانَ على سلالم أو ألواح خشبية مائلة يهبط الهابط عن طريقها إلى الأرض، ولو كانَ سطح السَّفينة في مكان استوائها مساوياً لطرف من أرض الجبل لكان التَّعبير المناسب أن يُقال: اخرُجْ(٢).

* ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾: أيْ: اهبِطْ أنتَ ومَن مَعك وما معك، مصحوباً بسلام منّا عليك، وبركات منّا عليك.

---

(١) الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص ١٣٤.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٣٤. وفي: نوفل، تفسير سورة هود، ص ١٨٧.

* ﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾: أيْ: بأمنٍ منّا، وهذا يشمل كل ما يُطلب فيه الأمنُ، كالأمن من المُهلكات، ومن كل ذي شرٍّ، وكالأمن من الموت جوعاً أو عطشاً ونحو ذلك(١).

﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾ تشمل في ثناياها معانيَ مُتعدِّدة، كالسَّكينة والأمن والاستقرار والهدوء، وهذه الحضارة الإنسانية الثانية من أُسسها العظيمة السلام.

﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾ على دينك وتوحيدك.

﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾ على أتباعك.

﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾ على مُقوِّمات الحياة الإنسانية الجديدة التي ستقودها.

﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾ على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، والعلاقة بَينَ الناس لما بعد الطُّوفان العظيم، والكون والبيئة، وهذا من آثارِ اسم الله عزَّ وجلَّ (السلام)، فمن أسماء الله الحسنى السلام.

[السلام]: من أسماء الله الحسنى ويعني في اللغة: البراءة من العيوب والنقائص، ويشمل في ثناياه معانيَ مُتعدِّدة كالسَّكينة والأمن والاستقرار والهدوء(٢).

والسلام: هو الذي سلمت ذاتُه وصفاته وأفعاله من كلِّ ما لا يليق بكماله، وكذلك من اسم السلام اشتُقَّ الإسلام، وهو دين الله(٣)، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩].

يقول ابن القيم: من اسم السلام جلَّ جلاله قولان: أحدهما: أنه مصدر،

---

(١) الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص ١٣٤.
(٢) محمد متولي الشعراوي، المرجع السَّابق، ص ١٤٩.
(٣) عقيل حسين، مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط١ ٢٠١٠م، ص ٧٩.

وإطلاقه عليه كإطلاق العدل عليه، والمعنى: أنه ذو السلام، وذو العدل على حذف المضاف. والثاني: أن المصدر لمعنى الفاعل أيْ: السَّالم، كما سُمّيت ليلة القدر سلاماً، أيْ: سالمة من كل شرٍّ بل هي الخير لا شَرَّ فيه[(١)].

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣]، في هذه الآية كلُّ اسم من أسمائه الحسنى يُؤكِّد الذي يسبقه ويحتويه، فالملك هو الله، والقدوس هو الله، والسلام هو الله جلَّ جلاله؛ ولأنها هي الله تعالى، فهي بطبيعة الحال تحتوي كلَّ صفات الكمال فيها، ولذلك فإن اسم الله يحتويها، ومع أن هذه الآية ثلاثيَّة الأبعاد، إلا أنها نزلت وحدة متماسكة كالبنيان المرصوص.

ـ **فالبُعد الأول**: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في هذا البعد ينفي وجود إله غيره، ويتمُّ التأكيد على أنه الله الذي لا شريك له في الأمر، إنه الله الواحد الأحد، ولا وجود لإله غيره، وهذا يعني: إذا كانَ هناك من يعتقد بوجود إله غير الله تعالى فلن يجده ولن يجد له مكاناً، ولن يجد له صفات، ولذلك كفر الذين قالوا: إنَّ الله ثالث ثلاثة، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

ـ **البعد الثاني**: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ﴾، هذه الأسماء جميعها هي لله؛ الذي تبيَّن أنه لا إله إلا هو، وهذا يعني: أن هذه الأسماء وغيرها من الأسماء الحسنى هي غير مُتعدِّدة، بل هي صفات تتعدَّد لواحد لا يتعدد، ولذلك فإن القاعدة هي: تتعدَّد الصفات للواحد، ولا يتعدَّد الواحد في صفاته، فالكريم عندما يكون صادقاً وعادلاً يظلُّ هو واحداً

---

(١) عقيل حسين عقيل، مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى، ص ٨٢.

وصفاته مُتعدِّدة، ولهذا فإن الله واحد أحد، وصفاته مُتعدِّدة، فالحمد لله الواحد المُتعدِّد الصفات الحسان.

ـ والبعد الثالث: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾، يُؤكِّد هذا البُعد بالتَّمام مقاصدَ البُعدَينِ السَّابقَينِ بأن الله واحدٌ أحد، وهو الملك القدوس السلام المُؤمِن المُهيمِن العزيز الجَبَّار المُتكبِّر، أيْ: هو الذي له الأسماء الحسنى ولذلك جاء قوله تعالى: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾؛ لينفي وجود الشريك، ويُؤكِّد على الواحد الأحد مُتعدِّدِ الصِّفات[١].

والسلام سبحانه وتعالى هو الذي منه جاءت السلامة، ولذا فإنَّ السَّلامة تابعة للسلام وأثرٌ من آثاره، فهو الأول قبل كلِّ شيء، وتحتوي السلامة البراءة من كل شرٍّ وسوء، ومن كلِّ مرض وألم، ومن كل جهل وفقر، ومن كلِّ حسد وعِلَّة، وفي مقابل ذلك: فهي القوة التي تتضمَّن المقدرة والاستطاعة والسيطرة والعطاء[٢].

فالله سبحانه وتعالى مصدر السلام والأمن، وكل من ابتغى السلامة عند غيره، سبحانه، فلن يجدها، وهذا معنى قوله ﷺ: «اللهمَّ أنتَ السلامُ ومنكَ السَّلامُ»[٣]، ولذلك سُمِّيت الجَنَّةُ دارَ السلام؛ لأن من دخلها سَلِم من الآفات والشرور والمنغصات والأكدار، قال تعالى: ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ [الحجر: ٤٦].

ومن ذلك تحيَّة الإسلام التي حثَّ الإسلام على إفشائها، وذلك في قوله ﷺ: «لا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ»[٤]، وفي إفشائه إشاعةٌ للأمنِ

---

(١) عقيل، مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى، ص ٨٤.
(٢) المرجع نفسه، ص ٨٤.
(٣) صحيح مسلم، رقم ٥٩١.
(٤) صحيح مسلم، رقم ٥٤.

والودِّ والسلام بَينَ النَّاس، ومن ذلك سلامُه ـ عزَّ وجلَّ ـ على أنبيائه المُرسَلين وذلك في:

* قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢].

* وقوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ٧٩].

* وقوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الصافات: ١٠٩].

* وسلامه سبحانه على عباده الصَّالِحين كما في قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل: ٥٩]، وغير ذلك.

لقد اعتمد نوح عليه السَّلامُ وأتباعُه على مُرتكزات عظيمة أسهمت في تحقيق السلام من الله تعالى له وللمُؤمِنين به، ومن ثم انطلاق الحضارة الإنسانية الثانية، ومن هذه المرتكزات:

* التوحيد وعدم الشِّرْك بالله.

* إيمان أتباعه به أنه رسولٌ ونبيٌّ.

* الالتزام بحدود الله وشرعه في إحقاقِ الحقِّ وإزهاق الباطل وغير ذلك من الأمور(١).

٢ ـ ﴿ وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾:

* ﴿ وَبَرَكَٰتٍ ﴾: البركة: الزيادة في كلِّ خير عن قَدْرِ الحاجة والضَّرورة، فتشمل البركاتُ الزيادةَ في خيرات الأرض من الزروع والثمار، والزيادة في خيرات مطاعم صيد البرِّ والبحر وغير ذلك من كلِّ ما يَستمتِع به النَّاس في الحياة

---

(١) عقيل حسين، مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى، ص ٨٤ ـ ٨٥.

الدُّنيا، حتى الصحَّة النفسية وطمأنينة القلب وسعادته(١).

وباب «البركة» وباب «الطمأنينة» هما بابان يفتحهما الله على المُؤمنين فحسب، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، ولفظ البركة لا ينحصر في معنى الرَّخاء المادي، إنه أوسع، بل نكاد نقول إنه ليس الرَّخاء المادي أساساً ـ وإن شمله ـ إنما هو شيء ما في حياة النَّاس يجعلها مبارَكَة طيبة وَضِيئة رفيفة غالية نظيفة تَستروِحُها النَّفس. وهناك معانٍ للألفاظ يصعب تحديدها، ولكن من ذاقها عرفها.

فالثقة المتبادلة بَينَ النَّاس نوعٌ من البركة، والحبّ المتبادل نوع من البركة، والتعاون على البِرِّ والتَّقوَى نوعٌ من البركة، وغَيرةُ كلِّ إنسان على عرضِ أخيه نوعٌ من البركة، والحفاظ على القِيَمِ العُليا في المجتمع نوعٌ من البركة، والحرص على صلات الرحم نوعٌ من البركة، وكفالةُ القادرين لغير القادرين نوع من البركة، وطلب العلم لنفع النَّاس به نوع من البركة.

وهناك مئات ومئات من المشاعر والأعمال تجمعها هذه اللفظة المفردة، التي يضيف الله عليها من رحمته فيجعلها «بركات».

وأما الطمأنينة فاسألْ عنها الخائفين القلقين الحائرين المضطربين المتوجِّسين المُرهَقي الأعصاب من القلق والخوف والتوجُّس، إنهم يعرفون جيِّداً ما يبحثون عنه، إنهم يبحثون عن الطمأنينة، والله يُبيِّن لهم الباب الذي يُؤدِّي إليها قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

ولعلَّنا لا نحتاج أن نقول: إنَّ الجاهلية المعاصرة برغم كلِّ أدوات التَّمكين المُتاحة لها من القوة الحربية والقوة السياسية والقوة المادية والقوة الاقتصادية

---

(١) الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد السَّابق، ص ١٣٥.

والقوة العلمية تفتقد الطمأنينة، وتفتقد السعادة التي ينشدها الإنسان في حياته، والخمر والمخدِّرات والجريمة وحدها دليل على فقدان السعادة والطمأنينة، فضلاً عن القلق والانتحار والجنون والأمراض النفسية والعصبية، فالخمر ومثلها المخدِّرات محاولة للهروب من الواقع، فلماذا يسعى النَّاس للهروب من واقعهم لو كانوا سعداء به!؟

والجريمة لون من الشعور المرَضيِّ نحو المجتمع، يُعبِّر عن عدم الرِّضا في هذا المجتمع، فلماذا تنتشر الجريمة وتزداد نسبتها؟

وأما المرح المجنون الذي تغرق فيه الجاهلية المعاصرة في لحظات «الانفلات» في المراقص والملاهي والحانات وعلب الليل، فليس دليلاً على السعادة، بل هو أحرى أن يكون دليلاً على فقدانها ومحاولة التعويض المفتعل عن الخواء النفسي الناشى من فقدانها، وهذه هي الصُّورة الكالحة للجاهلية التي تعجز عن إخفائها المصانع الضخمة والإنتاج المادي الكبير والصواريخ الذاهبة إلى القمر والمريخ(١).

وما يحدث الآن من تمكين الحضارة المعاصرة في صورتها الجاهلية هو من باب الاستدراج الذي يفتحه الله للكافرين حين «يريدون» الدُّنيا، ويبذلون الجهد المكافى لتلك الإرادة، فيُوفِّيهم جزاءهم في الحياة الدُّنيا، ويفتح عليهم أبواب كلِّ شيء مما يتعلَّق بباب التَّمكين.

وتمكين الاستدراج تمكينٌ مُؤقَّت مهما طالت مُدَّته، وينتهي دائماً بالدمار، بينما تمكين الرِّضا مُمتدٌّ حتى يُغيِّرَ النَّاس ما بأنفسهم، ويحيدوا عن الطريق فيُزيل عنهم التَّمكين، فإن لم يُغيِّروا ما بأنفسهم امتدَّ لهم التَّمكينُ(٢).

فالحضارة الإنسانية الثانية التي أسَّسها نوح عليه السَّلامُ قامت على أساس من

---

(١) محمد قطب، رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، ص ٦٢.
(٢) المرجع السَّابق، ص ٦١.

السلام والبركات الرَّبانيَّة، وفي قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ أيّ؛ على أمم تتفرَّع وتتوزَّع في الأرض، وهم ذرِّيتُكَ وسلالاتُ من معَك؛ ثم إنَّ الله جعل ذريَّته هم الباقين من قومه بعد الطُّوفان(١)، وهذا السلام والبركات عليك يا نوح وعلى أمم ممن معك، أولهم بطبيعة الحال من آمن معه ثم باقي المخلوقات المرافقة(٢).

* وفي قوله تعالى: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أيْ: وأمم أُخرى هم أيضاً سلالات مَن معك لا يشملهم فضلُ السلام والبركات، ولكن «سنمتعهم قليلاً»، أيْ: متاعاً دُنيويّاً مُعجَّلاً على قدر أزمنة ابتلائهم في الحياة الدُّنيا، وهم مهما أصابوا منها فهو قليل بالنسبة إلى الآخرة، وقد دلَّت نصوص قرآنية مُتعدِّدة على أن متاع الدُّنيا متاع قليل، كما دلَّت على أن الحياة الدُّنيا متاع الغرور، وبعد هذا المتاع القليل تأتيهم مناياهم ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مُؤلِمٌ مُذيقٌ للألم.

وإشارة النَّصِّ هنا ودلالات نصوص أخرى تدلُّ على أن هذا العذاب الأليم يكون لهم؛ بسبب كفرهم وفسقهم وظلمهم وما كانوا يعملون في الحياة الدُّنيا من سيِّئات(٣).

إنَّ هذه الآيات التي تحدَّثَت عن السلام والبركات على نوح عليه السَّلامُ والذين معه تُؤرِّخ:

* حلقةً من تاريخ البشرية، وهي اللَّبِنة الثانية بعد قصَّة آدم عليه السَّلامُ في مضمار تاريخ الإنسانية، وهي حلقات تتكرَّر ولا أحد يتذكَّر إلا من رحم ربي.

---

(١) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٣٥.
(٢) تفسير سورة هود، ص ١٨٧.
(٣) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٣٦.

* هؤلاء أي قوم نوح أوَّلُ المُهلَكين بعذاب الاستئصال، ثم كرّت السلسلة بعد ذلك ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ﴾.

* الأمن والسلام والبركات ثمرة الإيمان، وهي ملازمة له ملاصقة مُلابِسة مقترنة لا تنفكُّ، وخارج دائرته لا يوجد كلُّ هذا[١].

لقد نزل نوح عليه السَّلامُ بسلام من الله وبركات، وباشر مُهمَّته الإيمانية في خلافة الأرض، ومعه مُقوِّمات الحضارة الجديدة التي حملها معه في الفلك من كلِّ زوجين اثنينِ، وفيها المُؤمنون كلُّهم[٢]، ولقد كانَ التدخُّل الإلهي لتصحيح مسار قوم نوح من خلال الطُّوفان والغرق للجاحدين، والسَّفينة والنجاة للمعتصمين بالله؛ لكي ينطلقوا لتأسيسٍ جديدٍ للحضارة الإنسانية والرُّقيِّ بها إلى رؤية أشمل لتحقيق العبودية لله ومفهوم الخلافة في الأرض، وبالتالي تكون دعوة نوح قد انتقلت من المكان الطبيعي إلى المكان التاريخي مُستكمِلةً رسالةَ آدم ـ عليه السَّلامُ ـ التي انتقلت من الزمان الطبيعي إلى الزمان التاريخي وأسَّست المؤسسة الأُسَريَّة، وها هي رسالة نوح تُؤسِّس المؤسَّسة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتشريعية في إطار الرسالة الإلهية عبر التاريخ الإنساني[٣].

٣ ـ ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾:

هذه الآية تعقيب على قصَّةِ نوحٍ، فكأنَّها خلاصتُها وثمرتها، والثمرة جزء من الشجرة، صحيح أننا نقطفها منها، ولكنها مرتبطة بها وهي منها. والمعنى: تلك: اسم إشارة إلى ما سبق من قصَّة نوح، واللام للبعد، وهي كذلك أيْ: أنها

---

(١) نوفل، تفسير سورة هود، ص ١٩١.

(٢) محمد متولي الشعراوي، المرجع السَّابق، ١/ ٥٦.

(٣) عبد الرحمن حللي، رسالات الأنبياء؛ دين واحد وشرائع عدة: دراسة قرآنية، بيروت، مركز نماء للدراسات والبحوث، ط١ ٢٠١٥، ص ٦٩.

مطابقة، فهي أي القصة مُوغلةٌ في البُعد الزمني والعمق التاريخي، وهي بعيدة عن ثقافة العرب كذلك، ومعلوماتهم، كما قال الله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾، وما في التوراة خليط فيه قليل من الحق وكثير من الخرافات والأساطير، فليست قصَّة نوح فيها على الحقيقة أو كما هي في الواقع، أما قصته التي عرضها القرآن الكريم فهي المطابقة للحقيقة والواقع، وقد أوجزها أكملَ إيجازٍ، بل أكملَ عرض مع الاختصار، وهنا تكمُن العظمة.

واستخدام اسم الإشارة أحياناً بصيغة المذكر ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾، كما في سورة يوسف في الآية ١٠٢، هو للتذكير باعتبار الخبر؛ لأنها تضمَّنَت قصَّة نبيٍّ واحد. أما في سورة هود فقد جاء بعد قصَّة نوح أو عقبها، لكنه يمتدُّ إلى ما بعد هذه الآية من قصص هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب ثم موسى وفرعون، فيكون المراد به ذلك الإخبارُ عن شأن هؤلاء. فهي قصص:

* ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ من تبعيضيَّة، أيْ: بعض أنباء الغيب، والغيب: ما غاب عن السَّامع للقصة أو تاليها للبُعد الزَّماني، فقصة نوح غيبٌ ماضويٌّ، وهناك غيب مستقبليٌّ وغيب حاليٌّ لا نطَّلع عليه كعالَم الملائكة والملأ الأعلى، وعوالم كثيرة لا نعلم عنها شيئاً، أعني بالمُشاهدة، لكنا نؤمن بأنها موجودة.

وهناك غيب موجود لم نطَّلع عليه، وقد نطَّلع على بعض دون بعض ككثير من العلوم الفلكية والأرضية، وهذا باب واسع بلا حدود.

* «والنبأ»: الخبر العظيم ذو الشأن، والأنباء جمع نبأ، والنبأ قد يكون في داخله أنباء كقصة نوح ـ عليه السَّلامُ ـ فيها العديد من الأنباء، وكل نبأ منها مُهِمٌّ كدعوته قومَه هذه المدَّةَ المُتطاولة، هذا نبأ، وإصرار الملأ على الكفر والاستكبار طيلة هذه المدة نبأ، وبناء السَّفينة نبأ، والطُّوفان نبأ، وهلاك القوم نبأ، وقصة ابنه ودعاء ربِّه نبأ، ونجاة المُؤمِنين نبأ، وهكذا.

* «والغيب»: كلُّ ما غاب عنَّا.

* ﴿ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ ﴾ : نقصُّها عليك نوحي بها إليك ونرسلها عبر الوحي جبريل بهذا القرآن الجليل، فهي من ضمن وحينا إليك، والإيحاء: الإعلام بطريقة مخصوصة، والوحي أنواع ليس هذا محلَّ تفصيلها وهي معلومة.

* ﴿ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ ﴾ : هذه الأنباء وهذه القصة وسائر قصص هذا الكتاب كانت غائبة عنك يا رسول الله وغائبة عن قومك، وحتى أمم الرسالات السَّابقة، فهي بهذا الوجه الحق الصَّافي غير المشوب بشوائب الوضع والدس والزيادة والنقص، هي غائبة عنهم كذلك وإن كانت معلومة اسماً، وتفاصيل قسم كبير منها غير صحيح ولا دقيق ولا مطابق.

* ﴿ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ ﴾ : أي من قبل هذا القصص ومن قبل هذا القرآن أو من قبل هذا النبأ الذي وصلك عن قصَّة نوح أو كل ذلك.

* ﴿ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ : إنَّ الجملة الأخيرة والنتيجة النهائية لصالح الإيمان وأهله من المُتَّقين، والمُتَّقون كلمة شاملة، تشمل اتقاء الله واتقاء عذابه، واتقاء كل شر قد يوصل إلى عذابه، والمعنى واسع ومفتوح، أو هم المتَّقون الذين هذه صفتهم وهذه سمتهم وشخصيَّتهم وميزتهم، واللام في ﴿ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ للاختصاص والملك، فيقتضي ملك المُتَّقين لجنس العاقبة الحسنة فهي ثابتة لهم لا تفوتهم[(١)].

وهذه الآية تبيّن:

* حقيقة الوحي التي ينكرها المشركون، فهذا القَصص غيب ما كانَ يعلمه النبي ﷺ ولا قومه ﴿ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ . . . ﴾.

* حقيقة وحدة العقيدة من لدن نوح ـ عليه السَّلامُ ـ على الرغم من الآيات والعبر والبينات التي لا تمنع جيلاً أن يردها، وقد بدت باطلة في جيل.

---

(١) نوفل، تفسير سورة هود، ص ١٩٣.

* حقيقة تحقق البشرى بالوعيد، كما يبشر النبي وهذا شاهد من التاريخ.

* حقيقة السنن الجارية لا تتخلف ولا تحابي ولا تحيد.

* حقيقة الرابطة التي تربط بَينَ الأفراد والأجيال، وإنها العقيدة الواحدة التي تربط المُؤمِنين كلهم بإله واحد ورب واحد يلتقون في الدينونة له بلا منازع ولا شريك[(١)].

قال ابن عاشور: في هذه الآية: امتنان على النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ﴾، وموعظة في قوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾، وتسلية في قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾. والدُّروس المستفادة من القصة:

* الدرس الأول المستفاد من القصص درسُ العِبَر.

* الدرس العظيم المُهمُّ الثاني ﴿إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾.

* معرفة النتيجة سلفاً تُطَمْئن السَّائرين على طريق الإيمان.

* هذا القصص حكيم مليء بالدُّروس والعِظات، وحرامٌ أن تضيع الحكم وسط بحر التفعيلات المنقولة عن الإسرائيليات.

* هذه المعلومات الموجودة في القصص ليست من معلومات البيئة ولا حتى الكتب السَّابقة، فهي إذاً وحيٌ يُوحى[(٢)].

أولاً: إسهام صفات نوح عليه السَّلامُ وأخلاقه في تأسيس الحضارة الإنسانية الثانية:

كان نوح ـ عليه السَّلامُ ـ من أُولي العزم من الرُّسُل الذين حقَّقوا التوحيد وإفراد الله بالعبادة، ودعَوا إلى ذلك وآمن بعض النَّاس برسالته، ورَبَّى النَّاسَ على أخلاقٍ وصفات حميدة كانت مُتجسِّدة في شخصه الكريم، وفاضت على

(١) نوفل، تفسير سورة هود، ص ١٩٤.
(٢) المرجع السَّابق، ص ١٩٦.

مَن حوله من أتباعه، فقد كانَ كثيرَ الشُّكر لربِّه ومُخلصاً له، وطارقاً لأبوابه بالدعاء والتضرُّع بَينَ يديه، وشديدَ الخوف من الجليل، ومتوكلاً على العزيز الرحيم، تائباً إلى الله وطالباً للمغفرة منه، صابراً على تكاليف الدعوة، صادقاً في دعوته، شجاعاً لا يخاف إلا الله، بارّاً بوالديه، وغير ذلك من الصفات والأخلاق الحميدة التي عاش بها وسط النَّاس ودعا إليها وعلَّمها لِمَنِ استجاب لدعوته، وعمل على غرس تلك الصفات النبيلة في قلوب أتباعه قبل الطُّوفان وبعده، وأسهمت تلك المنظومة الأخلاقية المتينة في التأسيس الأخلاقي للحضارة الإنسانية الثانية، ونذكر أهم تلك الصِّفات والأخلاق:

١ ـ الإخلاص:

بيَّن نوح عليه السَّلامُ أهميَّة الإخلاص لله عزَّ وجلَّ في مسيرته الدعوية، وجرَّد نيَّته من جميع الشوائب وحظوظ النفس والطمع في الدُّنيا، وإنما أراد بعمله ودعوته وجه الله عزَّ وجلَّ، وبيَّن لقومه أنه لا يريد منهم على دعوته أجراً ولا ثناء، وليس له من وراء دعوتهم مصلحة يرجوها منهم إلا ما كانَ من الله عزَّ وجلَّ.

* ففي سورة الشعراء قال: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩].

* وفي سورة هود قال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [هود: ٢٩].

* وفي سورة يونس قال: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢].

وهذا وحده كافٍ في إثبات صدقِ نبوَّته وإخلاصه لله عزَّ وجلَّ، وأنه رسول من عند الله، وإلا فكيف يُعقَل أن يخرج نوح عليه السَّلامُ من مألوف قومه من عادات وتقاليد وأعراف وعبادات للأصنام، ويطالبهم بالتَّخلِّي عنها، ثم

يدعوهم بدلاً من ذلك كلِّه إلى الإيمان برسالته التي هي على النقيض من ذلك كلِّه، وهو يعلم مُسبَقاً أنه يتعرَّض من قِبَل قومه بسبب دعوته لكلِّ صنوف العذاب بدءاً بالسخرية به، وانتهاءً بالتهديد له بالرَّجم، وكان الأجدر بهم أن يتساءلوا فيما بينهم لماذا يتحمل نوح عليه السَّلامُ كلَّ هذه المتاعب، ويتعرَّض لكلِّ هذه المخاطر، ولو فعلوا ذلك لأدركوا أن هذا الأمر الذي يدعوهم إليه نوح عليه السَّلامُ أكبر من كل ما يتوهَّمون فيه أنه أراد تحقيق جاه، أو منصب أو مكسب من مال أو غيره من المصالح الدنيوية فيما يزعمون(١).

وبيَّن الله عزَّ وجلَّ أنَّ من أسباب نجاة نوح عليه السَّلامُ كونه من المُخلَصين ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ٧٣ ـ ٧٤]، وقد تعلَّمت البشرية المؤمنة بالله عزَّ وجلَّ في ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية من نوح عليه السَّلامُ:

* أهميَّة أن يكون العمل القلبي والبدنيُّ والقوليُّ خالصاً لله تعالى.

* أن يتجرد الإنسان من الدُّنيا ويزهد فيها، ويجعل أعماله، في عمارة الأرض وخلافتها، عبادةً خالصة لله.

* أن يسعى الإنسان المؤمن لِرضا خالقه العظيم غير متأثِّر بمدح ولا بذمٍّ، كما رأوا في سيرة وقصة نوح عليه السَّلامُ.

ولقد وجه نوح عليه السَّلامُ ضربة موجعة لإبليس من خلال قيمة الإخلاص وصفة الإخلاص وخُلُق الإخلاص، ونجا من وساوسه، وكذلك من سار على هَديِه، قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢ ـ ٨٣]، فقد اعترف إبليس سلفاً أنه لا سلطان له على الخلاصة الصافية من عباد الله تعالى المؤمنين الصادقين، ويئس منهم قبل أن يراهم(٢).

---

(١) عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السلام، ص ٣٩.
(٢) الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، ص ١٤٢.

ومما ساعد نوحاً عليه السَّلامُ في تحقيق هذه الصفة وهذا الخلق في نفسه وأتباعه الذين أنشؤوا الحضارة الإنسانية الثانية توفيقُ الله لهم، ودوامُهم على مراقبته، واستشعار عظمته مما رأوا من أحداث جسام وطوفان عظيم، ونجاتهم في الفلك المشحون، وتذكُّرهم لليوم الآخر ومشاهده الرَّهيبة، ومحاسبة نفوسهم على الدوام وعدّ خطواتها وأنفاسها واستصغار شأنها واتِّهامها في أعمالها والتوبة والاستغفار على الدوام[١].

يُعلِّمنا نوح عليه السَّلامُ أن الدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ وإلى توحيده وعبادته إن لم يُصاحِبْها الإخلاصُ لله سبحانه وتعالى، وابتغاءُ وجهه العزيز وعدم الطمع في الأجر من النَّاس أو نيل أي عرض من الدُّنيا، فإنها دعوة منزوعة البركة، عديمة الأثر في النَّاس، فوق ما فيها من فوات الأجر والثواب من الله تعالى، وهذا أمر يجب أن يتفطن إليه الدعاة إلى الله سبحانه أفراداً وجماعات، والحذر من أن تتلوَّثَ النِّيّاتُ بهذه الدُّنيا الفانية، سواء كانت هذه الدُّنيا مالاً أو جاهاً أو منصباً أو ثناءً أو شهرة أو غير ذلك، ويجب أن يكون لنا الأسوة الحسنة في نوح ـ عليه السَّلامُ ـ حيث أعلنها في بداية دعوته أنه لا يبتغي من النَّاس أجراً ولا مالاً على دعوته لهم، إنما أجره على الله عزَّ وجلَّ، ولقد قالها كلُّ نبيٍّ لقومه فصارت مَعلَماً مُهِمّاً من معالم دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجب الوقوف عنده ومحاسبة النفوس على ضوئه وهديه[٢].

إنَّ إخلاص نوح عليه السَّلامُ لربِّه، وترفُّعَه على الدُّنيا وزخرفتها، وإرادته وجه الله عزَّ وجلَّ في كل حركة وسكنة من حياته، مَعلَمٌ من معالم الاقتداء بنوح عليه السَّلامُ في حياته من الذين آمنوا به وكذلك بعد مماته، واستخراج ذلك من سيرته وقصته.

---

(١) الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، ص ١٤٢.
(٢) عبد العزيز ناصر الجليل، وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، دار طيبة، الرياض، ط٢ ١٩٩٨م، ص ١٥٦.

إنَّ قصة نوح عليه السَّلامُ إفادة لبني الإنسان الباحث عن الحقيقة، وإن الإخلاص للخالق العظيم له آثار على الفرد منها[١] :

* الخلاص من الكوارث الكبرى والطُّوفان العظيم .

* ولاية الله للمُخلِصين، فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله تعالى، فالنَّاس مُتفاضِلُون في ولاية الله بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى .

* حصول الأمن والاهتداء والنجاة من المخلوق .

* نزول السكينة في القلب .

* الثبات على الدين .

* السلامة من إغواء الشَّيطان .

* إجابة الدعاء .

* القبول في الأرض والذكر الحسن، وغير ذلك من الآثار .

وأما آثاره على المجتمع الجديد الذي كانَ نواة الحضارة الإنسانية الثانية، فقد تغلغلت هذه الصفة في نفوس أفراده الذين كانوا في سفينة النجاة، وغُرِست في الأبناء الجُدُد، وتوارثتها الأجيال، فمن آثار الإخلاص في الحضارة الجديدة :

* دخول الناس في ركب أهل الإيمان .

* حلول السلام والبركات وكثرة الخيرات .

* النصر والتمكين في الأرض .

* حصول الأمن والهداية للمجتمع الناجي من الطُّوفان وغير ذلك من الآثار .

---

(١) حمد بن محمد الوهيبي، الإخلاص في القرآن الكريم، دار التوحيد، الرياض، السعودية، ٢٠٠٦، ص ٣٠٩، ٣٦٣ .

وأما في الآخرة فالنجاة من النار ودخول الجنة وحصول رضا الله عزَّ وجلَّ.

٢ ـ الصبر:

قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

ويتفاوت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ويتفاضلون في الصبر، فصبر أُولي العزم من الرُّسُل هو أعظم الصبر؛ لأنهم واجهوا من الأذى والصَّدِّ ما لم يُواجِهْه نبيٌّ قطُّ، وقد جاء التنويه بذكر صبرهم في قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾، فنوح عليه السَّلامُ من أولي العزم، صبر في دعوته لقومه صبراً عظيماً[(١)].

فما أصبر نوحاً عليه السَّلامُ على قومه، فقد أنذرهم لأجل أن يتَّعظوا ويخشوا الله فيما يفعلونه فلم يستجيبوا، ومع ذلك صبر. ولقد استمرَّ فيهم داعياً ومُبيِّناً لهم خطورة كفرهم وشركهم بالله، فلم يستجيبوا أيضاً، وأعاد الكرَّة عليهم مرّاتٍ عديدةً؛ لأجل أن يتَّقوا الله ويؤمنوا به فلم يستجيبوا، وأنبأهم ليلاً ونهاراً بمغفرة الله لمن يُؤمن منهم ويتوب ويتَّقي، فازدادوا ضلالاً وإصراراً واستكباراً، ومع ذلك صبر ولم يستسلم لرفضهم واستكبارهم فازدادوا إصراراً، وهكذا كلما ازدادوا إصراراً ازداد نوح صبراً[(٢)].

عاش نوح عليه السَّلامُ عمراً مديداً ودهراً طويلاً منها ألف سنة إلا خمسين عاماً لبثها في دعوة قومه إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له والحث على تقواه وطاعته، لا يكلُّ ولا يملُّ، ليلاً ونهاراً، سرّاً وإعلاناً وجهاراً، وهذا من شدة

---

(١) الجليل، ولله الأسماء الحسنى، ٣/ ١٠٧.

(٢) عقيل حسين عقيل، نوح عليه السَّلامُ من وحي القرآن، دمشق، دار ابن كثير، ط١ ٢٠١١م، ص ٨٩.

حرصه على قومه، والتزامه أوامر الله تعالى في تبليغ دعوته.

إنَّ دعوة نوح عليه السَّلامُ والرسالة التي كلَّفَه الله تعالى بتبليغها إلى قومه كانت تُؤسِّس منهجاً عامّاً للأنبياء والرسالات بعد نوح عليه السَّلامُ؛ وذلك لأنها:

* أول دعوة تحمل شريعة بعد آدم عليه السَّلامُ.
* طول المدة التي استغرقتها.
* الإيمان هو الأصل.
* الشِّرْك والكفر هما طارئان.
* إظهار أسلوب الدعوة.
* توضيح طريق الدعوة.
* الدعوة من حيث الزمن ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾.
* الدعوة من حيث الوقت ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾.

أسَّست نُبُوَّةُ نوح عليه السَّلامُ ودعوةُ قومه ـ هذه المدة الطويلة ـ للأنبياء: النهج، الفكر، الأسلوب، المُطاوَلة، الجدل، الحوار، الصِّراع، الابتلاء، العِبَر، وما من نبي جاء بعد نوح إلا وكان له في نوح أسوةٌ حسنة[١].

وكذلك لمن حوله من أتباعه الذين آمنوا به، فهل هناك أعظم من صبر نوح عليه السَّلامُ الذي بقي يدعو قومه قرابة عشرة قرون من الزمن، ثم بعد ذلك لم يُؤمِنْ معه إلا قليل، ولذا أخبر الله تعالى أن نوحاً بقي في قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاماً، تسعة قرون ونصف قرن، ومع هذه المدة الطويلة قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، فهذه دلالة على عظيم صبر نوح عليه السَّلامُ، ذلك الزمن الطويل وهذه الفترة المديدة في دعوة قومه إلى الله.

---

(١) عقيل، نوح عليه السلام من وحي القرآن، ص ٢٤٦.

وكيف لا يكون نوح من الصابرين وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣]، فكان الله معه في كل لحظة من حياته ومن خلال دعوته، فقد قال تعالى: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [هود: ٣٧]، وعندما صنع الفلك برعاية الله تعالى وعنايته ووحيه، كان نوح عليه السَّلامُ صابراً على كل ما يُلاقيه من أذى قومه، محتسباً ذلك عند الله عزَّ وجلَّ[١].

إنَّ نوحاً عليه السَّلامُ تميَّز في حياته بصفة الصبر، التي كانت من أسباب الثبات والنصر على الأعداء وهو محلُّ قدوة وأسوة إذ صبر على تكذيب قومه وما لقيه من الإيذاء والسخرية إلى أن جاء نصر الله المُبين ونَصَرَهُ على القوم الكافرين، وهذا يدلُّنا على حسن عاقبة الصبر، فمن كانَ أصبر كانَ أجدر بالنصر.

لقد كانَ نوح عليه السَّلامُ مدرسة فريدة من نوعها في الصبر والتحمُّل، وقد غرس هذا الخلق في أتباعه، فكان المجتمع الجديد بعد الطُّوفان في أشدِّ الحاجة إلى التخلُّق بهذه الصفة في أفراده وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية والدينية والحضارية، وللصابرين درجات وفضائل تَترى بيَّنها الله عزَّ وجلَّ في كتابه، فقد ترتَّب على الصبر خيرات الدُّنيا والآخرة:

أ ـ اختصهم الله بمعيَّته: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣].

ب ـ وفي سياق الفئة الثابتة مع طالوت يأتي الثناء عليهم: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وهي مَعِيّة خاصّة تتضمَّن الحفاظ والرعاية والتأييد.

ج ـ محبة الله تعالى لهم: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

---

(١) عقيل، نوح عليه السلام من وحي القرآن، ص ٢٤٨.

د ـ إطلاق البُشرى لهم: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧]، وكان عمر بن الخطاب يقرؤها ويقول: نِعْمَ العَدلانِ ونِعْمَتِ العَلاوةُ للصّابِرينَ، ويعني بالعَدلَينِ: الصَّلاةَ والرَّحمة، وبالعَلاوة: الهُدى.

هـ ـ إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم وتَوفِيَتهم أجورَهم بغير حساب: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. قال الإمام الغزالي رحمه الله فما من قُربة إلا وأجرها بتقديرٍ وحساب إلا الصَّبر، ولأجل كون الصوم من الصبر وأنه نصف الصبر، قال الله في الحديث القدسي: «الصَّومُ لي وأنا أجزي بِهِ»، فأضافه إلى نفسه من بَينِ سائر العبادات(١). وقال العلامة ابن القيم: الصَّبرُ نصفُ الإيمان، فإنَّ الإيمان نصفٌ صَبرٌ ونِصفٌ شُكرٌ(٢).

و ـ الحصول على درجة الإمامة في الدين، نَقل ابنُ القيم عن شيخه ابن تَيمية قولَه: بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدِّين(٣)، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]. وقرأ سفيان بن عيينة الآية فقال: أخذوا برأس الأمر ـ يعني الصبر ـ فجعلهم رؤساء(٤).

إن خُلق الصبر وقيمته أصيلة في نشأة الحضارات الإنسانية، ولا يُمكن أن ترتقي على المستوى المادي والمعنوي إلا بخلق الصبر على مستوى القيادة

---

(١) الغزالي، إحياء علوم الدين، ٤/ ٣١٠.
(٢) ابن قيِّم الجوزيَّة، مدارج السالكين، ٢/ ١١٥.
(٣) المرجع نفسه، ٢/ ١١٥.
(٤) أحمد سليمان الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، ص ١٥٩.

والأفراد والمجتمع، فمن ملامح ومعالم الحضارة الإنسانية الثانية خلقُ الصبر الذي تميَّزَ به نوحٌ عليه السَّلامُ وربَّى عليه أتباعه.

٣ـ التقوى:

من صفات نوح عليه السَّلامُ أنه تقيٌّ لله وهي صفة الأنبياء عامّةً، ، وقد اهتمَّ بدعوة قومه إلى توحيد الله عزَّ وجلَّ وإفراده بالعبودية والحث على تقواه؛ لأن تقوى الله عزَّ وجلَّ هي الضمانة الحقيقية لاستقامة النَّاس على ذلك المنهج، وعدم التخلُّف عنه هنا أو هناك، وعدم الاحتيال عليه أو الالتواء في تنفيذه، كما أنها مبعث الخُلُق الفاضل المنظور فيه إلى الله بلا رياء ولا تظاهرُ ولا مُماراة، فقد كانَ نوح عليه السَّلامُ قويَّ المعرفة بالله عزَّ وجلَّ، وأثَّر ذلك في صدق إيمانه وكمال توحيده وخشيته وتقواه لربِّه.

فكلما كانَ العبد أكثر معرفةً بربِّه سبحانه كانَ أشدَّ خوفاً وتعظيماً وعبادة ومحبة وإخلاصاً له والعكس بالعكس، فقد قال نوح عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٢]، أي أعلم من أمر الله ما لا تعلمونه، فأعلم من صفات الله وقدرته الباهرة، وبطشه بأعدائه ما جهلتم، وأعلم أن العاقبة للمتقين، وأن بأسه لا يُردُّ عن القوم المجرمين(١).

وكان نوح عليه السلام قدوةً لمن معه ومَن جاء بعده في التقوى والتأدُّب مع الله تعالى، وقد جاء ذلك في قصة نوح مع قومه في سورة هود كما مرَّ معنا، حيث يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٥ـ٤٧].

---

(١) الجليل، وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، ٣/ ٥٤.

ويظهر من هذه الآيات معرفةُ نوح عليه السَّلامُ بربه عزَّ وجلَّ، التي أثمرت عنده هذا الأدب العظيم مع ربِّه، والخوف منه سبحانه، فتراه وهو يدعو ربَّه بشأن ابنه الهالك مع الكافرين، يختم دعاءه بقوله: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، ولم يقل: وأنت أرحم الراحمين، لأن المقام مقام تفويض واستسلام لحكمة الله البالغة التي اقتضت أن يكون ابن نوح مع الهالكين، ولم يكن مع النّاجين، ولذلك ختم نوح عليه السَّلامُ دعاءه بقوله: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

كما يظهر في هذه المناجاة أدبُ نوح عليه السَّلامُ مع ربه، واتهامه لنفسه بالظلم وطلبه المغفرة من ربِّه سبحانه، وذلك في قوله: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الله أكبر، هذا نوح عليه السَّلامُ الذي أمضى مئات السنين في دعوة قومه، وصبر وصابَرَ ونالَه من الأذى والاستهزاء الشيء العظيم، ومع ذلك لا يمتنُّ على ربِّه بل يختم دعوته بطلب المغفرة والرَّحمة منه سبحانه: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ [نوح: ٢٨] (١).

وكان نوح عليه السَّلامُ داعياً إلى التقوى، وقُدوةً في كل ما يجب أن يُتَّقى الله فيه، وهو اتقاء كل ما يُفسد العقائد والأخلاق والعبادات والروابط العامة والخاصّة، وكان على يقين من ربِّه بأن ﴿ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وقد علَّمَ نوحُ عليه السَّلامُ أتباعَه تقوى الله، وزكَّى نفوسَهم بالتربية على هذا الخلق العظيم.

ومن ثمرات التقوى الهادية إلى بناء المعرفة والقوة وحصول السيادة والتمكين في الأرض:

أ ـ أن جعل لِلمُتَّقين مَلَكةً من العلم، وهدايةً ونوراً في قلوبهم، وفرقاناً يفرقون به بَينَ الحقِّ والباطل، وبين الخير والشَّرِّ، وبين الطَّيِّب والخبيث، ومخرجاً لهم من الشُّبهات وتكفيراً للسيِّئات، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟

---

(١) الجليل، وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، ٣/ ٥٧.

إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

ب ـ جعلَ الله عزَّ وجلَّ للمُتَّقين مَخرجاً من كل شِدّة، ورزقهم من حيث لا يحتسبون ولا يأملون، وبارك لهم فيما آتاهم وكفاهُم ما أهمَّهم: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣].

ج ـ للمُتَّقين مَعِيّةٌ خاصّة، فالله تعالى معهم بتأييده ومعونته وهَدْيِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

د ـ يحصل بالتَّقوى الرَّخاء والخصب، فمن سُنَّتِه تعالى في خلقه، حين يَتركون ما نهى الله عنه وحَرَّمه، حصولُ الخصب والوفرة في الإنتاج، وسعة العيش بكثرة الأمطار التي هي سبب كل خير من زرع وضرع، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

هـ ـ المتاع الحسن للمُتَّقين: ومن سُنّتِه تعالى تيسير سبل العيش الرغيد الهنيء، والحياة المُريحة وطمأنينة القلوب لأهل الإيمان والتقوى، وإفاضة نعمه الحسِّية والمعنوية عليهم، وهذا المتاع الحسن هو ثمرة عبادتهم لله، وتقواهم له، واستغفارهم وتوبتهم إليه: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٢ ـ ٣].

وهكذا فإن العاقبة الحسنة ثابتة للمتقين لا تفوتهم أبداً وفق سنة الله في خلقه، فقد صبر نوح عليه السَّلامُ وأتباعه على: مشاقِّ التكليف، وامتثال الأوامر واجتناب النواهي(١).

---

(١) محمد أمحزون، السنن الاجتماعية في القرآن الكريم، ١/٣٩٨.

٤ ـ كثير الاستغفار وطلب الرحمة :

أخبر القرآن الكريم عن طلب نوح ـ عليه السَّلامُ ـ المغفرة من الله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ [نوح: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

وطلب هذه المغفرة والرَّحمة من الله تعالى يُوحي أنه صدر منه عليه السَّلامُ مخالفة، وبعض العلماء يُجسِّد هذه المخالفة ويفتحها، والبعض الآخر يتلطَّف في عرضها(١)، وسأُورد شُبَهَهُم مقرونة بالردِّ عليها:

❋ الشبهة الأولى: دعاؤه على قومه بالهلاك:

إنَّ نوحاً عليه السَّلامُ قد دعا على قومه بالهلاك، وفي دعائه عليهم دعاء على أطفالهم ولا ذنب لهم، يقول الله حاكياً ما وقع منه عليه السَّلامُ، قال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦ـ٢٧] (٢)، وفي هذا تحكُّم على الله، إذ قد يُولَد منهم مَن هو مُؤمن بالله سبحانه، وكان عليه أن يصبر على أذاهم ولا يدعو عليهم بالهلاك(٣)، وظلَّ قلبُ نوح يرتجف من هذه الدعوة حتى أنه اعتذر عن الشفاعة من أهل الموقف يوم القيامة، كما ورد في صحيح البخاري وفيه: فيأتُونَ نُوحاً فيَقُولُ: لَستُ هناكُم، وَيذكرُ خَطِيئتَهُ التي أصابَ: سُؤالُهُ رَبَّهُ بغَيرِ عِلمٍ.

وردُّ هذه الشبهة: أنَّ نوحاً عليه السَّلامُ لم يُقدِم على الدعاء على قومه إلا بعد أن علم أنهم لن يؤمنوا وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦]، هذا من ناحية، ومن

(١) د. إكمال صالح، التوبة في ضوء القرآن الكريم، ص١٩٧.
(٢) ديّاراً: من يسكن الديار.
(٣) تفسير الرازي، ١٨/٣.

ناحية أخرى فإنه لَبِثَ فيهم مُدّةً طويلة فجرَّبَهم وخَبرَهُم، وعرف طباعَهم وجرَّبها، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت: ١٤]، ولم يؤمن به إلا قليل، قال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود: ٤٠]، ومن أجل هذا، حكم عليهم هذا الحكم(١).

وأما عن دعاء نوح على أطفال هؤلاء الكفار وأنَّ الله أعقَمَ أرحامَ نسائهم، فلا إشكال في دعاء نوح عليه السَّلامُ عليهم لعدم وجود أطفال فيهم(٢)، ويُشير إلى هذا قوله تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ [نوح: ١٠ـ١٢].

وأما **القول الثاني**: فمن رأى أن الأطفال موجودون وقت دعاء نوح عليه السَّلامُ، ولا ذنب لهم حتى يقع عليهم الهلاك كما سيقع على آبائهم، فإن انضمامهم في العقوبة لآبائهم، في ذلك زيادة تعذيب لهم إذا أبصروا أطفالهم يُعذِّبون، هذا القول غير مسلَّم به؛ لأن نوحاً ـ عليه السَّلامُ ـ لم يدعُ عليهم إلا بعد أن أوحى الله إليه أنه لن يُؤمن من قومك إلا من قد آمن، فالله تعالى أطلعه على حال قومه، ومنهم هؤلاء الأطفال وأنهم سيكونون كافرين، وليس في دعاء نوح عليهم أي ذنب، وكلا القولين معقول، والله أجلّ وأعلم؛ لأن القول تُؤيِّده الآية، إذ إن نوحاً عليه السَّلامُ يحث قومه على الاستغفار الذي من نتائجه أن يرزقهم الله ما يفقدونه، وهم بحاجة إليه كإنزال الأمطار وحصولهم على الأموال والأولاد(٣).

* **الشبهة الثانية: طلبه نجاة ولده الكافر:**

إنَّ نوحاً عليه السَّلامُ قال: ﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ

---

(١) تفسير الألوسي، ٢٩/ ١٠٠.
(٢) تفسير القرطبي، ١٨/ ٣١٢.
(٣) د آمال بنت صالح نصير، التوبة في ضوء القرآن الكريم، دار الأندلس الخضراء، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م، ص١٩٩.

أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥]، وقد ردَّ الله عليه بقوله: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ﴾ [هود: ٤٦]، فيأخذ المُعارِضُون من هذا أن نوحاً عليه السَّلامُ كانَ يعلم أن زوجَه وولدَه مِمَّن سبق عليهما القول حيث هلكا مع الهالكين، فكيف يسأل ربَّه نجاة كافر(١).

ويستدلُّون على أنه ارتكب ذنباً بأن الله تعالى زجره زجراً شديداً فقال: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

ثم إن تعوُّذَه عليه السَّلامُ من سؤاله ربَّه ما لا علم له به إيذان بصدور الذنب عنه، قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

وردُّ هذه الشبهة: كونُ نوح عليه السَّلامُ يقول: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود: ٤٥]، هذا لا يُعدُّ ذنباً؛ وذلك لأنه إما أن يكون ظنَّ أن أهلَه الذين وعدَهُم الله سبحانه بنجاتهم هم قرابته وعلى رأسهم ابنُه، أو أن يكون حين رأى ابنه في معزل عن الكافرين ظنَّ أن ابنَه رجعَ عن الكفر، فرجَّى أن يكون هذا الاعتزال سبيلاً إلى دخوله في زمرة المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [هود: ٤٢].

يقول صاحب كتاب المنار: يُحتمل أن يكون عليه السَّلامُ حين رأى ابنه بمعزل عن الكفار ظَنَّ أنه قد بدا له في كُفرِهِ فكَرِهَه وجَنح للإيمان، ويُحتمل أن يكون قد فهم أنه غير داخل في عموم قوله تعالى له: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]؛ لأنه تعالى جعل الناجين قسمين: أهله إلا مَن استثنى، ومَن آمن من قومه، فجاز في فهمه أن يُؤمن من أهله من كانَ كافراً لأنهم قَسِيمٌ لقومه لا قِسمٌ منهم، فالله عزَّ وجلَّ بَيَّنَ لنوح عليه السَّلامُ أن الأهل ليسوا قرابة الدم، وإنما هم قرابة العقيدة، وأما كونه عليه السَّلامُ قد سأل وزُجر عن ذلك:

---

(١) محمد عمر الرازي، عصمة الأنبياء، ص ٢٣.

فلأن الله تعالى أراد أن يُعرِّفَه أنه يسأل فيما ليس له به علم صحيح[١]، ويَقول: أي فلا تسألني في شيء ما، من الأشياء ليس لك به علم أنّه حَقٌّ وصواب[٢].

إنَّ عذر سيدنا نوح عليه السَّلامُ أنه اندفع إلى هذا السؤال بدافع الشفقة وعاطفة الأُبُوّة، فأراد الله عزَّ وجلَّ أن يعلمه درساً في الموالاة، وأنها لا تكون إلا للمؤمنين، ولا موالاة للكافرين، وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، إنِّي أعظك خشية أن تكون من الجاهلين بحقيقة الوشائج والروابط، أو حقيقة وعد الله وتأويله، فوعد الله قد أُوِّلَ وتحقَّق ونجا مِن أهلك الذين هم أهلُك على التَّحقيق[٣].

وهذا هو الأنسب بالأنبياء عليهم السلام، وفي ذلك يقول الإمام ابن حزم: وهذا لا حُجَّة لهم فيه؛ لأن نوحاً عليه السَّلامُ تأوَّل وعد الله تعالى أن يخلِّصه وأهلَه، فظنَّ أن ابنه من أهله على ظاهر القرابة، وهذا لو فعله أحدٌ لكان مأجوراً، ولم يسأل نوح تخليص مَن أيقن أنه ليس من أهله فتفرَّع عن ذلك نَهي أن يكون من الجاهلين، فتندَّم عليه السَّلامُ من ذلك ونزع، وليس هاهنا عَمْدٌ للمعصية البتَّةَ والله أعلم[٤].

وأما عن استغفار نوح عليه السَّلامُ وطلبه الرَّحمة من الله تعالى، فإن ذلك لشعوره بعظم قدر الله تعالى وعلو مقامه الكريم وأنه قد خالف الأولى والأفضل،[٥] وهو عدم السؤال، فعَدَّ ذلك خطأ منه، فسارع إلى الله تعالى

---

(١) آمال بنت صالح نصير، التوبة في ضوء القرآن الكريم، دار الأندلس الخضراء، السعودية، ط١ ١٩٩٨م، ص ٢٠١.
(٢) تفسير المنار، ١٢/ ٨٥.
(٣) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/ ١٨٨٠.
(٤) ابن حزم، الفصل في الملل والنحل، ٤/ ٦.
(٥) تفسير الخازن، ٧/ ١٥٧. وانظر: نصير، التوبة في ضوء القرآن الكريم، ص ٢٠٢.

بالاستغفار، والذي يدلُّ على أنه عليه السَّلامُ لم يرتكب ذنباً أنه جاء على لسانه قوله: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ ولم يقل: «تُبتُ إليكَ»، وذلك للمبالغة في تأكيد أسفه وندمه على هذا السؤال الذي بدر منه(١).

إنَّ في استغفار نوح عليه السَّلامُ وطلبه الرَّحمة من الله لفتاً للأنظار إلى ما كانَ عليه نوح عليه السَّلامُ من العبودية والتذلُّل لله تعالى، وأنه بلغ منتهاه في ذلك، إذ لمجرَّد مخالفته للأولى ارتعش فؤادُه ووَجِلَ قلبُه خوفاً من أن يكون بذلك قد أغضب المولى جلَّ وعلا، فسارع يتذلَّل ويخضع منادياً: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

كما ألمس من تكرار هذا الطلب وإلحاحه عليه السَّلامُ في قَبول اعتذاره أنه إذا كانَ هذا هو حال نبيِّ الله الذي اصطفاه الله تعالى لرسالته، فالأجدر بأهل الذنوب والمعاصي المسارعة واللجوء إلى الله تعالى، والإلحاح عليه في الطلب لما يقع منهم من أخطاء مقصودة وغير مقصودة، كي يظفروا بقبول توبتهم وعفو الله عنهم.

وألمح في توبة نوح استعماله للفظ الربّ، وقوله عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ﴾ [هود: ٤٧]، وبدأ اعتذاره بالاستعاذة بالله مبالغة في التوبة وإظهاراً للرغبة فيها، وتبرُّكاً بذكر ما لقَّنه الله تعالى وهذا أبلغ من أن يقول: أتوب إليك أن أسألك، لما فيه من الدلالة على كون ذلك الأمر هائلاً محذوراً لا محيصَ منه إلا بالاستجارة بالله تعالى، ثم ختم اعتذاره برجائه لله أن يقبل هذا الاعتذار والأسف، وإلا سيكون من الذين خسروا أعمالهم ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧] (٢).

---

(١) نصير، التوبة في ضوء القرآن الكريم، ص ٢٠٢.

(٢) عبد الهادي الشمراني، الدُّروس المستفادة من العقوبات الإلهية في القرآن الكريم قبل الرسالة المحمدية، دار ابن الجوزي، ٢٠٠٦، ص ١٣٩.

لقد دعا نوح عليه السَّلامُ الله عزَّ وجلَّ وسأله المغفرة والرَّحمة، ومن أسماء الله الحسنى الغفور الرحيم، ولها آثارها على الأفراد والأمم والشعوب والأكوان والمخلوقات:

أ- ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى﴾: طلب نوح عليه السَّلامُ المغفرة من الغفّار سبحانه وتعالى: الساتر لذنوب عباده، والمُسدل عليهم ثوب عطفه ورأفته، ومعنى السَّتر في هذا: أنه لا يكشف أمر العبد لخلقه، ولا يهتك سِترَهُ بالعقوبة التي تُشهِّره في عيونهم[١].

والله سبحانه وتعالى من أسمائه الغفور: الذي لم يزل يغفر الذنوب ويتوب على كل من يتوب[٢]. ومن آثار الإيمان بأسمائه سبحانه: الغفور، الغفار، غافر الذنب:

* مَحبَّة الله عزَّ وجلَّ وحَمْدُه وشُكره على رحمته لعباده، وغفرانه لذنوبهم، وهذا الأثر يُثمر في قلب المؤمن تَوقِّي معاصي الله تعالى قدر الطاقة، وإذا زلَّتِ القدمُ ووقع المُؤمن في الذنب، فإنه يتذكَّرُ اسمَه سبحانه وتعالى الغفور الغفار، فيسري الرجاء في قلبه ويقطع الطريق على اليأس من رحمة الله تعالى، ويُحسِن الظَّنَّ بربِّه الذي يغفر الذنوب جميعاً[٣].

* سؤال الله عزَّ وجلَّ بهذا الاسم الكريم مغفرةَ الذنوب ووقاية شَرِّها؛ لأنه وحده الذي يملك غفران الذنوب ولا يملك ذلك أحد سواه، وما أكثر الأحاديث التي تحثُّ على أفضلية الاستغفار، وما أكثر الأدعية النبوية التي فيها الاستغفار، ومن أشهرها سَيِّد الاستغفار المذكور والذي منه: ... وأبوءُ بذَنبي فاغفِرْ لي فإنَّه لا يَغفِرُ الذُّنوبَ إلا أنتَ[٤].

---

(١) الخطابي، تفسير الأسماء، ص٣٨.
(٢) عبد الرحمن السعدي، الحق الواضح المبين، ص ٧٣.
(٣) عبد العزيز الجليل، ولله الأسماء الحسنى، ص ٥٧٠.
(٤) صحيح البخاري، رقم ٥٣١.

ولما سأل أبو بكر الصديق رضي الله عنه الرسول ﷺ دعاءً يدعو به في صلاته قال: «اللَّهُمَّ إنِّي ظلمتُ نفسي ظُلماً كثيراً، ولا يَغفِرُ الذُّنوبَ إلا أنتَ، فاغفِرْ لي مَغفِرةً مِن عندِكَ وارحَمْني، إنَّكَ أنتَ الغَفورُ الرَّحيمُ»[١].

إن نوحاً عليه السَّلامُ كانَ من المُستغفرين والتائبين إلى الله، وعلَّمَ أتباعَه كيفيّةَ الاستغفار الذي يجعل من كل هَمٍّ فرجاً، ومن كلِّ ضيق مَخرجاً، ويرزقه الله لزامَ ذلك من حيث لا يحتسب.

ب ـ ﴿وَتَرْحَمْنِيٓ﴾: طلب نوح عليه السَّلامُ الرَّحمة من الرحمن الرحيم سبحانه وتعالى، وآثار رحمة الله عزَّ وجلَّ قد وَسِعَت كلَّ شيء، فكما أن عِلْمَ الله عزَّ وجلَّ قد وَسِعَ كلَّ شيء ولم يخفَ عليه أي شيء، فكذلك رحمته سبحانه قد بلغت كلَّ شيء بلَغهُ علمُه سبحانه، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال عن دعاء الملائكة للمؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]، فقد عرف نوح عليه السَّلامُ كيفيّةَ استمطار رحمة الله عليه بدعائه وانكساره بَينَ يدي مولاه، فهو عليه السَّلامُ من آثار رحمة الله على خلقه، وبه رحم الله البشرية وحفظ ذريتهم في الفلك المشحون.

ومن أعظم آثار رحمة الله سبحانه إرساله الرُّسُل، وإنزاله الكتب هدايةً للناس، وإخراجاً لهم من الظلمات إلى النور، فالرُّسُل رحمة من عند الله عزَّ وجلَّ لعباده؛ لتعريفهم بربِّهم سبحانه وأسمائه وصفاته وكيفيّة عبادته، لينقلهم برحمته من الجهالة إلى العلم، ومن الغيِّ إلى الرشد، ومن الضَّلال إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور، ومن الشقاء إلى السعادة، ومن النار إلى الجنة، فسبحان الله أرحم الراحمين[٢].

---

(١) صحيح مسلم، رقم ٦٨٣٩. وانظر: صحيح البخاري، رقم ٧٩٠.
(٢) عبد العزيز الجليل، ولله الأسماء الحسنى، ص ١٣٣.

ومن أعطى اسمَ الرحمن حقَّه عرف أنه مُتضمِّن لإرسال الرُّسُل وإنزال الكتب أعظم من تضمُّنه إنزال الغيث وإنبات الكلأ وإخراج الحَبِّ، فاقتضاء الرَّحمة لما تحصُل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكن المحجوبين إنما أدركوا من هذا الاسم حظَّ البهائم والدواب، وأدرك منه أُولو الألباب أمراً وراء ذلك(١).

وقد تجلَّت رحمة الله عزَّ وجلَّ في رحمته الخاصة بنوح عليه السَّلامُ بتوفيقه وتسديده، وحفظه وتيسير أموره، وإجابة دعائه ونصره على أعدائه الكافرين وتمكينه في الأرض، وإغاثته وكشف الكروب عنه، وتسهيل أموره لقيادة الحضارة الإنسانية الثانية، حضارة السلام والبركات(٢).

٥ ـ الدعاء:

وكان نوح عليه السَّلامُ كثير الدعاء لربِّه، ومن دعاء نوح عليه السَّلامُ الذي تحدَّثنا عنه في الصفحات السابقة:

* ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: ٧٦].

* ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٧ ـ ١١٨].

* وطلب من الله أن يُمِدَّه بالنَّصر على قومه: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٣٩].

* وقال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠].

---

(١) الجليل، ولله الأسماء الحسنى، ص ١٣٤.
(٢) المرجع نفسه، ص ٣٩.

* وقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

* وقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩].

* وقال: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا﴾ [نوح: ٢٨].

إنّ من أسباب النعيم والرخاء ودفع الشِّدَّة والبلاء: التوجُّه إلى الله عزَّ وجلَّ بذلك؛ لأنه أمر عباده بدعائه، ووعدهم بالإجابة، ووعدُه حَقٌّ، يقول تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، فهو سبحانه وتعالى أمر بتوجيه رغائبنا إليه والتَّعويل عليه، وكفل لنا الإجابة بإعطائنا ما نريد فهو الكريم المطلق الذي يُجيب دعوة الدّاعي إذا دعاه[(١)].

وفي قصة نوح عليه السَّلامُ يظهر تعلُّقه بدعاء ربه عزَّ وجلَّ، فقد لجأ إلى الله واحتمى بحماه ولم يركن إلى الأسباب وحدها، فتوجه إلى الله بالدعاء لعلمه أن الدعاء أهم أسلحة النصر، وسجل لنا القرآن الكريم صِيَغ الدعاء التي دعا بها نوح عليه السَّلامُ وكيف أن الله استجاب له[(٢)].

٦ ـ العبودية:

من صفات نوح عليه السَّلامُ أنه كانَ عابداً لله، ومُحقِّقاً معنى العبودية لله في أعلى درجاتها:

* قال تعالى: ﴿۞كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ﴾ [القمر: ٩].

---

(١) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، ١/ ٤٧٤.

(٢) السيد عبد المقصود عسكر، في صحبة الرُّسُل الكرام، دار البشير، طنطا، مصر، ط١ ٢٠٠٠م، ص٤٨.

* وقال تعالى : ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم : ١٠] .

* وقال تعالى : ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات : ٨١] .

* وقال تعالى : ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات : ٤٠] .

* **ومظاهر العبودية عنده عليه السَّلامُ بادية ظاهرة ، فمن ثمراتها :**

أ ـ الشكر الجزيل : فنوح عليه السَّلامُ ترقَّى إلى مقام العبد الشَّكور ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء : ٣] .

ب ـ كثرة السجود والبكاء من خشية الله : ويظهر هذا في سياق الآية الكريمة : ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ [مريم : ٥٨] .

ج ـ دوام الدعاء واستمراره (صاحب دعوة مستجابة) : ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر : ١٠]، وقال تعالى : ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء : ٧٦]، وقال تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون : ٢٦] .

د ـ التَّوكُّل : ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس : ٧١] .

هـ ـ التجرُّد من الحول والقوة وتفويض الأمر إلى الله تعالى : ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [هود : ٣١]، وقال تعالى : ﴿قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود : ٣٢ ـ ٣٣]، وقال

تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤].

و ـ العبد الذاكر: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١].

ز ـ اليقين: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٨ ـ ٣٩].

ح ـ المبادرة إلى التوبة والاستغفار: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

ط ـ الإيمان والإحسان: هما من مراتب التَّرقِّي، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ٧٩ ـ ٨١].

ي ـ الإخلاص: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ٧٣ ـ ٧٤].

ك ـ الصلاح (العبد الصَّالح): ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾ [التحريم: ١٠].

ل ـ الابتـــلاء: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]، ابتُلي في أقرب النَّاس إليه.

٧ ـ العلم:

* قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨].

* وقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦١ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦١ ـ ٦٢].

٨ ـ العِفّة:

* ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩].

* ﴿فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ﴾ [يونس: ٧٢].

* ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ﴾ [هود: ٢٩].

٩ ـ الأمانة:

* ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾ [الشعراء: ١٠٧].

١٠ ـ الثبات:

* ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٤].

* ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٩ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٩ ـ ٣٠].

١١ ـ بِرُّ الوالدين:

* ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا﴾ [نوح: ٢٨]. وغير ذلك من الصفات والأخلاق الكريمة والقِيَم الرفيعة.

وتتَّضح شخصية نوح عليه السَّلامُ من خلال صفاته وأخلاقه وسيرته فمن معالمها:

ـ العبودية لله: ومن ثمراتها: الشكر الجزيل لله وكثرة السجود والبكاء ودوام الدعاء والتَّوكُّل والتجرُّد واليقين والذكر والتوبة والاستغفار والإيمان والإحسان والإخلاص والصلاح والابتلاء.

ـ **العلم**: ومن ثمراته: الوضوح وقُوّةُ الحُجَّة، وسلامة الطريق وصفاء المنهج، والقناعة العقلية والمنطقية والوجدانية.

ـ **العِفَّة والأمانة والثبات**: من ثمراته: حبُّ المؤمنين والحرص على فقرائهم وضعفائهم.

ـ **بِرُّ الوالدين والصَّبرُ الجميل**[(١)]: لا شكَّ أن نوحاً عليه السَّلامُ غرس هذه الصفات والأخلاق في قلوبِ أتباعه، وساهمت في نهضة الإنسانية في دورتها الحضارية الثانية بعد الطُّوفان العظيم.

ثانياً: فِقهُ نوح عليه السَّلامُ في التَّعامُل مع السُّنَن الرَّبّانيَّة:

إنَّ قيادة الحضارات وتربية النَّاس والنهوض بمصالحهم، يخضع لقوانين وسُنَنٍ ونَواميسَ، تتحكَّم في مسيرة الأفراد والمجتمعات والشعوب والأمم، وعند التأمُّل في سيرة نوح عليه السَّلامُ نراه قد تعامَلَ مع السُّنَن والقوانين بحكمة وقدرة فائقة وتوفيق من الله عظيم.

إنَّ السُّنَن الرَّبانيَّة هي أحكام الله تعالى الثابتة في الكون، والجارية على الإنسان في كل زمان ومكان، وهي كثيرة جدّاً.

إنَّ المتدبِّر لآيات القرآن الكريم يجدها حافلة بالحديث عن سُنَن الله تعالى، التي لا تتبدَّل ولا تتغيَّر، ويجد عناية ملحوظة بإبراز تلك السُّنَن وتوجيه النظر إليها واستخراج العِبَر منها، والعمل بمقتضياتها، لتكوين المجتمع السعيد المستقيم على أمر الله.

وحينما يوجِّه القرآن الكريم أنظار النَّاس إلى سُنَن الله تعالى في الأرض وفي حركة التاريخ وسِيَر المُرسَلين، فهو بذلك يردُّهم إلى الأصول التي تجري

---

(١) أحمد سليمان الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، المرجع السابق، إلى الله في سورة نوح، ص ١٢٨: ١٣٢.

وفقها، فالنَّواميس التي تحكم الكون والشعوب والأمم والدول والأفراد، جارية لا تتخلَّف والأمور لا تجري في الأرض عبثاً، وإنما تتبع هذه النواميس، فإذا درس المسلمون هذه السُّنَن وأدركوا مغزاها، تكشَّفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبيَّنَت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنُّوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، أو إلى وجود الحكمة الكامنة من وراء هذا النظام، واستشرفوا خط السير على ضوء ما كانَ في ماضي الطريق، ولم يعتمدوا على مجرَّد كونهم مسلمين؛ لينالوا النصر والتمكين بدون الأخذ بالأسباب المُؤدِّية إليه، والسُّنَن التي تحكم الحياة واحدة، فما وقع منها في زمان مضى، سيقع في كل زمان(١).

إنَّ أوَّل شروط التعامل المنهجي السليم مع السُّنن الإلهية، والقوانين الكونية في الأفراد والمجتمعات والأمم، هو أن نفهم بل نفقه فقهاً شاملاً رشيداً هذه السُّنن، وكيف تعمل ضمن الناموس الإلهي، أو ما نُعبِّر عنه بـ «فقه السُّنَن»، ونستنبط منها على ضوء فقهنا لها القوانين الاجتماعية والمعادلات الحضارية(٢).

إنَّ حركة نوح عليه السَّلامُ نحو توحيد الله عزَّ وجلَّ وإفراده بالعبادة والحثِّ على تقواه، وعمارة الأرض على شريعة ربِّ العالمين اعتمدت بعد توفيق الله على تنظيم جهود الدعوة، وصناعة الإنسان النموذجيِّ الرَّبانيِّ الحضاري، والتعامُل مع فقه السنن وقوانين الحضارة، فظهر لنا من خلال سيرته وقصته:

* أهمية القيادة في صناعة الحضارة.

* أهمية الجماعة المؤمنة المُنظَّمة في عمارة الأرض وخلافتها.

---

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، ١/ ٤٧٨.
(٢) المشروع الحضاري لنهضة الأمة، ص ٥٨.

* أهمية الوحي الذي يُبيِّن المنهج الرَّبانيَّ في العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات والقيم والتَّصوُّرات.

* أهمية سنة التدُّرج وهي من سُنَنِ الله في خلقه وكونه، وهي من السنن المُهِمّة التي يجب على الأمة أن تراعيها، وهي تعمل للنهوض والتمكين لدين الله.

وقد اتّضح في سيرة نوح عليه السَّلامُ منطلق هذه السنة، فيما أن الطريق طويل، فقد سار باتِّزان وتريُّثٍ وصبرٍ عظيم، وأوغل فيها برفق نحو الأهداف المرسومة، من ترفُّق بالنَّاس واختيار المؤمنين بدعوته، ومقاومة خصومه، ثم مرحلة النصر والتمكين بعد الطُّوفان العظيم.

لقد تعامل نوح عليه السَّلامُ مع سُنّة التدرُّج بحكمة وبُعْد نظر، ورعى هذه السُّنّة في سياسة النَّاس وتربية الجيل المؤمن، الذي حمل عبء الحضارة الإنسانية الثانية في منطلقاتها الروحية والعقلية والمنطقية والوجدانية. ومن أهم السنن التي تعامل معها نوح عليه السَّلامُ بعد سنة التدرُّج:

١ ـ سنة الله في التغيير وعلاقتها بالبناء العقدي:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

تعامل نوح عليه السَّلامُ بوضوح وصدق وإخلاص، فقد قاد التغيير بمنهج الله ووحيه، وبدأ بالنفس البشرية، وصنع من القلة التي آمنت به عظماءَ في صناعة الحضارة من بعد الطُّوفان، وأحدث بهم تغييراً في شكل المجتمع ومفاهيمه وأخلاقه وقِيَمِه، ونقل النَّاس الذين آمنوا به من الظلمات إلى النور ومن الجهل إلى العلم، ومن التخلُّف إلى التقدُّم، وأنشأ بهم حضارة إنسانية ثانية رائعة، حضارة السلام والبركات.

لقد قام نوح عليه السَّلامُ بما أوحى الله إليه بتغيير العقائد والأفكار

والتصوُّرات، والمشاعر والأخلاق في نفوس أصحابه، فتغيَّر ما حولهم في دنيا النَّاس فتم تعريفهم وتربيتهم على التوحيد، وهو الأساس الذي قام عليه البناء في الحضارة الإنسانية الثانية، وقد آتت تربيته المباركة ثمارَها، فتطهَّر أتباعُه الذين نجوا معه مما يُضادُّ توحيد الألوهية وتوحيد الربوبيَّة وتوحيد الأسماء والصفات، فلم يحتكموا في مجتمعهم الجديد إلا إلى شريعة نوح ـ عليه السَّلامُ ـ التي نزلت من عند الله عزَّ وجلَّ، ولم يطيعوا غير الله ولم يتَّبعوا أحداً على غير مرضاة الله، ولم يُحِبُّوا غير الله كحُبِّ الله، ولم يخشوا إلا الله، ولم يتوكَّلوا إلا على الله، ولم يلتجئوا إلا لله، ولم يدعوا دعاء المسألة والمغفرة إلا الله وحده، ولم يركعوا أو يسجدوا إلا لله... إلخ، وآمنوا باليوم الآخر واستعدُّوا له غاية الاستعداد من خلال مفهوم التوحيد والعبادة وعمارة الأرض وخلافتها.

وآمنوا بقضاء الله وقدره، وأن العاقبة للمُتَّقين، وآمنوا بأركان الإيمان التي دعا إليها نوح عليه السَّلامُ، ولم يقتصر في تربيته لهم على تعليمهم أركان الإيمان، بل صحَّح عندَهم كثيراً من المفاهيم والتصوُّرات والاعتقادات عن الإنسان والحياة والكون والعلاقة بينها؛ ليسيروا على نور من الله، ويُدركوا هدف وجودهم في الحياة، ويُحقِّقوا ما أراد الله منهم غاية التحقيق، ويتحرَّروا من الوهم والخرافات، فاتَّضح تصوُّرهم عن:

* قصة آدم والحضارة الإنسانية الأولى وعداوة الشَّيطان لآدم وبنيه.

* أهمية العبادة والأخلاق لبني الإنسان والمجتمع الجديد.

* أهمية إعمال العقل في الآفاق والأنفس والكون واكتشاف سُنَنِ الله فيه والدلالة على الله وغير ذلك من الأمور المتعلِّقة بسُنّة الله في تغيير النفوس، لقيمة الإيمان بالله وتوحيده وما يفتح الله لعبده من خلال إيمانه به من آفاق وعوالم عقلية وروحية وفطرية ووجدانية ونفسية... يرتقي بها لتحقيق العبادة القولية والوجدانية والعملية لخالقه العظيم سبحانه تعالى.

إنَّ نوحاً عليه السَّلامُ بدأ بالتغيير الداخلي للأنفس، وذلك من خلال الدعوة

إلى الإيمان بالله عزَّ وجلَّ وتوحيده، فهذه هي الطريقة الوحيدة لتنشئة الأفراد والأتباع على سيرة مُحكَمة من الدرجة الأولى، وهو الذي يطبع الأفراد على الصدق والإخلاص والأمانة والعفاف ومحاسبة النفس وضبط نوازعها وإيثار الحق وسعة النظر والقلب وعلوّ الهمة والكرم والسخاء والتضحية والتواضُع والشعور بالواجب، والاستقامة والشَّجاعة والبسالة والقناعة والاستغناء وعاطفة السمع والطاعة واتِّباع القانون، ويُؤهِّلُهم لأن يبرز بهم إلى حَيِّز الوجود أحسن مجتمع وأطهره[1].

إنَّ الحضارة الإنسانية الثانية التي قادها نوح عليه السَّلامُ قامت على توحيد الله واتِّباع شرعه ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٤]، فبيَّن لأتباعه من خلال عقيدة التوحيد حقيقةَ الوجود، ورسم غاية الحياة التي بنى عليها الحضارة الإنسانية الثانية التي خضعت لمفاهيم وتصوُّرات وأفكار وقيم ومبادئ مَرجعيَّتُها الإيمان بالله وتوحيده، فجوهر الحضارة الإنسانية الثانية هو التوحيد الذي أعطاها هويتها الرَّبانيَّة في تأسيسها، وربط بَينَ أجزائها التشريعية والأخلاقية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والشخصية ببعدها الإنساني والإيماني، وجمعت بَينَ البعد الروحي والمادي في انطلاقتها الجديدة بعد الطُّوفان العظيم.

وكان لقصة نوح عليه السَّلامُ في التعامل مع سنة الله في تغيير النفوس الدور الأكبر من خلال الجهد الكثير والعمل المستمرّ الذي قام به مع أتباعه الذين يُعتبرون النواة الصلبة المؤثِّرة في المشهد الحضاري الجديد، وتكوَّنَت منهم الشعوب والمجتمعات والأمم البشرية فيما بعد.

٢ ـ سنة الله في الابتلاء:

في قصة نوح عليه السَّلامُ ألوان من الابتلاء، له ولقومه ولأبنائه القادمين، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٠].

---

(١) أبو الأعلى المودودي، الحضارة الإسلامية، ص ٢٩٠ ـ ٢٩١.

* ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾ : المشار إليه بلفظ ﴿ذَٰلِكَ﴾ كلُّ قصة نوح عليه السَّلامُ وقومه التي ذُكر منها هذا النص من سورة المؤمنون، وقد أُكِّدت الآية الكريمة في قصة نوح ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٠].

إن في قصة نوح عليه السَّلامُ وقومه آياتٍ عديداتٍ دالّاتٍ على طائفة من صفات الربِّ الخالق وحكمته في امتحان خلقه وحكمته في مجازاتهم بالعدل والفضل، فالكافرون الظالمون المجرمون لهم الجزاء بالعدل، والمؤمنون المُتَّقون والأبرار والمحسنون لهم الجزاء العظيم بالفضل، والآية هي العلامة ذات الدلالة على أمر من الأمور سواء كانت مرئية أو محسوسة بأية حاسّةٍ أُخرى من الحواسِّ الظاهرة أو الباطنة، وقد يُتوصَّلُ إلى إدراك الأمر الذي دَلَّت عليه الآية عن طريق اللوازم الفكرية أو الاستنباط العقلي، أو دقائق الدلالات اللغوية في الكلمات والجمل، وصور تراكيب مفردات الجمل وتنظيم وتصفيف الجمل في عموم النصِّ.

ونستطيع أن نستنبط من الآيات التي عرضتها سورة المؤمنون ما يأتي:

* إرسال الله نوحاً إلى قومه هو إحدى سُنَن الله في البشر، فما من أمة انحرفت عن شريعة الله ومنهجه، وانمحت من ذاكرتها تعاليم الدين الرَّبانيّ الصحيحة، ولم يبق لديها إلا تحريفات وتخريفات وضلالات، إلا بعث الله لها نبياً رسولاً بشيراً ونذيراً يُبلِّغها دينَ الله، وشرائعه ومنهاجه ويدعوها إلى الإيمان والعمل الصَّالِح ويُبيِّن لها مسؤوليتها في الحياة الدُّنيا، وأن بعد هذه الحياة الدُّنيا حياةً أُخرى يُبعث النَّاس فيها بعد الموت والفناء للحساب والجزاء.

* عبادة الله وحده لا شريك له، بعد الإيمان به واحداً في ربوبيته، واحداً في ألوهيته، هي من أعظم المطالب الدينية التي على الإنسان أن يُؤدِّيَها؛ ليجتاز رحلة امتحانه بنجاح بعده، لأن يكون من أصحاب جنات النعيم[1].

(١) الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص ٢٨٦.

* عقاب الله وعذابه هو الأمر الذي أعدَّهُ الله لِمَنْ كفر به جاحداً له أو مشركاً به، ولمن عصاه فاستكبر عن عبادته، كلٍّ بحسبه.

* من الظواهر البشرية أن رؤساء الأقوام وقادتهم يتعلَّلون ببشرية الرُّسُل، لرفض دعواتهم، ويتَّهمونَهم أيضاً بأنهم طُلّاب رئاسة وزعامة على أقوامهم، لذلك فهم يدعون لتغيير ما عليه أقوامهم من عقائد ومفاهيم وعادات، ليكونوا هم أئمتهم فيما يقدمونه لهم من جديد باسم الدين، الذي يدَّعون أنهم رسل الله فيه، ويتَّهمونَهم أيضاً بالجنون لصدِّ جماهير قومهم عنهم، ويجادلون بغير ذلك.

* من الظواهر البشرية أن يفرض أكثر النَّاس آراءهم الخاصّة على حكمة الله، ومن ذلك مطالبتهم بأن يكون الرُّسُل من البشر أنفسهم.

* من سنة الله في عباده أن ينصر رسله وأن يُنزل نقمتَه بالظالمين من أقوامهم.

* أنَّ المؤمنين مطالبون بأن يذكروا الله عند كل مناسبة، مستعينين به، وحامدين له، وداعين في كل مناسبة بحسبها.

* أنَّ ظروف الحياة الدُّنيا هي ظروف امتحان لكل مُستوفٍ لشروط الامتحان من النَّاس فيها، فالرُّسُل مُبتلَون، وأنواع الابتلاء مختلفة، منها ابتلاء بالتكاليف، ومنها ابتلاء بالنِّعَم، ومنها ابتلاء بالمصائب، ومنها ابتلاء النَّاس بعضهم ببعض.

* في القصة من عظات، وعلى الذين كفروا أن يتَّعظوا بها، ويعتبروا بما جرى لمن قبلهم من الكافرين والظالمين من عقاب ربانيٍّ، وأن يستدلُّوا من ذلك على أن الربَّ الذي أوعد بالعقاب المعجَّل ثم نفَّذَه سيحقِّق يوم القيامة عقابَه المُؤجَّل الذي أوعد به.

* في القصة من تطمين للرسل والمؤمنين أن الله معهم وناصرهم إذا صدقوا وصبروا، وأن الله لا بدَّ أن يحقِّق وعدَه لهم في الدُّنيا والآخرة، كلما حقَّقوا في أنفسهم الشروط المطلوبة منهم.

* من الآيات ما دلَّ على أن من حكمة الله أنه متى أمسى القومُ قوم فسادٍ عامٍّ غير قابل للإصلاح بمُقتضى مؤثِّرات البيئة وضغوطها التي لا تسمح بأن يندَّ عنها مستقيمون صالحون، كانَ إهلاكهم إهلاكاً عامّاً شاملاً باستثناء المؤمنين، أمراً لا مناص منه(١).

* ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾: الابتلاء هو الامتحان والاختبار؛ لإظهار ما في النفوس والضمائر من عمل إرادي، سواء كان إيماناً أو كفراً، طاعةً أو معصيةً، فضائلَ أو رذائلَ، خيراً أو شَرّاً.

وجاء التعبير بضمير العظمة ﴿كُنَّا﴾، وبصيغة الجمع ﴿لَمُبْتَلِينَ﴾؛ لأن الموقف الذي يجري التعبير عنه هو موقف عظمة وجلال، يفرضه سلطان الرَّبِّ الخالق، المُبتلي لكلِّ عباده، وفي مقدمتهم الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام(٢).

ويُفيد تأكيد الجملة ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أيْ: وإننا لمبتلون، وفعل الكون هنا للدلالة على السُّنّة الدائمة الثابتة مع الزمن في الماضي والحاضر والاستقبال(٣).

والابتلاء ألوان: ابتلاء للصبر، وابتلاء للشكر، وابتلاء للأجر، وابتلاء للتوجيه، وابتلاء للتأديب، وابتلاء للتمحيص، وابتلاء للتقويم(٤). ومن ابتلاءات نوح ـ عليه السَّلامُ ـ الآتي:

* ابتلاؤه بقومه الذين لم يَهتدوا ولم يُؤمنوا به وبرسالته إليهم وتكذيبهم له.

* ابتلاؤه بابنه فهو عمل غير صالح لأسباب لا يعلمها يقيناً إلا هو جلَّ جلاله.

* ابتلاؤه بزوجته وعدم إيمانها به.

---

(١) الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص ٢٨٦.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٨٦.
(٣) المرجع نفسه، ص ٢٨٧.
(٤) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/ ٢٤٦٦.

* سخرية قومه منه: السُّخريّةُ استهزاءٌ بمَن يجب احترامُه، ويُقصد من ورائها التقليل من شأن المستهزأ به، وهذا المستهزأ به هو من ينال رضا الله عزَّ وجلَّ وينال التقدير والاعتراف من الصادقين المؤمنين الذين أسلموا وجوههم لله ربِّ العالمين(١).

إنَّ نوحاً عليه السَّلامُ تعرَّض لسنة الابتلاء، وأصبح نموذجاً يقتدي به المُبتلَون على مرِّ العصور والدهور وتوالي الأزمان في تحمُّل الشدائد والمصائب في سبيل الحقِّ.

ومن الآيات المحكمات التي تكشف عن هذه السُّنة قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

فهذه الآية الكريمة تستنكر على المخاطبين بها أن يكونوا طامعين في الاستثناء من سُنَنِ الله على مرِّ التاريخ، وأن بإمكانهم تحقيق النصر دون أن يُصيبَهم ما أصاب السابقين قبلهم، إذ يُخبر سبحانه وتعالى أنه لا بدَّ أن يُمتحَن عبادُه بالسَّرّاء والضَّرّاء والمشقّة كما فُعل بمَن قبلَهم، فهي سُنّةٌ جارية لا تتغيَّر ولا تتبدَّل، وإنَّ مَن يحمل لواء دينه وشرعه لا بدَّ له أن يُبتلى، فليس الإيمان بالتحلِّي والتمنِّي ومجرَّد الدعاوى، بل لا بدَّ أن تُصدِّقه الأفعال أو تُكذِّبه، إنها سُنّةٌ مضت في الأوَّلين، جارية في الآخرين(٢).

٣ ـ سنة الله في الأخذ بالأسباب:

تعامَلَ نوحٌ عليه السَّلامُ بسُنّةِ الأخذ بالأسباب؛ لنشر دعوته والتمكين لدينه، ويظهر ذلك في أمور عديدة:

---

(١) عقيل، نوح عليه السَّلامُ من وحي القرآن، ص ١٣٣.
(٢) محمد أمحزون، السنن الاجتماعية في القرآن الكريم، ١/١٩٦.

أ ـ في أسلوب الدعوة :

مرة بالليل ومرة بالنهار، وأخرى بالسرِّ وأُخرى بالعَلَن، واعتماد خطاب العقل والمنطق والوجدان، فاستطاع أن يُقنع بعضَ الأشخاص بسُمُوِّ دعوته، وقُدسيَّتِها وصدقها وتحقيق ما ينفعهم في الدارين .

ب ـ اهتمامه بمن آمن معه :

﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾، فقد عمل نوح ـ عليه السَّلامُ ـ على تكوين لحمة واحدة منهم، لتكون قوّة متماسكة ينصهر بعضُها في بعض، فتشكِّل النواة القلبية وتحمل معها تكاليف الرسالة، ويحرص كلٌّ منهم على الآخر، وقام نوح ـ عليه السَّلامُ ـ بنُصحهم وإرشادهم وتهذيبهم وتربيتهم، فكانوا نِعْمَ العَونِ له في مناصرة دعوته، وكان هذا القليل الذي نجح نوح ـ عليه السَّلامُ ـ في إقناعه بالدعوة والذي آمن بها يُنفِّذ أوامر الله بدون تردُّد، فقد شكَّل نوح عليه السَّلامُ قاعدة صلبة من هؤلاء المؤمنين الذين عاشوا معه المِحْنة والمِنْحة، والبلاء والعطاء، وحقَّقوا أصولاً جامعة لقضية السُّنَنيّة في القلة منها :

* أنهم السابقون إلى الإيمان بالله وتوحيده، والصابرون على ابتلاءاته .

* أنهم الثابتون في الأزمات والاختبار .

* أنهم يُختارون بعد ابتلاء واختبار .

* أنهم الناصرون للحقِّ ودعوة التوحيد .

* أنهم المستغفرون لله الشاكرون له قولاً وعملاً .

* أنهم على مستوى فقهي وعلمي وإنساني يُؤهِّلُهم للمُساهَمة في تأسيس الحضارة الإنسانية الثانية .

* أنهم على معرفة بالسنن والنواميس الجارية والخارقة في الحياة والأحياء، تعلَّمُوها من نوح عليه السَّلامُ .

* أنهم الراضون بعطاء الله وقضائه.

* أنهم عادلون في الشركة لا يبغون في الخلطة.

* أنهم خلاصة زمانهم وبقيَّةُ جيلهم.

* أنهم المنصورون المُؤيَّدون.

* أنهم أصحاب العزم.

* شدة صلتهم بالله، أمورهم تبدأ باسم الله، وهم كثيرو الحمد لله والدعاء له.

* أنهم أقدر النَّاس على الثبات والسمع والطاعة لنوح عليه السَّلامُ.

* لا يَحتَنِكُهُم الشَّيطان(١).

تلك بعض الأصول الجامعة التي وُصف بها أتباعُ نوح ـ عليه السَّلامُ ـ الذين أسهموا في تأسيس حضارة السلام والبركات مع نوح عليه السَّلامُ.

ج ـ صناعة الفلك:

ومن فقه نوح ـ عليه السَّلامُ ـ في سنة الأخذ بالأسباب، شروعه في صناعة السَّفينة بأمر ربِّه، وقد خضع مشروع الصناعة لخطة عمل وهندسة بناء وتحديد مواد وطريقة تنفيذ وأيدٍ عاملة مساعدة تستحمل سُخريّة قومه، الذين كانوا يُمثِّلون الكثرة والغلبة ما قبل الطُّوفان ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٨ـ٣٩].

إنَّ من سُنَن الله في كونه وشرعه تَحتَّم علينا الأخذ بالأسباب، كما فعل ذلك أقوى النَّاس إيماناً بالله وقضائه وقدره وهو رسول الله ﷺ، لقد قاوم الفقر

(١) رمضان خميس، سنة الله في القلة والكثرة في ضوء القرآن الكريم في ضوء القرآن، نقل بالتصرف، ص.ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

بالعمل، وقاوم الجهل بالعلم، وقاوم المرض بالعلاج، وقاوم الكفر والمعاصي بالجهاد، وكان يستعيذ بالله من الهمِّ والحزن والعجز والكسل، وتَعاطَى أسباب الأكل والشرب، وادَّخر لأهله قوتَ سنة، ولم ينتظر أن ينزل عليه الرزق من السَّماء، وقال للذي سأله: أَيَعقِلُ ناقَتَهُ أم يَترُكُها وَيَتَوَكَّلُ؟ قال: اعقِلْها وَتَوَكَّلْ[١]، وقال ﷺ: «وفِرَّ مِنَ المَجذُومِ فِرارَكَ مِنَ الأَسَدِ»[٢].

وما غزوات الرسول ـ ﷺ ـ المظفَّرة إلا مظهر من مظاهر إرادته العليا التي تجري حسب مشيئة الله وقدره، فقد أخذ الحذر وأعدَّ الجيوش وبعث الطلائع والعيون، وظاهَرَ بَينَ درعين، ولبس المِغْفَر على رأسه، وأقعد الرُّماةَ على جبل الرُّماة، وخندق حول المدينة، وأذِنَ في الهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة، وهاجر بنفسه، واتَّخذ أسباب الحيطة في هجرته، وأعدَّ الرواحل التي يمتطيها والدليل الذي يصحبه، وغيَّر الطريق واختبأ في الغار[٣]، وكان إذا سافر في جهاد أو عمرة حمل الزّاد وهو سَيِّدُ المُتوكِّلين[٤].

إنَّ قدر الله حقٌّ، وقدر الله نافذ، ولكنه ينفذ من خلال السُّنَن التي قام عليها نظام الكون من خلال الأسباب التي خلقها سبحانه وشَرعها، وليستقيم عليها أمر الوجود ونظام التكليف، فهذه السنن والأسباب جزء لا يتجزأ من قدر الله الشامل المحيط[٥].

إنَّ قصة نوح عليه السَّلامُ تُعلِّمنا الأخذَ بالأسباب، والعمل على استقصاء تلك الأسباب للوصول إلى المراد، خاصّة بالمواقف الصعبة التي تُواجِهُ الأفراد

---

(١) رواه ابن حبان بإسناد صحيح.
(٢) صحيح البخاري، ٥/ ٥٣٨٠.
(٣) سعاد ميسر، عقيدة التوحيد، ص ٢١٢، وانظر: علي محمد الصلابي، الإيمان بالقدر، دار ابن كثير، ط٤ ٢٠١٤م، ص ١٦٤.
(٤) الصلابي، الإيمان بالقدر، ص ١٦٤.
(٥) القرضاوي، الإيمان بالقدر، ص ١٦٥.

والشعوب والأمم، وقد جعل الله نجاة نوح ومن آمن معه بصناعة السَّفينة وبإتقان علم صناعة السفن وقوانينها في البحار، وكان لنوح عليه السَّلامُ والذين معه همة وعزيمة في استيعاب العلوم الرَّبانيَّة التي ساعدتهم على إنتاج هذا الصرح الحضاري الكبير.

د ـ بذور الحضارة الإنسانية الثانية:

حمل نوح ـ عليه السَّلامُ ـ في سفينة الحياة من أنواع الحيوان والطيور والنبات المعروفة في ذلك الزمان والمُيسَّرة كذلك لبني الإنسان ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾، فجاءت ﴿قُلْنَا﴾ بضمير العظمة، ولا ريبَ أن الحادث جَلَلٌ وضخم وعظيم، فناسب ضمير العظمة.

لقد أخذ نوح ـ عليه السَّلامُ ـ بتوجيه الله تعالى له وحمل من كل زوجين اثنين معه، وكان ذلك سبباً في انطلاق الحضارة الإنسانية الثانية وازدهارها.

ويظهر لنا تعامُل نوح ـ عليه السَّلامُ ـ بسُنّة الأخذ بالأسباب في أمور كثيرة من أهمها:

* أسلوبه في الدعوة إلى الله.

* اهتمامه بمن آمن معه.

* صناعة السَّفينة.

* حَمْله لبذور الحضارة الإنسانية في السَّفينة.

٤ ـ سنة الله في التدافع:

تعامل نوح ـ عليه السَّلامُ ـ مع سُنّة التَّدافُع، وقد ظهرت بينه وبين قومه جَلِيّةً واضحة، وكان من أسباب التدافع بينه وبين خصومه الذين كفروا أمور منها:

* كونُه بشراً مثلَهم وليس مَلَكاً، قال تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣].

ورد عليهم نوح عليه السَّلامُ أن البشرية لا تمنع من تلقِّي الوحي والاصطفاء من الله العليم الحكيم.

* اتِّهامهم إيَّاه بالضَّلالة والسَّفَه، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٦٠ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٠-٦١].

دافع نوح عليه السَّلامُ بنفي ما وُصف به من الضَّلال المُبين، بما قصَّه الله تعالى ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾، قال الآلوسي في تفسيره: ناداهم بإضافتهم إليه ﴿يَٰقَوْمِ﴾ استمالةً لهم(١). وذكر لهم أنه رسولٌ من رَبِّ العالمين، ووصف نفسه بأربع صفات(٢):

- **الأولى**: أنه صاحب رسالة ورسول مُرسَلٌ من رَبِّ العالمين.

- **الثانية**: أنه بلَّغ عن الله ما فيه هدايتهم ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ أيْ: أبلغكم ما أُرسلتُ به من الأوامر والنواهي في العبادات والمعاملات.

- **الثالثة**: «إني ناصح لكم» وعبَّر بالفعل المضارع ليدلَّ على عظيم صبره على قومه، فكلَّما جدَّدوا عناداً جدَّدَ لهم نُصحاً.

- **الرابعة**: أنه خُصَّ من بينهم بإحاطته بعلوم غَيبيّة لا يعلمونها، قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

* كِبْرُ الملأ واستعلاؤُهم: قال تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: ٢٧]، علَّل الملأُ من قوم نوح امتناعَهم عن اتِّباع نوح عليه السَّلامُ؛ بسبب متابعة ضعفائهم له الذين سمَّوهم بالأراذل أيْ: الذين لا عقل لهم ولا علم ولا شرف ولا مال، وسبب ذلك الكِبر الذي جعلهم يقلبون

---

(١) وفاء محمد سعيد، فقه السنن الإلهية، ص ١٨٥.

(٢) عادل صالح أبو العلا، الصراع بَينَ الحق والباطل كما جاء في سورة الأعراف، رسالة دكتوراة جامعة أم القرى، ١٤١٦هـ، فرع الكتاب والسنة.

الحقائق، ويأنفون من الحقِّ بِحُجَّة أن الأراذل اتَّبعوه، وفي الحقيقة أن أتباعَ الحقِّ هم الأشراف ولو كانوا فقراء، وأن الأراذل هم المعاندون المخالفون للحقِّ ولو كانُوا في أعين النَّاس من الأشراف.

* دعواهم أن ما جاء به نوح عليه السَّلامُ لم يسمعوا به في آبائهم الأوَّلين: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

* هذا القول إما أن يكون صدر عنهم أوَّل الدعوة في الذين مَضَوا قبلهم على عبادة الأصنام، أو أنهم كانوا يعلمون أن آباءهم الأوَّلين بَينَ آدم ونوح كانَ أكثرهُم مُوحِّدِين، لكنهم جحدوا ذلك تكذيباً وعناداً، فقد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه كانَ بَينَ آدم ونوح عشرة قرون كلُّهم على شريعة من الحقِّ، فاختلفوا فبعث الله النَّبيِّين مُبشِّرين ومُنذِرين(١).

* تكذيبهم نوحاً وأتباعه من المؤمنين: قال تعالى في ذكر صراعهم مع نوح ومَن اتَّبعه: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧]، فأساس صراعهم وصَدِّهم عن دعوة نبيِّهم نوح عليه السَّلامُ ظنُّهم، وهذا في تصوُّرهم يكفي لرفض متابعة نوح ومَن آمَن معه، ومع طول الفترة التي دعاهم فيها نوح عليه السَّلامُ بكل الوسائل لم يؤمن إلا قليل(٢).

وقد تعامل نوح عليه السَّلامُ مع سُنّة التَّدافُع بموضوعية واتِّزان، حقَّق من خلاله ما كانَ يرجو إليه من رضا ربِّه عزَّ وجلَّ، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، فالتَّدافُع والصِّراع في عالم الأفكار والعقائد والثقافات والسياسة والاقتصاد ... إلخ هو سبيل الحيوِيّة والنُّموّ، وعلامة

---

(١) وفاء محمد سعيد، فقه السنن الإلهية، ص ١٨٦.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٨٧.

الحياة والاستمرار، وهو أحد محركات الحياة(١).

وكانت العبرة في قصة نوح في سُنّة التّدافُع بَينَ الحقّ والباطل، والإيمان والكفر، والهدى والضَّلال في انتصار نوح عليه السَّلامُ والذين آمنوا معه لأنه:

* لن يقف شيء أمام قدرة الله العظيمة وإرادته النافذة، فهذا الطُّوفان دمَّرَ كلَّ مَن كفر بالله مِمَّن كذَّب نوحاً عليه السَّلامُ.

* أن الله تعالى يَجزي النّاسَ في الدُّنيا والآخرة بأعمالهم وإيمانهم وصلاحهم وتقواهم لا بأنسابهم، ولا علاقة للصَّلاح بالوراثة والأنساب، ولا محاباة لأحد في ميزان الحساب، فهذا ابن نوح وزوجته كانا من الهالكين.

* أهم ما ينتظره الناجون الأمن والاستقرار والسكينة.

* الإخبار عن قصة نوح وغيره من الأنبياء ما كان يعرفه النبي ﷺ ولا قومه، وهو إعجاز للقرآن وتصديق لرسالته وتثبيت له(٢).

* أن النَّاس إذا غلب عليهم الجهل استغلَّتهم الشَّياطين وزيَّنَت لهم عبادة غير الله، فعبدوا الأصنام والأوثان وقبور الصَّالِحين.

* الصبر على الدعوة والاستمرار فيها، وإنْ لم يُستجبْ لها ولم يقبلْها إلا القليل من المدعوِّين(٣).

٥ ـ سنة الله في النصر والتمكين:

* قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

---

(١) جمال نصار، السنن الإلهية ودورها في البناء الحضاري للأمة، ط١ ١٤٣٨هـ ٢٠١٧م، إسطنبول، دار الأصول العلمية، ص ٣٥ـ٣٦.

(٢) وهبة الزحيلي، القصة القرآنية هداية وبيان، دار الخير، دمشق، ط١ ١٩٩٢م، ص ٤٨.

(٣) أبو بكر الجزائري، قصص المُرسَلين في كلام رب العالمين، مكتبة الملك فهد، المدينة المنورة، ١٤٢٠هـ، ص ٨.

* وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

* وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ـ١٧٣].

إنَّ هذه الآيات وأمثالها تشير إلى نصر الله وإعزاز أهل الإيمان ممن يحرصون على الدعوة، ويتحمَّلُون المَشاقَّ في سبيلها، سواء كانَ الداعية رسولاً كريماً أو أحد المؤمنين، وهذا الإعزاز والانتصار والتمكين يكون في الحياة الدُّنيا قبل الآخرة[(١)]، كما أن النصر والتمكين للمؤمنين له وجوه عِدّة، وصُوَر متنوِّعة من أهمها:

أ ـ تبليغ الرسالة وأداء الأمانة، كالمُرسلين الذين جاؤوا أصحابَ القرية.

ب ـ المشاركة في الحكم، كالتمكين ليوسف عليه السَّلامُ في حُكم مصر بعد ما مكَّنَه الله في ذلك.

ج ـ وصول أهل التوحيد إلى سدّةِ الحُكم وتولِّيهم لمقاليد الدولة، كالتمكين لداود وسليمان والنبي ﷺ بعد فتح مكة.

ج ـ نصر الله لأوليائه والتمكين لهم بهلاك الكفار ونجاة المؤمنين، كقصة نوح وهلاك قومه.

إنَّ التمكين الفعلي والانتصار العظيم والإعزاز الكريم عندما تمكَّن منهج ربِّ العالمين من نفوس أهل الإيمان وإن كانوا قِلَّةً، فالعبرة ليست بكثرة المؤمنين والمُستجيبين للحَقِّ، وإنما في صفاء المنهج الرَّبانيّ الذي يعتقده أولئك الأفراد سواء كانوا قِلّةً أم كثرة، فقد مكَّن الله لنوح عليه السَّلامُ ومَن آمن به على وجه الأرض لأنهم حقَّقوا شروط التمكين، وعرف نوح عليه السَّلامُ كيف يتعامل

---

(١) علي محمد الصلابي، فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، دار المعرفة، بيروت، ط٥ ٢٠٠٩م، ص ٢٣.

معها، وحقَّق شروط الاستخلاف في الأرض، والتمكين لدين الله عزَّ وجلَّ من:

* الإيمان بالله بكل معانيه وبكافة أركانه.

* وممارسة العمل الصَّالِح بكل أنواعه.

* والحرص على كل أنواع الخير وصنوف البرِّ.

* وتحقيق العبودية الشاملة.

* ومحاربة الشِّرْك بكل أنواعه وأشكاله وخفاياه، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

ولقد تحقَّق على يَديْ نوح عليه السَّلامُ سُنَّةُ الاستخلاف للمؤمنين الصَّالِحين العاملين وتوارثتها أمة بعد أمة، وجيلٌ بعد جيل، وسُنَّةُ الاستخلاف تقوم على أسس الإيمان بالله وتوحيده والعمل الصَّالِح وتحقيق العبودية ومحاربة الشِّرك، وقد تحقَّق في الأرض مع بزوغ الحضارة الإنسانية الثانية ماشاء الله عزَّ وجلَّ من عدل وحقٍّ وإزهاقِ باطل، وسارت البشرية خطوات رشيدة نحو الكمال والسعادة والهناء والحرية، والمساواة في الحقوق والواجبات وتحقيق القِيَم الرفيعة التي دعا إليها نوح عليه السَّلامُ ومَن تتلمذ على يديه، وقد كانَ هذا التمكين بامتثال نوح عليه السَّلامُ لأوامر الله وطاعته والوقوف عند حدوده ومراعاة سُنَنه الحاكمة في حركة المجتمعات والشعوب والأمم وحسن التعامل معها، كالصبر والتَّقوى والأخذ بالأسباب والتدرُّج وغيرها.

وقد تمكَّن الدّين في قلب نوح عليه السَّلامُ وجوارحه ولسانه، وبعد نجاته ومَن معه من الطُّوفان العظيم أصبحت شريعة الله حاكمة في شؤون الحياة وأمور النَّاس وإعمار الأرض والانتفاع بكل ما أودعه الله عزَّ وجلَّ فيها من ثروة، مع

التوجُّه بكل نشاط فيها إلى الله عزَّ وجلَّ، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

وكان هذا التمكين مصحوباً بالذكر الحسن لنوح ـ عليه السَّلامُ ـ والنصر على الأعداء والانتقام منهم، والحفظ والنجاة له ولأتباعه، وعطاءً ربانيّاً كبيراً مُؤيَّداً بسلام من الله وبركات عليه وعلى مَن معه بعد كشف همٍّ وإزالة غمٍّ.

ثالثاً: عوامل نشوء الحضارة الإنسانية الثانية:

يعتمد مفهوم الحضارة الإنسانية الثانية على تحليل عميق للقصص القرآني، واستنباط فهم حقيقي لمفهوم الحضارة، ويَعتمد على الازدهار الإنساني بخصائصه الفكرية والروحية والوجدانية والسلوكية؛ تحقيقاً لعبودية الله في الأرض وعمارتها وفق مراد الله عزَّ وجلَّ على مستوى الأفراد والشعوب والأمة.

وأفضل مَن رسم فقه الحضارة الرَّبانيَّة لمسيرة الإنسانية على مرِّ تاريخها الطويل، هم الأنبياء والمُرسَلُون، فهم قادة حضارات إنسانية عظيمة أصَّلت لمفهوم التوحيد والعبادة والقيم والعمارة والاستخلاف والارتقاء السياسي والاجتماعي والاقتصادي والروحي والنفسي والعمراني والمادي المنبعثة؛ قيم مُستمَدّة من الوحي الرَّبانيّ وجمعت بَينَ جانبَي:

* مظاهر الرُّقيِّ المادي الذي يشمل جوانب الحياة من صناعة وتجارة وزراعة وفنون.

* مظاهر الرقيِّ المعنوي الذي يتَّصل بالقيم الروحية والقواعد الأخلاقية والإنتاج الفكري والإبداع الأدبي الرفيع.

ولا تكون الحضارة ذات طابع إنساني لدى الحضاريِّين حتى تتَّصف بالرقيِّ المادي والمعنوي على حد سواء؛ لأن الحضارة تُقاس بالتقدُّم العلمي والصناعي والعمرانيِّ عندما تُعبِّر عن مقاصد إنسانية صالحة، وتُجسِّد لمبادئ خلقية

فاضلة، وقمة هذا الفهم الحضاري الإنساني الرفيع نجده في قيادة الأنبياء والمُرسَلين للأمم والشعوب:

* الحضارة الإنسانية الثانية التي قادها نوح عليه السَّلامُ.

* أو التي حدثت في عهد داود وسليمان عليهما السلام.

وقد تحدَّثَ الدكتور عبد الله محمد الأمين عن المفاهيم الحضارية والرؤية الغربية لعوامل قيام الحضارات وسقوطها، والرؤية الإسلامية لتلك العوامل والعلاقة بَينَ الحضارات في رؤى العالم في كتابه "الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية دراسة ومقارنة" وخرج بالنتائج الآتية:

* إنَّ من الخطأ البيِّن محاولة تفسير الحضارة بأنها المدنيّة أو الرقيُّ والتقدُّم، ومن ثم يتمُّ تغييب السبق العقدي الذي يُحدِّد طبيعة العلاقة مع الله والغيب والكون والإنسان، ولعلَّ مصدر الخلاف الأساس في مفهوم الحضارة بَينَ النموذج العلماني والإسلام أن النموذج العلماني يرى التقدم مادياً خالصاً، بينما يرى الإسلام أن التقدم معنويٌّ وماديٌّ، وأنه إنساني أصلاً وتوحيديٌّ أساساً، فكلُّ تقدُّم في مفهوم الإسلام يحثُّ على التحرُّر من عبودية غير الله. وهذه النقطة تقود إلى نقطتين هما:

أ ـ أن هناك حضارات قامت على أساس استبعاد الله والبعد الغيبي، وتعامَلَت مع عالم الشهادة، واقتصر علمها وقوانينها وتمثُّلاتها للوجود على المفاهيم الوضعية القائمة على الصراع ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

هذه الحضارة مآلها أن تحمل بذور فنائها من داخلها بحكم تناقضها مع النظام الكوني القائم على الحقّ، فتكون الأزمات الداخِليَّة الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية، وتكون الحروب وكافة أشكال إهلاك الحرث والنسل: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [الروم: ٧ـ١١].

ب ـ وهناك حضارات دينية قامت في أصل نشأتها على أساس دينيٍّ، وظلَّت في تطوُّرها التاريخي في ضعفها وقوتها مرتبطة ارتباطاً جدلياً بمدى التزامها وابتعادها عن التوجيه الديني وحضوره أو غيابه داخل المؤسسات الاجتماعية، فكل حضارة لها منطلقها الخاصُ، ومعنى هذا: أنَّ الحضارات الدينية تجعل من الوحي الإلهيِّ مصدراً أساسيّاً للمعرفة وتتعامل مع عالَمَيْ الغيب والشهادة.

* إنَّ الحضارة المعاصرة، التي تُمثِّل المركز، حضارة مادية تتعامل مع المحسوس، ومن ثم فلا ينبغي أن تكون أنموذجاً تحتذي به بقيّةُ الحضارات؛ ذلك لأنها لا تُلائمنا، فقد أُنشئت دون معرفة بطبيعتنا الحقيقية، إذ إنها تولَّدت من خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات النَّاس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم، ومع أنها أُنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا.

* على الرغم من أن الحضارة المعاصرة تعيش مأزق تعاملها مع المحسوس واقتصارها على عالم الشهادة وعجزها عن الإجابة عن الأسئلة الكلية، إلا أن هناك من نظر إلى بقية الإشعاعات اللاهوتية الكامنة فيها، فقرَّر أن الحضارة الغربية باقية أزلية؛ وذلك لأن كل مادة وكل وقود يتحوَّل إلى إشعاع، أما بقية الحضارات فهي إما مُهدَّدة بالزوال والانقراض، أو الذوبان في الحضارة الغربية.

* تطوَّرت نظريَّة تمجيد الحضارة الغربية لتنتهي على يد (فرانسيس فوكوياما)

إلى إعلان نهاية التاريخ بالانتصار الساحق للنمط الحضاري الغربي، وبانتصار المعسكر الغربي وسقوط الاتحاد السوفييتي وانتهاء الحرب الباردة تنتهي التناقضات الأساسية في العالم بانتصار الليبرالية الاقتصادية والسياسية والديمقراطية الليبرالية، ومن ثم تعلن الحضارة الغربية هيمنتها على بقية الحضارات، كما أعلن (صمويل هنتفتون) أنه بنهاية الحرب الباردة يبرز صراع من نوع جديد بَينَ الحضارات هو صدام الحضارات.

* إذا كانت الحضارة تعني الشهادة أو حضور النموذج الذي تكون فيه صبغة الله هي الموجهة لعمل الإنسان/ وتكون فيه غاية الحياة مرتبطة بالآخرة وعمارة الأرض التي هي دائرة التكليف، فإن الحضارة بهذا المعنى هي الإسلام أو حضارة الإسلام، وهي الموعودة بالانتصار في مرحلة الظُّهور الكلِّي للدين.

* إنَّ جوهر حضارة الإسلام الذي قامت عليه مؤسساتها، وحدَّد امتدادها التاريخي وشكل تفاعلها الخارجي، وحدَّد أهدافها، هو التوحيد، وفي ضوء هذا التصوُّر فقط يُمكن أن نتحدَّثَ عن واقع الأمة الإسلامية وعن ماضيها ومستقبلها، وإن توحيد الله عزَّ وجلَّ هو الذي يُعطي الحضارة الإسلامية هَوِيّتها، وهو الذي يربط بَينَ أجزائها، وهو الذي يطبع كلَّ ما يدخل إليها من عناصر فيؤسلمها ويُطهِّرها، فتَعبُرُ في التوحيد متجانسة مع كل ما حولها(١).

* ليس التحضر وضعاً مجبولاً في فطرة الإنسان، وإنما هو وضع كسبي يستحدثه الإنسان بإرادته الحُرّة وفق عوامل ذاتية وموضوعية، تفضي إليه، وعلى رأسها عامل الفكرة مُتمَثّلة في ذلك التصوُّر الذي يحمله الإنسان عن حقيقة الوجود، وغاية الحياة بالغة في الفعل الحضاري ذروته حينما تكون فكرة دينية الصِّبغة، فالتحضر بما هو جهاد جماعي لإنجاز الترقِّي الماديِّ والمعنويِّ ليس في حقيقته إلا جهاداً مدفوعاً بالتصوُّر لحقيقة الوجود ومُوجَّهاً بالغاية من الحياة،

---

(١) عبد الله محمد الأمين، الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية، ص ١٤٦.

فهو في مبدئه واطِّراده محكوم بتلك الغاية، وقائم من أجل تحقيقها، ومن ثم فإن قوماً لا يملكون تصوُّراً بيِّناً لغاية الحياة لا تنمو حياتهم إلى وضع من التحضُّر، بل يبقون على حال من البداوة أو ما هو شبيه بحال البداوة.

إن ما نودُّ أن نختم به هذا البحث هو أنه من الصعب تصوُّر ثقافة مجرَّدة ومحايدة، أي لا ترتبط بخلفيات تاريخية أو مذهب عقديٍّ، أو إيديولوجيا لها فلسفتها في الوجود تقيم عليها تصوُّراتها، وباعتبار أن الثقافة أو الفكرة هي التي ترفد الحضارة بالأفكار فكذلك من الصعب تَصوُّر حضارة بدون فلسفة ما تُقيم عليها تصوُّراتها عن الوجود.

فالحضارة الغربية المعاصرة تنطلق إما من مثالية تجعل من الإنسان مركزاً للكون أو إلهاً، أو من واقعيّة تُؤلِّه المادة وتجعل من اللَّذّة والمنفعة هدفاً وغاية، ولعلَّ مكمن القصور في هذه الحضارة أنها تستمدُّ أُنموذَجَها المعرفيَّ من فكر بشري قاصر، لا يجعل الوحي مصدراً معرفياً لها.

وعلى العكس من ذلك، فإن من أبرز خصائص الحضارة الإسلامية أنها تسترفد الوحي من سيرورتها، فهي حضارة تقوم على منهج الحقِّ، وتأسيساً على ما سبق فإن رؤية العالم حاضرة في دراسة الحضارات(١).

لقد استطاع نوح ـ عليه السَّلامُ ـ أن يُنشِئَ حضارة إنسانية جديدة تُلبِّي حاجات الحياة والمجتمع الوليد من نواحي فكرية ونفسية وروحية وجسدية ومادية واجتماعية في جميع المجالات العلمية والعملية لذلك الجيل الذي هبط بسلام الله وبركاته على الجودي.

فقد قامت الحضارة الإنسانية الثانية على خصائص مهمة، من أهمها:

* قامت على أساس الوحدانية المطلقة في العقيدة، فهي تنادي بالإله الواحد الذي لا شريك له في حكمه وملكه، وهو وحده الذي يُعبَد، وهو وحده الذي

---

(١) الأمين، الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية، ص ١٤٧.

يُقصَد، وهو الذي يُعِزُّ ويُذِلُّ ويُعطي ويَمنع، وما من شيء في السَّماوات والأرض إلا وهو تحت قدرته وفي متناول قبضته.

هذا السُّموُّ في فهم الوحدانية كان له أثر كبير في رفع مستوى الإنسانية وتحرير الجماهير من طغيان الملأ والأقوياء، وتصحيح العلاقة بَينَ القيادة والأتباع، وتوجيه الأنظار إلى الله وحده وهو خالق الخلق ورب العالمين، وكان لعقيدة التوحيد أثر كبير في الحضارة الإنسانية الثانية، فجرَّدَتها من كل مظاهر الوثنيَّة وآدابها وفلسفتها في العقيدة والحكم والفن والشعر والأدب.

* ثاني خصائص الحضارة الإنسانية الثانية أنها: إنسانية النَّزعة والهدف، وتُلبِّي احتياجات بني الإنسان الروحية والعقلية والمادية، فالنوع الإنساني عند نوح عليه السَّلامُ وكذلك الأنبياء والمُرسَلين واحد، وهذا ما نصَّ عليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد سارت الدعوة الإسلامية المحمدية على نفس النَّهج الحضاري الذي أسَّسه نوح عليه السَّلامُ في هدفه الإنساني، ونزعته البشرية، فالقرآن الكريم حين أعلن هذه الوحدة الإنسانية العالمية على صعيد الحقِّ والخير والكرامة، جعل حضارته عقداً تنتظم فيه جميع العبقريات للشعوب والأمم، خفقت فوقها راية الفتوحات الإسلامية، ولذلك كانت كل حضارة تستطيع أن تفاخر بالعباقرة من أبناء جنس واحد وأمة واحدة، إلا الحضارة الإسلامية فإنها تُفاخر بالعباقرة الذين أقاموا صرحَها من جميع الأمم والشعوب، فأبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والخليل وسيبويه والكندي والغزالي والفارابي وابن رشد وأمثالهم، ممن اختلفت أصولُهم وتباينت أوطانهم، ليسوا إلا عباقرة قدَّمَت منهم الحضارة الإسلامية إلى الإنسانية أروعَ نتاج للفكر الإسلامي السليم.

* ثالث خصائص الحضارة الإنسانية الثانية التي أسَّسها نوح عليه السَّلامُ أنها: جعلت للمبادى الأخلاقية مكانةً رفيعة في كلِّ نُظُمها، ومختلف ميادين

نشاطاتها العلمية والتشريعية والاقتصادية والأسرية، ورُوعيت المبادى الأخلاقية تشريعاً وتطبيقاً، قال تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، فكانت المبادى الأخلاقية ـ التي هي من ثمار التوحيد ـ متجسِّدة في شخص نوح عليه السَّلامُ، وفاضت على من حوله تعلُّماً وتربية وسلوكاً.

* رابع هذه الخصائص أنها: تُؤمن بالعلم في أصدق أصولها ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وترتكز على العقيدة في أصفى مبادئها، فقد خاطبت العقل والقلب معاً، وأثارت العاطفةَ والفكر في وقت واحد، وهي ميزة تميَّزَت بها الحضارات التي قادها الأنبياء والمُرسَلون، فقد كانَ الوحي السماوي من أكبر عوامل الرُّقيِّ فيها(١).

* خامس هذه الخصائص أنها: قامت على حرية المُعتقَد، وعلى البيِّنة والدليل والبرهان، وحرية الاختيار العقلي والفطري والمنطقي والوجداني، قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨]، فالدين والعقيدة قاما على الفكر المستنير بالإقناع والنظر والتدبُّر لا بالقهر والسلطان والإخضاع. وأما عوامل نشوء الحضارة الإنسانية الثانية، فهي:

١ ـ العامل العقدي:

لقد كانَ أوَّل شيء بدأ به نبيُّ الله نوح عليه السَّلامُ قومَه، أن دعاهم إلى عبادة الله وحده، والدعوة إلى التوحيد هي أساس كل رسالة وقيام كل حضارة ربانية.

وبملاحظة الآيات التي أشارت إلى دعوة نوح عليه السَّلامُ نلحظ فيها تكرار الفكرة الكلية للأهمية، حيث بدأ الحديث فيها عن دعوته قومه لعبادة الله وحده

---

(١) وفاء محمد سعيد، فقه السنن الإلهية، ص ٣٠٤.

لإشفاقه عليهم من عذاب الله، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩].

من ثم نلحظ أن القرآن لا يُكرِّر المعاني الفرعية، وإنما يُكرِّر الحقيقة أو ما يُسمَّى في الأدب: الفكرة الكُلِّية، أو الموضوع، وعندئذ نقول: إن الأحداث التي يُكرِّرها القرآن هي ذات الحقيقة الكُلِّية الهامَّة، كأحداث العقيدة، فالعقيدة هي أساس الدِّين كُلِّه، وكل ما في الدين جملةً وتفصيلاً إنما يرتبط بالعقيدة، إما مباشرة وإما بصورة غير مباشرة، ولذلك فحقيقة العقيدة بحاجة إلى تكرار متواصل لأهميتها الخاصّة، ولذلك نجد هذا المعنى يتكرَّر في محاورات نوح مع قومه لتأكيد العقيدة وتثبيتها في نفوسهم، فلا حضارة بدون عقيدة راسخة في قلوب مُتَّبعيها[(١)].

٢ ـ العامل الصناعي والاقتصادي:

يظهر هذا العامل في صناعة السَّفينة، فقد أمر الله عزَّ وجلَّ نوحاً عليه السَّلامُ بصناعة السَّفينة، وقد امتثل للأمر وصنع السَّفينة بيديه، إذ كانت سفينة نوح مؤلَّفةً من أخشاب وحبال ومسامير ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر: ١٣]، وهذا يعني أن نوحاً عليه السَّلامُ قد استحضر مَوادَّها الأوليّةَ وألَّفَ بينها ـ وفق العلم الإلهي المُوحَى به إليه في صناعة السفن ـ حتى صارت سفينة صالحة للإبحار، ولسنا بصدد الدخول في الروايات الإسرائيلية عن حجم السَّفينة، بل إن الذي يعنينا أن هذه السَّفينة من الضخامة بمكان، بحيث صمدت أمام الأمواج المتلاطمة كما صورها القرآن ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢]، وكانت مهمة السَّفينة أن يركب فيها الناجون؛ ليسلموا من الطُّوفان، وفي ذلك إشارة إلى أن النجاة يصنعها الإنسان بيده، ثم يتوكَّل على الله، وأن الأمة مطلوب

---

(١) الأساليب التربوية في دعوة الرُّسُل من خلال سورة الأعراف، ص ١٣١.

منها أن تصنع سفينة نجاتها بيدها وأيدي أبنائها، لا أن تعتمد في نجاتها على سفن غيرها، ولا أن تقف مكتوفة اليدين أمام طُوفان الباطل والظلم؛ لتغرقَ فيه أو تنتظر ممَّن يريد إغراقها أن يُنجيها، وأن الأمة التي لا تصنع ركب نجاتها بيدها، هي عرضة للهلاك والغرق والطُّوفان[1].

كما أن إتقان صناعة السفن يُشير إلى قدرة نوح عليه السَّلامُ ومن معه في مجالات عديدة من السرائر والكراسي والأبواب والشبابيك والسلالم، وبناء البيوت للسكن وفق ما يناسبهم من مقاييس واحتياجات من صناعة الخشب والحديد وغيرها من المعادن، ولقد ثبت مزاولة الأنبياء حِرفاً وألواناً من النشاطات الاقتصادية والصناعية زيادة على مُهِمَّتِهم الأولى، وهي تربية الأمم ورعايتها وتعبيدها لربِّها، هذه المُهِمّة التي تُخرِّج الإنسان الذي يَبني الحياة في مختلف جوانبها الحضارية، وقد كانَ نوح عليه السَّلامُ رائداً في استخدام الخشب والحديد في صناعة السفن، وفعل ذلك بأمرِ ربِّه[2]. وكانت السَّفينة تحمل:

* بذور الثروة الحيوانية.
* بذور الثروة النباتية.
* الطيور بأشكالها وأنواعها.
* مقومات الحياة الاقتصادية والصناعية الجديدة.

وكان نوح عليه السَّلامُ ومن معه مُتَّجهين نحو العمل بِجدِّية ومُثَابَرة، وكانت حركتهم الصناعية والاقتصادية قوية ومزدهرة، فحقَّقوا ازدهاراً حضارياً مُتميّزاً، فقد أزاح عنهم المُعوِّقات والعراقيل، وسَهَّلَ لهم الأمور ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [هود: ٤٨].

---

(١) وفاء محمد سعيد، فقه السنن الإلهية، ص ٣٠٦.
(٢) هيثور، سُنَن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص ٦٦.

ومعنى ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ أي على أمم ستكون على الإيمان من بعدك، و﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أيْ: هي أمم الكفر التي يُمتِّعها الله متاعاً قليلاً في الحياة الدُّنيا، وهي سُنّة من سُنَنه تعالى، ثم يكونون من الأشقياء، وبهذا يكون الوعد في الآية بالسلام والبركات لكل مؤمن في أيِّ زمان ومكان[1].

وكانت البركات التي صاحبت نوحاً عليه السَّلامُ في حياته الصناعية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية، وفي المشاعر والعواطف والأرزاق وطَيِّبات الحياة كلِّها، وليست البركة وفرة الماديات فقط[2].

وكانت الحياة الاقتصادية بعيدة عن الغشِّ والتطفيف وبخس النَّاس أشياءهم، وبعيدة عن الطمع والجشع، وكانت شريعة نوح عليه السَّلامُ حاكمة في الحياة الاقتصادية، فكانت العلاقات الاقتصادية سليمة وفق شرع الله عزَّ وجلَّ:

* إعطاء كل ذي حقٍّ حقَّه.
* الوفاء بالكيل والميزان.
* تحرِّي الحلال والحرام.
* والجميع يتقي الله في أقواله وأفعاله ونواياه.

٣ ـ عامل البيئة:

هيَّأ الله أمورَ البيئة الجديدة لنوح عليه السَّلامُ، ونستنتج ذلك من قول الله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]، فالبيئة: كلُّ ما يحيط

---

(١) هيثور، سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص ١٨٣.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٨٤.

بالإنسان من ظواهر يرتبط معها بعلاقات متبادلة(١).

والبيئة في المدلول القرآني هي: الأرض بما عليها من مُكوِّنات وما في جَوِّها من مُسخَّرات(٢)، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣]، فمن مكوِّنات البيئة التي ساعدت على نشوء الحضارة الإنسانية الثانية: السَّماء والأرض، والماء والهواء والنبات والحيوانات وغيرها، وكانت وما زالت مُسخَّرة للإنسان.

فالمُكوِّنات في حالتها الطبيعية التي خلقها الله عليها طاهرة نقيّة، مباركة مُستعدّة لتلبية نداء العمارة، فكانت البيئة التي عاش فيها نوح عليه السَّلامُ وأتباعه بعد الطُّوفان تساعد على التأمُّل والتدبُّر، وهي ناطقة بوحدانية الله وصفات كماله وهي مُسخَّرة بكل مظاهرها من قبل الله لخدمة الإنسان وتدبير أسباب عيشه وتحقيق رفاهيّته وأمنِه، فالمخلوقات في هذه البيئة مُسخَّرة ومُذلَّلة للإنسان، فسبحان القائل: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولٗا فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠].

ولقد وقف نوح عليه السَّلامُ ومَن معه للتأمُّل، والبحث واستخدم فكره وقدراته للاستفادة من مكونات البيئة، وقطف ثمار إخضاعها، فقام نوح عليه السَّلامُ بأداء مُهمَّته في عمارة الأرض والخلافة فيها بعد أن منحه الله الهداية السماوية، وعمارتها تكون بالزرع والغرس والأبنية، كما تكون بجميع وجوه التعاملُ المتَّزن الإيجابيِّ مع مكوناتها استغلالاً وإبداعاً.

وقد دعا نوح عليه السَّلامُ في دعوته للتأمُّل والتَّفكُّر في مكونات البيئة التي

---

(١) صفاء موزة، حماية البيئة الطبيعية، دار النوادر، لبنان، سوريا، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م، ص ٢٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٠.

يعيش فيها ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ [نوح: ١٥ ـ ٢٠].

فقد كانت علاقة نوح عليه السَّلامُ بالبيئة من منطلق الحبِّ والتقدير؛ لأنه يعلم أنه في عمارته للأرض والاستفادة من مكونات البيئة التي سخرها الله للإنسان أنّه في عبادة، كما أنه هو والذين معه مع مكونات البيئة يشتركون في تسبيح الله وتمجيده، وأداء المُهِمَّة المُوكَلة إليه، وهي قائمة على سُنَنٍ وقوانينَ أوضحها الله لأنبيائه ورسله، وبيَّنَها في كتابه الخاتم القرآن الكريم.

ويُعدُّ نوح عليه السَّلامُ من أصدقاء البيئة، حيث أسهم في تطهيرها من رجس الكفر والظلم، بدعواته المباركة، وحافظ على مخلوقاتها وحمل معه من كل زوجين اثنين، فحافظ على الحيوانات والطيور والنبات من غَمرة الطُّوفان العظيم.

٤ ـ العامل الاجتماعي:

كان المجتمع الجديد قائماً على أخلاق ربانية رفيعة، فنوح عليه السَّلامُ، كانَ بارّاً بوالديه ومُحِبّاً لأتباعه وداعياً لهم بالمغفرة، قال تعالى: ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [نوح: ٢٨].

هو يرى النبوة بالوالدين المؤمنين ﴿ وَلِوَٰلِدَىَّ ﴾ وهذه التعاليم في برِّ الوالدين كانت مُهيمِنةً ويتقرَّبون بهذا البِرِّ لله، ودعاؤه ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ يدلُّ على رحمة بينهم، ورابطة العقيدة هي التي تُوجِّه سلوك هذا المجتمع.

وكان المجتمع الجديد عميقَ الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، مُطبِّقاً لتعاليم الوحي بجِدِّية والتزام، وبأقلِّ قدرٍ من المعاصي، فالدِّين بالنسبة له هو الحياة وليس شيئاً هامشياً يفيء إليه بَينَ الحين والحين، وإنما هو حياة النَّاس وروحهم، ليس فقط فيما يُؤدُّونه من شعائر تعبُّدية يحرصون على أدائها بالوجه الصحيح،

وإنما من أخلاقهم وتصوراتهم واهتماماتهم وقيمهم وروابطهم الاجتماعية، وعلاقات الأسرة، وعلاقات الجوار والبيع والشراء والضَّرب في مناكب الأرض والسعي وراء الأرزاق وأمانة التَّعامُل، وكفالة القادرين لغير القادرين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يعني هذا بطبيعة الحال أن كل أفراد المجتمع هم على هذا الوصف، فهذا لا يتحقَّق في الحياة الدُّنيا ولا في أي مجتمع من البشر[١].

إنَّه المجتمع الذي تحقَّق فيه أعلى مستويات المعنى الحقيقي للأمة، فليست الأمة مجموعة من البشر جمعتهم وحدة اللغة، ووحدة الأرض ووحدة المصالح، فتلك هي الروابط التي تربط البشر في الجاهلية، فإن تكوَّنَت منهم أمة فهي أُمّة جاهليّة، وأما الأمة بمعناها الربّانيِّ فهي الأمة التي يرتبطُ أفرادُها برابطة العقيدة بصرف النظر عن اللغة والجنس واللون ومصالح الأرض القريبة، فكان المجتمع مرتبطاً برابطة العقيدة على أساس الأُخُوّة الكاملة في الدين، وهذا العاملُ ساعدَ في نشأة الحضارة الإنسانية الثانية على أُسس متينة وسليمة[٢].

٥ ـ العامل الأخلاقي:

إنَّ الأخلاق الرفيعة جزء مُهِمٌّ من العقيدة، فالعقيدة الصحيحة لا تكون بغير خلق، وقد رَبَّى نوح عليه السَّلامُ أتباعَه على مكارم الأخلاق بأساليب متنوعة، وقد كانَ عليه السَّلامُ مدرسة إنسانية كبرى، كمرجعية أخلاقية رفيعة المستوى وتمثَّلت شخصيتُه بحمله الخصال الحميدة والصفات العلية التي فاضت على مَن حوله تربيةً وتعليماً وتزكيةً، فقد اشتهر بالعبودية الخالصة لله والشكر الجزيل وكثرة السجود والبكاء من خشية الله، ودوام الدعاء واستمراره والتَّوكُّل على الله

---

(١) محمد قطب، كيف نكتب التاريخ؟، ص ١٠٠ بتصرف. (ومقارنة مع مجتمع الصحابة رضي الله عنهم ومحاولة للفهم).

(٢) محمد قطب، كيف نكتب التاريخ؟، ص ١٠٢؛ أبو بكر الصديق للصّلابيّ، ص ٢٦٧.

والتجرد له وتفويض الأمر لله، وكثرة الذكر والتوبة والاستغفار والإحسان والإخلاص والصلاح والعلم والأمانة والعِفّة والثَّبات والشَّجاعة والصَّبر وبرِّ الوالدين، وقد أسهمت تلك الأخلاق في التأثير فيمَن آمن معه.

وليست الأخلاق شيئاً ثانويّاً في مجتمع نوح عليه السَّلامُ، وليست محصورة في نطاق مُعيَّن من نطق السلوك البشري إنما هي ركيزة من ركائزه، كما أنها شاملة للسلوك البشري كلِّه، كما أن المظاهر السلوكية كلَّها ذات الصبغة الخلقية الواضحة هي الترجمة العملية للاعتقاد والإيمان الصحيح؛ لأن الإيمان ليس مشاعرَ مكنونةً في داخل الضمير فحسب، إنما عمل سلوكي ظاهر كذلك، بحيث يحقُّ لنا حين لا نرى ذلك السلوك العملي، أو حين نرى عكسه، أن نتساءل: أين الإيمان إذاً؟ وما قيمته إذا لم يتحوَّلْ إلى سلوك؟[١]

لقد تربَّى أتباعُ نوح ـ عليه السَّلامُ ـ على أن العبادة نوع من الأخلاق؛ لأنها من باب الوفاء لله والشكر للنعمة، والاعتراف بالجميل، والتوقير لمن هو أهل التوقير والتعظيم، وكلُّها من مكارم الأخلاق، فكانت أخلاق ذلك المجتمع الجديد ربانية باعثها الإيمان بالله، وحاديها الرَّجاء في الآخرة، وغرضها رضوان الله ومَثُوبتُه.

إنَّ الأخلاق عند الأنبياء والمُرسَلين ـ ومنهم نوح عليه السَّلامُ ـ شيء شامل، يعمُّ كلَّ تصرُّفات الإنسان وكلَّ أحاسيسه ومشاعره وتفكيره، فالصلاة لها أخلاق هي: الخشوع، والكلام له أخلاق هي: الإعراض عن اللَّغو، والجنس له أخلاق وهي: الالتزام بحدود الله وحرماته، والتَّعامُل مع الآخرين له أخلاق وهي: التوسُّط بَينَ التقتير والإسراف، والحياة الاجتماعية لها أخلاق وهي: أن يكون الأمر شورى بَينَ النَّاس، والغضب له أخلاق وهي: العفو والصفح، ووقوع العدوان على الأعداء تستتبعه أخلاق وهي: الانتصار، أي رَدُّ العدوان، وهكذا

(١) محمد قطب، دراسات قرآنية، ص ١٣٠ بتصرف

لا يوجد شيء في حياة المؤمن ليست له أخلاق تُكيِّفه وتوجِّهه.

إنَّ الله سبحانه وتعالى قد جعل التوحيد أيْ: إفراد الله بالعبادة على رأس هذا المنهج الخلقي الذي رسمته آيات سورة الإسراء (٢٣ ـ ٣٨) مدحاً وذماً؛ لأن التوحيد له في الحقيقة جانب أخلاقيٌّ أصيل، إذ الاستجابة إلى ذلك ترجع إلى خلق العدل والإنصاف والصدق مع النفس، كما أن الإعراض عن ذلك يرجع في الحقيقة إلى بؤرة سوء الأخلاق في المقام الأول مثل: الكبر عن قبول الحق، والاستكبار عن اتِّباع الرُّسُل غروراً وأنفَة أو الولوع بالمراء، والجدال بالباطل مغالبة وتطلعاً للظهور أو تقليداً أو جموداً على الإلف والعُرف، مع ضلاله وبُهتانه، وكلها ـ وأمثالها ـ أخلاق سوء تُهلك أصحابها وتصدُّهم عن الحق بعدما تبيَّن، وعن سعادة الدارين مع استيقان أنفسهم بأن طريق الرُّسُل هو السبيل إليها[1].

كانت نقطة البدء في حركة التربية الرَّبانيَّة، للحضارة الإنسانية الثانية، لقاءَ الأتباع بنوح عليه السَّلامُ، فحدَثَ لهم تحوُّل واهتداء، فخرجوا ببركة الوحي وعِناية الله تعالى من دائرة الظلام إلى دائرة النور، فرسخ الإيمان في قلوبهم، وأصبحوا أقوياء على تحمُّل الشدائد والمصائب في سبيل دينهم وعقيدتهم وعمارة الأرض وخلافتهم فيها وفق مفهوم العبادة لله رب العالمين.

ولقد كانت شخصية نوح ـ عليه السَّلامُ ـ المحرِّكَ الرئيس لأفراد الحضارة الإنسانية الثانية، فشخصيته تملك قوى الجذب والتأثير في الآخرين، فقد اصطفاه الله واختاره لرسالته وقيادة البشرية في دربها الجديد بعد الطُّوفان العظيم، وألقى الله عليه من المحبة والمهابة والاحترام والعظمة، فدائماً يُحَبُّ ويُحاط من النَّاس بالإعجاب، ويلتفُّ حوله المُعجَبون يلتصقون به التصاقاً بدافع الإعجاب والحبِّ، ويضاف إلى ذلك كونه رسول الله متلقِّي الوحي من الله ومُبلِّغه

---

(١) السيرة النبوية للصّلابيّ، ص ١١٥.

إلى النَّاس، وذلك بُعدٌ آخر له أثره في تكييف مشاعر ذلك المؤمن تجاهه، فهو لا يُحبُّه لذاته فقط كما يُحِبُّ العظماءَ من النَّاس، ولكن أيضاً لتلك النفحة الرَّبانيَّة التي تشمله من عند الله، فارتبط به الأفراد والأتباع برباط الله في الله مع السمع والطاعة للرسول الكريم، فكانت تلك نقطة الارتكاز في المشاعر كلِّها ومحور الحركة الشعورية والسلوكية كلها، فكان هذا الحبُّ مفتاح التربية السلوكية والأخلاقية، ونقطة ارتكازها ومنطلقاتها التي انطلقت بها الحضارة الإنسانية الثانية[١].

وكان من عوامل نشوء الحضارة الإنسانية الثانية عامل الأخلاق، فقد قام المجتمع على قاعدة أخلاقية واضحة مُستمَدّة من أوامر شريعة الله وتوجيهاته، وهي قاعدة لا تشمل علاقة الجنسين وحدها وإن كانت هذه من أبرز سمات هذا المجتمع، فهو خالٍ من كل ما يخدش الحياء من فعل أو قول أو إشارة، وخال من الفاحشة إلا القليل الذي لا يخلو منه مجتمع على الإطلاق، ولكن القاعدة الأخلاقية أوسع بكثير من علاقات الجنسين، فهي تُمثِّل السياسة والاقتصاد والاجتماع والفكر والتعبير، فالحكم قائم على أخلاقيات شريعة الله، وعلاقات النَّاس في المجتمع قائمة على الصدق والأمانة والإخلاص والتعاون والحبِّ، فلا غَمْزَ ولا لَمْزَ ولا نَميمةَ ولا قذفَ للأعراض[٢].

ويمكننا أن نُثبت دور الأخلاق في بناء الحضارة الإنسانية الثانية ونُبيِّن أن الروح الأخلاقية مِنحةٌ من الله عزَّ وجلَّ لنوح عليه السَّلامُ وأتباعه، فقد ارتبطوا بروابط الحب في الله، ووشائج عقيدة الوحدة، وألَّف الله بَينَ قلوبهم، فأحدث بينهم التَّوادَّ والتَّحابَّ ونزعَ التَّباغُضَ، ولم يَحدث هذا بالقوّة وقهر القانون ولكن برضاء وطواعية داخِليَّة، تلك هي الأخلاق الرَّبانيَّة يأتي بها الوحي ويغرسها

(١) محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، ص ٣٤ ـ ٣٥ بتصرف. وانظر: علي الصلابي، السيرة النبوية، بيروت، دار ابن كثير، ٢٠١٩، ص ٩٨.
(٢) أبو بكر الصديق للصلابيّ، ص ٢٦٨ بتصرف.

السادة الأنبياء بقدوتهم الأخلاقية ذاتها، ويُبرزون دورَها في توحيد الشعوب، والاتحاد قوّة مادية ومعنوية، والقوة الأخلاقية من أكبر الوسائل في تطوير الأمم، وأشدِّها أثراً في بناء المجتمعات وقيام الحضارات وتماسُكها، وكلُّ القيم الأخلاقية قوة؛ فالصبر قوة وصِفةٌ للأبطال الرُّوّاد، والضعيف لا يستطيع أن يتحمَّل، بل يجزع وينهزم أمام الأحداث، والشَّجاعة قُوّة؛ لأن صاحبها يرفض الجُبن والذلَّ، ويقاوم الظلم، والعدل قوة؛ لأنه يُمثِّل غلبة نوازع الحقِّ والخير على نوازع الباطل والشَّرِّ داخل الإنسان ذاته، والعِفَّةُ قُوّة؛ لأنها تُقاوم الشهوات والأهواء والإغراءات، وهكذا تُقام كلُّ القيم الأخلاقية الحميدة على هذا القياس، وتَثبت أنها عناصر بناء وُضع للتاريخ الحضاري(١).

لقد انبثقت القيم الأخلاقية التي أسهمت في ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية عن عقيدة صحيحة قائمة على أساس من الوحي.

وقامت الحضارة الإنسانية الثانية على روابط أخلاقية مدعومة بالتشريعات الرَّبانيَّة، وكان للمنظومة الأخلاقية الدرجة الأولى في السلوك الاجتماعي لدى الحضارات، والدارس لطبيعتها وسُنَن قيامها وازدهارها يتبيّن له أن جوهر الحضارة الأخلاق، وإن كانَ تقرير هذه الحقيقة يُدهِش الذين اعتادوا التعلُّق بالاعتبارات المادية، بل قد يُثير الاشمئزاز في نفوسهم من الذين يؤمنون بدور الأخلاق في التَّماسُك والازدهار الحضاري، وجوابنا لهم أنَّ دعاةَ العلمانية لا يُنكرون أثر الأخلاق في بناء الحضارة، ولا شكَّ أن هذا حُجَّة بالغة بالنسبة لهم(٢).

ويتوقَّف الجوهر الأخلاقي على قدرة الاستعدادات النفسية والعقلية لدى

---

(١) عباس محمود العقاد، فلسفة القرآن، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٧م، ص ٢٥.

(٢) ألبرت إشفيتسر، فلسفة الحضارة: ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الأندلس للطباعة والنشر، ط١ ١٩٨٣، ص٣.

الأفراد والجماعات، والتاريخ الحضاري صريح وواضح عند الحديث عن الأوضاع الاجتماعية والقضايا الحضارية العامة، فهو يُبيِّن بالأمثلة والحقائق الصارخة أن الأُسُس الأخلاقية ومبادى النُّبل والشرف والتضحية وتجنُّب الإباحية ووجوب الأخذ بإملاءات الوجدان الأخلاقي وقواعد الحكمة والاعتدال ونبذ العدوان والاستغلال، وما أشبه ذلك من معانٍ وشمائل كانت دعائم تحضُّرٍ عبر التاريخ، وأركانَ تقدُّمٍ وفلاحٍ في كلِّ الأمم، وكانت الأخلاق ميزةَ صفوةِ الشُّعوب من الأبطال والعظماء والعلماء، وأي إنسان لا تكون له قيمة حقيقية وشخصية إنسانية إلا إذا كانَ ذا أخلاق حسنة وخِلالٍ طيِّبة، وتحت تأثير القيم الأخلاقية تكوَّنَت العلاقات الإنسانية على مستوى الجامعات والأمم، وما اضمحلَّ المبدأ الأخلاقي في النفوس إلا وتداعت الحضارة[١].

وهذه سُنّةٌ من سُنَن الله تعالى ستظلُّ قائمة وإن كانَ دور المبدأ الأخلاقي محلَّ احتقار في نظر أهل الحلول المادية لقضايا التحضُّر، ويكون نظرة غريبة لدى كثير من الدارسين والمثقَّفين، فإن هذا لا ينفي دوره، ولا يُوقف تأثيرَه في الحياة، والذين تعرَّضوا للضَّعف والانحلال وأُصيبت مدنيّاتُهم بالانهيار والسقوط إن كانَ في الماضي القريب أو البعيد، إنما سلكوا خلاف سُنَن الله وما تقتضيه أبسط قواعد العدالة، ونبذوها وراء ظهورهم، وسخروا منها ومن الدَّاعين إليها، فتلك هي قصة عاد وثمود والرومان والإغريق، منذ انتشرت فيهم الإباحية والنفعية والجرائم وغيرها من سُنَن السقوط الحضاري، وتلك هي قصة الدول التي أخذت تنحدر في كل من أوروبا وأمريكا، إنها القصة التي تنتهي دوماً بالنتيجة المأساوية المعروفة[٢].

---

(١) ألبرت إشفيتسر، فلسفة الحضارة، ص ٤.

(٢) عبد اللطيف شرارة، الفكر التاريخي في الإسلام، دار الأندلس، لبنان، ط٢ ١٩٨٣م، ص ٨٣.

ويبدو أنه من أكبر مزالق الحضارات المادية انسلاخها عن المبدأ الأخلاقي، الذي لا تكاد تُفارقه قليلاً حتى تَلقى حتفَها.

إنَّ حيوية حضارة السلام والبركات استمَدَّت قوَّتها من عوامل عديدة: عقدية وصناعية واقتصادية واجتماعية وكذلك أخلاقية.

لقد كانَ لعامل الأخلاق أثر كبير في نشأة وريادة وقدوة الإنسانية في الحضارة الثانية، ولا يقوم صرح المجد والنهوض الإنساني الماديُّ والمعنويُّ إلا على أساس من الأخلاق والآداب القويمة، ولذا جاءت الرسالات السماوية آمِرةً المؤمنين بالتحلِّي بمكارم الأخلاق ونبذ كل ما يُؤدِّي إلى تدهور القيم وفكِّ روابط المجتمع(١).

إنَّ المجتمع الفاضل الذي أسَّسَه نوح عليه السَّلامُ له أدب رفيع وقيم نبيلة وأخلاق رفيعة ولكل فرد فيه كرامته التي لا تُمَسُّ.

وأخيراً.. أودُّ أن أُؤكِّد سُنّةً من سُنَن الله، وهي أن الإحاطة بقوانين الفَلَك في أمرٍ كالكسوف والخسوف تُنبئ بوقوعه قبل فترة من حدوثه، فلا جدال إذن في معرفة مآل أحداث الأمم ومصائر الدول والحضارات بدراسة ومعرفة قوانين وسُنَن الاجتماع البشري، ومن السُّنَن الثابتة في هذا الموضوع، موضوعِ مصائر الحضارات، أنَّ تَفشِّي الظلم وسعي النَّاس بالفساد في الأرض مُؤذنٌ ومُؤشِّر بخراب الأمم والدول، وعن طريق المقابلة نعرف أن للاستقامة وللالتزام بموجبات الصلاح والحقِّ والعدل والأخلاق والعمل المُخلِص، سُنَناً لازدهار الحضارات وسيادة الأمم(٢).

٦ ـ العامل السياسي:

تُعرَّف السياسة بأنها فَنُّ قيادة المجتمعات في دفع المفاسد وجلب المصالح،

---

(١) هيثور، سُنَن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص ١٩٨.
(٢) المرجع نفسه، ص ٢٠١.

وكان نوح ـ عليه السَّلامُ ـ على مستوًى عظيمٍ في القيادة الروحية والاجتماعية والسياسية، وتوفَّرت الأسباب التي ساعدته على تنظيم الحياة الجديدة على أُسُسٍ وقيَمٍ ومبادئَ تقوم على العدل والحرية والمساواة وحقوق الإنسان، وفق الشريعة التي أوحاها الله إليه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، فالشرائع بدأت بوصايا الله عزَّ وجلَّ لنوح عليه السَّلامُ، وهي قائمة على دفع المفاسد وجلب المنافع لبني الإنسان في الحياة.

إنَّ الله عزَّ وجلَّ اختار للإنسانية نوحاً عليه السَّلامُ لنبوته ورسالته وإقامة الدور الجديد للخلافة في الأرض بعد الطُّوفان العظيم، ولكي يُنظِّم أمورَ الحياة للأمم التي معه ويرعى مصالحها، وتجتمع الكلمة على رأيٍ مُصيبٍ، واجَهَ نوح ـ عليه السَّلامُ ـ التَّحدِّيات والصعوبات بحكمة ودراية، وعمل على حماية حقوق النَّاس ورفع الظلم وتوفير الحاجات الضرورية لكل فرد على مقتضى النظر الشرعي، وجمع بَينَ تنفيذ أحكام الشريعة الرَّبانيَّة وسياسة الدُّنيا، وفجَّر طاقات مجتمعه وجعله جادّاً مشغولاً بمعالي الأمور لا بسفاسفها، وبعث روح الهِمَّة في النَّاس، وحثَّهم على النشاط والعمل فإذا بالسعادة والحياة الطيِّبة في أعمالهم الدنيوية والأخروية تلمس روح العبادة بمفهومها الصحيح في حياة ذلك المجتمع وتصرُّفاته، ليس فقط في أداء الفرائض والتطوُّع بالنوافل ابتغاء مرضاة الله عزَّ وجلَّ، ولكن في أداء الأعمال جميعاً، فالعمل في حقيقته عبادة ويُؤدَّى بروح العبادة:

* فالحاكم يسوس رعيته بروح العبادة.
* والمُعلِّم يُعلِّم تلاميذه بروح العبادة.
* والتاجر يراعي الله في بيعه وشرائه ويفعل ذلك بروح العبادة.

هذه من أهم سمات الحضارة الإنسانية الثانية التي قادها نوح عليه السَّلامُ،

ولا شكَّ أنها فترة مثالية في تاريخ الإنسانية تحتاج إلى دراسة بعمق وسبر، تساعد البشر في وضع طريقهم على السكة الصحيحة بعدما غابت عنهم المَرجعيّات الكبرى في العقائد والأفكار والعبادات والأخلاق والمعاملات، وتخطَّفَتهُم الشَّياطين في صحاري موغلة في الضَّلال.

٧ـ عامل العمال:

كانت دعوة نوح ـ عليه السَّلامُ ـ مُهتمّة بالتأمُّل والتَّفكُّر والتدبُّر في الطبيعة وهذا الكون، وهذه دعوة كل الأنبياء والمُرسَلين، ولم تكن دعوتهم هذه تنصبُّ على الجانب التجريبي العملي من أجل إدراك عظمة الله واكتشاف كنوز الأرض فقط، بل رافق هذا التوجيهُ إلى الجانب الانفعالي الجمالي من أجل تهذيب الإحساس البشري ورفعه إلى مستوى السُّمُوِّ الروحيِّ والأخلاقي للإنسان، باعتبار أنَّ هذه الدعوة المزدوجة والنظرة الثنائية تُحرِّك في الإنسان كلَّ مكوناته الفطرية، ولقد كانَ هذا أسلوب القرآن في عرض القوانين والسنن الاجتماعية وبيانها، وكل هذا يقود الإنسان إلى تكوين عقيدة الإيمان بالله وعدالته ورحمته وجبروته وبطشه، وقد شاء الله سبحانه أن تكون الطبيعة بمكوناتها وقوانينها وأسرارها التي أودعها الله فيها مصدر عطاء لبناء الإنسان، سواء كانَ عالماً أو فَنّاناً، فالعالم يتفحَّص ويُجرِّب ويكتشف ويُبدع من أجل الرُّقيِّ الاجتماعي، والفنّانَ يتذوَّق ويتأثَّر ويُحِسُّ ويُعاني، فيهزُّ المشاعرَ حُبّاً وعشقاً، فتحدو العواطفُ العزائمَ وتشحذُ القدراتِ، فتنطلق إلى ما وراء الأشياء للتعامل مع خبايا النفس ومكنونات الوجود بالحب والتعاون والتعاطف، لا بالصراع والتجاذُب، كما تُصوِّر بعضُ المذاهب الفكرية[(١)].

وعامل الجمال في الحضارة الإنسانية الثانية يظهر جَلِيّاً على مستوى صاحب الرسالة ومكونات الطبيعة:

---

(١) المسلمون والعصر، كتاب العصر، العدد (١٤)، ص ١٤٥.

* جمال المنطق واضحٌ في دعوة نوح عليه السَّلامُ .

* جمال الأخلاق يظهر في تحمُّله .

* جمال الحرص على قومه .

* جمال أساليب الدعوة والحجج العقلية والمنطقية والوجدانية التي استخدمها .

* جمال عاطفة الأُبوّة الملتهبة مع ابنه .

* جمال صناعة السَّفينة وإتقانها .

* جمال التصوير الفني للسفينة ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ روعة وهيبة وجلالاً .

* جمال ترتيب الأمور داخل السَّفينة .

* جمال الاعتذار وطلب المغفرة والرَّحمة من ربه ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ .

* جمال نزول المخلوقات من السَّفينة في أسرابها للانطلاق في هذا الكون الفسيح ومرَاعيه الخصبة وأشجاره المثمرة وغاباته الكثيفة .

* وجمال انكشاف الغُمّة والكرب العظيم في المشهد الكوني والنفسي في قوله تعالى : ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [هود : ٤٤] .

فعامل الجمال له حضوره وشهوده في كلِّ مكونات الحياة في الحضارة الإنسانية الثانية ، وتعامل معها نوح ـ عليه السَّلامُ ـ على أعلى المستويات الذوقية الجمالية الإنسانية الرفيعة .

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تُعبِّر عن حقائق علمية وعقدية في صُوَر تفيض بالروعة والجمال ، ولنتأمل مركزي الجانب الجمالي لنعرف هذه الحقيقة ، قال

تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٥ ـ ٩٩].

تعرض هذه الآيات بعض مظاهر الحقِّ والخَلْق في الحياة، فتُوجِّه الأنظار إلى كيفية الخلق وإخراج الحيِّ من الميت والميت من الحي، والسمة البارزة المهيمنة على هذه الحقائق هي الجمال فكلُّ المدلولات تدلُّ على حقيقة من الزاوية الجمالية، فتبدو الحقيقة ذاتها وكأنها تتلألأ، ومِمَّا يُوحي بالسَّمت الجمالي لذلك التوجيه الرَّبانيّ إدراكُ دور الجمال في ازدهار الحياة ﴿ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ﴾، ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾، إنها معجزة الخلق في تزيين الحياة، وهي الظاهرة التي يجب أن تُقتدى في صنع الحضارات(١).

هذه بعض عوامل نشوء الحضارة الإنسانية الثانية، وقد استطاعت أن تُحقِّق:

* الإخاء والمحبة.
* التَّعاطُف والتَّراحُم.
* التَّسانُد والتَّعاوُن.
* التَّكافل والتَّضامُن.
* التَّواصي والتَّناصُح.
* التَّطهر.

---

(١) هيثور، سُنَن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص ٢٠٥.

* العدالة والإنصاف.

* التَّقدُّم العقلي والمنطقي والروحي والنفسي والمادي.

وحققت الأهداف الأساسية للحياة الإنسانية من أبرزها:

* **العبادة لله:**

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

* **خلافة الله في الأرض:**

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [يونس: ٧٣]، فقد استخلفَ الله تعالى نوحاً ومَن نجا معه في الأرض لإعادة تعميرها، وإعادة الحياة فيها، ولتأدية الدور المنوط في بناء الحضارة الإنسانية الثانية.

* **عمارة الأرض:**

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، طلب عمارتكم لها[١].

لقد استطاع نوح عليه السَّلامُ أن يُؤسِّس للحضارة الإنسانية الثانية مُوفِّقاً بيَنَ الروائع المادية المُتاحة في الفترة الزمانية التي عاش فيها، وبين المعاني الإيمانية والروحية والأخلاقية التي كانت هي الدوافع الحقيقية من وراء الإبداع الحضاري الثاني في مسيرة البشرية في روعة الإيمان والأخلاق الرَّبانيَّة.

رابعاً: تفسير الآيات التي تحدَّثَت عن الجارية والفلك المشحون:

١ ـ قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١ ـ ١٢].

هذا خطاب من الله تعالى مُوجَّه إلى البشر من بعد نوح وحتى قيام الساعة باعتبار أن الذين حُملوا مع نوح عليه السَّلامُ في السَّفينة هم الأصول التي انحدر

---

(١) يوسف القرضاوي، الإسلام حضارة الغد، القاهرة، مكتبة وهبة، ط١ ١٩٩٥، ص ١٧٦.

منها أهل الأرض من بعد نوح إلى اليوم، وذلك لكي يجعلها ربنا تبارك وتعالى تذكرة (أيّ: عبرة وعظة) للناس جميعاً، لما كانَ فيها من نجاة المؤمنين وإغراق الكافرين، ولكي تحفظها كلُّ أذنٍ حافظة لما تسمع من تلك الأخبار من «الوعي» بمعنى الحفظ في الذاكرة.

* ﴿ٱلْجَارِيَةِ﴾ هي سفينة نوح عليه السَّلامُ، التي جرت في ماء الطُّوفان الذي أغرق المنطقة فيما بَينَ دجلة والفرات بماء المطر وتفجير عيون الأرض بالمياه بعدد هائل من العيون، وقد علا الماء الأرض فأغرق كلَّ مَن في منطقة ما بَينَ النهرين إلا نبيَّ الله نوح عليه السَّلامُ ومَن حملهم مَعَه من البشر والحيوان والنبات في السَّفينة.

فقد أثبت الأثري الدكتور (تشارلز ويلليس) في سنة ١٩٨٠م أن بقايا سفينة نوح قد تم اكتشافها فوق جبل الجوديّ على بعد ٢٥٠ ميلاً إلى الجنوب الغربي من جبل (أرارات)، وجبل الجوديِّ يمثل أعلى قمة في سلسلة جبال جنوب تركيا، إذ يزيد ارتفاعه على سبعة آلاف قدم فوق مستوى سطح البحر، وقد وُجدت بقايا السَّفينة مطمورة في رسوبيات تواضعت من مياه عذبة تعلو سطح ذلك الجبل[(١)].

كذلك فإن سهول ما بَينَ النهرين دجلة والفرات والتي كانت مهداً لعدد من الحضارات القديمة سجَّلت خبر الطُّوفان الذي وُجدت آثاره على هيئة سمك من رسوبيات الماء العذب تُغطِّي المساحة ما بَينَ النهرين، وقد تم الحفر عليها في أربعة مواقع على الأقل هي: «أور»، و«إيريك»، و«كيش» أو تل الأحمر، و«شوروياك» أو تل العقدة، ويتراوح عمر هذه الرسوبيات بَينَ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، وسبعة آلاف سنة قبل الميلاد، وقد قام بدراسة هذه المواقع مجموعات متتابعة من العلماء منهم: هول وليونارد وولي، في مشروع مشترك

(١) زغلول النجار، من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي في القرآن الكريم، ١/ ١٩٧.

بَينَ المتحف البريطاني بلندن وجامعة بنسلفانيا، وقد استمرَّت هذه البحوث في الفترة من ١٩٢٢م إلى ١٩٣٤م، وكشفت عن بقايا حضارات قديمة على عمق عشرة أقدام تتكون من رواسب الماء العذب، كالغرين والصَّلصال والرَّمل التي تمتد أُفقيّاً لآلاف الكيلومترات المربعة والتي لا يمكن أن تنتج إلا عن طوفان غامر، وقد تأكَّد ذلك بدراسة تمَّت في كهف يقع في شمال العراق يعرف باسم «كهف شانيدار العظيم» يحوي قِطَعاً من الرسوبيات يعود عمرها إلى مائة ألف سنة مضت، ويحوي بقايا إنسيّة قام بدراستها الدكتور «رالف سونسكي» [١].

وقد حملت كلُّ رسالات السَّماء التي أُنزلت من بعد نبيِّ الله نوح على نبينا وعليه من الله السلام أخبار هذا الطُّوفان لما فيه من العبرة لبني الإنسان، والتحذير من الوقوع في أحوال الشِّرْك دون جدوى[٢]، ويبقى وصف طوفان نوح كما جاء في القرآن الكريم هو المرجع الحقُّ عن هذه الواقعة الكبرى في تاريخ الإنسانية، وقد لخَّصها القرآن الكريم في عشرات الآيات، وقد شرحتُها في هذا الكتاب.

* وفي قوله تعالى: ﴿حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ﴾، الضمير في حملناكم يعود إلى البشرية كلِّها من بعد طوفان نوح عليه السَّلامُ، لأنهم جميعاً من ذُرِّيَّتِه، بدليل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].

وإنَّ الناجين من الغرق هم أولاده وغيرهم كما هو ظاهر القرآن الكريم، وعلى هذا فمَن آمن بدعوة نوح عليه السَّلامُ من غير أهله وإن نجا من الغرق إلا أنهم انقرضوا فيما بعد، ولم يبق منهم نسلٌ، وإنما الذي بقي منهم نسلُ نوح عليه السَّلامُ، وبهذا صحَّ أن نوحاً هو أبو البشر جميعاً بعد آدم[٣].

قال ابن جرير الطبري: قالوا إنما الذين كانوا معه في الفلك قوم كانوا آمنوا به

(١) زغلول النجار، من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي في القرآن الكريم، ١/ ١٩٧.
(٢) المرجع نفسه، ١/ ١٩٨.
(٣) عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السَّلامُ، ص ٢٤.

واتَّبعوه غير أنهم بادُوا وهلكوا، فلم يبقَ لهم عقب، وإنما الذين هم اليوم في الدُّنيا من بني آدم ولد نوح وذريته دون سائر ولد آدم كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧] (١).

وتُؤكِّد المعارف المُكتسَبة في علم الوراثة أن البشرية كلَّها من لدن أبينا آدم عليه السَّلامُ وحتى قيام الساعة كانت في صلبه لحظة خلقه، ثم بدأت في التوزُّع إلى زوجه حواء عليهما السلام، ثم إلى أبنائهما وأحفادهما الذين مثَّلوا الموجة الأولى من بني آدم، ولما انحرف النَّاس عن منهج الله بعد عشرة قرون من خلق آدم أرسل الله تعالى إليهم عبدَه ورسوله نوحاً عليه السَّلامُ واستعصى على غالبية قومه قبولُ هدايته، فعاقبهم الله بالطُّوفان الذي قضى عليهم، وبقيت فضلة من مجموع المُورِّثات التي خلقها الله الخالق البارى المُصوِّر في أوَّل الأمر، وأودعها أبينا آدم ـ عليه السَّلامُ ـ حتى وصل جزء منها إلى أصلاب كلٍّ من نوح عليه السَّلامُ والناجين معه؛ ليخلق الله تبارك وتعالى من تلك الأصلاب مَوجةَ البشرية الثانية إلى قيام الساعة.

ومن هنا كانَ الخطاب في الآية الكريمة التي نحن بصددها مُوجَّهاً إلى تلك الموجة الثانية من البشرية التي نجت من طوفان نوح، واستمرَّت في التكاثر إلى اليوم، وستبقى مُستمرّة في ذلك إلى قيام الساعة بانقسام الشِّيفرات الوراثية عند تكوُّن الخلايا التناسلية وتكاملها بالتزاوج وبالرجوع بعمليات انقسام الخلايا التناسلية إلى الوراء مع الزمن، فإن جميع الشيفرات الوراثية في خلايا السبعة مليارات إنسان الذين يملؤون جنبات الأرض اليوم، وفي خلايا ذراريهم إلى قيام الساعة، تلتقي مع الشيفرات الوراثية التي كانت في صلب نوح عليه السَّلامُ وفي أصلاب الناجين معه، ومن هنا كانَ الخطاب لجميع أفراد موجة البشر الثانية،

---

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري المسمى "تاريخ الرُّسُل والملوك"، دار سويدان، بيروت، ١٩٦٤م، ١/ ٧١.

يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١ ـ ١٢].

ولما كانَ علم الوراثة من أحدث المعارف المكتسبة؛ لأن قوانين الوراثة لم تتبلور إلا في أوائل القرن العشرين، ولما كانَ مَرسى سفينة نوح لم يُحدَّد إلا في نهاية القرن العشرين، كانت الومضتان المُبهرتان في الآيتين الحادية عشرة والثانية عشرة من سورة الحاقة تُمثِّلان حقيقتين علميتين صحيحتين تشهدان للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، وهاتان الآيتان الكريمتان تُمثِّلان كذلك وجهاً من أوجه الإعجاز الإنبائي في كتاب الله؛ لأن أحداً من الخلق لم يكن يعلم شيئاً عن تلك الحقائق في زمن الوحي ولا لقرون طويلة من بعده.

كذلك فإن في الآية الثانية عشر من هذه السورة المباركة إعلام من الله تعالى بأن كشف سفينة نوح سوف يتم في المستقبل، وقد تمَّ ذلك بالفعل في سنة ١٩٤٨م، حتى يبقى الحادث الجلل تذكرة للبشر جميعاً تَعيه عقولهم، وتستوعبه آذانهم، وهو من أوجه الإعجاز الإنبائي في كتاب الله[١].

وفي قول الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١ ـ ١٢].

وتصوّر الآية الكريمة مشهد الطُّوفان والسَّفينة الجارية، حيث يُشير هذا المشهد إلى مصرع قوم نوح حين كذَّبوا، ومُمتنّاً على البشر بنجاة أصولهم التي انبثقوا منها، ومشهد طغيان الماء ومشهد الجارية على الماء الطّاغي كلاهما يتناسق مع مشاهد السورة وظلالها، وجرس اللفظين (الجارية ـ واعية) يتماشى كذلك مع إيقاع الفاصلة، وهذه اللمسة ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ تلمس القلوب الخامدة والآذان البليدة، التي تُكذِّب بعد كل ما سبق من النذر، وكلِّ ما سبق من المصائر، وكلِّ ما سبق من الآيات، وكلّ ما سبق من العظات، وكل

(١) زغلول النجار، من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي في القرآن الكريم، ١/ ١٩٩.

ما سبق من آلاء الله ونعمه على أصول هؤلاء الغافلين، وكلُّ هذه المشاهد المروعة الهائلة القاصمة تبدو ضئيلة صغيرة إلى جانب الهول الأكبر هول الحاقة والقارعة التي يُكذِّب بها المُكذِّبون، وقد شهدوا مصارع المُكذِّبين، إن الهول في هذه المصارع على ضخامتها ـ محدود ـ إذا قيس إلى هول القارعة المطلق من الحدود المُدَّخَر لذلك اليوم المشهود[١].

ارجع أخي القارى واقرأ سورة الحاقّة من البداية؛ لترى العجب العجاب والأهوال القادمة على البشرية وبني الإنسان.

٢ ـ قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يٓس: ٤١].

في مجموعة من الآيات الكونية المُبهرة التي ساقتها سورة يٓس للاستدلال على حقيقة الألوهية وعلى طلاقة القدرة الإلهية المبدعة في الخلق وشهادة ذلك على إمكانية البَعث وحتميته جاءت هذه الآية الكريمة التي يقول فيها ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾.

والخطاب في هذه الآية الكريمة موجَّهٌ إلى النَّاس كلهم بأن ذريتهم جميعاً من البلايين التي عاشت وماتت من بعد طوفان نوح إلى اليوم، والبلايين التي تملأ جنبات الأرض حالياً، وممن سوف يخلفوننا إلى قيام الساعة، كل هؤلاء كانوا محمولين في الفلك المشحون في صلب عبد الله ونبيه نوح على نبينا وعليه من الله السلام، فالموجة الثانية من ذُرِّية آدم إلى آخر من يُعقِّب كانت في سفينة نبي الله نوح عليه السَّلامُ، وعلى ذلك فإن هذا النبيِّ والذين معه في الفلك من صلب آدم يُمثِّلون الأُبُوَّة الثانية للبشرية بعد هلاك جميع مَن كفر من قوم نوح بالطُّوفان[٢].

إنَّ البلايين من بني آدم الذين سوف يُخلقون من بعدنا إلى قيام الساعة كلُّ هؤلاء كانوا في صلب أبينا آدم عليه السَّلامُ لحظة خلقه، فالمعارف المكتسبة من

---

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، ٦/ ٣٦٧٩.
(٢) زغلول النجار، من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي في القرآن الكريم، ١/ ٢٠٠.

علم الوراثة تؤكد على حقيقة أن بني آدم جميعاً كانوا في صلب أبيهم آدم لحظة خلقه، أي في شيفرته الوراثية المُتخلِّقة في خلاياه التكاثرية والتي يخلقها ربنا تبارك وتعالى من موضع دقيق في صلب أبينا آدم عليه السَّلامُ، شاركته فيه أُمُّنا حواء التي خلقها الله عزَّ وجلَّ من نفس الأصل الذي خَلق منه أبانا آدم عليه السَّلامُ؛ لأن الله خلق كل شيء في زوجيّة واضحة، حتى يبقى ـ سبحانه ـ منفرداً بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، ثم جعل ربُّنا تبارك وتعالى من التزاوج بَينَ بني آدم سُنَّةً من سُنَن الحياة وسبباً في التكاثُر وعمارة الأرض، ولذلك جعل هذا الخالق العظيم الحكيم العليم الشيفرة الوراثية للإنسان في معظم خلاياه[١].

ومن المخزون الوراثي الأول الذي كانَ في صلب أبينا آدم عليه السَّلامُ انتقل جزء إلى صلب نوح عليه السَّلامُ وإلى أصلاب من آمن به ونجا معه، وهذا الجزء يشكل المخزون الوراثي الثاني الذي خُلق منه وما يزال يخلق منه كلُّ البشر، من بعد طوفان نوح إلى قيام الساعة، ولذلك قال ربنا تبارك وتعالى مخاطباً النَّاس من بعد نوح:

ـ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١].

ـوقال عزَّ من قائل: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١].

ـوقال وهو أصدق القائلين: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

ومن معاني هذه الآيات القرآنية الكريمة الثلاث أن جميع أفراد الدورة الثانية للبشرية من لدن نجاة نوح عليه السَّلامُ والذين آمنوا معه من نازلة الطُّوفان إلى قيام الساعة كانوا جميعاً في الفلك المشحون أيْ: في سفينة نوح عليه السَّلامُ، ولم يكن مُمكِناً تصوُّر هذه الحقيقة إلا بعد التطوُّر الهائل والمذهل في علوم الوراثة مع بداية القرن العشرين، وسبق القرآن الكريم بالإشارة الضمنية إلى هذه الحقيقة،

(١) النجار، من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، ١/ ٢٠١.

والتأكيد على أنها من آيات الله في الخلق، يشهد بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق، ويشهد للرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة والرسالة، كما يشهد للآية الحادية والأربعين من سورة يس بأنها وجه من أوجه الإعجاز العلمي والإنبائي في كتاب الله القائل: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يس: ٤١ ـ ٤٤].

٣ ـ قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٨ ـ ٧٩].

بعد ذلك العمر الطويل لنوح ـ عليه السَّلامُ ـ والصراع المرير مع قومه، وما تبع ذلك من الأحداث الجسام، ختم الله قصة نبيه نوح عليه السَّلامُ في سورة الصافات بقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصافات: ٧٨ ـ ٨٣].

* قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾:

يعني أن الله تعالى أبقى له ذكراً حسناً في النَّاس الذين يأتون بعده إلى يوم القيامة من الأمم، وسُنّة الله في المحسنين أن يُخلِّد لهم بعد ذهابهم من الدُّنيا الثَّناءَ الحسن، والذكر الجميل، ويستمرُّ لهم ذلك إلى يوم القيامة.

* قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

قال ابن جرير في تفسيرها: أمنة من الله لنوح في العالمين أن يذكره أحد بسوء[١]، فقد رفعه الله إلى تلك المكانة العالية جزاءً على ما صبر في الدعوة إلى الله على أذى قومه طويلاً، وهو أوَّل من أُوذي في الله، فبذلك يكون نوح عليه

(١) تفسير الطبري، ٢١/ ٦٠.

السَّلامُ قد سنَّ لكل من أُوذي في الله التَّضحيةَ بكل شيء في سبيل الدعوة إلى الله، ولا عجب في ذلك فهو أوَّل الخمسة من الرُّسُل أُولي العزم(١).

وقد قدَّرَ الله بأن يجعل من ذرِّية نوح خلفاء يعمرون الأرض، وأن يبقى ذكره في الأجيال الآتية إلى آخر الزمان ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾، وتجلَّى في الخافقَينِ سلام الله على نوح جزاء إحسانه، وأي جزاء بعد سلام الله والذكر الباقي مدى الحياة؟(٢).

* قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾:

تدلُّ هذه الآية على أن نوحاً ـ عليه السَّلامُ ـ قد بلغ الغاية في تحقيق عبوديته لله، حتى وصل منها إلى درجة الإحسان، وهو أي الإحسان كما أخبر به النبي ﷺ: «أن تَعْبُدَ الله كأنَّكَ تَرَاهُ فإن لم تكنْ تَرَاهُ فإنَّهُ يَرَاكَ»(٣).

وقد خرج نوح عليه السَّلامُ من هذه الدُّنيا وهو مُتوَّج بتاج الكرامة، فصار بذلك مثالاً للمحسنين في جزائهم على إحسانهم(٤).

قال الرازي: والمعنى أنَّا إنَّما خصصنا نوحاً عليه السَّلامُ بتلك التشريفات الرفيعة من جعل الدُّنيا مملوءة من ذُرِّيته ومِن تَبْقِيةِ ذِكرِه الحسن في ألسنة جميع العالمين لأجل أنه كانَ مُحسِناً، ثم علَّلَ كونَه مُحسِناً بأنه كانَ عبداً لله مُؤمناً، والمقصود منه بيان أن أعظم الدَّرجات، وأشرفَ المقامات، الإيمانُ بالله والانقياد لطاعته(٥).

---

(١) عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السَّلامُ، ص ٨١.
(٢) السيد قطب، في ظلال القرآن، ٥/ ٢٩٩١.
(٣) البخاري، رقم ٤٨، وفي: صحيح مسلم، رقم ٩.
(٤) عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السَّلامُ، ص ٨٢.
(٥) تفسير الرازي، ١٣/ ١٣٠.

* قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

وهذه الجملة بمثابة التعليل لما قبلها أي أن نوحاً عليه السَّلامُ حاز على تلك المناقب العالية لاتصافه بالإيمان الذي أهّله أن يكون من عباد الله المؤمنين، وكثيراً ما يمدح الله خواصَّ عباده بالإيمان، فنوح عليه السَّلامُ قد حقَّق الإيمان في نفسه، وأرخص نفسه في سبيل نشره بَينَ الخلائق، فوصل بذلك إلى أرفع المنازل وأعظمها عند الله.

* قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾:

وهذه نعمة أخرى تُضاف إلى تلك النِّعَم السابقة، فالله سبحانه وتعالى يُخبرنا في هذه الآية أنه امتنّ على نوح عليه السَّلامُ ومَن آمن به بأن أغرق جميع أعدائه الذين آذوه، واعترضوا سبيله وكانوا مُدَّةَ حياتهم حجرَ عثرة في طريق دعوته، فأراحه الله منهم بإنزال العذاب عليهم بطريقة تشفي صدور المؤمنين بدعوته، حتى صار عدُّوهم بالأمس القريبِ عِبرةً للمُعتبِرين، وانتهى الصراع المرير بَينَ داعية الحقِّ ودُعاة الباطل إلى تلك النتيجة المُؤلمة للمعاندين بما لم يكن في حُسبانهم[(١)].

وليس هذا خاصاً بنوح ـ عليه السَّلامُ ـ وقومه، بل هو وعد من الله قطعه على نفسه لكل المؤمنين بالنصر الذي لا يتخلَّف، كما أنه وعيد منه لجميع المُكذِّبين بالعذاب الذي لا يتأخَّر عن موعده، وتلك هي سنة في عباده لا تتغيَّر ولا تتبدَّل في كل زمان ومكان، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧][(٢)].

* قال تعالى: ﴿۞وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ﴾:

وختم الله عزَّ وجلَّ هذا النصّ بما يدلُّ على أن العقائد والشرائع التي جاء بها

---

(١) أبو بكر، قصة نوح عليه السَّلامُ، ص ٨٢.
(٢) المرجع السابق، ص ٨٣.

نوح ـ عليه السَّلامُ ـ قد بقيت منها بقايا صحيحة في القرون من بعده حتى أيام إبراهيم عليه السَّلامُ وأنه اطَّلع عليها رغم انتشار الوثنيَّة في قومه فآمن بها، واتَّبعها إيماناً بنوح عليه السَّلامُ واتِّباعاً له قبل أن يتَّخذه الله نبياً ويبعثه إلى قومه رسولاً فقال عزَّ وجلَّ: ﴿ ۞وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴾، والآية تُبيِّن الصِّلة بَينَ نوح وإبراهيم عليهما السلام في العقيدة والدعوة والطريق، فهو من شيعة نوح على تباعُد الزمان بَينَ الرسولَين والرسالتين، ولكنه المنهج الإلهي الواحد الذي يلتقيان عنده ويرتبطان به ويشتركان فيه[١]، فقد أكَّد الله عزَّ وجلَّ ـ «إنَّ واللاّم المُزحلَقة والجملة الاسمية» ـ أنَّ إبراهيم عليه السَّلامُ قد كانَ من شيعة نوح، أيْ: من أتباع عقيدتِه وشريعتِه[٢].

خامساً: وصية نوح ووفاته وبعض المقاصد من قصته:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: كُنّا عند رسول الله ﷺ فجاءه رجل من أهل البادية عليه جُبّة سيجان[٣]، مَزرُورةٌ بالدِّيباجِ، فقال: ألا إنَّ صاحبَكُم هذا قد وَضَعَ كُلَّ فارسٍ ابنِ فارسٍ، ويَرفَعُ كلَّ راعٍ ابنِ راعٍ، قال: فأخذَ رسولُ الله ﷺ بمجامعِ جُبَّتِه، وقال: «ألا أرى عليكَ لِباسَ مَن لا يَعقِلُ؟» ثم قال «إنَّ نبيَّ الله نوحاً عليه السَّلامُ لما حضرَتهُ الوفاةُ قال لابنِه: إنِّي قاصٌّ عليكَ الوَصِيَّةَ آمرُكَ باثنتَينِ وأنهاكَ عن اثنتَينِ:

* آمرُكَ بلا إله إلا الله، فإنَّ السَّماوات السَّبْعَ والأرضِينَ السَّبعَ لو وُضِعَت في كفّة، ووُضِعَت لا إله إلا الله في كَفّةٍ رَجَحَت بِهِنَّ لا إله إلا الله، ولو أنَّ السَّماواتِ

---

(١) السيد قطب، في ظلال القرآن، (٥/ ٢٩٩٣).

(٢) الميداني، نوح عليه السَّلامُ وقومه في القرآن المجيد، ص ١٤٨.

(٣) السيجان: جمع ساج، وهو الطيلسان الأخضر وقيل: هو الطيلسان المقوّر ينسج كذلك، كانَ القلانس كانت تعمل منها أو من نوعها ومنهم من يجعل ألفه متقلبة على واو ومنهم من يجعلها على ياء، انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ٢/ ٤٣٢.

السَّبعَ والأرضِينَ السَّبعَ كُنَّ حَلَقةً مُبهمةً(١) قَصَمَتهُنّ(٢) لا إله إلا الله وسُبحانَ الله وبَحَمْدِهِ، فإنَّها صَلاةُ كُلِّ شَيءٍ وبها يُرزَقُ الخَلْقُ.

* وأنهاكَ عَنِ: الشِّركِ، والكِبْرِ». قيل يا رسول الله هذا الشِّرْكُ قد عَرَفناهُ، فما الكِبْرُ؟ أن يكون لأحَدِنا نَعلانِ حَسَنَتانِ؟ قال: «لا». قيل: هو أن يَكونَ لأحَدِنا حِلّةٌ حَسَنَةٌ؟ قال: «لا». قيل: أن يكونَ لأحَدِنا دابَّةٌ يَركَبُها؟ قال: «لا». قيل: أن يَكونَ لأحَدِنا أصحابٌ يَجلِسُونَ إليه؟ قال: «لا». قيل: يا رسولَ الله فما الكِبْرُ؟ قال: «سَفَهُ الحَقِّ وغَمْطُ النَّاسِ»(٣). قال ابن كثير: إسناده صحيح(٤).

وتوفي عليه السَّلامُ بعد أن دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، واختلف المؤرخون في سن وفاته، ولم يتعرض القرآن لذلك، وقيل: إنه دُفن في المسجد الحرام، وقيل: إنه دُفن في بلده البقاع كرك نوح(٥)، ولا دليل على ذلك.

ويُروى أنَّ نوحاً عليه السَّلامُ بعد هذا العمر الطويل المديد سُئل فقيل له: كيف رأيت الدُّنيا؟ قال: رأيتُها كَبيْتٍ له بابان، دخلتُ مِن أحدهما وخَرَجْتُ مِنَ الآخر(٦).

وبهذا نكون قد أنهينا هذا الكتاب بتوفيق الله وتسديده وفضله ومنّه ورحمته وإحسانه، وإنني أدعو القارى الكريم أن يقف على **هذه المقاصد من قصة نوح عليه السَّلامُ:**

---

(١) مبهمة: محرمة مغلقة، قالها الألباني في السلسلة الصحيحة، ١/ ٢٦٠.
(٢) قصمتهنّ: كسر الشيء وإبانته.
(٣) غمط الناس: احتقارهم والطعن فيهم.
(٤) البداية والنهاية، ١/ ٢٨٠. وانظر: أبو أسامة سليم الهلالي، صحيح الأنباء المسند من صحيح الأنبياء، ١/ ٢٢٨١.
(٥) عبد الله محمد، أولو العزم من الرُّسُل نوح عليه السَّلامُ، ص ٤٩.
(٦) عثمان الخميس، فبهداهم اقتده، ص ٤٩.

١ ـ المقصد الأول:

أن يشحذ عقلَه وفكره، ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فمِن هدف القصص القرآني تفكُّرُ النَّاس واتِّعاظُهم؛ لأنَّ الأصل أن يفتحوا عقولهم وقلوبهم لما يسمعون من حوادث القصص القرآني، وأن يعتبروا بما جرى للهالكين، وأن يقتدوا بالصَّالِحين. والتفكير واجبٌ قرآنيٌّ وفريضة إسلامية، لا يجوز تعطيلها، ومن لم يتفكَّرْ ويتَّعِظْ بما جرى للسابقين فهو أعمى القلب والعقل والبصيرة[١].

قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٥ ـ ٤٦].

٢ ـ المقصد الثاني:

الاعتبار بما جرى للسابقين، والاستفادة من ذلك ولا يعتبر بهذا إلا أُولو الألباب والأبصار، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ﴾ [يوسف: ١١١].

وهذه الآية الأخيرة من سورة يوسف، وهي تعقيب على قصة يوسف في السورة، وتُبيِّن الهدف من ذكر القصة، وهو ليس التسلية أو المتعة القصصية أو السَّرد التاريخي، وإنما هو العِبرة والعِظة[١].

ويكون الاعتبار بقصص القرآن لأُولي الألباب، وهم أصحاب العقول الواعية، والبصائر المنيرة الذين يُحسنون استخدام عقولهم وحواسهم، ويستفيدون من كل ما يشاهدون أو يسمعون أو يَقرؤون ويُطالعون، هؤلاء المُتيقِّظون عندما يسمعون أو يقرؤون القصص القرآني وكلامه على الأمم السابقة

---

(١) الخالدي، القصص القرآني، ١/ ٣٣.

يعتبرون، حيث يقيسون الأحداث الماضية على حياتهم وواقعهم فيستفيدون من ذلك، ويكون الجانب الإيجابي في القصص القرآني قُدوةً ودرساً لهم، يقتدون فيه بمواقف الأنبياء والمُرسَلين وأتباعهم من الصَّالِحين العاملين، ويكون الجانب السلبي منه المتمثِّل في مواقف الكفار تحذيراً لهم، فيحذرون السير على طريق أولئك، لئلا يُصيبَهم ما أصابهم، لكن الغافلين اللاهين لا يعتبرون من القصص القرآني، ويَمرُّون على آياته وهم مُعرضون؛ لأن عقولَهم مُعطَّلة وبصائرَهم مَطموسة[١].

٣ ـ المقصد الثالث:

إنَّ الله أراد من إيراد القصص القرآني تثبيت فؤاد النبي ﷺ وقلوب أصحابه وأتباعه وقلوب أمته في كلِّ زمان ومكان، وجاء هذا في صريح قوله: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠].

وهذه الآية من أواخر آيات سورة هود، جاءت تعقيباً على ذكر مجموعة من قصص الأنبياء في السورة، والقصص المذكورة في هذه السورة هي: قصة نوح، وقصة هود، وقصة صالح، وقصة إبراهيم، وقصة لوط، وقصة شعيب، وقصة موسى، عليهم الصلاة والسلام.

وبعد سرد القصص جاء ذكر الهدف من ذلك: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ ﴾ [هود: ١٢٠]، فقصص الأنبياء في القرآن تثبيت لقلب النبي محمد ﷺ؛ لأنه ليس وحده على طريق الدعوة والرسالة، وإنما سبقه على هذه الطريق إخوة أنبياء كرام، عليه وعليهم الصلاة والسلام، وهو يواجه كما واجهوا، ويسمع كما سمعوا، ويُؤذى كما أُوذوا، فعليه أن يصبر كما صبروا، لينتصر كما انتصروا.

وإنَّ قَصَص الأنبياء يزيد يقين رسول الله ﷺ أنه على حق، وأن أعداءه الكفار على باطل، وأنه سيظهر وسينتصر، وأن دينه سيعلو وينتشر وأن أعداءه سيُهزمون

ويَخسرون، والقصص القرآني تثبيت لأفئدة أصحاب رسول الله ﷺ على الحقِّ ونصرة الدعوة ومواجهة الأعداء وتحدِّيهم.

ويُحقِّق القصص القرآني ـ ومنها قصة نوح ـ هذا الهدف الرائع لكل من سار على طريق رسول الله ﷺ في التربية والدعوة وفي الإصلاح والجهاد والمواجهة، فكلُّ الدعاة والمُصلحِين وأبناء الأمة الغيورين تثبت أفئدتهم وقلوبهم على الحق عندما يقفون مع القصص القرآني ويتدبَّرونه ويفهمونه، ويُقدِّم لهم هذا القصص الزَّادَ والعُدَّة، ويُقدِّم لهم المعرفة والفائدة ويمنحهم الوعي والبصيرة، ويشحذ هِمَمَهم ويرفع معنوياتهم ويَسمو بنفوسهم ويُصوِّب مسيرتهم وحركتهم[(١)].

* * *

الخلاصة

١ ـ كان بَينَ آدم ونوح عشرة قرون كلُّهم على مِلَّة الحقّ، وأن الكفر بالله إنما حدث في القرن الذي بُعث فيه نوح عليه السَّلامُ.

٢ ـ إنّ أوَّل نبي أرسله الله إلى قومٍ بالإنذار والدعاء إلى توحيده نوحٌ عليه السَّلامُ.

٣ ـ قال ابن كثير: فإن كانَ المراد بالقرن مائة سنة كما هو المتبادر عند كثير من النَّاس فبينهما ألف سنة لا محالة، ولا ينفي أن يكون أكثر من ذلك باعتبار ما قَيَّدَ به ابن عباس بالإسلام، إذ قد يكون بينهما قرون أُخَر متأخِّرة لم يكونوا على الإسلام، وإن كانَ المراد بالقرن الجيل من النَّاس كما قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۗ ﴾ [الإسراء: ١٧]. فقد كانَ الجيل قبل نوح يعمَّرون الدهور الطويلة، فعلى هذا يكون بَينَ آدم ونوح ألوف من السنين، والله أعلم.

٤ ـ قال الإمام الأكبر للأزهر الشريف د. عبد الحليم محمود: إن جميع ما يُقال في ذلك ضرب من التخمين، وإن الآثار التي رُويت في ذلك يُمكن تأويلُها على أنحاء شتَّى، فتكون ألفاً وتكون آلافاً من السنين، ولا يقينَ في الموضوع.

٥ ـ إن المجتمع الأول على الكرة الأرضية ما بَينَ آدم ونوح عليهما السلام كانَ مجرَّدَ مجتمع فرديّ، تكوّن من آدم وزوجته حواء، ومنهما انبثقت أسرة فعشيرة فجماعة بشرية، أخذت في التطوُّر وتلقِّي التعليم حتى وصلت إلى تعلُّم القراءة والكتابة والخياطة والطِّبِّ، أي المبادى الأساسية ليتعلم الفرد أسلوب

تطوُّر حياته، وخاصّةً لو علمنا بأن أوَّل مَن عرف مهنة النِّجارة ومن ثم صناعة السفن كانَ نبيَّ الله نوحاً عليه السلام.

٦ ـ إن أية حضارة بشرية كانت موجودة قبل الطُّوفان لم تكن تعرف أي شيء عن أعمال بناء السفن فالنشاط البشري حتى هذه المرحلة لم يكن نشاطاً بشرياً لمجتمعات منفصلة، بل هو نشاط بشري لجماعة بشرية واحدة، وهي ذُرِّية نبي الله آدم فيما قبل الطُّوفان.

٧ ـ كانت أعمار النَّاس في بداية تاريخ البشرية طويلة، حيث كانَ يُعمَّر أحدُهم مئاتِ السِّنينَ فها هو نوح عليه السَّلامُ يعيش مع قومه نبياً رسولاً قبل الطُّوفان تسعمائة وخمسين سنة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]. وهذا يعني أن نوحاً عليه السَّلامُ عاش ألف سنة أو أكثر، وهذا يعني أن متوسط الأعمار بَينَ آدم ونوح عليهما السلام ألف سنة، بينما أعمار النَّاس في زماننا ما بَينَ الستين والسبعين، وقلّ من يتجاوز الثمانين سنة، فمُدَّةُ القرن لأبناء الجيل الواحد بَينَ آدم ونوح عليهما السلام هي ألف سنة، بينما مدة القرن لأبناء جيلنا هي سبعون سنة، فالعشرة قرون بَينَ آدم ونوح عليهما السلام كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: حوالي عشرة آلاف سنة والله أعلم.

٨ ـ ليس بَينَ نوح وآدم رسول، وقد أُدخل بينهما إدريس عليه السَّلامُ، كما فعله كثير من المؤرخين، وهذا لا دليل يُعتمد عليه في صحّتِه، بل إن هناك جملةً من الأدلّةِ تدلُّ على أن نوحاً عليه السَّلامُ هو أوَّلُ الرُّسُل بعد آدم عليه السَّلامُ، ومن تلك الأدلة:

* ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٦].

* ﴿ ۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾ [النساء: ١٦٣ ـ ١٦٥].

٩ ـ ثبت من خلال الدراسة خطأُ مَن قال إن إدريس بَينَ نوح وآدم، وثبت أن نوحاً عليه السَّلامُ هو أوَّلُ الرُّسُل، كما أن الاختلاف في تقديم نوح على إدريس أو إدريس عليه لا يترتَّب عليه مَحذور شرعيٌّ طالما أن الجميع مُتَّفقون على أنهما من الأنبياء والمُرسَلين.

١٠ ـ إن الأصل في الإنسان هو التوحيد، وإن الشِّرْك طارئ عليه، ويُستدلُّ على ذلك بأنَّ الإنسان الأول هو آدم عليه السَّلامُ كانَ نبياً يَعبد الله وحده لا شريك له، وعلّم أبناءه التوحيد حيث سئل الرسول ﷺ عن آدم: أنبيٌّ هو؟ قال نعم، نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ، خلقه الله بيده ثم نفخَ فيه مِن رُوحِه.

وقد بَيَّنَ الله سبحانه أن البشرية كانت في أوَّل أمرها على التوحيد، ثم طرأ عليها الشرك، وتعدُّد الآلهة لقوله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

كما أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه أن الفطرة التي فُطرت عليها البشرية كلُّها هي فطرة الإسلام التي هي التوحيد الخالص، في قوله: ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

* قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ

أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

١١ ـ يُبيِّن الله في كتابه أن التوحيد هو أصل دعوة الرُّسُل وإليه دعَوا أقوامَهم وقال تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣].

١٢ ـ إن الأصل في الإنسان التوحيد وهو أوّل ما عرفه الإنسان، ثم بدأ الانحراف فتدرَّج أمرُه حتى وقع في الشِّرْك وذلك هو الحقُّ الذي لا ريبَ فيه، ثم إن هذا القول الموافق للقرآن والسنة والفطرة، والعقل الصريح الموافق للنقل الصحيح قد اهتدى إليه بعض علماء الآثار والباحثين في الأديان الغربيين وغيرهم منهم: أدميسون هيوبل، آندري لانج، أوانج كاي.

١٣ ـ إنَّ الأصل في الإنسان التوحيد، وهذا يدحض افتراءات القائلين بأن التَّديُّن من صنع الإنسان وأول العبادة عند الإنسان كانت الآلهة المتعدِّدة، ثم ترقَّت إلى عبادة إلهين، كإله النور، وإله الظلام، وإله الخير، وإله الشر، ثم ترقَّى إلى عبادة الله وحده.

١٤ ـ إن التوحيد هو الأصل، ومغروس في الفطرة الإنسانية، وأيقنت به العقول الرشيدة، وأثبتته التجارب التاريخية الصادقة التي كانَ زعماؤها سادةَ البشر من الأنبياء والمُرسَلين.

١٥ ـ بدأت الإنسانية بالتوحيد ثم انتهت شيئاً فشيئاً إلى الشِّرْك والتَّعدُّد، وهذه هي الحقيقة العلمية المُؤيَّدة بالدليل العقلي والنقلي والمنطقي والبحث العلمي.

١٦ ـ إن الحقائق الدامغة حول أصل الإنسان وتوحيده رَبَّه تقلب نظريَّة «أوغسط كونت» رأساً على عقب، فقد كانَ «أوغسط كونت» يرى أن الإنسانية

بدأت التَّعدُّد والشِّرَك، ثم كان التوحيد خاتمة المطاف فيها، وهذه النظريَّة لـ «أوغسط كونت» لم تقف أمام الأبحاث الحديثة، فانهارت كما انهار غيرها من نظريات هذا المفكر الذي كانَ يحتلُّ يوماً مكان الصدارة بَينَ المُفكِّرين، والذي أصبحت آراؤه تدرس الآن على أنها أثر تاريخي فحسب.

١٧ ـ إن أوَّل شرك وقع في بني آدم هو في قوم نوح عليه السَّلامُ، وهو أوَّل الرُّسُل كما في حديث الشفاعة المشهور، حيث ورد فيه: يا نوح أنت أوَّل الرُّسُل إلى الأرض. وكما جاءت الآية التي تكلَّمَت على الرُّسُل بتصديره، مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

١٨ ـ زيَّنَ الشَّيطانُ لقوم نوح وجوبَ تعظيم الرجال الصَّالِحين بعد موتهم، وأوحى إليهم أن انصبوا إلى مجالسهم، وسمُّوها بأسمائهم، وجاء آخرون من قوم نوح فأوحى إليهم الشَّيطان أن مَن كانَ قبلكم كانوا يعبدون هذه الأصنام فعبدوها.

١٩ ـ تعرض القرآن الكريم لمعبودات قوم نوح في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

٢٠ ـ إن عبادة الأوثان لم تتسرَّبْ إلى عقائد البشر بَينَ عشية وضحاها، بل استغرقت شوطاً من الزمن منذ الانحراف الأول، وكان للطبيعة المادية وتسلُّط الشَّيطان على الإنسان أثرٌ في تنمية هذا الأمر واتِّساعه، ولا يَظُنُّ أحدٌ أن تطوُّر البشرية في العلوم وتقدُّمَها في الميدان الحضاري لن يُعيد الإنسانية إلى مرحلة الوثنيَّة تلك، فإننا ما زلنا نرى صُوَراً مختلفة في الوثنيَّة الحديثة التي تُذكِّرُنا بالجاهلية الأولى.

٢١ ـ إن الإسلام سدّ منافذ الشِّرك، ودعا إلى التوحيد الخالص قال تعالى:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٢ ـ ٣].

٢٢ ـ يُقدِّم لنا كتاب الله العزيز معلوماتٍ هامَّةً عن طريق القصص القرآني عن عصور ما قبل الإسلام، وأخبار دولها، أيّدتها الكشوفُ الحديثة كل التأييد، فيُقدِّم لنا ـ عن طريق قصة موسى عليه السَّلامُ ـ كثيراً من المعلومات عن الملكية الفرعونية المُتألِّهة، وعن الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والأمر كذلك في قصة إبراهيم عليه السَّلامُ، حيث تُقدِّم لنا الكثير عن العراق القديم.

٢٣ ـ إن أبرز قصص الأنبياء في القرآن الكريم قصتا إبراهيم وموسى عليهما السلام، فهما قِصّتان مُسهَبتان في أجزائهما؛ رُبَّما لأنهما ترويان نبأ الرسالة بَينَ أعرق أمم الحضارة الإنسانية، وهما أمة وادي النهرين وأمة وادي النيل، وكانت الثورة فيهما على ضلال العقل في العبادة جامعة لأكثر العبادات المُستنكَرة في الزمن القديم.

٢٤ ـ إنّ هدف القرآن الكريم في قصصه ليس التأريخ فقط لهذه القصص، وإنما لتكون عِبَراً تفرض الاستفادة بما حلّ بالسابقين، وزجراً لخصوم الإسلام من قريش، ثم تثبيتاً لقلب النبي ﷺ أمام أذى الكافرين، حيث شاءت رحمة الله بالمصطفى المختار أن تُخفِّف عنه الشدائد والآلام عن طريق قصص الأنبياء والمُرسَلين، حيث يُذكِّره الله جلَّ وعلا بما لاقاه أخوة كرام له من عَنَتِ الظالمين، وبغي الكافرين، فما وهنوا وما استكانوا وما ضعفوا وما تخاذلوا ولكنهم صبروا وصابروا.

٢٥ ـ إذا قرأت ما ورد في القرآن الكريم من قصص، فإنك لن تجد شيئاً من المبالغات التي وصلت إلينا في كتب التاريخ، أو في توراة اليهود المتداولة اليوم فضلاً عن أن ما ذكره القرآن الكريم تُؤيِّده الاكتشافات الحديثة، كقصة عاد وثمود

اللَّتين تبيَّن أنهما مذكورتان في جغرافية بطليموس، وأن هناك الكثير من النصوص التاريخية التي تتحدَّث عن ثمود ـ فضلاً عن أن الكتّاب اليونان والرومان ـ إنما ذكروا اسم عاد مقروناً باسم إرم كما جاء في القرآن، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

٢٦ ـ معنى النبي: مَن بُعث لتقرير شرع مَن قبلَه من الرُّسُل.

٢٧ ـ معنى الرسول: مَن بُعث بشرع جديد.

٢٨ ـ الحكمة من بعث الرُّسُل: تبليغ وحي الله للبشر، ودلالة النَّاس على عبادة الله وتوحيده، وإقامة الحُجَّة على البشر، وحاجة الخلق إلى القدوة الحسنة، وإصلاح نفوس النَّاس وتزكيتهم وتطهيرها، وإقامة الحُجَّة على البشر... إلخ.

٢٩ ـ إن الأمور التي تفرَّد بها الأنبياء: الوحي، الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، لا يُورِّثُون، تخيير الأنبياء عند الموت، لا تأكل الأرض أجسادهم، العِصمة.

٣٠ ـ نوح عليه السَّلامُ مع كونه نبياً رسولاً، هو أيضاً من أُولي العزم من الرُّسُل، وهذه مرتبة عالية لا ينالها إلا قِلّة من المُرسَلين، وهم خمسةٌ: محمد وإبراهيم ونوح وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام.

٣١ ـ نوح عليه السَّلامُ أوَّل الرُّسُل إلى أهل الأرض بعدما وقع الاختلاف بَينَ البشر في التوحيد، فكفر بعضهم وبقي آخرون على الإيمان.

٣٢ ـ الأولية المذكورة في حق نوح عليه السَّلامُ مُقيَّدة بما بعد وقوع الاختلاف، فلا يُنافي في ذلك نبوة آدم عليه السَّلامُ، فإنه عليه السَّلامُ أُرسل إلى أولاده، ولم يكن بينهم خلافٌ في توحيد الله وعبادته وحده دون غيره.

٣٣ ـ نوح عليه السَّلامُ أُرسل إلى قومه وهم في ذلك الوقت أهل الأرض جميعاً، بعد وقوع الشِّرْك في الأرض، وبذلك لا يبقى تَعارُض بَينَ كون آدم رسولاً وبين كون نوح هو أوَّل رسول أُرسل إلى أهل الأرض.

٣٤ ـ نوح عليه السَّلامُ الأب الثاني للبشر، وهذا محلُّ اتِّفاق بَينَ العلماء من أهل الإسلام، لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].

٣٥ ـ ولئن تشرَّفَ نوحٌ عليه السَّلامُ بالأُبوّة للبشر بعد آدم، فلقد تشرَّفَ أيضاً بأُبُوَّتِه للأنبياء والمُرسَلين.

٣٦ ـ إن نوحاً عليه السَّلامُ هو الجدُّ الأعلى لإبراهيم خليل الرحمن ومَن بعده من الأنبياء، كما أن إبراهيم عليه السَّلامُ جدٌّ لجميع الأنبياء والمُرسَلين بعدَه، فهؤلاء ذُرِّية بعضُها مِن بَعض.

٣٧ ـ لم يرد في الكتاب العزيز ولا في السُّنة الصحيحة المبارَكة فيما وقعتُ عليه نسبَ نوح عليه السَّلامُ، ولم يرد لأبيه ذِكرٌ وإن كانَ الحافظ ابن كثير قد ذكر في كتابه قصص الأنبياء نسبَ نوح عليه السَّلامُ والله أعلم بصِحَّة ذلك.

٣٨ ـ نوح عليه السَّلامُ كثير الشُّكر لربِّه وهذه الصفة من الصفات التي اشتهر بها نوح عليه السَّلامُ حتى صار معروفاً بها بَينَ إخوانه من الأنبياء والمُرسَلين، قال تعالى في حقه: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

٣٩ ـ إن النَّاس في زمن نوح ومن كانَ قبله إلى آدم عليهما السلام كانوا يُعمَّرون مُدَداً طويلة من العمر حتى كانَ عمر الواحد منهم يقترب من الألف أو يزيد، ثم إن النَّاس لم يزالوا في نقصان أعمارهم من ذلك الوقت إلى يومنا هذا.

٤٠ ـ إن دعوة الأنبياء والمُرسَلين واحدة في أصولها على مرّ الزمان والمكان، والكلُّ منهم كانَ يبذل غاية جهده وأقصى طاقاته لربط النَّاس بخالقهم

وتوجيههم الوُجهة الصحيحة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٦].

٤١ ـ إن أساس دعوة الأنبياء والمُرسَلين تعبيد النَّاس لله تبارك وتعالى، وتحقيق التوحيد له عزَّ وجلَّ، فلا تعلو قَضيّة أُخرى مهما كانت أهميتها على قضية التوحيد، وكان الأنبياء في دعوتهم للتوحيد يدعون قومهم إلى ترك المُنكَرات، كالتَّطفيف في الميزان والبغي على النَّاس، وهكذا الدعاة إلى الله تعالى يجب أن يكون التوحيد أساس دعوتهم ومنطلقها، ومع ذلك يُعنَون بعلاج المشكلات المُتفشِّية في عصرهم.

٤٢ ـ حينما انحرفت الإنسانية في عقيدتها شاءت رحمة الله أن يُرسِلَ نوحاً عليه السَّلامُ مُبشِّراً بالحقِّ في مجال العقيدة، وبالخير في مجال الأخلاق، وبالعدالة في مجال التشريع.

٤٣ ـ قام نوح عليه السَّلامُ بالدعوة إلى عبودية الله وتحقيقها في نفسه حقَّ القيام، وأخلص له في أعماله كُلِّها وفقد كان: ﴿ عَبْدًا شَكُورًا ﴾.

وكان كثير الاستعاذة بالله و طلب المغفرة والرَّحمة منه سبحانه، فقال تعالى مُخبراً عنه عليه السَّلام: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٧]. وقال تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [هود: ٤١]. وقال تعالى: ﴿ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [يونس: ٧١].

وكان يتعبَّد الله عزَّ وجلَّ بأسمائه الحسنى ويسأل الله بها: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾، ﴿ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ ﴾. ومن أوضح الأعمال

الظاهـرة التي قـام بها نوح عليـه السَّلامُ امتثالُه لأمر ربِّه في بناء السَّفينة، وقد حقَّق نوحٌ عليه السَّلامُ: عبوديّةَ القلب، وعبوديَّةَ الجوارح، وعبوديَّةَ اللِّسان. وعلَّمهـا لأتباعـه ومَن آمن بـه، ودعا إليها على بصيرة وعلم من عند الله عزَّ وجلَّ.

٤٤ ـ اهتمَّ نوح عليه السَّلامُ بدعوة قومه إلى توحيد الله وإفراده بالعبودية والحثِّ على تقواه، لأن تقوى الله عزَّ وجلَّ هي الضمانة الحقيقية لاستقامة النَّاس على منهج الله، وعدم التفلُّت منه هنا أو هناك وعدم الاحتيال عليه أو الالتواء في تنفيذه.

٤٥ ـ إن الدِّين المشروع عند الله تعالى هو الإسلام وما سواه من الأديان غير مُعتدٍ به كالوثنيَّة بمختلف صورها والأديان المحرَّفة، وأما الدِّين الذي أَرسل الله جل وعلا به جميعَ الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام فهو الإسلام الذي هو عبادة الله وحده.

٤٦ ـ ورد اسم نوح عليه السَّلامُ في القرآن ثلاثاً وثلاثين مرة، وذُكر نوح عليه السَّلامُ في القرآن على حالتين: **الحالة الأولى**: ذُكر اسُمه مجرَّداً أو مضافاً إلى قومه ضمن الحديث عن قصته وذلك في إحدى عشرة مرة. **الحالة الثانية**: ذُكر اسمُه مجرَّداً أو مضافاً إلى قومه لكن ليس ضمن الحديث عن قصته وإنما هي إشارة سريعة إليه أو إلى رسالته أو إلى شريعته أو إلى كفر قومه وتكذيبهم وذلك بما يتفق مع موضوع السورة أو الوحدة التي وردت فيها الإشارة في اثنتين وعشرين مرة.

٤٧ ـ السور التي ورد اسم نوح عليه السَّلامُ فيها مُجرَّداً أو مُضافاً إلى قومه، لكن ليس ضمن قصته، هي: سورة آل عمران، النساء، الأنعام، الأعراف، التوبة، هود، إبراهيم، الإسراء، مريم، الحج، الفرقان، الأحزاب، ص، غافر، الشورى، ق، الذاريات، النجم، الحديد، والتحريم.

٤٨ ـ والسور التي وردت فيها مشاهد ولقطات عن قصة نوح عليه السَّلامُ هي: سورة الأعراف، يونس، هود، الأنبياء، المؤمنون، الشعراء، العنكبوت، الصافات، القمر، ونوح، ويتفاوت المقدار المعروض من قصته في هذه السور طولاً وقصراً، وتعرض المشاهد واللقطات من القصة بالمقدار الذي يتَّفق مع موضوع السورة وسياقها وشخصيتها والعبرة المقصودة منها.

٤٩ ـ سورة «نوح» كلها في الحديث عن قصته مع قومه، وسورة «هود» عرضت مشاهد ولقطات طويلة من قصته، وسورة «يونس» و«الشعراء» عرضت لقطات أقصر، بينما وردت الإشارة إلى القصة في سورة العنكبوت في آيتين اثنتين تضمَّنتا معلومة هامة لم ترد في السور الأخرى.

٥٠ ـ تحدَّثَت السُّوَر العشر السابقة عن قصة نوح عليه السَّلامُ، واللافت للنظر أنها سور مكية، وهذا يتَّفق مع طبيعة القرآن المكي، الذي كانَ يُوظِّف القصص لإثبات نبوة محمد ﷺ، وبيان أن القرآن كلام الله، وتقديم الدُّروس والعظات للمؤمنين المستضعفين في مكة.

٥١ ـ بيَّن الدكتور طه وادي في كتابه ﴿أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أن: ٥٤ . ٩٤ ٪ من الآيات في قصة نوح عليه السَّلامُ في العهد المكي، و٤٦ . ٥ ٪ من الآيات في قصة نوح عليه السَّلامُ في العهد المدني.

٥٢ ـ إن عناية الذكر الحكيم بقصة نوح عليه السَّلامُ بهذا الشكل المُفصَّل في مواضع عدة يُوضِّح مدى الجهد والجهاد اللَّذين بذلهما هذا الرسول الكريم على المستويين ـ النفسي والمادي ـ من أجل إعلاء كلمة الله ونشر رسالته بَينَ قوم مشركين، خاصّة أنه أوَّل رسول من ذُرِّية آدم عليه السَّلامُ بعد أبيه آدم.

٥٣ ـ وردت قصة نوح في خمسٍ وعشرين آية من سورة هود [٢٥ ـ ٤٩]. والمشاهد واللقطات المعروضة من القصة في هذه السورة من أطول المشاهد،

وتكاد تكون أطول من المشاهد المعروضة في سورة نوح نفسها التي تَخصَّصَت في الحديث عن قصته.

٥٤ ـ تحدَّثَت آيات سورة هود عن إرسال نوح إلى قومه، ودعوته لهم إلى عبادة الله وحده، ورَدِّ الملأ الكفار من قومه عليه، وإثارة الشبهات لهم حوله وحول دعوته، وحول أتباعه، وَرَدِّ نوح عليه السَّلامُ ونقض تلك الشبهات، ورفض العرض الذي قَدَّمه له كفار قومه بطرد أتباعه المؤمنين وطَلبِ قومه إيقاعَ العذاب بهم، ورد على طلبهم بالحُجَّة والأدلّة.

٥٥ ـ تحدَّثَت الآياتُ عن إخبار الله له بأنه لن يؤمن من قومه إلا مَن قد آمن، وأمرِه له بصنُع السَّفينة، وعرضت الآيات بعض ما جرى بينه وبين قومه الكفار أثناء صنعه السَّفينة.

٥٦ ـ عرضت الآيات مشاهد بدء الطُّوفان، وفوران التَّنور بالماء، وتحميل نوح في سفينته زوجين من كلِّ حيٍّ، والمؤمنين معه، وجريان السَّفينة في أمواج الطُّوفان باسم الله.

٥٧ ـ صوّرت الآيات ما جرى بَينَ نوح وابنه الكافر وهلاك ذلك الكافر غرقاً، كما صوّرت الآيات انتهاء الطُّوفان وزوال الماء، واستقرار السَّفينة برُكّابها على جبل «الجودي».

٥٨ ـ سجلت الآيات الكريمة في سورة هود سؤال نوح لرَبِّة عن غرق ابنه، وعتاب الله له وبيانه أنه ليس من أهله لأنه عملٌ غير صالح، وتأدُّب نوح مع ربه وطَلَبه منه المغفرة والرَّحمة.

٥٩ ـ تحدَّث القرآن الكريم عن حوار نوح مع ابنه في وسط الأهوال الكَونيَّة والنَّفسيَّة.

٦٠ ـ خُتمت الآيات في سورة هود بمنظر نزول نوح وأتباعه المؤمنين من

السَّفينة إلى الأرض واستئناف الحياة من جديد على وجه الأرض، ووُظِّفت قصّةُ نوحٍ للدلالة على نبوة محمد ﷺ.

٦١ ـ تحدَّثت سورة الأعراف عن إرسال الله عزَّ وجلَّ نوحاً إلى قومه، ودعوته لهم إلى عبادة الله وحده، واتِّهام الملأ من قومه له بأنه ضالّ، وردّه لذلك الاتهام، وتقديمه نفسه ودعوته لهم وإزالة عَجَبِهم مِن بَعثِ رسولٍ من البشر، وتكذيبهم له، ثم تدميرهم ونجاة الذين آمنوا معه.

٦٢ ـ ذُكرت في سورة «المؤمنون» جوانب من حديث الملأ من قوم نوح عليه السَّلامُ لقومه، لِصَدِّ النَّاس عن دعوة التوحيد وصرفهم عن عبادته قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٣ ـ ٢٦].

٦٣ ـ في سورة الشعراء كانَ الحديث عن قصة نوح عليه السَّلامُ، وجاءت الآيات مختصرة مع شُمول قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٠٥ ـ ١٢٢].

٦٤ ـ كان نوح عليه السَّلامُ لما واجهه قومُه بالأذى واتَّهموه بالجنون

والضَّلال وسَخِروا منه وأساؤوا الأدب معه وتوعَّدوه بالرَّجم وغير ذلك تحدّاهم أكبر التَّحدِّي حتى قال بعض أهل العلم: إن معجزة نوح صلوات الله وسلامه عليه تتمثَّلُ في ذلك التَّحدِّي الذي تحدّى به قومه، قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ [يونس: ٧١-٧٣].

٦٥ - ذكر القرآن الكريم صفات قوم نوح عليه السَّلامُ والتي من أهمها: ﴿كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾، ظالمون، قوم سوء، الكفر، فاسقون، كاذبون، طُغاة.

٦٦ - تحدَّث القرآن الكريم عن سيرة قوم نوح عليه السَّلامُ وأبرز أمراضهم وآفاتهم وصفاتهم، كما تحدَّث عن المُعوِّقات التي منعتهم من الاستجابة لدعوة التوحيد وإفراد الله عزَّ وجلَّ بالعبادة التي نادى بها نوح عليه السَّلامُ، ومن أهم المُعوِّقات التي ذكرها الله عزَّ وجلَّ: المُعوِّق الأول: الكِبْر، والثاني: العناد، والثالث: التَّقليد الأعمى، والرابع: الوثنيَّة، والخامس: الملأ، ومن أعمال الملأ: المكر، الترف.

٦٧ - اشتكى نوح عليه السَّلامُ (في سورة نوح عليه السَّلامُ) لربِّه من معصية قومه، وأنَّه رَغَّبَهم وحَثَّهم على الاستغفار ودعاهم إلى التَّفكُّر والتدبُّر في عالم الأنفس والآفاق، لكنهم أصرُّوا على العناد والاستكبار، فدعا عليهم واستجاب الله دعاءه ونزل العقاب بهم.

٦٨ - أوحى الله إلى نوح بأنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، وأمره بصناعة سفينة النجاة.

٦٩ - وصف القرآن الكريم جهد نوح عليه السَّلامُ ومَن آمن به في صناعة السَّفينة، وبيَّن بأنها كانت بوحي من الله وبعنايته سبحانه وتعالى.

٧٠ ـ تحدَّث القرآن الكريم عن ركوب السَّفينة، وماذا حمل نوح عليه السَّلامُ عليها، وانطلاقها باسم الله، وحمد الله على النجاة من القوم الظالمين، وسؤال الله النزول في أرض مباركة.

٧١ ـ عرض الله عزَّ وجلَّ في سورة القمر مشهد التنكيل والتعذيب والطُّوفان العظيم الذي أصاب قوم نوح، وكيف أن أبواب السَّماء فُتحت، فكانَ الماء يُصَبُّ منها صبّاً على خلاف المعهود في نزول المطر، وكيف تحوَّلَت الأرضُ كلُّها إلى عيون تتفجَّر منها المياه بشكل عنيف قوي، ولك أن تتصوَّر من خلال الآيات الكريمة الحَدَّ الذي وصلت المياه إليه من الارتفاع.

٧٢ ـ في غمرة الأحداث التي تُصوِّرها الآياتُ القرآنية، وبين صخب الأمواج التي تنحسر وتمتدُّ في بحر هائج ينطوي هذا المشهد فجأة بالأمر الرَّبانيّ بنهاية الطُّوفان لنرى من ورائه مباشرة عودة الهدوء إلى الدُّنيا ورجوع كل شيء إلى نظامه السابق، فقد هدأت الزَّمجرة وسكنت العاصفة ووُلدت الدُّنيا كما كانت من جديد، فلنتأمَّلِ اللَّوحةَ الإلهية التي رسمت هذا المشهد: قال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

إن هذه الجمل القرآنية العجيبة تُصوِّر لك معنى الإرادة الإلهية وسُلطانها الرَّهيب المنبسط على الكون كلِّه، بل القابض عليه كله، تتصرَّف فيه كما تشاء في سمائه وأرضه وبحاره وجباله وفي كل شيء، ليس في حسابها أي معنى لكبير وصغير، أو لعظيم وحقير، ألا ترى كيف علَّقَتِ الآيةُ رجوعَ كُلِّ شيء إلى ما كانت عليه بعد أن التقت مِياهُ السَّماء والأرض على طوفان هائل مُخيف على كلمة صغيرة: «قِيل» لِتُصوِّر لك سهولة الأمر وأنه لا يحتاج إلا لهذا الأمر الإلهي الذي به قيام الدُّنيا وزوالها.

٧٣ ـ ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: فيه تعريض بأن سالكي مسالك هؤلاء في

الظُّلم والتكذيب يَستحِقُّون مثلَ هذا البُعد من الله والدعاء عليهم فأولى للظَّالمين والمُكذِّبين أن يعتبروا ويرجعوا عن تكذيبهم وظُلمِهم حتى لا يُنزل الله بهم ما أنزل بأمثالهم.

٧٤ ـ في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠]، هذه الآية صريحةٌ في بيان موقف امرأة نوح التي ظلَّت على كُفرها، فلم ينفعْها زواجُها من نبيٍّ الله نوح عليه السَّلامُ، والخيانة هنا: هي الخيانة في الدِّين، بمعنى الكفر وليس المقصود بها الخيانة بمعنى الزِّنى، قال ابن عباس: ما بَغَت امرأةُ نَبِيٍّ قطُّ، إنَّما كانَت خِيانتُهُما في الدِّين، أيْ: امرأة نوح وامرأةُ لوط.

٧٥ ـ إنَّ نوحاً عليه السَّلامُ جاء في نهاية الحضارة الإنسانية الأولى، والتي بدأت من آدم عليه السَّلامُ، ثم انحرفت عن التوحيد وإفراد العبادة للخالق العظيم، وتطوَّرت الحياة الإنسانية على وجه الأرض في قضاياها المادية، وضعفت وأخطأت السبيل في قيمها الروحية، ومعرفتها بخالقها سبحانه وتعالى، فأرسل الله عزَّ وجلَّ نوحاً عليه السَّلامُ فأقام على قومه الحُجَّة والبرهان، ومضت سُنَّةُ الله في زوالهم واستئصالهم وآمن معه القليل الذين أنشأ بهم حضارة السلام والبركات بعد الطُّوفان العظيم.

٧٦ ـ إن من أسباب زوال ونهاية الحضارة الإنسانية الأولى عوامل عديدة من أهمها: الكفر بالله تعالى، الشِّرْك بالله، الظلم، تكذيب الرسول الكريم «نوح عليه السَّلامُ»، إيذاء نوح عليه السَّلامُ بأنواع الإيذاء ودعاؤه عليهم، استعجال العذاب، الجدال بالباطل، الترف، البطر، الاستكبار، المكر، الخطايا والذنوب، الاشتغال بالدُّنيا ونسيان الآخرة، سُنَّة الاستبدال، سُنَّة الأجل الجماعي، سُنَّة الهلاك، سُنَّة الخسران، الغفلة من أسباب الهلاك.

٧٧ ـ علينا الحذر من الانحرافات والأساطير والإسرائيليات والموضوعات التي أُلصقت بقصة نوح عليه السَّلامُ، فقد لعبت الإسرائيليات دوراً عكّر صفاء قصة نوح عليه السَّلامُ في كثير من الأحايين، فيروُون مثلاً أن الله أمر نوحاً أن يغرس شجراً ليصنع منه السَّفينة، وأن النبي غرس هذا الشجر ثم انتظره مائة عام، ثم نجره مائة عام أخرى على رواية، وفي أربعين على أخرى.

٧٨ ـ وهناك روايات كثيرة عن دخول الحيوانات والطيور إلى السَّفينة في ذيل حمار وغير ذلك من الخرافات والخزعبلات.

٧٩ ـ ليس هناك باحث مُنصِفٌ يُنكر أثر الإسرائيليات في هذه الروايات التي تجنح إلى الخيال أحياناً، وإلى منافاتها للعقيدة الإسلامية الصحيحة أحياناً أخرى، وإلى تعارُض بعضها مع بعضٍ في أحايين كثيرة.

٨٠ ـ تأثَّرت كُتُب التَّاريخ وأيام النَّاس وتسرَّبت إلى كتب التفاسير أخطاء وموضوعات وإسرائيليات مخالفة للمعقول والمنقول، لذلك يجب تنقية كتب التراث من الخرافات والأساطير، والاعتماد على الرؤية الحضارية القرآنية التي قدَّمها القرآن الكريم في قصة نوح عليه السَّلامُ.

٨١ ـ افترى بنو إسرائيل على نبيِّ الله نوح عليه السَّلامُ، فقد زعموا أنه شرب الخمر فسكر وتعرَّى داخل خبائه وغير ذلك، فما يكون لنوح وهو من أُولي العزم من الرُّسُل أن يشرب الخمر ويسكر ويتعرَّى وتُرى عورته، وإذا كانَ كذلك فما قيل عن حام كذب أيضاً.

٨٢ ـ تحدّث العلماء عن طُوفان نوح عليه السَّلامُ هل عمّ الكرة الأرضية؟ واختلفوا في ذلك.

٨٣ ـ إن قصة الطُّوفان العظيم شغلت حَيِّزاً كبيراً واسترعت اهتمام الكثير من الباحثين والمُتخصِّصين في الحقول العلمية والمعرفية والإنسانية، كعلم الأديان

أو علم مقارنة الأديان أو علم الاجتماع أو الأنثروبولوجيا والتاريخ، وهذا يدلُّ على أن حادثة الطُّوفان بشِقّيها الأسطوري والديني قد تركت أثراً كبيراً في نفوس وعقول ووجدان الأمم اللاحقة.

٨٤ ـ تضاربت المصادر والمراجع التاريخية في قصة الطُّوفان، وانفرد القرآن الكريم بالحقيقة الكاملة لقصة نوح عليه السَّلامُ والطُّوفان العظيم، ولا يمكن أن تضاهيها أيُّ مدرسة من المدارس الإنسانية التي اهتمَّت بالطُّوفان، فقد حفظ الله ما ينفع البشر من سيرة نبيه ورسوله نوح عليه السَّلامُ لن تجد ذلك في الآثار السومرية، ولا البابلية، ولا التوراتية المُحرَّفة ولا غيرها، فالنص القرآني بَيَّنَ بوضوح ودِقّة متناهية حقيقة دعوة نوح وقصته.

٨٥ ـ إنَّ النصَّ القرآني هو النصُّ الوحيد الذي تَسامى عن مهاوي الشِّرْك وضلال الوثنيَّة، فهو يذكر في صراحةٍ تامَّةٍ أن القوم قد حادوا عن عبادة رَبِّهم وانصرفوا إلى عبادة الأوثان.

٨٦ ـ إنَّ النصَّ القرآنيَّ لم يعتمد على غيره؛ لأنه وحي من عند الله، بعكس المصادر البشرية القديمة، فالسومريون بعد أن كتبوا روايتهم عن الطُّوفان جاء البابليون من بعدهم وأخذوا منها ما أخذوا، ثم جاءت اليهود ونقلت ما نقلت عن الاثنين، وهكذا كانت كل رواية طُوفانيّة تعتمد على رواية سبقت في التدوين، ولكن الأمر جِدُّ مُختِلف بالنسبة إلى القصة القرآنية، التي هي وحي من ربِّ العالمين.

٨٧ ـ لم يكن رسول الله ﷺ ولا قومه على دراية بقصة الطُّوفان هذه، وإلى هذا يُشير القرآن الكريم: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩].

٨٨ ـ يسأل بعض النَّاس عن مصير الأطفال وما ذنبهم حتى يعمهم الطُّوفان؟ وقد أجاب العلماء على ذلك: لقد جرت العادة أن النِّقمة إذا حلَّت بقوم عَمَّتهم

دون تمييز بَينَ صغير وكبير وبارٍّ وفاجر وفي ذلك يقول جلَّ شأنُه : ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال : ٢٥].

ولا شكَّ أنَّ أخْذَ الصبية والأطفال بعموم المِحنة فيه زيادة تعذيب ونكال لآبائهم وأما هم فإنهم ماتوا بآجالهم وفي الوقت الذي حدَّدَه الله لهم، وليس عليهم بعد الموت مساءلة ولا أَخْذٌ بما فعل آباؤهم، على أننا نرى الأطفال يهلكون بمختلف الأمراض والآفات والابتلاءات، كالزلازل والفيضانات والحروب وليس ذلك عقاباً للأطفال على ذنوب ارتكبوها أو آثام اقترفوها، ولكن ذلك من باب الآجال وما قدَّرَه الله عليهم لحكم عديدة وفق علمه وحكمته ومشيئته وقضائه وقدره العادل ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ سبحانه وتعالى، وما قاله بعض العلماء : إن الله أعقَمَ أرحامَ نساء قوم نوح أربعين سنةً قبل الطُّوفان حتى كبر من كانَ صغيراً واشتركوا جميعاً في الإثم فحلَّ بهم غضب الله ونقمته. إن هذه الإجابة مجرَّدُ دعوى ينقصها الدليل، فلا كلام في مثل هذه الموضوعات إلا بدليل.

٨٩ ـ بدأت الحضارة الإنسانية الثانية بنزول نوح عليه السَّلامُ من السَّفينة بعد نهاية الطُّوفان، وبدايتها وأبعادها الأممية تتَّضح في قول الله تعالى : ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود : ٤٨]، فبدأت بالسلام والبركات.

٩٠ ـ كان نوح عليه السَّلامُ من أُولي العزم من الرُّسُل الذين حقَّقوا التوحيد وإفراد الله بالعبادة ودعَوا إلى ذلك، وآمن بعضُ النَّاس برسالته وربّى النَّاس على أخلاق وصفات حميدة، كانت مُتجسِّدة في شخصه الكريم، وفاضت على مَن حوله من أتباعه، فقد كانَ كثير الشُّكر لربِّه مُخلصاً له، طارقاً لأبوابه بالدعاء والتَّضرُّع بَينَ يديه، وشديد الخوف من الجليل، ومتوكلاً على العزيز الرحيم،

تائباً إلى الله، وطالباً للمغفرة منه، صابراً على تكاليف الدعوة، صادقاً في دعوته، شجاعاً لا يخاف إلا الله، بارّاً بوالديه وغير ذلك من الأخلاق والصفات الحميدة التي عاش بها في وسط النَّاس، ودعا إليها وعلَّمها لمن استجاب لدعوته، وعمل على غرس تلك الصفات النبيلة في قلوب أتباعه قبل الطُّوفان وبعده، وساهمت تلك المنظومة الأخلاقية المتينة في التأسيس الأخلاقي للحضارة الإنسانية الثانية.

٩١ ـ إن قيادة الحضارات وتربية النفوس والنهوض بها تخضع لقوانين وسُنَنٍ ونَواميسَ تتحكم في مسيرة الأفراد والمجتمعات والشعوب والأمم، وعند التأمُّل في سيرة نوح عليه السَّلامُ نراه قد تعامل مع السُّنن والقوانين بحكمة وقدرة فائقة وتوفيق من الله عظيم.

٩٢ ـ إن السُّنَن الرَّبانيَّة هي أحكام الله تعالى الثابتة في الكون وعلى الإنسان في كلِّ زمان ومكان، وهي كثيرة جِدّاً، والمُتدبِّر لآيات القرآن الكريم يجدها حافلة بالحديث عن سُنَن الله تعالى، التي لا تتبدَّل ولا تتغيَّر، ويجد عناية ملحوظة بإبراز تلك السُّنَن وتوجيه النظر إليها واستخراج العِبَر منها، والعمل بمقتضياتها لتكوين المجتمع السعيد المستقيم على أمر الله.

٩٣ ـ إن حركة نوح عليه السَّلامُ نحو توحيد الله عزَّ وجلَّ وإفراده بالعبادة والحثِّ على تقواه وعمارة الأرض على شريعة ربِّ العالمين، اعتمدت بعد توفيق الله على تنظيم جهود الدعوة وصناعة الإنسان النموذجيِّ الرَّبانيّ الحضاريّ، الذي تعامَلَ مع فِقه السُّنن وقوانين الحضارة، فظهر لنا من خلال سيرته وقصته: أهمية القيادة في صناعة الحضارة، وأهمية الجماعة المؤمنة المنظَّمة في عمارة الأرض وخلافتها، وأهمية الوحي الذي يُبيِّن المنهج الرَّبانيّ في العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات والقيم والتَّصوُّرات، وأهمية سُنّة التَّدرُّج وهي من سُنَنِ الله في خلقه وكونه، وهي من السنن الهامة التي يجب على الأمة أن تراعيها وهي تعمل للنهوض والتمكين لدين الله.

٩٤ ـ تعامَلَ نوح عليه السَّلامُ مع سُنّة الله في تغيير النفوس من خلال ما أوحى الله إليه من عقائد صحيحة وتصوُّرات سليمة وأفكار رشيدة وأخلاق رفيعة، غرسها في قلوب أتباعه الذين اقتدوا به وساروا في طريق الله المستقيم.

٩٥ ـ تعامَلَ نوح عليه السَّلامُ مع سُنّة الأخذ الأسباب في أسلوب الدعوة، والاهتمام بمَن آمن معه، وصناعة الفلك، وحمل بذور الحضارة الإنسانية الثانية معه في الفلك المشحون وغير ذلك.

٩٦ ـ تعامَلَ نوح عليه السَّلامُ مع سُنَّة التَّدافُع في عالم العقائد والأفكار والتَّصوُّرات والأخلاق، وقد ظهرت بينه وبين قومه جَلِيّة واضحة.

٩٧ ـ تعامَلَ نوحٌ عليه السَّلامُ مع سُنّة الله في النصر والتمكين، وأخذ بشروطه وأسبابه، وتحقَّق قول الله تعالى فيه وفي الذين آمنوا معه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]. وقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

٩٨ ـ إنّ مفهوم الحضارة الإنسانية الثانية يعتمد على تحليل عميق للقصص القرآني واستنباط فهم حقيقيٍّ لمفهوم الحضارة يعتمد على الازدهار الحضاري، بخصائصه الفكرية والروحية، والوجدانية، والسُّلوكية، تحقيقاً لعبودية الله في الأرض وعمارتها وفق مراد الله عزَّ وجلَّ على مستوى الأفراد والشعوب والأمة.

٩٩ ـ أفضل مَن رسم فقه الحضارة الرَّبانيَّة لمسيرة الإنسانية، على مرّ تاريخها الطويل، هم الأنبياء والمُرسَلون فهم قادة حضارات إنسانية عظيمة أصَّلَت وبيَّنت مفهوم التوحيد والعبادة، والقيم والعمارة، والاستخلاف، والارتقاء السياسي والاجتماعي والاقتصادي والروحي النفسي والعمراني والمادي المنبعثة من قِيَمٍ مُستمَدّةٍ من الوحي الرباني.

١٠٠ ـ إنَّ الحضارة لا تكون ذات طابع إنسانيٍّ لدى الحضاريِّين حتى تتَّصف بالرُّقِيِّ المادي والمعنوي على حد سواء، لأن الحضارة تُقاس بالتقدُّم العلمي والصناعي والعمراني عندما تُعبِّر عن مقاصدَ إنسانيّةٍ صالحة ومبادى خُلُقية فاضلة، وقمة هذا الفهم الحضاري الإنساني الرفيع تجده في قيادة الأنبياء والمُرسَلين للأمم والشعوب، كالحضارة الإنسانية الثانية التي قادها نوح عليه السَّلامُ.

١٠١ ـ إن توحيد الله عزَّ وجلَّ هو الذي يُعطي الحضارة الإسلامية هُوُيَّتها، وهو الذي يربط بَينَ أجزائها، وهو الذي يطبع كلَّ ما يدخل إليها من عناصر فيُؤَسلِمُها ويُطهِّرُها بالتوحيد فتخرجُ متجانسة مع كل ما حولها.

١٠٢ ـ من خصائص الحضارة الإنسانية الثانية: الوحدانية المطلقة، الإنسانية، الأخلاق، العلم، الحرية.

١٠٣ ـ عوامل نشوء الحضارة الإنسانية الثانية عديدة منها: العامل العقدي، العامل الصناعي والاقتصادي، عامل البيئة، العامل الاجتماعي، العامل الأخلاقي، العامل السياسي، عامل الجمال.

١٠٤ ـ كانت دعوة نوح عليه السَّلامُ مُهتمّةَ بالتأمُّل والتَّفكُّر والتدبُّر في الطبيعة والكون، وهذه دعوة كل الأنبياء والمُرسَلين، ولم تكن دعوتهم تنصبُّ على الجانب التجريبي العمليِّ من أجل اكتشاف كنوز الأرض فقط، بل رافق هذا التوجيهُ إلى الجانب الانفعالي الجمالي من أجل تهذيب الإحساس البشري، ورفعه إلى مستوى السُّمُوِّ الروحيِّ والأخلاقي للإنسان.

١٠٥ ـ عامل الجمال في الحضارة الإنسانية الثانية يظهر جَلِيّاً على مستوى صاحب الرسالة، ومكونات الطبيعة ومنها: جمال المنطق وسمُّو الروح، وصفاء النفس، ويظهر جَلِيّاً في دعوته وأساليبه وحرصه على هداية قومه، جمال الأخلاق يتَّضح في صبره وتحمُّله رُدُودَ الأفعال الشنيعة من قومه، جمال عاطفة

الأُبوّة الملتهبة تظهر في عرضه على ابنه النّجاةَ، جمال صناعة السَّفينة وإتقانها يظهر في قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾، جمال الاعتذار يظهر في طلبه للمغفرة والرَّحمة من ربِّه ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾، جمال نزول المخلوقات من السَّفينة في أسرابها للانطلاق في هذا الكون الفسيح ومراعيه الخصبة، وأشجارها المثمرة، وغاباتها الكثيفة، جمال انكشاف الغُمّة والكرب العظيم في المشهد الكوني والنفسي في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، فعامل الجمال له حضوره وشهوده على كل مكونات الحياة في الحضارة الإنسانية الثانية، وتعامَل معها نوح على أعلى المستويات الذَّوقيّة الجمالية الإنسانية الرفيعة.

١٠٦ ـ استطاعت الحضارة الإنسانية الثانية أن تُحقِّق: الإخاء والمحبة، التَّعاطُف والتَّراحُم، التَّسانُد والتَّعاوُن، التَّكافل والتَّضامُن، التَّواصي والتَّناصُح، التَّطهُّر والتَّرقِّي، العدالة والإنصاف، التقدُّم العقلي والمنطقي والروحي والنفسي والمادي. وحقَّقَت الأهداف الأساسية للحياة الإنسانية ومن أبرزها: العبادة لله، خلافة الله في الأرض، عمارة الأرض.

١٠٧ ـ قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١ ـ ١٢]، هذا خطاب من الله تعالى مُوجَّه إلى البشر من بعد نوح وحتى قيام الساعة باعتبار أن الذين حُملوا مع نوح عليه السَّلامُ في السَّفينة هم الأصول التي انحدر منها أهل الأرض من بعد نوح إلى اليوم.

١٠٨ ـ قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١]، في عدد من الآيات الكونية المبهرة التي ساقتها سورة «يس» للاستدلال على حقيقة الألوهية وعلى طلاقة القدرة الإلهية المُبدعة في الخلق وشهادة ذلك على إمكانية البَعث وحتميته جاءت هذه الآية الكريمة والخطاب فيها مُوجَّه إلى كل

النَّاس بأن ذُرِّيّتهم جميعاً: من البلايين التي عاشت وماتت من بعد طوفان نوح إلى اليوم، والبلايين التي تملأ جنبات الأرض حالياً ومِمَّن سوف يخلفوننا إلى قيام الساعة، كل هؤلاء كانوا محمولين في الفلك المشحون.

١٠٩ ـ مقاصد قصة نوح عليه السَّلامُ كثيرة منها: أن يشحذ القارى عقلَه وفكره قال تعالى: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فمن هدف القصص القرآني تفكُّرُ النَّاس واتِّعاظُهم؛ لأن الأصل أن يفتحوا عقولهم وقلوبهم لما يُسمع من حوادث القصص القرآني، وأن يعتبروا بما جرى للهالكين، وأن يقتدوا بالصَّالِحين، والتفكير واجب قرآني وفريضة إسلامية، لا يجوز تعطيلها، ومن لم يتفكَّرْ ويتَّعِظْ بما جرى للسابقين فهو أعمى القلب والعقل والبصيرة.

١١٠ ـ ومن أهداف قصة نوح عليه السَّلامُ الاعتبار بما جرى للسابقين والاستفادة من ذلك ولا يَعتبر بهذا إلا أُولو الألباب والأبصار، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

١١١ ـ إن الله أراد من إيراد القصص القرآني تثبيت فؤاد النبي ﷺ وقلوب أصحابه وأتباعه، وقلوباً آمنت به في كل زمان ومكان، وجاء هذا في صريح قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

١١٢ ـ هذا الكتاب محاولة جادّة للبحث في سِيَر وقصص أُولي العزم من المُرسَلين، معتمداً بعد الله على ما جاء في كتاب الله العزيز، مُسترشداً بآراء العلماء الراسخين من أهل التفسير والفقه والفكر والتاريخ.

١١٣ ـ كُتب هذا الكتاب بطريقة فكرية حضارية تتماشى مع روح العصر والحوار الإنساني، واعتمدتُ في بيان حقيقة قصة نوح عليه السَّلامُ على آيات الذكر الحكيم بأسلوب عقلاني وأساس منطقي، ليصل إلى أعماق الوجدان الإنساني المُتعطِّش لمعرفة حقيقة نوح عليه السَّلامُ والطُّوفان العظيم وميلاد

الحضارة الإنسانية الثانية، ويبقى هذا الكتاب محاولةً جادّةَ لتبيين قصة نوح عليه السَّلامُ وتوضيح سيرة.

«وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين»

«سبحانك الله وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»

* * *

المصادر والمراجع

١ ـ فارق حمادة، **آباء وأبناء ملامح تربوية**، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ ـ١٩٩٧م.

٢ ـ علي محمد الصلابي، **أبو بكر الصديق**، دار الروضة، إسطنبول، الطبعة الأولى، ٢٠١٧م.

٣ ـ عبد الرحمن السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان.

٤ ـ وليد خالد الربيع، **أثر القرآن الكريم في بناء الشخصية الإسلامية**، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ ـ٢٠١٨م.

٥ ـ زاهية الدجاني، **أحسن القصص**، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ ـ١٩٩٥م.

٦ ـ أبو حامد محمد محمد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، دار الكتب العلمية، بيروت، دون تاريخ.

٧ ـ حمد بن محمد الوهيبي، **الإخلاص في القرآن الكريم**، دار التوحيد، الرياض، السعودية، ١٤٣٧هـ ـ ٢٠٠٦.

٨ ـ عودة بن عودة عبد الله، **أدب الكلام وأثره في بناء العلاقات الإنسانية في ضوء القرآن الكريم**، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.

٩ ـ أحمد عبد السلام أبو مزيريق، **إرشاد الحيران إلى توجيهات القرآن**، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.

١٠ ـ ياسر حسن عارف، **الأساليب التربوية في دعوة الرُّسُل من خلال سورة الأعراف**، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٤٢٩هـ.

١١ ـ سعيد محمد بابا سيلا، **أسباب هلاك الأمم السالفة**، دار ابن الجوزي، السعودية، دار الحكمة، بريطانيا، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

١٢ ـ محمود عباس العقاد، **الإسلام دعوة عالمية**، القاهرة، ١٩٦٥م.

١٣ ـ يوسف القرضاوي، **الإسلام وحضارة الغد**، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.

١٤ ـ محمد متولي شعراوي، **أسماء الله الحسنى**، دار أخبار اليوم، القاهرة، دون تاريخ.

١٥ ـ الحسين بن محمد الدامغاني، **إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم**، تحقيق عبد العزيز سيد الأهل، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، ١٩٧٠م.

١٦ ـ زغلول النجار، **الإعجاز الإنبائي والتاريخي**، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م.

١٧ ـ **إغاثة اللهفان من مصائد الشَّيطان**، مكتبة المُؤيِّد، الرياض.

١٨ ـ هدى جعفر صالح العبوسي، **الأنبياء في القرآن قصص وعبر**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م.

١٩ ـ محمد أديب الصَّالِح، **الإنسان والحياة في وقفات مع آيات الله**، دار العبيكان، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

٢٠ ـ عبد الله طاهري، **الإنسان والعمران من خلال قصص القرآن دارسة في فقه القصص القرآن**، دار الكلمة، القاهرة، الدار المغربية، المغرب، الطبعة ١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٨م.

٢١ ـ عبد الله محمد المعتاز، **أولو العزم من الرُّسُل نوح عليه السَّلامُ**، دار السلام، الرياض، السعودية.

٢٢ ـ محمد عبد الله السمان، **أولو العزم من الرُّسُل**، دار الاعتصام، القاهرة، مصر، طبعة ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

٢٣ ـ طه وادي، **أولو العزم**، دار النشر للجامعات، مصر، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

٢٤ ـ علي محمد الصلابي، **الإيمان بالقدر**، دار ابن كثير، الطبعة الرابعة، ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م.

٢٥ ـ محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي، **البحر المحيط في التفسير**، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ.

٢٦ ـ محمد بن إسماعيل، البخاري: **صحيح البخاري**، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

٢٧ ـ **البداية والنهاية**، ابن كثير، دار الريان للتراث، مصر، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٩٠م، بعناية عبد الرحمن اللاذقي ومحمد غازي، دار المعرفة، لبنان، ط٤، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٢٨ ـ محمد مرتضى الزبيدي، **تاج العروس في جواهر القاموس**، دار مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ.

٢٩ ـ أبو جعفر محمد بن جرير، **تاريخ الرُّسُل والملوك المعروف تاريخ الطبري**، دار سويدان، بيروت، لبنان، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.

٣٠ ـ محمد رسمي الدكر، **تأصيل التاريخ في معرفة أصول بني إسرائيل**، دار الكتاب العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٩م.

٣١ ـ الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، دار سحنون، تونس، ١٩٨٣م.

٣٢ ـ فوز بنت عبد اللطيف الكردي، **تحقيق العبودية لمعرفة الأسماء والصفات**، دار طيبة، السعودية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٣٣ ـ مصطفى العدوي، **التسهيل لتأويل التنزيل، تفسير الفرقان**، أبو عبد الله مصطفى العدوي، مكتبة مكة، طنطا، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

٣٤ ـ عقيد خالد الغراوي، عمر رغد البرزنجي، **التصوير القرآني وسياقاته الدلالية**، دار العصماء، دمشق، ط١، ١٤٣٨هـ ـ ٢٠٠٨م.

٣٥ ـ الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، حققه يوسف علي بديوي، حسن سويدان، **تفسير ابن كثير: تفسير القرآن العظيم**، دار ابن كثير، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م.

٣٦ ـ أبو السعود محمد العمادي الحنفي، **تفسير أبي السعود، المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض، مطبعة السعادة، القاهرة.

٣٧ ـ عماد الدين خليل، **التفسير الإسلامي للتاريخ**، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٩١م.

٣٨ ـ البغوي، **تفسير البغوي المسمى)معالم التنزيل)**، دار طيبة، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ.

٣٩ ـ ناصر الدين البيضاوي، **تفسير البيضاوي المسمى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)**، دار الفكر للطباعة والنشر، ط ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

٤٠ ـ حسن الترابي، **التفسير التوحيدي**، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.

٤١ ـ علاء الدين علي بن محمد البغدادي، **تفسير الخازن المسمى (لباب التأويل في معاني التنزيل)**، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٢ ـ الإمام فخر الدين الرازي، **تفسير الرازي**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

٤٣ ـ الشيخ عبد الرحمن السعدي، صححه وحققه محمد زهدي النجار، **تفسير السعدي، تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، الدمام: دار ابن الجوزي، ط٤، ١٤٣٥هـ.

٤٤ ـ عبد الله شحاته، **تفسير القرآن**، دار غريب، مصر، طبعة ٢٠٠٠م.

٤٥ ـ أبو عبد الله القرطبي، **تفسير القرطبي**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٩٦٥م.

٤٦ ـ أبو الحسن علي بن حبيب الماوردي، **تفسير الماوردي، النكت والعيون**، وزارة الشؤون الإسلامية والتراث، الكويت.

٤٧ ـ محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، القاهرة، ١٩٧٥م.

٤٨ ـ وهبة الزحيلي، **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

٤٩ ـ **التفسير الموضوعي مجموعة باحثين**، إشراف د. مصطفى مسلم، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي بجامعة الشارقة، الإمارات، طبعة ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.

٥٠ ـ محمد راتب النابلسي، **تفسير النابلسي**، مؤسسة الفرسان، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م.

٥١ ـ الإمام النسفي، **تفسير النسفي المسمى (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)**، دار الكتاب العربي، بيروت.

٥٢ ـ سيد طنطاوي، **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

٥٣ ـ أحمد نوفل، **تفسير سورة هود**، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ ـ ٢٠١٨م.

٥٤ ـ أحمد نوفل، **تفسير سورة يونس**، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٤٠ه، ٢٠١٩م.

٥٥ ـ أورانج كاي، ترجمة عبد الرؤوف شلبي، **التفكير الديني في العالم قبل الإسلام**، دار الثقافة، الدوحة، قطر.

٥٦ ـ عباس محمود العقاد، **التفكير فريضة إسلامية**، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، صيدا، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.

٥٧ ـ أحمد فريد، **التقوى الغاية المنشودة**، دار الهيعي، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

٥٨ ـ أحمد خليل جمعة، **التقوى**، دار اليمامة، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

٥٩ ـ رجاء بنت صالح بن محمد البحر، **تنوع خطاب القرآن الكريم في العهد المكي دراسة للأسلوب والموضوع**، مكتبة المتنبي، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٦م، السعودية.

٦٠ ـ آمال بنت صالح نصير، **التوبة في ضوء القرآن الكريم**، دار الأندلس الخضراء، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٦١ ـ أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح** ابن تيمية.

٦٢ ـ عبد الوهاب عبد الرزاق الراوي، **حديث القرآن العظيم**، دار العلوم، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.

٦٣ ـ أبو الأعلى المودودي، **الحضارة الإسلامية أسسها ومبادئها**، دار الأنصار، القاهرة، بدون تاريخ.

٦٤ ـ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، **الحق الواضح المبين**، مطبوع ضمن الكاملة في مؤلفات الشيخ السعدي، جزء العقيدة الإسلامية، مركز صالح بن صالح الثقافي، عنيزة، السعودية، طبعة ١٤١١ه، ١٩٩٠م.

٦٥ ـ محمد أحمد سعيد الأطرش، **حقيقة التقوى**، دار الإيمان، الإسكندرية.

٦٦ ـ صفاء مُوزة، **حماية البيئة الطبيعية**، دار النوادر، لبنان، سوريا، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.

٦٧ ـ فضل حسن عباس، **خماسيات مختارة في تهذيب النفس الأمارة**، دار الفرقان، الأردن، الطبعة الرابعة، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

٦٨ ـ الإمام السيوطي، **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، الناشر محمد أمين دمج، بيروت، لبنان.

٦٩ ـ أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، **درء تعارض العقل والنقل** لابن تيمية، تحقيق د محمد رشاد سالم، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ.

٧٠ ـ محمد بيومي مهران، **دراسات تاريخية في القرآن الكريم**، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٧١ ـ محمد قطب، **دراسات قرآنية**، دار الشروق، ط٥، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٧٢ ـ عبد الهادي بن سعد الشمراني، **الدُّروس المستفادة من العقوبات الإلهية في القرآن الكريم**، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦.

٧٣ ـ محمد محمود أحمد، موسى الخطيب، **دعاء الأنبياء والرُّسُل**، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.

٧٤ ـ محمد إبراهيم الكتاني، **الدعوة إلى استقلال الفكر في الإسلام**، مكتبة نظام يعقوبي الخاصة، البحرين، دار الحديث الكتانية، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م.

٧٥ ـ عبد الرحمن حللي، **رسالات الأنبياء دين واحد وشرائع عدة**، مركز نماء للبحوث والدراسات، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٥م.

٧٦ ـ عمر أحمد عمر، **رسالة الأنبياء**، دار الحكمة، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، ١٤١٨هـ.

٧٧ ـ عبد العزيز الحميدي، **الرسائل الشمولية**، دار عيون المعرفة، دار الدعوة، الإسكندرية.

٧٨ ـ أبو الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم السبع المثاني**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.

٧٩ ـ عبد الله محمد الأمين، **الرؤيا الإسلامية والمسألة الحضارية**، كتاب الأمة، العدد (١٥٣) السنة الثالثة والثلاثون، طبعة ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٢م.

٨٠ ـ محمد قطب، **رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر**، دار الوطن، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

٨١ ـ الإمام أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي، **زاد المسير في علم التفسير**، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٨٢ ـ **زاد المعاد في هدي خير العباد**، لابن القيِّم الجوزيَّة، تحقيق شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثامنة والعشرون، ١٤١٥هـ.

٨٣ ـ محمد أبو زهرة، **زهرة التفاسير أبو زهرة**، دار الفكر العربي، القاهرة، دون تاريخ.

٨٤ ـ **سفر التَّكوين**، الإصحاح التاسع.

٨٥ ـ عثمان نوري طوباش، **سلسلة الأنبياء**، ترجمة د. وسيم إبراهيم بكراكي، اسطنبول، طبعة ٢٠١٦م.

٨٦ ـ الألباني، **السلسلة الصحيحة**، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٨٧ ـ رمضان خميس، سنة الله في القلة والكثرة في ضوء القرآن، دار المقاصد، القاهرة، طبعة ٢٠١٤هـ.

٨٨ ـ رمضان خميس، **سنة الله في إهلاك الأمم**، دار المقاصد، طبعة ٢٠١٤م، القاهرة.

٨٩ ـ سليمان بن الأشعث السجستاني، **سُنَن أبي داود**، عزة الدعاس، ط١، ١٣٨٨ه، دار الحديث، حمص، سوريا.

٩٠ ـ محمد أمحزون، **السنن الاجتماعية**، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م.

٩١ ـ مجدي محمد عاشور، **السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم أصول وضوابط**، دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

٩٢ ـ شريف الخطيب، **السنن الإلهية في الحياة الإنسانية**، مكتبة الرشد، الدار العثمانية، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

٩٣ ـ عبد الحميد طهماز، **السنن الإلهية في الخلق**، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

٩٤ ـ جمال نصار، **السنن الإلهية ودورها في البناء الحضاري للأمة**، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م، اسطنبول، دار الأصول العلمية.

٩٥ ـ أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، **سُنَن الترمذي المسمى)الجامع الصحيح(**، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار عمران، بيروت.

٩٦ ـ محمد هيثور، **سُنَن القرآن في قيام الحضارات**، دار الوفاء، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

٩٧ ـ علي محمد الصلابي، **السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث**، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية عشر، ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م.

٩٨ ـ هدى عبد اللطيف عريان، **الشخصية النسائية في القصة القرآنية**، دار غار حراء، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٩٩ ـ محمد مصطفى الزحيلي، **شرعة الله للأنبياء**، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م.

١٠٠ ـ أبو بكر محمد زكريا، **الشِّرْك في القديم والحديث**، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

١٠١ ـ علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

١٠٢ ـ أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي السَّلَفي الأثري، **صحيح الأنباء المسند من صحيح الأنبياء**، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

١٠٣ ـ حامد البسيوني، **صحيح قصص القرآن**، القاهرة، دار الحديث، القاهرة، دار البصائر، الجزائر، طبعة ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

١٠٤ ـ عادل صالح أبو العلا، **الصراع بَينَ الحق والباطل كما جاء في سورة الأعراف**، رسالة دكتوراة جامعة أم القرى، ١٤١٦ه.

١٠٥ ـ محمد علي الصابوني، **صفوة التفاسير**.

١٠٦ ـ الصواعق المُرسَلة **لابن القيم، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ**.

١٠٧ ـ أحمد محمد نباتي، **عبودية الكائنات لرب العالمين**، فريد إسماعيل التوني، دار القمة، دار الإيمان، الطبعة الأولى لدار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٨م.

١٠٨ ـ أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، **العبودية لابن تيمية**، دار المدني للطباعة والنشر، جدة، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

١٠٩ ـ محمد عمر الرازي، **عصمة الأنبياء**، ط١، ١٤٠١ه، دار الكتب العلمية، بيروت.

١١٠ ـ سعاد ميبر، **عقيدة التوحيد**.

١١١ ـ عبد الرزاق أدهم جميلي، **العقيدة في القرآن الكريم أولو العزم من الرُّسُل**، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ ـ ٢٠١٥م، دار السواقي العلمية، عمان، الأردن.

١١٢ ـ فاضل السامرائي، **على طريق التفسير البياني**، دار الفكر، عمان، الأردن، طبعة ٢٠١٠م.

١١٣ ـ عثمان الخميس، **فبهداهم اقتده، قراءة تأصيلية في سير وقصص الأنبياء عليهم السلام**، دار إيلاف الدولية، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.

١١٤ ـ تقديم محمد عبد الرزاق حمزة، **الفتاوى الحموية**، لابن تيمية، طبعة مطبعة المدني، القاهرة، مصر، ١٤٠٣هـ.

١١٥ ـ **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

١١٦ ـ محمد علي الشوكاني، **فتح القدير في الجمع بَينَ فني التفسير**، دار الفكر، بيروت، نشر وتوزيع المكتبة التجارية بمكة المكرمة.

١١٧ ـ أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، **الفرقان بَينَ أولياء الرحمن وأولياء الشَّيطان**.

١١٨ ـ تحقيق محمد إبراهيم نصر، عبد الرحمن عميرة، **الفصل في الملل والأهواء والنحل** لابن حزم، ١٤٠٥ه، دار الجيل، بيروت.

١١٩ ـ وفاء محمد سعيد طيب، **فقه السنن الإلهية**، دار الأمة، جدة، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٦م.

١٢٠ ـ علي محمد محمد الصلابي، **فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم**، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

١٢١ ـ عبد اللطيف شرارة، **الفكر التاريخي في الإسلام**، دار الأندلس، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م.

١٢٢ ـ عباس محمود العقاد، **فلسفة القرآن**، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٦٩هـ ـ ١٩٤٧م.

١٢٣ ـ عبود الراضي، **في رحاب قصص الأنبياء والرُّسُل**، الطبعة ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٧م، دار الكتب العلمية، العراق، بغداد، شارع المتنبي.

١٢٤ ـ السيد عبد المقصود عسكر، **في صحبة الرُّسُل الكرام**، دار البشير، طنطا، مصر، طبعة ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

١٢٥ ـ سيد قطب، **في ظلال القرآن**، الطبعة الشرعية الثامنة والعشرون، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

١٢٦ ـ عبد الستار المرسومي، **الفئات المليحة للأمثال الصريحة في القرآن الكريم**، دار المعراج، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٦م، دمشق.

١٢٧ ـ محمد أبو زهرة، **القرآن**، دار الفكر العربي، القاهرة.

١٢٨ ـ وهبة الزحيلي، **القصة القرآنية هداية وبيان**، دار الخير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

١٢٩ ـ عمر إيمان أبو بكر، **قصة نوح عليه السَّلامُ**، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠١٧م.

١٣٠ ـ الإمام الأكبر عبد الحليم محمود، **قصص الأنبياء في رحاب الكون**، دار الرشاد للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.

١٣١ ـ الشيخ القاضي محمد دالي بلطة، **قصص الأنبياء**، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

١٣٢ ـ عبد الوهاب النجار، **قصص الأنبياء**، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

١٣٣ ـ محمد متولي شعراوي، **قصص الأنبياء**، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.

١٣٤ ـ مصطفى العدوي، **قصص الأنبياء**، مكتبة مكة، طنطا، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م.

١٣٥ ـ عمر الأشقر، **قصص التوراة والإنجيل**، دار النفائس، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م.

١٣٦ ـ فضل حسن عباس، **قصص القرآن الكريم**.

١٣٧ ـ صلاح الخالدي، **القصص القرآني**، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

١٣٨ ـ عماد زهير حافظ، **القصص القرآني**، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

١٣٩ ـ أبو بكر الجزائري، **قصص المُرسَلين في كلام رب العالمين**، مكتبة الملك فهد، المدينة المنورة، ١٤٢٠هـ.

١٤٠ ـ هشام محمد مياركي، **قضية الطُّوفان بَينَ الأسطورة والدين**، شركة دار الأكاديميون للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٦م.

١٤١ ـ منصور بن راشد التميمي، **القمة في ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة**، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م.

١٤٢ ـ جمع وتخريج سليمان بن عبد الله بن حمود أبا الخيل، خالد بن علي بن محمد المشيقح، **القول المفيد على كتاب التوحيد شرح محمد بن صالح العثيمين**، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

١٤٣ ـ تقي الدين أبي العباس أحمد بن تيمية، **كتاب النُّبوَّات**، دار أصول السَّلَف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

١٤٤ ـ جار الله محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف للزمخشري**، دار أفنان، طهران.

١٤٥ ـ محمد قطب، **كيف نكتب التاريخ**، دار الوطن، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

١٤٦ ـ محمد مكرم بن منظور، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت.

١٤٧ ـ محمد علي البار، **الله والأنبياء في التوراة والعهد القديم**، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م.

١٤٨ ـ ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، طبعة دار عالم الكتب، الرياض، ١٤١٢هـ.

١٤٩ ـ محمد جمال الدين القاسمي، **محاسن التأويل للقاسمي**، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

١٥٠ ـ محمد العزالي، **المحاور الخمسة للقرآن**، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

١٥١ ـ **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** لأبي محمد عبد الحق بن عطية، طبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني حاكم قطر، الدوحة، الطبعة الأولى، رمضان، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

١٥٢ ـ الظاهر أحمد الزاوي، **مختار القاموس**.

١٥٣ ـ عقيل حسين عقيل، **مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى**، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.

١٥٤ ـ ابن قيم الجوزية، **مدارج السالكين بَينَ منازل إياك نعبد وإياك نستعين** تحقيق محمد حامد الفضي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ.

١٥٥ ـ أحمد الشرقاوي، **المرأة في القصص القرآني**، دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.

١٥٦ ـ الإمام أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، نشر مكتبة المطبوعات الإسلامية ـ ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م.

١٥٧ ـ مسلم: **صحيح مسلم**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٧٢م.

١٥٨ ـ **المسلمون والعصر**، **كتاب العصر**، العدد (١٤).

١٥٩ ـ أحمد بن حنبل، **المسند**، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان.

١٦٠ ـ محمد أبو فارس، **مع الأنبياء في الدعوة إلى الله**، عمان، الأردن، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م.

١٦١ ـ عفيف طبارة، **مع الأنبياء في القرآن الكريم**، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

١٦٢ ـ عبد الوهاب بن لطف الديلمي، **معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم**، مكتبة الإرشاد، صنعاء، اليمن، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

١٦٣ ـ ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، دار صادر ودار بيروت، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

١٦٤ ـ مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، الطبعة السادسة.

١٦٥ ـ الراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، تحقيق صفوان عدنان داودي، دار العلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

١٦٦ ـ أحمد الكبيسي، **من أنباء القرى**، برنامج أحسن القصص، الإعداد للنشر والمداخلات، فاطمة محمد ستون، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

١٦٧ ـ محمد سعيد رمضان، **من روائع القرآن ـ تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عزَّ وجلَّ**، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م.

١٦٨ ـ مصطفى السباعي، **من روائع حضارتنا**، دار القرآن، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

١٦٩ ـ محمد سرور بن نايف زين العابدين، **منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله**، دار الأرقم، الكويت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م.

١٧٠ ـ محمد قطب، **منهج التربية الإسلامية**، دار الشروق، ط٥، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

١٧١ ـ أحمد سليمان الرقب، **منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح**، دار المأمون، الأردن، طبعة ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.

١٧٢ ـ محمد دراز، **النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن**، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض. السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

١٧٣ ـ محمد ديب الجاجي، **النسق القرآني دراسة أسلوبية**، مؤسسة علوم القرآن، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٣١ هـ ـ ٢٠١٠م.

١٧٤ ـ عبد الحميد الفراهي، **نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان**، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م.

١٧٥ ـ محمد السيد الوكيل، **نظرات في أحسن القصص**، الدار الشامية، بيروت، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

١٧٦ ـ برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

١٧٧ ـ مجد الدين أبو السعادات المبارك الجزري، **النهاية لابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر**، تحقيق محمود محمد الطناجي، طاهر الزاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى.

١٧٨ ـ عقيل حسين عقيل، **نوح عليه السَّلامُ من وحي القرآن**، دار ابن كثير، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م.

١٧٩ ـ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **نوح وقومه في القرآن المجيد**، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

١٨٠ ـ ابن القيِّم الجوزيَّة، **نونية ابن القيم الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية**.

١٨١ ـ عبد العزيز ناصر الجليل، **وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم**، دار طيبة، السعودية، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

١٨٢ ـ عبد العزيز ناصر الجليل، **ولله الأسماء الحسنى**، دار طيبة، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

١٨٣ ـ علي محمد محمد الصلابي، **المسيح عيسى ابن مريم عليه السَّلامُ ـ الحقيقة الكاملة ـ**، دار ابن كثير، بيروت، لبنان، ١٤٤٠هـ ـ ٢٠١٩م.

* * *

الفهرس

إهداء ٤
تقديم ٥
مقدمة ١٥

المبحث الأول

ما قبل نوح عليه السَّلامُ

أولًا: المُدَّة بَينَ آدم ونوح عليهما السلام ٣٥
ثانياً: ليس بَينَ آدم ونوح رسول والأدلة على ذلك في الآثار والأقوال ٣٩
١ ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ ٣٩
٢ ـ قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ﴾ ٤٠
٣ ـ إن الله سرد قصص عدد من الرُّسُل في سورة مريم ٤٢
٤ ـ ما أخرجه ابن حبان في صحيحه ٤٤
٥ ـ قول أهل الموقف ـ يوم القيامة ٤٤
٦ ـ إنَّ ابن كثير ـ وهو ممن قدَّم إدريس على نوح في البداية والنهاية ٤٤
٧ ـ إنَّ ابن كثير مع تقديمه إدريس في الترجمة على نوح ٤٥
٨ ـ في صحيح البخاري من حديث أنس رضي الله عنه ٤٥

ثالثاً: الأصل في الإنسان التوحيد وأدلة ذلك ٤٦
١ ـ إنَّ الإنسان الأول هو آدم عليه السَّلامُ كانَ نبيّاً يعبد الله ٤٦
٢ ـ بَينَ الله سبحانه أن البشرية كانت في أوَّل أمرها على التوحيد ٤٦
٣ ـ أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه أنَّ الفطرة التي فُطرت عليها البشرية
كلها هي فطرة الإسلام التي هي التوحيد الخالص ٤٨
٤ ـ بيَّن الله في كتابه أنَّ التوحيد هو أصل دعوة الرُّسُل، وإليه دعوا
أقوامهم ٥٦
رابعاً: علماء الآثار والباحثون في الأديان وأصل التوحيد ٥٨
خامساً: أوَّل شرك وقع في بني آدم ٦١
سادساً: القرآن الكريم مصدر تاريخي ٦٦
١ ـ معلومات هامة عن عصور ما قبل الإسلام ٦٩
٢ ـ هدف القرآن من قَصَصِه ومصداقيَّتُه الفريدة ٧٢

المبحث الثاني

دعوة نوح عليه السَّلامُ

أولًا: النبي والرسول في اللغة والاصطلاح ٧٥
١ ـ النبي لغة واصطلاحاً ٧٥
٢ ـ الرَّسول في اللغة والاصطلاح ٧٦
أ ـ الرَّسول في اللغة ٧٦
ب ـ الرَّسول في الاصطلاح ٧٧
٣ ـ حقيقة النُّبوَّة ٧٨
٤ ـ الحكمة من بعث الرُّسُل ٨١
أ ـ الأنبياء والرُّسُل هم صفوة الخلق، ومصطفو الحقّ، وحاجة الخلق
إليهم ماسّة ٨١
ب ـ إنَّ الغاية العظمى التي أوجد الله الخلق لأجلها هي عبادته،
وتوحيده، وفعل مَحابّه، واجتناب مَساخطه ٨١

ج ـ إقامة الحُجَّة على البشر بإرسال الرُّسُل ٨٢
د ـ إنَّ النَّاس لا يدركون بعقولهم كثيراً من الغائبات ، فهم بحاجة لمن
يعلمهم ذلك ٨٢
هـ ـ الخلق بحاجة إلى القدوة الحسنة ، ممن كمّلهم الله بالأخلاق
الفاضلة ، وعصمهم من الشبهات والشهوات النازلة ٨٣
و ـ الرُّسُل عليهم السلام جاؤوا لإصلاح النفوس ، وتزكيتها ،
وتطهيرها ، وتحذيرها من كلّ ما يُرديها ٨٣
٥ ـ وظائف الرُّسُل ٨٦
أ ـ دعوة النَّاس إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة ما سواه ٨٦
ب ـ تبليغ الشريعة الرَّبانيَّة إلى النَّاس ٨٦
ج ـ تبيين ما أنزل من الدين ٨٧
د ـ دلالة الأمة على الخير ، وتبشيرهم بالثواب المعدّ إن فعلوه ،
وتحذيرهم من الشر وإنذارهم بالعقاب المعدّ إن اقترفوه ٨٧
هـ ـ إصلاح النَّاس بالقدوة الطيبة ، والأسوة الحسنة في الأقوال
والأعمال ٨٧
و ـ إقامة شرع الله بَينَ العباد وتطبيقه ٨٧
ز ـ شهادة الرُّسُل على أممهم يوم القيامة بأنهم قد بلَّغوهم البلاغ
المبين ٨٧
٦ ـ أمور تفرَّد بها الأنبياء ٨٨
أ ـ الوحي ٨٨
ب ـ الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم ٨٨
ج ـ الأنبياء لا يورِّثون ٨٩
د ـ تخيير الإنسان عند الموت ٩٠
هـ ـ لا تأكل الأرض أجسادهم ٩١

و ـ العصمة ٩١
٧ ـ الإيمان بالأنبياء والمُرسَلين ٩٢
٨ ـ نوح عليه السَّلامُ من أولي العزم ٩٣
٩ ـ نوح عليه السَّلامُ أوّلُ الرُّسُل إلى أهل الأرض ٩٥
١٠ ـ نوح عليه السَّلامُ الأب الثاني للبشر ٩٦
١١ ـ نوح عليه السَّلامُ أبو الأنبياء والمُرسَلين ٩٨
١٢ ـ نوح عليه السَّلامُ، نسبه وسبب تسميته وأولاده ٩٩
١٣ ـ نوح عليه السَّلامُ كثير الشكر لربِّه في نعمائه ١٠١
١٤ ـ عمر نوح الذي عاشه في الدُّنيا ١٠٢
ثانياً: مضمون دعوة نوح عليه السَّلامُ ١٠٥
١ ـ توحيد الله في رسالة نوح عليه السَّلامُ ١٠٦
٢ ـ قيام نوح عليه السَّلامُ بدعوة قومه إلى عبودية الله تعالى وتحقيق
العبودية في نفسه ١١٥
أ ـ وصفه بالعبودية ١١٨
ب ـ قيامه بالعبودية ١٢٠
٣ ـ أكمل العباد تحقيقاً للعبودية ١٢٢
٤ ـ دعوة نوح عليه السَّلامُ قومه إلى تقوى الله عزَّ وجلَّ ١٢٥
أ ـ مراحل التَّقوَى ١٢٨
ب ـ تعريفات التَّقوَى ١٢٨
ج ـ الفرق بَينَ العبادة والتَّقوَى ١٢٩
د ـ كتاب الله يُبيِّن أوصاف المُتَّقين ١٣٢
* الصفة الأولى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ ١٣٢
* الصفة الثانية: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ١٣٣
* الصفة الثالثة: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ ١٣٤

* الصفة الرابعة : ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ ١٣٤
* الصفة الخامسة : ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ ١٣٥
٥ ـ تفسير بعض الآيات من سورة نوح عليه السَّلامُ ١٣٦
أ ـ تكليف نوح بتبليغ رسالته ١٣٦
ب ـ قيام نوح برسالته ١٣٨
٦ ـ الإسلام دين نوح عليه السَّلامُ والرُّسُل جميعاً ١٤١
٧ ـ اتحاد الدين وتعدد الشرائع ١٤٤
٨ ـ الأنبياء إخوة لِعَلَّاتٍ، أُمَّهاتهم شتَّى ودينهم واحد وشريعة الإسلام خاتمة الرسالات ١٤٨

المبحث الثالث

مواقف قوم نوح عليه السَّلامُ من دعوته

أولًا : مواقف قوم نوح من دعوته في سورة هود ١٥٥
١ ـ شبهات الملأ من قوم نوح على دعوته ١٥٦
٢ ـ جواب نوح عليه السَّلامُ على اعتراضات الملأ من قومه ١٦٣
٣ ـ عجز قوم نوح عن الردود العقلية والمنطقية التي احتجَّ بها نوح عليه السَّلامُ ١٧٧
ثانياً : موقف الملأ من قوم نوح من دعوته في سورة الأعراف ١٨٠
١ ـ ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ ١٨١
٢ ـ ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ ١٨١
٣ ـ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ ١٨٢
٤ ـ ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ ١٨٣
٥ ـ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ ١٨٤

٦ ـ ﴿ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ١٨٥
٧ ـ ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ ١٨٩
ثالثاً: موقف الملأ في «سورة المؤمنون» ١٩٠
١ ـ ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ ١٩٠
٢ ـ ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ١٩١
٣ ـ ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ١٩٢
٤ ـ ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ ١٩٩
رابعاً: موقف الملأ من قوم نوح من دعوته في سورة الشعراء ٢٠٠
١ ـ ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ ٢٠١
٢ ـ ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ٢٠١
٣ ـ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ٢٠٣
٤ ـ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ٢٠٣
٥ ـ ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ ٢٠٤
٦ ـ ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٢٠٤
٧ ـ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ٢٠٥
٨ ـ ﴿ ۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ ٢٠٥
٩ ـ ﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ٢٠٥
١٠ ـ ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ٢٠٨

١١ ـ ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ ٢٠٩
١٢ ـ ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾ ٢١٠
١٣ ـ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ﴾ ٢١٠
خامساً: نوح التَّحدِّي الأكبر ٢١١
١ ـ ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ﴾ ٢١٢
٢ ـ ﴿ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ٢١٢
٣ ـ ﴿ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ ٢١٣
٤ ـ ﴿ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ ٢١٣
٥ ـ ﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ ٢١٣
٦ ـ ﴿ ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ﴾ ٢١٣
٧ ـ ﴿ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ ٢١٤
٨ ـ ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ
ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ٢١٤
٩ ـ ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ ٢١٥
١٠ ـ ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ ٢١٥
١١ ـ ﴿ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ ٢١٥
سادساً: صفات قوم نوح عليه السَّلامُ ٢١٦
١ ـ ﴿ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ ٢١٦
٢ ـ الظُّلم ٢١٧
٣ ـ قوم سوء ٢١٩
٤ ـ الكفر والكذب ٢٢٠
٥ ـ فاسقون ٢٢٠
٦ ـ الطُّغيان ٢٢١

سابعاً: معوقات قبول دعوة نوح عليه السَّلامُ ٢٢٢
١ ـ المعوّق الأول : الكِبر ٢٢٢
٢ ـ المعوّق الثاني : العناد ٢٢٤
٣ ـ المعوّق الثالث : التَّقليد الأعمى ٢٢٥
٤ ـ المعوّق الرابع : الوثنيَّة ٢٢٨
٥ ـ المعوق الخامس : الملأ ٢٢٩

المبحث الرابع

بيان نوح لربِّه تُجاهَ قومه وشكواه من معصيتهم له ودعاؤه عليهم في سورة نوح

أولًا: بيان نوح لربِّه وما قام به تُجاهَ قومه ٢٣٥
١ ـ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا﴾ ٢٣٥
٢ ـ ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ
وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ ٢٣٦
٣ ـ ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ ٢٣٨
ثانياً: ترغيب نوح عليه السَّلامُ قومه وحثهم على الاستغفار ٢٤١
١ ـ ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ ٢٤٢
٢ ـ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ ٢٤٥
٣ ـ ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ ٢٤٧
٤ ـ ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ ٢٤٨
٥ ـ ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ ٢٤٩
ثالثاً: دعوة نوح عليه السَّلامُ قومَهُ إلى التَّفكُّر في آيات الله في الأنفس
والسَّموات والأرض وما فيهن ٢٥١
١ ـ ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ ٢٥١
٢ ـ ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ ٢٥٥
٣ ـ ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ ٢٥٦

٤ ـ ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴾ ٢٥٨
٥ ـ ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ﴾ ٢٥٩
رابعاً: شكوى نوح عليه السَّلامُ من معصية قومه له ودعاؤه عليهم ٢٦١
١ ـ ﴿ قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي ﴾ ٢٦٢
٢ ـ ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ﴾ ٢٦٢
٣ ـ ﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ﴾ ٢٦٢
٤ ـ ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣
وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا ﴾ ٢٦٣
٥ ـ ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ﴾ . . . ٢٦٥
٦ ـ ﴿ وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ ٢٦٥
٧ ـ ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ﴾ ٢٦٦
٨ ـ ﴿ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ
وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا ﴾ ٢٦٧

المبحث الخامس

سفينة نوح والطُّوفان العظيم

أولًا: أوحى الله لنوح بأن لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، وأمره ببناء
الفلك ٢٧١
١ ـ ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ ﴾ ٢٧١
٢ ـ ﴿ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ ٢٧١
٣ ـ ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا ﴾ ٢٧٢
٤ ـ ﴿ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾ ٢٧٤
٥ ـ ﴿ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ
مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ
وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴾ ٢٧٨

ثانياً: ركوب سفينة النجاة ٢٨٠
١ ـ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ ٢٨٠
٢ ـ ﴿ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ ٢٨٢
٣ ـ ﴿ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ﴾ ٢٨٤
٤ ـ ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ ٢٨٥
ثالثاً: طريقة إغراق الأرض بالماء وحدوث الطُّوفان ٢٩٠
١ ـ ﴿ ۞كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ﴾ ٢٩٠
٢ ـ ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾ ٢٩١
٣ ـ ﴿ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ﴾ ٢٩١
٤ ـ ﴿ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾ ٢٩١
٥ ـ ﴿ فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾ ٢٩٢
٦ ـ ﴿ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ﴾ ٢٩٢
٧ ـ ﴿ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ ٢٩٣
٨ ـ ﴿ جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ ٢٩٤
٩ ـ ﴿ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ﴾ ٢٩٤
١٠ ـ ﴿ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ ٢٩٤
١١ ـ ﴿ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ ٢٩٥
رابعاً: حوار نوح مع ابنه في وسط الأهوال الكونية والنفسية ٢٩٥
١ ـ ﴿ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾ ٢٩٦
٢ ـ ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ٢٩٦
٣ ـ ﴿ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ ٢٩٨
٤ ـ ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ ٢٩٨
٥ ـ ﴿ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ ٢٩٩

خامساً: الأمر الرَّبانيّ بنهاية الطُّوفان ٣٠٠
١ ـ ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ ٣٠١
٢ ـ ﴿ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ ٣٠٣
٣ ـ ﴿ وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ ٣٠٤
٤ ـ ﴿ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ ٣٠٤
٥ ـ ﴿ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ٣٠٦
٦ ـ بلغت الآية الغايةَ في بلاغتها، واحتوت على وجوه عديدة من الإعجاز البياني ٣٠٧
سادساً: سؤال نوح عليه السَّلامُ ربه في شأن ابنه وطلبه المغفرة والرَّحمة من الله عزَّ وجلَّ ٣٠٩
١ ـ ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ﴾ ٣١٠
٢ ـ ﴿ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ ٣١٠
٣ ـ ﴿ وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾ ٣١١
٤ ـ ﴿ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ ٣١١
٥ ـ ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ ٣١١
٦ ـ ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ ٣١٢
٧ ـ ﴿ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ ٣١٣
٨ ـ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ ٣١٤
سابعاً: زوجة نوح عليه السَّلامُ الكافرة ٣١٥
١ ـ ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ﴾ ٣١٧
٢ ـ ﴿ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ﴾ ٣١٧
٣ ـ ﴿ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ ٣١٨
٤ ـ ﴿ وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ ٣١٩

٥ ـ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ٣١٩
٦ ـ ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ ٣٢٠
ثامناً: أسباب هلاك الكافرين من قوم نوح ٣٢١
١ ـ الكفر بالله عزَّ وجلَّ ٣٢١
٢ ـ الشِّرك بالله ٣٢٢
٣ ـ الظُّلم ٣٢٤
٤ ـ تكذيب الرَّسولِ الكريم نوحٍ عليه السَّلامُ ٣٢٦
٥ ـ إيذاء نوح عليه السَّلامُ بأنواع الإيذاء ودعاؤه على قومه ٣٢٩
٦ ـ استعجال العذاب ٣٣١
٧ ـ الجدال بالباطل ٣٣٢
٨ ـ الترف ٣٣٤
٩ ـ البطر ٣٣٥
١٠ ـ الاستكبار ٣٣٦
١١ ـ المكر ٣٣٨
١٢ ـ الخطايا والذُّنوب ٣٣٩
١٣ ـ الاشتغال بالدُّنيا ونسيان الآخرة ٣٤٠
١٤ ـ سنة الاستبدال ٣٤٢
١٥ ـ سُنَّةُ الأجل الجماعيِّ ٣٤٢
١٦ ـ سُنَّة الهلاك ٣٤٥
١٧ ـ سنة الخسران ٣٤٦
١٨ ـ الغفلة عن أسباب الهلاك ٣٤٦

تاسعاً: الحذر من الإسرائيليات التي شوهت قصة نوح والطُّوفان العظيم . . ٣٤٧
١ ـ افتراء بني إسرائيل على نبي الله نوح عليه السَّلامُ ٣٥٠
٢ ـ هل عمَّ طوفان نوح الكرة الأرضية؟ ٣٥١
٣ ـ اهتمام علم تاريخ الأديان بالطُّوفان ٣٥٥
٤ ـ روايات ضعيفة الإسناد ٣٥٧
٥ ـ مصير الأطفال من قوم نوح ٣٥٩

المبحث السادس

ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية

أولًا: إسهام صفات نوح عليه السَّلامُ وأخلاقه في تأسيس الحضارة الإنسانية الثانية ٣٧٢
١ ـ الإخلاص ٣٧٣
٢ ـ الصبر ٣٧٧
٣ ـ التقوى ٣٨١
٤ ـ كثرة الاستغفار وطلب الرحمة ٣٨٤
* **الشبهة الأولى**: دعاؤه على قومه بالهلاك ٣٨٤
* **الشبهة الثانية**: طلبه نجاة ولده الكافر ٣٨٥
٥ ـ الدعاء ٣٩١
٦ ـ العبودية ٣٩٢
٧ ـ العلم ٣٩٤
٨ ـ العِفّة ٣٩٥
٩ ـ الأمانة ٣٩٥
١٠ ـ الثبات ٣٩٥
١١ ـ بِرُّ الوالدين ٣٩٥

ثانياً: فقه نوح عليه السَّلامُ في التعامل مع السنن الرَّبانيَّة ٣٩٦
١ ـ سنة الله في التغيير وعلاقتها بالبناء العقدي ٣٩٨
٢ ـ سنة الله في الابتلاء ٤٠٠
٣ ـ سنة الله في الأخذ بالأسباب ٤٠٤
أ ـ في أسلوب الدعوة ٤٠٥
ب ـ اهتمامه بمن آمن معه ٤٠٥
ج ـ صناعة الفلك ٤٠٦
د ـ بذور الحضارة الإنسانية الثانية ٤٠٨
٤ ـ سنة الله في التدافع ٤٠٨
٥ ـ سنة الله في النصر والتمكين ٤١١
ثالثاً: عوامل نشوء الحضارة الإنسانية الثانية ٤١٤
١ ـ العامل العقدي ٤٢٠
٢ ـ العامل الصناعي والاقتصادي ٤٢١
٣ ـ عامل البيئة ٤٢٣
٤ ـ العامل الاجتماعي ٤٢٥
٥ ـ العامل الأخلاقي ٤٢٦
٦ ـ العامل السياسي ٤٣٢
٧ ـ عامل العمال ٤٣٤
رابعاً: تفسير الآيات التي تحدَّثت عن الجارية والفلك المشحون ٤٣٧
١ ـ قال تعالى : ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ ٤٣٧
٢ ـ قال تعالى : ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ ٤٤٢
٣ ـ قال تعالى : ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ٤٤٤

خامساً: وصية نوح ووفاته وبعض المقاصد من قصته ٤٤٧
١ ـ المقصد الأول ٤٤٩
٢ ـ المقصد الثاني ٤٤٩
٣ ـ المقصد الثالث ٤٥٠
الخلاصة ٤٥٣
المصادر والمراجع ٤٧٩
الفهرس ٤٩٧
كتب صدرت للمؤلف ٥١٣

❊ ❊ ❊

كتب صدرت للمؤلف

١ ـ السيرة النبوية : عرض وقائع وتحليل أحداث

٢ ـ سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه : شخصيته وعصره

٣ ـ سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : شخصيته وعصره

٤ ـ سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه : شخصيته وعصره

٥ ـ سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه : شخصيته وعصره

٦ ـ سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب : شخصيته وعصره

٧ ـ الدولة العثمانية : عوامل النهوض والسقوط

٨ ـ فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم

٩ ـ تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا

١٠ ـ تاريخ دولتي المرابطين والمُوحِّدِين في الشمال الإفريقي

١١ ـ عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين

١٢ ـ الوسطية في القرآن الكريم

١٣ ـ الدولة الأموية ، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار

١٤ ـ معاوية بن أبي سفيان ، شخصيته وعصره

١٥ ـ عمر بن عبد العزيز ، شخصيته وعصره

١٦ ـ خلافة عبد الله بن الزبير

١٧ ـ عصر الدولة الزنكية

١٨ ـ عماد الدين زنكي

١٩ ـ نور الدين زنكي

٢٠ ـ دولة السلاجقة

٢١ ـ الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد

٢٢ ـ الشيخ عبد القادر الجيلاني

٢٣ ـ الشيخ عمر المختار

٢٤ ـ عبد الملك بن مروان وبنوه

٢٥ ـ فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة

٢٦ ـ حقيقة الخلاف بَينَ الصحابة

٢٧ ـ وسطية القرآن الكريم في العقائد

٢٨ ـ فتنة مقتل عثمان

٢٩ ـ السلطان عبد الحميد الثاني

٣٠ ـ دولة المرابطين

٣١ ـ دولة المُوحِّدِين

٣٢ ـ صر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج

٣٣ ـ الدولة الفاطمية

٣٤ ـ حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي

٣٥ ـ صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس

٣٦ ـ استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول (ﷺ)، دروس مستفادة من الحروب الصليبية

٣٧ ـ الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء

٣٨ ـ الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين

٣٩ ـ المشروع المغولي عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار

٤٠ ـ سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك

٤١ ـ الشورى في الإسلام

٤٢ ـ الإيمان بالله جل جلاله

٤٣ ـ الإيمان باليوم الاخر

٤٤ ـ الإيمان بالقدر

٤٥ ـ الإيمان بالرُّسُل والرسالات

٤٦ ـ الإيمان بالملائكة

٤٧ ـ الإيمان بالقرآن والكتب السماوية

٤٨ ـ فاتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح

٤٩ ـ المعجزة الخالدة

٥٠ ـ الدولة الحديثة المسلمة، دعائمها ووظائفها

٥١ ـ البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة

٥٢ ـ التداول على السلطة التنفيذية

٥٣ ـ الشورى فريضة إسلامية

٥٤ ـ الحريات من القرآن الكريم، حرية التفكير وحرية التعبير، والاعتقاد

والحريات الشخصية

٥٥ ـ العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية

٥٦ ـ المواطنة والوطن في الدولة الحديثة

٥٧ ـ العدل في التصور الإسلامي

٥٨ ـ كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي

٥٩ ـ الأمير عبد القادر الجزائري

٦٠ ـ كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، سيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، الجزء الثاني

٦١ ـ سُنة الله في الأخذ بالأسباب

٦٢ ـ كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي

٦٣ ـ أعلام التصوف السُّني «ثمانية أجزاء»

٦٤ ـ المشروع الوطني للسلام والمصالحة

٦٥ ـ الجمهورية الطرابلسية (١٩١٨ ـ ١٩٢٢) أوَّل جمهورية في تاريخ المسلمين المعاصر

٦٦ ـ الإباضية: مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج

٦٧ ـ المسيح عيسى ابن مريم عليه السَّلامُ، الحقيقة الكاملة

٦٨ ـ نوح عليه السَّلامُ والطُّوفان العظيم ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية

❊ ❊ ❊

د. علي محمَّد محمَّد الصَّلاَّبي

مفكر ومؤرخ وفقيه

* ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٣م.

* نال درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام ١٩٩٣م، وبالترتيب الأول.

* حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة أم درمان الإسلامية عام ١٩٩٦م.

* نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بأطروحته فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام ١٩٩٩م.

* اشتهر بمؤلفاته واهتماماته في علوم القرآن الكريم والفقه والتاريخ والفكر الإسلامي.

ـ زادت مؤلفات الدكتور الصلابي عن ستين مؤلفًا أبرزها:

*السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث.

* سير الخلفاء الراشدين.

* الدولة الحديثة المسلمة.

* الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط.

* فاتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح.

❊ وسطية القرآن الكريم في العقائد .

❊ صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي .

❊ تاريخ كفاح الشعب الجزائري .

❊ العدالة والمصالحة الوطنية .

❊ الإباضية : مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج .

❊ المسيح عيسى ابن مريم عليه السَّلامُ الحقيقة الكاملة .

❊ نوح عليه السَّلامُ والطُّوفان العظيم ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية .

❊ ❊ ❊